تهذيب التفسير

وتجريد التأويل

مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

تأليف

عبد القادر شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الثاني

يوزع مجاناً ولا يباع

شبكة الألوكة

www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ربنا تقبل منا

إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلعَلِيمُ

يوزع مجاناً ولا يباع

ح عبد القادر شيبة الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط2..- الرياض،1432هـ
٦مج.

ردمك٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٦ -٧٧٥٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٢)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٦-٧٧٥٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٢)

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلمُؤَلِّفِ

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠ فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ ص.ب ١٣٢٧٧ موبايل: ٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩ بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة

تهذيب التفسير وتجريد التأويل

مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

عبد القادر شيبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية سابقاً
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الألوكة www.alukah.net
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال تعالى: ﴿وأتمّوا الحجّ والعمرة لله، فإن أحصرتم فما استيسر من الهدْي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدْيُ محِلّه، فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك، فإذا أمنتم فمن تمتّع بالعُمرة إلى الحج فما استيسر من الهدْي، فمَنْ لم يجد فصيام ثلاثة أيّام في الحج وسبعة إذا رجعتم، تلك عشرةٌ كاملة، ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، واتّقوا الله واعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أحكام الصيام وهو ركن من أركان الإسلام ثم بين بعض أحكام الجهاد في سبيل الله شرع هنا يذكر بعض أحكام الحج للصلة الوثيقة والرابطة القوية بين الحج والجهاد حتى وصف رسول الله ﷺ حجّ النساء أو عمرتهن بأنّ ذلك جهاد، فقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «لَكُنّ أفضل الجهاد حج مبرور». ووصفه بأنه جهاد لا قتال فيه كما روى أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، على النّساء جهاد؟ قال: «نعم، عليهن جهادٌ لا قتال فيه: الحجّ والعمرة» كما رتّب رسول الله ﷺ أفضل الأعمال فذكر الحجّ بعد الجهاد فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أيّ العمل أفضل؟ فقال: «إيمانٌ بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل ثم ماذا؟ قال: «حجٌّ مبرور». وقوله عز وجل: ﴿وأَتموا الحج والعمرة لله﴾ هو أمر من الله عز وجل بإتمام الحج والعمرة وإخلاص عملهما لله عز وجل، وقد تقدم في تفسير قوله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر﴾ الآية تفسير الحج والعمرة وتعريفهما، ولا نزاع عند أهل العلم أن قوله تبارك

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

وتعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ الآية. نزلت في السنة السادسة من الهجرة بعد شروع النبي ﷺ في العمرة عام الحديبية لما صده المشركون ومنعوه من الوصول إلى البيت الحرام فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة وأمر فيها بإتمام الحج والعمرة وبين حكم المُحْصَرِ الذي تعذر عليه الإتمام، ولذلك لما تم صلح الحديبية كان في شروط الصلح أن يعتمر رسول الله ﷺ في العام القابل، وسميت العمرة التي اعتمرها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة سبع عمرة القضاء. وظاهر القرآن العظيم يدل على أن الحج إنما فرض بقوله عز وجل: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ وقد نزلت هذه الآية الكريمة سنة تسع من الهجرة على الصحيح، وأن الحج لم يفرض إلا في السنة التاسعة بهذه الآية الكريمة، ولم يرد في صريح القرآن ولا صحيح السنة وجوب العمرة ابتداء، وإنما أوجب الله تبارك وتعالى بقوله عز وجل: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ إتمام الحج وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما، وسائر الأحاديث الصحيحة ليس فيها إلا إيجاب الحج وأنه أحد أركان الإسلام الخمسة، وأكثر أهل العلم على أن المتطوع بالصلاة أو الصيام هو أمير نفسه، كما جاء في حديث أم هانئ عند أحمد والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر» وقد جاء كذلك ما يؤيده عن أنس مع أبي طلحة رضي الله عنه في قصة أكله من البرد وقد كان متطوعا بالصيام. فلو شرع في صيام تطوعا أو في صلاة تطوعا ثم بدا له أن لا يتم هذه النافلة فله ذلك ولا قضاء عليه، لكن أجمع أهل العلم على أن من شرع في الحج أو العمرة متطوعا وجب عليه إتمام ما شرع فيه وليس له رفضه بحال. فلو أفسده وجب عليه قضاؤه مع ما يلزمه من الفدية، ولا شك أن ذلك الإجماع مستنده قوله عز وجل هنا: ﴿وأتمّوا الحج والعمرة لله﴾ ولم يرد في القرآن ذكر العمرة إلا مقرونة بذكر الحج كقوله

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تبارك وتعالى: ﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ وكما قال هنا: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ والمراد بإتمام الحج والعمرة وجوب المضي فيهما وإكمال أركانهما وشروطهما وسائر حقوقهما من غير إخلال بشيء منهما ابتغاء وجه الله عز وجل، مع الابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال، وقد بشر رسول الله ﷺ من حج لله وصان حجّه من الرفث والفسوق بالجنة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حجّ لله فلم يرفُث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». كما أخبر ﷺ أن العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وقوله عز وجل: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى﴾ أي فإن مُنِعْتُم أيها المُحْرِمون بالحج أو بالعمرة من الوصول إلى البيت الحرام لإتمام حجكم أو عمرتكم بسبب عدو أو مرض أو غيرهما من الحوائل التي تحول بينكم وبين المضي في نسككم فانحروا أو اذبحوا ما تيَسَّرَ لكم من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم والماعز، وقد بَيَّنَ رسول الله ﷺ أن البدَنَةَ تُجْزِئُ عن سبعة وأن البقرة تجزئ عن سبعة وأن الشاة تجزئ عن واحد، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق أبي جمرة أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن الهدي، فقال: فيها جَزُور أو بقرة أو شاة اهـ يريد أن الجَزُور والبقرة تجزئ كل واحدة منهما عن سبعة، كما روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البَدَنة عن سبعة والبقرة عن سبعة. وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُحْصِرَ رسولُ الله ﷺ فحلق رأسه وجامع نساءه ونحر هديه حتى اعتمر عاما قابلا. كما روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خرجنا مع النبي ﷺ فحال

كفار قريش دون البيت فنحر النبي ﷺ هداياه وحلق وقصّر أصحابه. وقوله عز وجل: ﴿ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهَدْيُ محلّه﴾ أصل مَحِلّ الهدي الموضع الذي يحلّ فيه ذبحه وهو البيت العتيق كما قال عز وجل: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ وليس المرادُ من البيت العتيق عَيْنَ المسجد الحرام لأنه مَصُون عن الدماء والأقذار، وقد بين رسول الله ﷺ المقصود بذلك فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحرت هاهُنا ومِنى كلّها مَنْحَر فانحروا في رحالكم». الحديث. وقال أبو داود في سننه: حدثنا الحسن بن علي ثنا أبو أسامة عن أسامة بن زيد عن عطاء قال: حدثني جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «كل عرفة مَوقِف وكل مِنًى مَنْحَر وكل المزدلفة مَوقِف وكل فِجَاج مكة طريق ومَنْحَر» أما المُحْصَر فمَحِلّ هديه حيث أُحْصِر ما دام لا يتمكن من إيصاله إلى مكة، ولذلك وصف الله عز وجل هَدْي النبي محمد ﷺ وأصحابه يوم أُحْصِرُوا في الحديبية بقوله عز وجل: ﴿والهَدْيَ معكوفا أن يَبْلُغَ مَحِلّه﴾ وقد نحر النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم هداياهم بالحديبية، وقوله عز وجل: ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذًى من رأسه ففِدْيَةٌ من صيام أو صَدَقة أو نُسُك﴾ أي فمن كان منكم أيها المُحْرِمون بحج أو بعمرة مصابا بمرض كصداع ونحوه، أو به أذى من رأسه كقمل ونحوه، فاحتاج إلى حلق رأسه فإنه يحلق وعليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك أي ذبح شاة، وقد أجمع أهل العلم على أن المُحْرِم ممنوع من حلق شعره وجزّه وإتلافه ولو بنُورة أو غيرها إلا في حالة العلة كما نص على ذلك القرآن الكريم، كما أجمع أهل العلم على وجوب الفدية على المحرم إذا حلق رأسه من غير علة. وقد أخرج البخاري في صحيحه قصة نزول قوله عز وجل: ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذًى من رأسه ففِدْيَة من صيام أو صدقة أو نُسُك﴾. من طريق عبد الله بن مَعْقل

قال: جلست إلى كعب بن عُجْرَة رضي الله عنه، فسألته عن الفدية فقال: نزلت فيّ خاصة وهي لكم عامّة، حُمِلْتُ إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنت أُرى الوجَعَ بلغ بك ما أرى، أو ما كنت أُرَى الجَهْدَ بلغ بك ما أرى، تجد شاة؟» فقلت: لا، فقال: «فصُمْ ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع» وقد أخرجه البخاري كذلك من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى أن كعب بن عُجْرة حدثه قال: وقف عليّ رسولُ الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قملاً فقال: «يؤذيك هوامُّك؟» قلت: نعم، قال: «فاحلق رأسك» أو قال: «احلق» قال: فيّ نزلت هذه الآية: ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه﴾ إلى آخرها، فقال النبي ﷺ: «صُمْ ثلاثة أيام أو تصدّق بفَرَق بين ستة أو انْسُكْ بما تيسّر». وقوله عز وجل: ﴿فإذا أمنتم فمن تمتّع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ هذا بيانٌ لأحد الأنساك الثلاثة التي يخيّر المسلم بينها في الحج وهي الإفراد والتمتع والقِرَان، وقوله عز وجل هنا: ﴿فإذا أمنتم﴾ أي فإذا تمكنتم من أداء مناسككم ولم تكونوا في حالة خوف، وغلب على ظنكم أمن الطريق إلى بيت الله الحرام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هنا بعض أحكام الحج من هذه الآية الكريمة إلى الآية الثالثة بعد المائتين، وذكر بعض أحكامه في سورة آل عمران من الآية السادسة والتسعين إلى الآية السابعة والتسعين، كما ذكر بعض أحكام الحج وشئون البيت الحرام في سورة الحج من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين منها، ولا شك أن ذكر أحكام الحج وصفاته قبل فرضيته لا إشكال فيه، وقد نقل غير واحد من أهل العلم الإجماع على أن المسلم مُخيَّر بين أحد الأنساك الثلاثة التي يعرف العرب الكثير منها من مواريثهم من شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وليس ذكر التمتع

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

هنا وحده دليلا على أنه النّسك الوحيد المشروع، كما أن أمر رسول الله ﷺ في حجة الوداع من لم يَسُقْ الهَدْي من المُفْرِدين أو القَارِنين بالتمتع ليس دليلا على بطلان الإفراد أو القران ممن لم يَسُقْ الهَدْي بل أراد رسول الله ﷺ أن يبطل اعتقادا جاهليا إذ كانوا يعتقدون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يَرَوْن أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، ويجعلون المحرم صَفَرًا، ويقولون: إذا برأَ الدَّبَر، وعفَا الأثَر، وانسلخ صَفَر حَلّت العمرة لمن اعتمر، قدم النبي ﷺ وأصحابه صَبيحة رابعة مُهِلّين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة، فتعاظم ذلك عندهم، قالوا: يا رسول الله: أيّ الحِلّ؟ قال: «حِلّ كلّه». اهـ والتمتع هو أن يُحرم بالعمرة في أشهر الحج وبعد الانتهاء من أعمالها يتحلل ويقيم بمكة حلالا حتى يحج من عامه، والقِرَان أن يحرم بالحج والعمرة معا فيقول: لبيك حجا وعمرة، وتدخل العمرة في أفعال الحج، أما الإفراد فهو أن يحرم بالحج وحده فيقول عند إحرامه: لبيك حجا، والواقع أنه لافرق في العمل بين المُفْرِد والقارِن فإن أداء النسُك للمُفْرِد كأدائه للقارن تماما لا يختلفان في شيء إلا في النية، وفي أن القارن عليه دم والمُفْرِد لا يجب عليه الهَدْي. وقد أوجب الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة هديا على المتمتع حيث يقول: ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم، تلك عشرة كاملة﴾ أي فمن استمتع بأداء العمرة في أشهر الحج وتمتع بمكة وبالمسجد الحرام حيث أقام بها حلالا إلى أن يُحرِم بالحج من عامه فليذبح ما قدر عليه من الهدي وهو شاة أو سُبْع بقرةٍ أو سُبْع بَدَنةٍ، فمن لم يقدر على هذا الهدي فعليه بدل ذلك صيام ثلاثة أيام في الحج أي في أيام المناسك بأن يقدّم إحرامه بالحج قبل يوم عرفة بثلاثة أيام ليتمكن من صيامها فيها أو بيومين

ليصومها ويصوم يوم عرفة كذلك، والأَوْلَى أن يقدمها قبل يوم عرفة، وإذا لم يتمكن من ذلك صامها في أيام التشريق، ولم يرخص الإسلام في صيام أيام التشريق إلا لمن لم يجد الهدي، فقد روى البخاري من حديث عائشة وابن عمر رضي الله عنهم قالا: لم يرخّص في أيام التشريق أن يُصَمْنَ إلا لمن لم يجد الهَدْي. ويجوز صيام هذه الأيام الثلاثة متتابعة ومتفرقة، وكذلك يجوز صيام الأيام السبعة متتابعة ومتفرقة، وهو مخير في صيام هذه الأيام السبعة كذلك إن شاء صامها بمكة بعد فراغه من أعمال الحج وإن شاء صامها بعد رجوعه إلى أهله، وصيامها بعد رجوعه إلى أهله أفضل لقوله تعالى: ﴿وسبعة إذا رجعتم﴾ ولأنه أرفق به وأيسر له، وقد ألحقت السُّنة القارِن بالمتمتع في وجوب الهَدْي عليه، ولا خلاف فيه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ أي ذلك التمتع ووجوب الهدي أو الصيام عند عدم القدرة على الهدي لغير أهل الحرم ومن كان ساكنا حول الحرم دون مسافة القصر، أما أهل الحرم ومن في حكمهم فلا يتمتعون بالعمرة إلى الحج، لأنهم متمتعون دائما بالحرم. وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ ترهيب من مخالفة أوامر الله التي شرعها لعباده ليسعدوا في الدارين.

قال تعالى: ﴿الحجّ أشهر معلومات، فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التقوى، واتّقون يا أولي الألباب﴾.

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بإتمام الحج والعمرة ابتغاء مرضاة الله وبيّن حكم المحصر، وحكم من كان محرما بحج أو عمرة ثم أصابه مرض أو أذى في رأسه واحتاج إلى حلق شعر رأسه فحلق، وبيّن حكم المتمتع بالعمرة إلى الحج، وأن أهل الحرم المكي ومن في حكمهم لا يشرع لهم التمتع بالعمرة إلى الحج، وذيّل الآية بالأمر بتقواه وحذّر من شدة عقابه لمن يخالف أمره شرع هنا في بيان مواقيت الحج الزمانية، وحذّر من الرفث والفسوق والجدال في الحج حيث يقول عز وجل: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ أي وقت الحج أشهر معلومات إذ المعلوم للمخاطبين أن المراد: وقت الحج أشهر معلومات، لا أنّ نفس أفعال الحج هي الأشهرالمعلومات، والعرب في أساليبها البلاغية يحذفون من الكلام ما يكون معلوما للمخاطَبين، كما قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته:

وحــذْفُ مــا يُعلَم جــائز كــما   تقــول زيــدٌ بعْدَ مَــن عِنــدَكما

فإنّ العرب يستحسنون إذا سأل سائل فقال لك: من عندك؟ فتقول في جوابه: زيد، أي عندنا زيد فتحذف كلمة عندنا من جوابك لأنها معلومة للمخاطَب، فإذا سمع العربي قوله عز وجل: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ علم يقينا أن المراد: وقت الإحرام بالحج في أشهر معلومات، وهي شوال والقعدة وعشر ليال من ذي الحجة، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: معلوم أن أوقات الحج أشهر معلومات ليس المراد أن نفس الأفعال هي الزمان، ولا يفهم هذا أحد من اللفظ ولكن قد يقال: في الكلام محذوف تقديره: وقت

الحج أشهر معلومات، ومن عادة العرب الحسنة في خطابها أنهم يحذفون من الكلام ما يكون المذكور دليلا عليه اختصارا كما أنهم يوردون الكلام بزيادة تكون مبالغة في تحقيق المعنى اهـ وقد جعل الله تبارك وتعالى للحج ميقاتا زمانيا وميقاتا مكانيا، فالميقات الزماني هو المذكور في هذه الآية أما الميقات المكانيّ فقد حدّده رسول الله ﷺ كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: وقّت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحُلَيْفَة ولأهل الشام الجُحْفَة ولأهل نجد قَرْن المَنَازِل ولأهل اليمن يَلَمْلَم، فهُنّ لهنّ، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن لمن كان يريد الحج والعمرة، فمن كان دُونَهُنّ فمُهَلّه من أهله، وكذاك وكذاك، حتى أهلُ مكة يُهِلُّون منها. كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مُهَلُّ أهلِ المدينة من ذي الحُلَيْفة، والطريق الآخر الجُحْفة، ومُهَلّ أهل العراق من ذات عِرْق، ومُهَلّ أهلِ نجد قَرْن، ومهلّ أهل اليمن يَلَمْلَم». قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري في قول البخاري (باب فرض مواقيت الحج والعمرة): المواقيت جمع ميقات كمواعيد وميعاد، ومعنى فرض قدّر أو أوجب، وهو ظاهر نص المصنف، وأنه لا يجوز الإحرام بالحج والعمرة من قبل الميقات ويزيد ذلك وضوحا ما سيأتي بعد قليل حيث قال: ميقات أهل المدينة ولا يُهِلّون قبل ذي الحليفة، وقد نقل ابن المنذر وغيره الإجماع على الجواز وفيه نظر فقد نقل عن إسحاق وداود وغيرهما عدم الجواز وهو ظاهر بجواب ابن عمر، ويؤيده القياس على الميقات الزماني فقد أجمعوا على أنه لا يجوز التّقدم عليه، وفرّق الجمهور بين الزماني والمكاني فلم يجيزوا التّقدم على الزماني وأجازوا في المكاني اهـ وقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: فرض قدّر أو أوجب هو شرح من الحافظ رحمه الله لأول لفظة وردت في الحديث الذي ساقه البخاري تحت العنوان المذكور من طريق زيد بن جُبَيْر أنه أتى عبد الله

ابن عمر رضي الله عنهما في منزله وله فُسْطاط وسُرَادِقٌ، فسألتُه: مِن أين يجوز أن أعتمر؟ قال: فرضها رسول الله ﷺ لأهل نجد قرنًا ولأهل المدينة ذا الحليفة ولأهل الشام الجحفة. اهـ ولا شك أن العمرة ليس لها ميقات زماني فهي تجوز في جميع السنة، وقد وصف الله تبارك وتعالى أشهر الحج بأنها معلومات ولم يسمّها في كتابه الكريم لأنها كانت معلومةً عند العرب غير أنهم كانوا يَنْسِئُون فيقدمون بعض الشهور على بعض وقد يسمونها بغير اسمها ويجوز أن يكون المراد أنها معلومات ببيان الرسول ﷺ وعلى كل حال فالمراد أن الحج لا يكون في كل أيام السنة ولا في كل شهورها وإنما في وقته المعلوم المحدّد لا يجوز تقديمه ولا تأخيره عن وقته. وقد اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَرٍ كلّها في ذي القَعْدة إلا التي كانت مع حجته، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَرٍ كُلُّهُنَّ في ذي القعدة إلا التي كانت مع حَجَّته: عمرة من الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل، وعمرة من الجِعِرّانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة وعمرة مع حجته. وكان عمر وعثمان رضي الله عنهما يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج ويحضّان على ذلك حتى لا يهجر البيت الحرام، كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال: عمرة في رمضان تعدل حجة، أو تعدل حجّة معه ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق عطاء قال: سمعت ابن عباس يحدثنا قال: قال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار سماها ابن عباس فنسيتُ اسمها: «ما منعك أن تحجي معنا؟» قالت: لم يكن لنا إلاّ ناضحان فحجّ أبو ولدها وابنها على ناضح وترك لنا ناضحًا نَنْضِح عليه، قال: «فإذا جاء رمضان فاعتمري فإنّ عمرة فيه تعدل حجّة». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما رجع النبي ﷺ من حجته قال لأم سنان الأنصارية:

«ما منعك من الحج؟» قالت: أبو فلان تعني زوجها كان له ناضحان حج على أحدهما والآخر يسقي أرضا لنا، قال: «فإن عمرة في رمضان تقضي حجة أو حجة معي». وقوله عز وجل: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي فمن ألزم نفسه بالحج في هذه الأشهر المعلومات بأن أحرم بالحج فيها فأصبح متحتما عليه، وهذا التعبير مع قوله عز وجل: ﴿وأَتموا الحج والعمرة لله﴾ يدل دلالة ظاهرة بأن الحج لم يكن قد فرضه الله تبارك وتعالى عند نزول آيات الحج هذه في سورة البقرة، وأن من أحرم بالحج في أشهر الحج أو أحرم بالعمرة في أي وقت من السنة متطوعا بذلك لزمه المضيّ فيه وتحتم عليه. وقوله عز وجل: ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ أي فلا يحل لمن أحرم بالنسك أن يرفث أو يفسق أو يجادل. وكما حذر رسول الله ﷺ الصائم من الرفث والفسَوق والرّد على من سابّه أو شاتمه فقد نهى الله تبارك وتعالى هنا من صار مُحْرِما عن الوقوع في الرفَث والفسوق والجدال، والرفَث هو غِشْيان النساء ودواعيه من المباشرة أو التقبيل أو نحو ذلك، والفسوق هو عصيان الله عز وجل بأي صورة من صور المعاصي، ولما كان الحج يكتنفه ضرورة مخالطة الناس ومزاحمتهم في الأسفار والمشاعر والمنازل والموارد فقد طلب الإسلام من المسلم الذي دخل في الإحرام أن يبتعد عن المخاصمة والمنازعة والمجادلة مع أي أحد من الناس، وقد بشر رسول الله ﷺ من ترك مجادلة الناس ومماراتهم وإن كان محقًّا ببيت في ربض الجنة، فقد روى أبو داود واللفظ له وابن ماجه والترمذي وحسّنه من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا» اهـ فعلى الحاج أن يتجنب كلّ ما يؤذي أحدا من المسلمين، وأن يصون لسانه إلا من الخير، وأن يحفظ سَمْعَه فلا يستمع إلا إلى ما يرضي الله عز وجل، وأن يحفظ بصره فلا يتتبع به العورات، وأن يحفظ يده فلا تبطش

في ضرر أحد، وأن يصون رجله فلا تمشي في أذية أحد وأن يجعل في فكره دائما قول الله عز وجل: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ ولا شك أن من شاهد مسيرة الحجيج ومنازلهم وتنقلاتهم في المشاعر عرف سموّ التشريع في الإسلام، وسرّ تخصيص التحذير من الرفث والفسوق والجدال. وإذا كان الرفَث مُحَرَّما مع الحليلة على المُحْرِم فما بالك بالرفث مع غير الحليلة في الإحرام أو في الشهر الحرام أو في البلد الحرام؟ وكذلك إذا كان الفسوق محظورا في جميع السنة وعموم الأوقات فما بالك في الإحرام والشهر الحرام والبلد الحرام؟ ومع أن مَن هَمَّ بسيّئة فلم يفعلها لا تكتب عليه فإن الله تبارك و تعالى هدّد من همّ بسيئة في الحرم بأن الله يذيقه من عذاب أليم حيث يقول عز وجل: ﴿ومَن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم نُذِقْه من عذاب أليم﴾ وقوله عز وجل: ﴿وما تفعلوا من خير يعلَمْه الله﴾ هو ترغيب في عمل الخير بعد الترهيب من عمل الشر، فمن يعمل خيرا ولا سيما في الأماكن المقدسة يجد ثوابه عند الله خيرا عظيما، ومن يعمل شرا ولا سيما في الأماكن المقدسة يجد عقابه عند الله عذابا أليما، ولن يضيع من عمل الإنسان شيء كما قال عز وجل: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره* ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم﴾. وقوله عز وجل: ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾ قال البخاري في صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾ ثم ساق بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوّدون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال المُهَلَّب: في هذا الحديث من الفقه أن ترك السؤال من التقوى، ويؤيده

أن الله مدح من لم يسأل الناس إلحافا، فإن قوله: ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ أي تزوّدوا واتقوا أذى الناس بسؤالكم إياهم والإثم في ذلك، قال: وفيه: أن التوكل لا يكون مع السؤال، وإنما التوكل المحمود أن لا يستعين بأحد في شيء، وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب كما قال عليه السلام: «اعقلها وتوكل» اهـ وقد اشتمل قوله عز وجل: ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾ على لون من الهدى والرشاد والبلاغة بديع حيث أمرهم بالزاد لسفر الدنيا ولفت انتباههم في نفس الوقت إلى الحرص على زاد الآخرة من تقوى الله عز وجل، وهو شبيه بقوله عز وجل: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يُوَارِي سَوْآتِكم وريشًا ولباسُ التقوى ذُلك خير﴾ حيث ذكّرهم بنعمته عليهم فيما أوجد لهم من اللباس الحسّي الذي يستر عوراتهم ثم لفت انتباههم إلى اللباس المعنوي الجميل الذي لا يَبْلَى وهو لباس التقوى، الذي يجب أن يتحَلَّى به الإنسان دائما، ولا يتخلّى عنه أبدا لأنه أجمل أنواع اللباس، وأكرم أنواع الزينة. وما أجمل قول الشاعر:

الموتُ بحر طامِحٌ مَوْجُه ... تذهب فيه حِيلة السابح
يا نفسُ إني قائل فاسمَعي ... مقالةً مِن مُشفِق ناصح
لا يَصْحَبُ الإنسانَ في قبره ... غيرُ التُّقى والعملِ الصالح

وما أحسن قول الأعشى ميمون بن قيس:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التُّقى ... ولاقَيْتَ بعد الموت مَن قد تزوَّدا
نَدِمْتَ على ألّا تكون كمثله ... وأنّك لم ترصُدْ كما كان أرْصدا

وقد نبه الله تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ إلى أن ذوي العقول المستنيرة والقلوب المبصرة هم الذين يحرصون على التزود بتقوى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين* ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة أول مناسك الحج وهو الإحرام به بقوله: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ وحذر من الرفث والفسوق والجدال فيه، وحضّ على فعل الخير في هذا العمل الصالح الذي صار أحد أركان الإسلام الخمسة، وعالج أحد الأمراض السلوكية في الإنسان الذي يزعم التوكّل على الله فيحج بغير زاد مع أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ولا خبزا، فأرشد هؤلاء الذين يسلكون هذا الطريق المعوج إلى الصراط المستقيم حيث أمرهم بالتزود بما تحتاجه أجسامهم في موسم الحج كما أمرهم بالتزود بتقوى الله التي تسعدهم في الدنيا والآخرة، شرع هنا في هذا المقام الكريم يعالج سلوكا آخر من سلوك الإنسان المتّبع لهوى نفسه في التحريم والتحليل حيث كانوا يتأثمون من البيع والشراء وهم حُجّاج، فأرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى جواز البيع والشراء في موسم الحج وأن الاتجار في الحج لا ينافي إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى ما دام التاجر محافظا على مناسك الحج، مقيما له على الوجه المشروع مُريدًا بحجه وجه الله عز وجل، وأن حضوره الموسم ليس لمجرد التجارة، وإنما يَتَّجِر طلبا للفضل من الله والاستعانة على ما يحتاجه لمعاشه ومعاده، وهذا شبيه بأمر رسول الله ﷺ من لم يستطع الباءة من الشباب أن يصوم، والصيام لا يُقْبَل إلا إذا كان خالصا لوجه الله كسائر العبادات كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إني أُمِرْتُ أن أعبدَ اللهَ مخلصا له الدين﴾ وقال عز وجل: ﴿قُلِ اللّهَ أعبدُ مخلصا له ديني﴾ وقال عز وجل: ﴿ألا لله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدين الخالص﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ ولكنّ هذه العبادة الخالصة تشتمل على منافع لدُنْيَا الإنسان وقمع شهوته الجنسية، فلذلك أمر بها رسول الله ﷺ الشباب لأن تعاليم الإسلام لنفع بدن الإنسان وروحه، فالاتجار في الحج لا يضر مناسك الحج، والأعمال بالنيات. قال البخاري في صحيحه: باب ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ حدثني محمد قال: أخبرني ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عُكَاظ ومَجِنَّة وذو المَجَاز أسواقا في الجاهلية، فتأثّموا أن يتّجروا في المواسم، فنزلت: ﴿ليس عليكم جناحٌ أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ في مواسم الحج اهـ ومعنى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في أن تطلبوا فضلا ورزقا من الله الذي رباكم بإحسانه وجوده وفضله وأنتم في موسم الحج حيث تتّجرون مع أدائكم لمناسك الحج. وقد وصف الله تبارك وتعالى التجار المسلمين بأنهم يبتغون من فضل الله في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ كما قال هنا: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ وكما قال أيضا: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ وقد قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: حدثنا طَلِيقُ بن محمد الواسطي قال أخبرنا أسباط قال: أخبرنا الحسن بن عمرو عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نُكْرَى، فهل لنا حجّ؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعَرَّف، وترمون الجِمَار، وتحلقون رءوسكم؟ فقلنا: بلى، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يَدْرِ ما يقول له حتى نزل جبريل عليه السلام عليه بهذه الآية: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ إلى آخر الآية فقال النبي ﷺ: «أنتم حُجّاجٌ». وقوله عز

وجل : ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ إلى قوله : ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي فإذا دفَعْتُم من عرفات بعد وقوفكم بها مندفعين إلى مزدلفة . والوقوف بعرفة من أهم أركان الحج ، وقد بين رسول الله ﷺ وقت الوقوف بعرفة والاندفاع إلى مزدلفة ثم الإفاضة منها إلى منى فمكة ، وخالف ما كان عليه أهل الجاهلية من قريش حيث كانوا لا يرون الوقوف بعرفة ولا يُفيضون منها ، وإنما كانت قريش ومَن دَانَ دينَها يقفون بمزدلفة ويُفيضون منها ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يُسَمَّوْن الحُمْس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ، ثم يُفِيض منها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ . وقد روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في وصف حجة رسول الله ﷺ ، وفيه : فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلّوا بالحج وركب النبي ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس وأَمَر بقُبَّة من شَعَر تُضْرَب له بنَمِرَة ، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبّة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أَمَر بالقَصْواء فرُحِلَتْ له فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال : «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قَدَمَيَّ موضوعٌ ، ودماءُ الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دَمَ ابن ربيعة بن الحارث وكان مُسْتَرْضَعًا في بني سعد فقتلته هُذَيْل ، ورِبا الجاهلية موضوعٌ ، وأول رِبًا أضع رِبَانَا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كلّه ، فاتقوا الله في النساء ،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرُشَكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تُسْأَلُون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت، فقال بإصبعه السبّابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشْهَدْ» ثلاث مرات ثم أذّن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ولم يُصَلّ بينهما شيئا ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصُّفْرة قليلا حتى غاب القُرْصُ وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شَنَقَ للقصواء الزّمام حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِكَ رَحْلِه ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينة السكينة» كلّما أتى حَبْلاً من الحِبَال أرخى لها قليلا حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يُسَبِّح بينهما شيئا ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبّره وهلّله ووحّده، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل بن عباس وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما فلما دفع رسول الله ﷺ مرّت به ظُعُنٌ يَجْرِين فطَفِقَ الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل فحوّل الفضلُ وجهه إلى الشِّقِّ الآخر ينظر فحوّل رسول الله ﷺ يده من الشِّقِّ الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه، حتى أتى بطن مُحَسِّرٍ فحرّك قليلا ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حَصَيات يكبّر مع كل حصاة منها مِثْلِ حصى الخَذْفِ

رمى من بطن الوادي ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثا وستين بيده ثم أعطى عليا فنحر ما غبر وأشركه في هديه ثم أمر من كل بَدَنة بِبَضْعةٍ فجُعِلَتْ في قِدْرٍ فطُبِخَتْ فأكلا من لحمها وشربا من مرقها ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت. الحديث. وذكر البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه حديثا قال فيه: ثم لينطلق حتى يقف بعرفات من صلاة العصر إلى أن يكون الظلام ثم ليدْفعوا من عرفات إذا أفاضوا منها حتى يبلغوا جَمْعًا الذي يبيتون به ثم ليذكروا الله كثيرا، وأكثروا التكبير والتهليل قبل أن تصبحوا، ثم أفيضوا فإن الناس كانوا يُفيضون، وقال الله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ حتى ترموا الجمرة اهـ ولا شك أن بعض ما فعله رسول الله ﷺ يوم عرفة وليلة المزدلفة وصبيحة يوم النحر منه ما هو ركن من أركان الحج كالوقوف بعرفة وطواف الإفاضة، ومنه ما هو واجب كالمبيت بمزدلفة ورمي جمرة العقبة، ومنه ما هو سنة كالتهليل والتسبيح، وقد روى أحمد وأصحاب السّنن بإسناد صحيح عن عبد الرحمن ابن يَعْمَر الدِّيلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفة ـ ثلاثا ـ فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» كما روى البخاري ومسلم من طريق محمد بن أبي بكر الثقفي أنه سأل أنس بن مالك وهما غاديان من منى إلى عرفة: كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ؟ فقال: كان يُهِلّ منا المُهِلّ فلا يُنكَرُ عليه، ويكبّر المكبر منا فلا يُنكَرُ عليه. كما جاء في حديث مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وقفت هاهنا وعرفة كلّها موقفٌ ووقفت ههنا وجمعٌ كلّها موقف» كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: إنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يُعْتِقَ الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وإنه ليَدْنُو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟» كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن

عباس رضي الله عنهما أن أسامة بن زيد كان رِدْفَ النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى، فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يلبّي حتى رمى جمرة العقبة. اهـ والمَشْعَر الحرام هو جُبَيْل بالمزدلفة كان يقال له في الجاهلية قُزَح وكان يسمى الـمِيقَدَة لأن الناس كانوا يوقدون عنده. وأصل المشعر المعلم وسُمّي مَشْعَرا لأن الله جعله معلما من معالم العبادة ووصفه بالحرام لأنه من الحرم أو لحرمته، والمزدلفة يقال لها جَمْعٌ أيضا، وقوله عز وجل: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ أي واذكروا الله لهدايتكم لمعالم دينه ومناسك حجه، فالكاف هنا في قوله: ﴿كما﴾ للتعليل، وقوله: ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ أي وإنكم كنتم من قبل هداكم لمن الضالين، فـ(إنْ) مخفّفة من الثقيلة. وقوله عز وجل: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي ثم أفيضوا من المزدلفة إلى منى فمكة إذ كانت المزدلفة يفيض منها العرب جميعا بخلاف عرفات فلم تكن قريش تفيض منها في الجاهلية، ولا تقف بها. وقوله: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي واطلبوا في هذه الأماكن الطيبة وفي أعقاب هذه الأعمال الصالحة مغفرة الله ورحمته ولا تغتروا، وقد حض الإسلام المسلمين على الاستغفار في أعقاب الأعمال الصالحة كما كان رسول الله ﷺ يستغفر بعد الصلاة ثلاثا.

قال تعالى : ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا، فمن النّاس من يقول: ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق* ومنهم من يقول: ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار* أولئك لهم نصيبٌ ممّا كسبوا، والله سريع الحساب* واذكروا الله في أيام معدودات، فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه، لمن اتّقى، واتّقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون.﴾

بعد أن أذن الله تبارك وتعالى للحجاج بجواز الاتجار أثناء أداء مناسك الحج، وأرشدهم إلى ذكره عند المشعر الحرام بعد الإفاضة من عرفات، وأكّد عليهم بذكره لهدايتهم إلى مناسك الحج حيث كانوا قبل بَعْثَة رسول الله يضربون في مناسكهم على غير هدى من الله، ثم أرشدهم إلى الإفاضة من مزدلفة إلى منى فمكّة، وأمرهم بالاستغفار من خطاياهم، لرفع درجاتهم وتقبّل طاعاتهم، وعدم الاغترار بما قاموا به من أداء المناسك والوقوف بالمشاعر لأن الطاعة التي تورث فخرًا وعُجْبا واستكبارًا شرّ من المعصية التي تورث ذُلّا وتوبة وانكسارا، ولذلك أكّد هنا في هذا المقام الأمر بذكره بعد قضاء المناسك حيث يقول: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا﴾ وقوله عز وجل: ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ أي فإذا أديتم شعائر الحج إذ أن ﴿قضى﴾ تستعمل بمعنى أدّى وأتم ووفّى كما تستعمل بمعنى ألزم ووصّى، فإذا كان القضاء معلقا بفعل النفس فالمراد به الأداء والوفاء والإتمام ومنه قول الشاعر:

قضى كلُّ ذي دَيْن فوفّى غريمَه وعَزّةُ مَمْطولٌ مُعَنًّى غَريمُها

أما إذا كان معلّقا بفعل الغير فالمراد به الإلزام ومنه قوله عز وجل: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ والمراد بالمناسك التي أديت في هذا

المقام هي الوقوف بعرفة والإفاضة إلى المزدلفة وذكر الله عند المشعر الحرام ثم الإفاضة مع الناس من المزدلفة إلى منى لرمْي جمرة العقبة ونحر الهدي أو ذبحه والحلق أو التقصير ثم الإفاضة إلى مكة لطواف الإفاضة والسعي بين الصفا والمروة كما بين ذلك رسول الله ﷺ الذي أسند الله عز وجل له وظيفة بيان مجمل القرآن حيث قال عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم﴾ وليس المراد قضاء جميع مناسك الحج والفراغ منها تماما لأن الله تبارك وتعالى ذكر بعد ذلك أعمال الحج في الأيام المعدودات وهي أيام التشريق من رمي الجمار والمبيت بمنى كما سيجيء في تفسير قوله عز وجل: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ وقوله عز وجل: ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾ أي أكثروا من ذكر الله وتسبيحه وتحميده وتقديسه وتمجيده وأشغلوا ألسنتكم بالثناء عليه فإن كثرة الذكر تدل على الحب فإن من أحبّ شيئا أكثر من ذكره في سائر أحواله كما قال عنترة:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهِلٌ مِنّي وبيضُ الهند تَقْطُرُ من دَمِي

ولما كان الإنسان لا يكاد ينسى أباه أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يلهجوا بالثناء عليه وذكره أعظم من ذكر الإنسان أباه، وقوله: ﴿أو أشد ذكرا﴾ أي بل أعظم ذكرا من ذكر الإنسان أباه، لأن الله عز وجل هو المنعم المتفضل على الإنسان وعلى أبيه. وقد نبّه الله تبارك وتعالى عباده إلى سؤاله حوائجهم وذكر ذلك هنا في مقام سياقه أحكام الحج كما نبههم إلى ذلك في مقام سياق أحكام الصيام حيث قال هناك: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ وأرشدهم هنا إلى أنه لا يحب من كان همّه الدنيا ولا تعلُّق له بالآخرة، وأنه يحبّ من يبتغي الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، فإنّ القسم الأول من الناس كالبهائم التي لا همّ لها إلا ما تأكله وهي غافلة عن أنها يطعمها صاحبها لتسمن ويذبحها، كما قال عز وجل:

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ فينبغي للمسلم أن يسأل ربه حسنة الدنيا وحسنة الآخرة والله ذو الفضل العظيم لا تنفد خزائنه، وقد نبه الله تبارك وتعالى إلى دناءة همة بعض الناس الذي يقرون بالله ويجعلون كلّ همهم حطام الحياة الدنيا فيسألون الله لدنياهم وينسون أخراهم، بخلاف المؤمنين أصحاب الهمم العالية الذين يسألون الله عز الدنيا وسعادة الآخرة في غير موضع من كتابه الكريم حيث قال هنا: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خَلاَق* ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ وقال عز وجل: ﴿من كان يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نُؤْتِهِ منها وما له في الآخرة من نصيب﴾. وقوله عز وجل: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ يشعر بأن هؤلاء لا يكادون يميزون بين ما ينفعهم من متاع الدنيا وما يضرهم، فكلّ همهم ما يجمعون دون التمييز بين ما ينفعهم منها وما يضرهم. وقوله عز وجل: ﴿وما له في الآخرة من خَلاق﴾ أي وما له حظ من نعيم الآخرة وإنما له عذاب النار. وقوله عز وجل: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ هذه أجمع آية في الدعاء أرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين لسؤال الله عز وجل بها، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر في دعائه من ذكرها والدعاء بها فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» وفي لفظ مسلم من طريق عبد العزيز بن صُهَيْب قال: سأل قتادة أنسا: أيّ دعوة كان أكثر ما يدعوها النبي ﷺ؟ قال: يقول: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه. كما روى

مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت مُعَاقِبِي به في الآخرة فعَجّلْه لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، لا تطيقه أوْلا تستطيعه، فهلاّ قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» اهـ وقد جمعت هذه الدعوة الكريمة التي اشتملت عليها هذه الآية المباركة كلّ خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن حسنة الدنيا تشمل كلّ مطلوب دنيوي من العافية وطيب المسكن ورغد العيش والأمن والاستقرار والعلم النافع والعمل الصالح والمركب الحسن والثناء الجميل وطمأنينة النفس، وراحة القلب، واجتماع الأحبة وأن تكون الزوجة والأولاد قرة عين. وقد جمع الله تبارك وتعالى ذلك في قوله عز وجل: ﴿فلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبة﴾ وأما حسنة الآخرة فالأمن من الفزع الأكبر في عرصات القيامة، وتخفيف الحساب، وتيسير المرور على الصراط، ودخول جنات النعيم ورضوان رب العالمين، والنظر إلى وجهه الكريم. وقوله عز وجل: ﴿وقنا عذاب النار﴾ أي واصرف عنا عذاب جهنم وصُنّا من لهيبها، ونجّنا منها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ أولَئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ أي ولكل واحد من هؤلاء الفريقين حظ من عمله فللكافر عقاب شركه وللمؤمن ثواب عمله ودعائه في طاعة ربه، ومحاسبة كل عامل بعمله أمر سهل هَيّن على الله عز وجل لأنه عز وجل كامل القدرة باهر السلطان. وقوله تبارك وتعالى: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ المراد بالأيام المعدودات هي أيام التشريق الثلاثة التي تلي يوم النحر، وسميت أيام التشريق لأن العرب كانوا يُشَرِّقُون فيها لحوم الهدايا والأضاحي أي يُقَدّدُونها، أو لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق

الشمس، أما الأيام المعلومات الواردة في قوله عز وجل: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ فهي عشر ذي الحجة، ووصفها بأنها معلومات لحرص العرب على معرفتها، وقد علق البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما بصيغة الجزم أن الأيام المعلومات هي العشر يعني الأُوَل من ذي الحجة، كما روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء». اهـ وذِكْرُ الله تبارك وتعالى في الأيام المعدودات يتمثل في رمي الجمار الثلاث التي جعلتها الشريعة الإسلامية من مناسك الحج وواجباته حيث أوجبت على الحاج أن يبيت بمنى ليلتين بعد العيد إنْ تعَجَّل، وثلاث ليال إنْ تَأَخَّر، وأوجبت عليه أن يرمي الجمار الثلاث بعد الزوال كل يوم من اليومين الأوَّلَيْن من أيام التشريق إن تعَجَّل وفي الثالث كذلك إن تأخر، وقد وصف رسول الله ﷺ أيام التشريق بأنها أيام أكل وشرب وذكر الله، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث نُبَيْشَة الهُذَلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله». وإنما كان رمي الجمار ذكرًا لله عز وجل لأن هدي رسول الله ﷺ في رمي الجمار أنه كان يذكر الله عند كل حصاة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه انتهى إلى الجمرة الكبرى فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ورمى بسبع حصيات يكبّر مع كل حصاة، ثم قال: هكذا رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة. يعني رسول الله ﷺ. كما أوضح رسول الله ﷺ أن رمي الجمار إنما جعل لإقامة ذكر الله عز وجل، فقد روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنما جعل رمي

الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله». وقوله عز وجل : ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ أي من أحب أن يتعجل في أيام الرمي فيرمي في يومين فقط وهي اليوم الثاني والثالث التي تلي يوم عيد النحر فلا حرج عليه ولا إثم، ومن أحب أن يتأخر فيرمي في ثلاثة أيام فلا إثم عليه كذلك، فالأمر على السعة إن شاء نَفَرَ في اليوم الثاني من أيام التشريق و إن شاء نَفَرَ في اليوم الثالث منها بعد رمي الجمار الذي حدّد رسول الله ﷺ وقته بما بعد الزوال. وقد روى أحمد في مسنده وأصحاب السنن بسند صحيح من حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلِيّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيام مِنًى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه». وقوله عز وجل: ﴿لمن اتقى﴾ لإفادة مراعاة تقوى الله عز وجل في إقامة هذه الشعائر ابتغاء وجه الله، والوقوف عند حدوده، فلا يغتر من يرمي في ثلاثة بازدراء من رمى في يومين، لأن المقصود هو امتثال أمر الله وأمر رسوله ﷺ فيما يفعل المسلم أو فيما يدعُ. وقوله عز وجل : ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ إشعار بالمقصود من إقامة الشعائر، وقد ذيل بذكر التقوى عامة الأحكام المتقدمة كما أشرت سابقا إذْ أهلُها هم أهل هُدَى الله المنتفعون بأحكام شرعه، المستقيمون في سلوكهم، كما أنه لما كان اجتماع الناس بعرفة ومنى وقد جاءوا من كل فج عميق، ثم نَفْرُهم من عرفة ومنى شبيها بالحشر والنشر والوقوف في عرصات القيامة لفت انتباه الخلق إلى ذلك حيث يقول: ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾.

قال تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهِد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام* وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل، والله لا يحبّ الفساد* وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم، فحسبُهُ جهنّم، ولبئس المهاد* ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، والله رءوف بالعباد﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالي صنفين من الناس أحدهما لا همّ له إلا الدنيا ولا يتعلق قلبه بغيرها، والثاني مسترشد بنور الإسلام وهَدْي الدين الحنيف فهو يعمل للآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، ذكر هنا صنفين من الناس أحدهما منافق عليم اللسان، والثاني باع نفسه ابتغاء مرضاة الله عز وجل يحرص على الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله . ولا شك أن القسم الأول من هذه الأقسام الأربعة ينطبق على المشركين الذين يقرون بربوبية الله ويعبدون معه غيره، والقسم الثالث ينطبق على المنافقين الذي يكتمون الكفر ويعلنون الإسلام، أما القسم الثاني والقسم الرابع فهم المؤمنون، ولا معارضة بين هذا التقسيم للناس في هذا المقام وتقسيمهم في مطلع سورة البقرة إلى ثلاثة أقسام: مؤمنين، وكافرين صرحاء الكفر ومنافقين، إذ أن المؤمنين ينقسمون إلى قسمين: أصحاب الدرجات العُلَى من السابقين وبقية المؤمنين من أصحاب اليمين، ولذلك يجمع الله الكافرين والمنافقين معا في جهنم كما قال: ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ليَمِيزَ الله الخبيث من الطّيّب ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعض فيركُمَه جميعا فيجعله في جهنم أولَئك هم الخاسرون﴾ . ولذلك قسّم الله تبارك وتعالى الناس يوم القيامة ثلاثة أقسام فجعل جميع الكافرين والمنافقين مع اختلاف نحلهم ومذاهبهم قسما واحدا، وجعل المؤمنين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قسمين حيث يقول عز وجل في مطلع سورة الواقعة : ﴿إذا وقعت الواقعة* ليس لوقعتها كاذبة* خافضة رافعة* إذا رُجَّت الأرض رَجًّا* وبُسَّت الجبال بَسًّا* فكانت هَبَاء مُنبَثًّا* وكنتم أزواجا ثلاثةً* فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة* وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة* والسابقون السابقون* أولَئك المقربون﴾ وقوله عز وجل : ﴿ومن الناس﴾ أي وبعض بني آدم . وقوله : ﴿يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ أي هو عليم اللسان فصيح البيان إذا تكلّم بهر السامع بكلامه فلسانه أحلى من العسل وإن كان قلبه أمرّ من الصّبر، ولباسه لباس الضأن وقلبه قلب الذئب ، والتقييد بقوله : ﴿في الحياة الدنيا﴾ لأنه في الآخرة مهين حقير ذليل مشتغل بما هو فيه من الهم والغم والكرب العظيم . وقوله عز وجل : ﴿ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قلبه وهو أَلَدُّ الخِصَام﴾ أي ويحلف بالله ويوثّق يمينه بأن يدّعي أن الله يعلم بأن قلبه مؤمن بمحمد رسول الله ﷺ وأنه يحب رسول الله ﷺ من كل قلبه ، وهو شديد العداوة لله ولرسوله ، قوي الخصومة ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «إن أبغض الرجال إلى الله الألَدّ الخَصِم» . وأصل الألدّ هو المعوج القوي الخصومة الفاجر الذي لا يثبت على طريق بل يزوَرّ عن الحق ويفتري ويفجر، وقد وصف الله عز وجل المنافقين هنا بهذا الوصف كما وصف كفار قريش بذلك في قوله عز وجل : ﴿ولما ضُرِبَ ابن مريم مَثَلا إذا قومك منه يَصِدُّون * وقالوا : آلهتنا خير أم هو، ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خَصِمُون﴾ وكما قال عز وجل فيهم : ﴿فإنما يسّرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذرَ به قوما لُدّا﴾ أي عوجا يجادلون بالباطل . وقد نبه الله تبارك وتعالى إلى مثل صفات المنافقين المذكورة هنا وأرشد إليها للحذر منها في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول : ﴿إذا

جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون* اتخذوا أيمانهم جُنَّةفصدّوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعْجبُك أجسامُهم وإن يقولوا تسمَعْ لقولهم كأنهم خُشُب مُسَنَّدة يحسَبون كل صيحة عليهم ، هم العدوّ فاحذَرْهم ، قاتلهم الله أنّى يُؤْفَكون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ويحلفون بالله إنّهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يَفْرَقُون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿اتخذوا أيمانهم جُنّة فصدّوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين﴾ . وقوله عز وجل : ﴿وإذا تولّى سعى في الأرض ليُفْسِدَ فيها ويُهْلِك الحَرْث والنَّسْل﴾ أي وإذا أدبر هذا المنافق من عندك يا محمد انصرف بكلّيته لمحاربة دينك ، وإثارة الفتن بين المسلمين ، لتفريق كلمتهم ، وتشتيت شملهم ليقتل بعضهم بعضا ، ويبيد حرثهم أي مزارعهم ويبيد نسلهم أي ذريتهم . وقوله عز وجل : ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي والله عز وجل لن يُمَكِّنه من تحقيق ما يسعى له ، لأن الله عز وجل ناصر رسوله والمؤمنين ، وممكّن لهم في الأرض وهو يبغض أهل الفساد ، ويبطل عملهم ، كما قال عز وجل : ﴿فلما ألقَوْا قال موسى ما جئتُم به السحْرُ إنّ الله سيُبْطِلُه إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ . وقوله عز وجل : ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزّة بالإثم ، فحسبه جهنّم ، ولبئس المهاد﴾ أي وإذا اطّلع أحد المؤمنين على ما يعمله هذا المنافق من الفساد في الأرض ، ونصحه وقال له : اتق الله واحذر سَطْوته وعقوبته لك على ما تبثّه من فتنة وما تنشره من فساد في الأرض ، حملته الأنَفَة والحَمِيَّة والتكبّر وأخذته عِزَّة من جَهْله فتولّى مغضبا ، وفي نار جهنم كفايةٌ لهذا الأثيم . وفي قوله تعالى : ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ أسلوب بلاغي يسميه علماء البديع (التتميم) وهو إرداف الكلمة بكلمة أخرى ترفع عنها اللّبس وتقرّبها من الفهم ، وذلك أن

العزة تكون محمودة ومذمومة، فمثل المحمودة قوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فلو أطلقت في هذا المقام لتوهَّم فيها بعضُ مَن لا دِراية له أنها المحمودة، فقيل: بالإثم، توضيحا للمراد ودفعا للالتباس. على أنّ العزة التي عند الكافر هي عزة غرور وجهل وعناد كما قال عز وجل: ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ أي في حمية جاهلية وكبر. وكما قال عز وجل: ﴿إذْ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحَمِيّة حَمِيّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمةَ التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهْلَها وكان الله بكل شيء عليما﴾. وقوله عز وجل: ﴿ومن الناس من يَشْري نفسَه ابتغاء مرضاة الله﴾ أي وبعض الناس يبيع نفسه ويجود بها في سبيل رضى الله عز وجل وطلب مرضاته وإعلاء كلمته وإعزاز دينه، ونصر رسوله ﷺ، وابتغاء الجنة، كما قال عز وجل: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أَنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون وعدًا عليه حَقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوْفَى بعهده من الله، فاستبشروا بِبَيْعِكُم الذي بايَعْتُم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث البراء رضي الله عنه قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ مُقَنَّع بالحديد فقال: يا رسول الله: أقاتل أوْ أُسلِم؟ فقال: «أَسْلِمْ ثم قاتِلْ»، فأسْلَم ثم قاتَل فقُتِل فقال رسول الله ﷺ: «عمِل قليلا وأُجِرَ كثيرا» كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رجل: أين أنا يا رسول الله إن قُتلت؟ قال: «في الجنة» فألقى تمراتٍ كُنّ في يده ثم قاتل حتى قُتل. كما روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «لا يُقدِّمنّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يقول عُمَيْر

ابن الحُمَام الأنصـاري رضي الله عنه : يـا رسـول الله جنة عـرضها السمـوات والأرض؟ قال : «نَعَم» قال : بَخ بَخ ، فقـال رسول الله ﷺ : «ما يحملك على قولك : بخ بخ؟» قال : لا ، والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها ، قـال : «فإنك من أهلهـا» ، فأخرج تَمَرات من قَـرَنـه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تَمَراتي هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ثم قـاتلهم حتى قُتل . كما روى البخاري ومسلم مـن حديث أنس رضي الله عنه قـال : غاب عمي أنس بـن النضر رضي الله عنه عن قتـال بدر فقال : يـا رسول الله ، غِبتُ عن أول قتال قـاتَلْتَ المشركين ، لئن اللهُ أشهدني قتـالَ المشركين لَيَرَيَنّ اللهُ ما أصنع ، فلما كـان يـوم أحد انكشف المسلمـون ، فقال : اللهـم إني أعتذر إليك ممـا صنع هؤلاء يعني أصحـابَه وأبرأ إليـك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ، ثم تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد ابن معـاذ الجنةَ وربِّ النَّضر إني أجـد ريحهـا من دون أُحُـد ، قال سعـدٌ : فما استطعتُ يا رسول الله مـا صنع ، قال أنس : فوجدنا بـه بِضْعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قُتِلَ ومَثّل به المشركون فما عرفه أَحَدٌ إلا أُخْته بِبَنَانِه . قال أنس : كنّا نُرَى أو نظنّ أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشبـاهه : ﴿من المؤمنين رجـال صدقـوا ما عـاهدوا الله عليـه فمنهم من قضى نحبه﴾ إلى آخرها . وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : «مِن خير مَعَاش النّاس لهم رجل ممسك بِعِنَان فـرسه في سبيل الله ، يطير على مَتْنِـه ، كلّما سمع هَيْعَة أو فَـزْعة طار على مَتْنِـه ، يبتغي القتل أو الموت مَظَانّه ، أو رجلٌ في غُنَيْمة أو شَعَفة من هذا الشَّعَف ، أو بَطْن وادٍ من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربّه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا في خير» . كما روى مسلم في صحيحـه من طريق أبي بكر ابن أبي موسى الأشعـري قال : سمعت أبي رضي الله عنه وهـو بحضرة العدو

يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» فقام رجل رَثُّ الهيئة فقال: يا أبا موسى أَأَنْت سمعتَ رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جَفْنَ سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قُتِل. وقوله عز وجل: ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أي رحيم بهم محسن إليهم يعاملهم بلطفه، والرأفة أعلى معاني الرحمة وأشدها وأدقّها، فمن رحمته ورأفته بعباده أنه اشترى من عباده نفوسا هو مالكها وأموالا هو رازقها بجنة عرضها السماوات والأرض، وجَعَل الجزاء الجليل على العمل القليل، ولا يكلف نفسا إلا وسعها، ويقبل توبة التائبين الذين أسرفوا على أنفسهم، فلله الحمد والشكر.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدوّ مبين* فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم* هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقُضي الأمر، وإلى الله ترجع الأمور* سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة، ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنّ الله شديد العقاب* زيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا، والذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾

بعد أن أشار الله عز وجل إلى بعض فرق الناس وبَيّن أن بعضهم لا هَمَّ لهم إلا الدنيا وهم يكفرون بالآخرة، وأن بعضهم يرغب في حسنات الدنيا وحسنات الآخرة، وأن بعضهم باع نفسه طلبا لمرضاة الله، ولا شك أن المؤمنين ليسوا بمعصومين من الشيطان إلا من عصم اللهُ منهم، ناداهم الله تبارك وتعالى هنا وأمرهم بالدخول في جميع تعاليم الإسلام حتى تكون للواحد منهم كمنزله الذي يدخل فيه ويسكنه وأن يَحْذَروا أشدّ الحذر من خطوات الشيطان ودسائسه ووساوسه، لأنه ذئب الإنسان الذي يحرص على افتراسه وإهلاكه. فقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلْم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين﴾ وقد سبق عين هذا التحذير في الآية الثامنة والستين بعد المائة من هذه السورة وقد ذكرت أن الله تبارك وتعالى حذّر من اتباع خطوات الشيطان العدو المبين في مواضع كثيرة من كتابه الكريم وقد سقتها في تفسير تلك الآية، والمراد بالسِّلْم هنا الإسلام، كما قال الشاعر وهو امرؤ القيس بن عابس الكندي رضي الله عنه لما ارتد قومه عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ:

ألا أَبْلِغْ أبا بكر رسولا وأَبْلِغْها جميع المسلمينا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلستُ مجاوِرًا أبدا قَبيلا بما قال الرسول مكذّبينا
دعوتُ عشيرتي للسِّلم لمّا رأيتُهموا تولّوا مُدْبِرينا

وأَصل السلم بكسر السين وفتحها يأتي في كلام العرب بمعنى الإسلام كهذه الآية ، ويأتي بمعنى المسالمة والمصالحة كقوله عز وجل : ﴿وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ وكقوله عز وجل : ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعْلَون والله معكم﴾ ومعنى قوله : ﴿كافَّة﴾ أي عامَّة جميعا كقوله عز وجل : ﴿وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي ولا تسلكوا طرق وساوسه ودسائسه ، ونفثه ونفخه وهمزه ولمزه . وقوله عز وجل : ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ هو تأكيد ولفت انتباه للمؤمنين بشدة الحذر منه ، كأن الذي يطيع الشيطان قد نسي أنه عدوّه وعدوّ آبائه من لدن آدم عليه السلام ، على حد قول الشاعر:

جاء شقيق عارضا رُمْحَه إنّ بني عمّك فيهم رماح

فالذي يتّبع خطوات الشيطان كمن يريد أن يدخل يده في فم الأفعى ، فيقول له ناصحه الذي يريد سلامته : إن هذه أفعى ، ولا شك أن الشيطان أخطر على الإنسان من سائر الأفاعي . وقوله عز وجل : ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم﴾ يقال : زلّت قدمه ، إذا زَلِقَتْ في طين أو نحوه ، وزلّ لسانه إذا زلق في كلامه والزَّلَّة السَّقْطة ، والمراد بالبينات حجج الله على خلقه ومعجزاته المؤيدة لرسله وأعظمها القرآن العظيم الذي هو حجّة الله البالغة ومعجزته القاهرة الباهرة ، الذي أنزله على أفضل خلقه ، وأكمل رسله محمد ﷺ الذي كان وجهه ينبئ عن أنه رسول الله ﷺ كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

لو لم يكن فيه آياتٌ مُبيِّنة كانت بديهتُه تأتيك بالخبر

وكما قال عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه في رسول الله ﷺ: فلما تبينتُ وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، كما رواه أحمد وأصحاب السنن عنه رضي الله عنه وصححه الترمذي. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ أي فإن زلت أقدامكم عن صراط الله المستقيم، ووقعتم في حبائل الشيطان، وارتكبتم ما حرّم الله عليكم فلا تتمادَوْا في طاعة الشيطان ولا تصرّوا على معاصيكم، وسارعوا إلى التوبة النصوح والرجوع إلى الله عز وجل، وتذكّروا أن الله قاهر غالب قادر على الانتقام ذو عزة لا يمنعه من الانتقام من العاصين مانع، ولا يدفع عقابه عنهم دافع، وهو الحكيم في أفعاله، التي لا تخلو من حكمة يعلمها العليم الخبير، وقد أقام الله عز وجل البراهين الساطعة والحجج القاطعة وأيد رسوله ﷺ بالمعجزات الدالة على أنه رسول الله ﷺ، فلا تخالفوا أمره ولا تطيعوا الشيطان الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. وفي تذييل الآية بقوله عز وجل: ﴿ واعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ ترهيب من مخالفة أمره، وإذا كان هذا التحذير موجّها لأوليائه فهو أشد تحذيرا لأعدائه.

وقوله عز وجل: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَل من الغَمَام والملائكةُ وقُضِيَ الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾ هذا توبيخ للكفار الذين لم يسارعوا إلى الدخول في دين الإسلام ولم يستجيبوا لرسول الله ﷺ بعد أن أيده الله تعالى بالمعجزات التي يؤمن على مثلها البشر، كأنه قيل لهم: لماذا لا تسارعون إلى الدخول في الإسلام؟ ألم تأتكم الآيات الشاهدات على أن الله حق وأن وعده الحق وأن محمدا حق، وماذا تنتظرون؟ هل تنتظرون قيام الساعة ومجيء يوم القيامة، يوم تشقق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلا، وجاء ربك والملك صفا صفا؟ إذا جاء هذا اليوم فقد قضي الأمر، وليس هناك للكافرين إلا النار، كما قال عز وجل: ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتيَ ربُّك

أو يأتيَ بعضُ آياتِ ربك يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربِّك لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنَتْ من قبلُ أو كسبَتْ في إيمانها خيرا، قل انتظروا إنّا منتظرون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿كلاّ إذا دُكّت الأرض دكًا دكًّا* وجاء ربّك والملك صَفًّا صَفًّا* وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى﴾ ومعنى: ﴿ينظرون﴾ أي ينتظرون، يقال: نظرته وانتظرته بمعنًى. ولذلك قال عز وجل: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ ثم قال في آخر الآية: ﴿قل انتظروا﴾. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وقُضِيَ الأمر﴾ أي وفُصِل القضاء بالعدل بين الخلق، فلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، إذ أنه إذا قامت القيامة آمن وقتئذ جميع الكافرين كما قال عز وجل: ﴿إذا وقعت الواقعة* ليس لوقعتها كاذبة﴾ أي ليس عند وقوع القيامة نفسٌ تكذب بها، لكن لا ينفع الكافرين إيمانهم يومئذ. وقوله عز وجل: ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي وإلى الله وحده يؤول القضاء بين الخلق يوم القيامة فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولا يستوي الصالحون والفجار، كما قال عز وجل: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾. وقوله عز وجل: ﴿سَلْ بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة﴾ هذا توبيخ للمشركين واليهود الذي لم يسارعوا إلى الاستجابة لله ورسوله والدخول في دين الإسلام بأنه مهما جاءتهم من الآيات فلن يؤمنوا بها؛ لأن الله عز وجل ختم على قلوبهم بسبب فسقهم ومعاصيهم، فلو سألت بني إسرائيل كم من الآيات البينات شاهدوا مع موسى عليه السلام ومع ذلك فما أقلّ انتفاعهم بها، فهم يعلمون أن الله عز وجل أيّده بمعجزات منها اليد والعصا وفلق البحر وضربه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا وما كان من تظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى في آيات كثيرة ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وفي اليوم الذي شاهدوا فيه انفلاق البحر ونجاتهم رأوا قوما

يعكفون على أصنام لهم فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فبدّلوا نعمة الله كفرا، وكذلك أهل الكتاب والمشركون رأوا ما أيّد الله به نبيه محمدا ﷺ من المعجزات والآيات البينات ومع ذلك بدّلوا نعمة الله كفرا، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿ومن يُبَدِّلْ نعمةَ الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ألم تَرَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البَوَار * جهنَّمَ يصلونها وبئس القرار﴾ وليس المراد بقوله عز وجل: ﴿سل بني إسرائيل﴾ هو أن يسألهم عن شيء لا يعرفه، أو يستفهم منهم عن خبر ما عنده علم به، بل المقصود هو توبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم مع ما فيه من مواساة رسول الله ﷺ وتسليته في نفس الوقت، لأن السؤال مُتَضَمّن أنّ محمدا وهو النبي الأمي ﷺ قد أطلعه الله وعرّفه بالآيات التي أعطاها موسى عليه السلام وأنها كثيرة جدا، ولذلك لا يحتاج هذا السؤال إلى جواب لأن السؤال إذا كان لغير الاستعلام لا يحتاج إلى جواب.

وقوله عز وجل: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ أي فإن عقوبة الله شديدة لهؤلاء المجرمين. وقوله عز وجل: ﴿زُيِّنَ للذين كفروا الحياةُ الدنيا﴾ أي حَسُنَتْ في أعينهم، وأُشْرِبَتْ محبّتها في قلوبهم، فتهالكوا عليها، وتهافتوا فيها وصارت كلّ همهم ومبلغ علمهم، وصاروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنّار مثوى لهم، وقد جعل الله تبارك وتعالى ما على الأرض زينة لها ليختبر عباده بها فالكفار تعلقوا بها وقالوا ربنا آتنا في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق. والمؤمنون يقولون ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لِنَبْلُوَهُم أيهم أحسن عملا * وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جُرُزا﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ تقييد لقبيحة عظيمة من قبائح الكفار وهي استهزاؤهم بالمؤمنين، فكانوا إذا مرّ بهم

المؤمنون يتغامزون، ويسخرون منهم ويستهزئون بهم، وما كان ذلك منهم إلا لاستغراقهم في الجهل لأن الاستهزاء بالناس لا يصدر إلا عن جاهل ولذلك لما قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ ولذلك سجّل الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم أن المؤمنين الذين سخر المشركون منهم سيكافئهم المؤمنون بذلك يوم القيامة حيث يقول عز وجل: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون* وإذا مرّوا بهم يتغامزون﴾ ثم قال عز وجل: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون* على الأرائك ينظرون* هل ثُوِّبَ الكفار ما كانوا يفعلون﴾. وقوله عز وجل: ﴿والذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة﴾ أي المتصفون بصفة التقوى في عِلّيّين يوم القيامة. والذين كفروا في أسفل السافلين في نار الجحيم، كما قال عز وجل: ﴿يوم يرون الملائكة لا بُشْرى يومئذ للمجرمين ويقولون حِجْرا محجورا* وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هَبَاء مَنْثُورا* أصحاب الجنة يومئذ خير مُسْتَقَرا وأحسن مَقِيلا* ويوم تَشَقّق السماء بالغَمام ونُزِّلَ الملائكة تنزيلا* الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾. وقوله عز وجل: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي ولا حَجْر على فضل الله فهو يعطي الجزيل، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أَنْفِقْ أُنفِقْ عليك، وقال: يد الله مَلأَى لا تغيضُها نفقة سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ، وقال: أرأيتم ما أنفق مُذْ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغِضْ ما في يده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع».

قال تعـالى: ﴿كان الناس أمّة واحـدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين النـاس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الـذين أوتوه من بعد ما جـاءتهم البيّنات بغيا بينهم فهـدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم* أم حسبتم أن تـدخلوا الجنـة ولما يأتكم مثل الـذين خلـوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء وزلزلوا حتّى يقول الـرّسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألَا إنّ نصر الله قريب﴾

بعـد أن بيّن الله تبـارك وتعالى في المقـام السـابق مـا يفيـد أنّ سبب إصرار الكفـار على الكفـر هـو حبّهم للحيـاة الدنيـا وحـرصهم عليهـا وحسـدهم وبغيهم، وأن المؤمنين قد هُدُوا إلى الصراط المستقيم فمنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيـا حسنة وفي الآخرة حسنـة وقنا عذاب النـار، ومنهم من يشري نفسه ابتغـاء مرضـاة الله، ذكـر هنا مـا يفيـد أن النـاس كلّهم كانـوا على الحق وأن الشيـاطين اجتـالتهم عنه حتى عبـدوا غير الله، وضلـوا عن سـواء السبيل، فأرسل الله عز وجل الرسل وأنزل الكتـب فاختلف الناس، فمنهم من هَدَى اللهُ ومنهم من حقت عليـه الضـلالة، فقـامت الـرسل يبشرون من أطـاعهم بنعيم الجنة وكريم ثوابها وينذرون من عصاهم بالنار وأليم عقابها ليهلك من هلك عن بينـة ويحيى من حـيّ عن بينـة، وفي هـذا تسليـة لـرسـول الله ﷺ وللمؤمنين بأن اختلاف النـاس ليس أمرا جديدا مختصا بزمـان بعثة رسول الله محمـد ﷺ بل هو قـديم عميق في التـاريخ. ولا شك أن آدم وذريتـه كانـوا جميعا على الهدى وإخلاص العبادة لله وحده واستمر ذلك في ذرية آدم عشرة قرون كما ذكر البخاري في صحيحـه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. فمعنى قـوله عز وجل: ﴿كان

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الناس أمةً واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ أي كان بنو آدم مجتمعين على الهدى ودين الحق مدة من الزمان بيّنها ابن عباس بعشرة قرون ثم وسوس لهم الشيطان حتى عبدوا بعض الصالحين كما أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وقالوا لا تَذَرُنّ آلهتكم ولا تَذَرُنّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم عُبِدَتْ اهـ فبعث الله عز وجل رسلا أوّلهم نوح عليه السلام وأنزل معهم الكتب لتكون نظاما إلهيا يحكم بها حكام الشريعة ويتحاكم إليها أتباع الأنبياء والمرسلين فيما يحدث بينهم من الاختلاف في الحقوق ونحوها، ويسيرون على منهاجها المستقيم، ليفوزوا بعز الدنيا وسعادة الآخرة. ولا شك أن الأمم عندما كانت تجيئهم رسلهم بالبينات كانوا يختلفون على رسلهم فمنهم آمن و منهم كفر، وقد ورد الاختلاف في كتاب الله عز وجل على نوعين: أحدهما يذم الله فيه المختلفين جميعا، كقوله عز وجل: ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ وكقوله عز جل: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ أما النوع الثاني من الاختلاف فهو ما يقع من الاختلاف بين المؤمنين والكافرين فيمدح الله المؤمنين ويذم الكافرين كقوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولَكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولَكن الله يفعل ما يريد﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أُوتُوه من بعد ما جاءتهم البينات بَغْيًا بينهم﴾ تحذير من مشابهة أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يدّعون أنهم جميعا يؤمنون بالتوراة وبموسى ثم يكفر

الجديد و طهرك NEW & EXCLUSIVE

اليهود بعيسى وبالإنجيل كما يكفر اليهود والنصارى بمحمد ﷺ وبالقرآن مع أنهم قبل مجيئه ونزول القرآن عليه كانوا مطبقين على وجوب الإيمان به إذا جاء، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . ثم أثنى الله تبارك وتعالى على المؤمنين وأنهم أُرْشِدُوا إلى الحق وهُدُوا إلى الصواب فآمنوا بموسى والتوراة وبعيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن حيث يقول: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ وهذا المقام في القرآن الكريم شبيه بقوله عز وجل: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءتهم البينة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات﴾. وقوله عز وجل: ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ بيان لفضل الله عز وجل على المؤمنين الذين وفقهم إلى الهدى وأرشدهم إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وقد جعل الله تبارك وتعالى حقا على كل مؤمن أن يدعو الله عز وجل مرات في كل يوم وليلة يقول: ﴿اهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فيكررها في صلاة الصبح وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء وصلاة التطوع ولقد كان رسول الله ﷺ وهو المعصوم من كل انحراف يَضْرَعُ إلى الله عز وجل أن يهديه عند الاختلاف إلى الهدى والرشاد، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته فقال: «اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». ولا شك أن دعوة رسول الله ﷺ هذه قد

استلهم فيها قوله تبارك وتعالى: ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى بعض ما اختلف فيه أهل الكتاب فهدى الله المؤمنين من أمة محمد ﷺ له فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أُوتُوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تَبَعٌ، اليهود غدا والنصارى بعد غدٍ». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة، ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أُوتُوا الكتاب من قبلنا وأُوتِينَاه من بعدهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، هدانا الله له، قال: يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى». وقوله عز وجل: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأْتِكُم مَثَلُ الذين خَلَوْا من قبلكم مَسَّتهم البأساء والضراء وزُلْزِلُوا﴾ في هذا المقام الكريم لفت انتباه المؤمنين الذين هداهم الله للحق بإذنه أي بأمره وإرادته ومشيئته، إلى أن سِلْعتهم وهي الجنة سلعة غالية قد بذل المؤمنون الأولون كلّ غال ونفيس في سبيلها، وتعرضوا لأنواع من البأساء والضراء وزلزلوا، لِتتوطّن نفوس المؤمنين على ما يصيبهم في سبيل الله، فيَصْبروا ويَحْتَسِبوا، و(أمْ) في قوله عز وجل: ﴿أم حسبتم﴾ للاستفهام المقصود به الحض على الصبر وتحمّل المشاق في سبيل الله، وقوله عز وجل: ﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ أي والحال أنه لم يصبكم مثل ما أصاب المؤمنين الذين مَضَوْا من قبلكم ولم تُبْتَلُوا بمثل ما ابْتُلُوا به، وقوله عز وجل: ﴿مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ استئناف بياني كأن سائلا سأل: ماذا أصابهم؟ فقال: ﴿مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ والبأساء شدّة

الفقر، والضراء الآلام والأسقام، ومعنى: وزلزلوا، أي وخُـوِّفوا وحُرِّكوا بأنواع البلايا والرزايا من جهـة أعدائهم المخالفين لهم المختلفين معهم، ونظير هذا قوله عز وجل: ﴿الم * أحسب الناس أن يُتْرَكُوا أن يقولوا آمَنَّا وهم لا يُفْتَنُون * ولقد فتَنّا الذين من قبلهم فلَيَعْلَمَنّ الله الـذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾، وقد روى البخـاري رحمه الله في صحيحه من حديث خَبّـاب بن الأرَتّ قال: شكـونـا إلى رسول الله ﷺ وهـو متوسّـد بـردة له في ظل الكعبـة فقلنـا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعـو لنا؟ فقال: «قد كان مَن قبلكم يُؤْخَـذُ الرجلُ فيُحْفَر لـه في الأرض فيُجَـاءُ بـالمنشـار فيُـوضَع على رأسـه فيُجْعَل نصفين ويُمْشَط بأمشاط الحديـد ما دُونَ لحمِـه وعظمِه فما يصدّه ذلـك عن دينه، والله لَيتِمَّنّ هـذا الأمـر حتى يسير الـراكب من صنعـاء إلى حَضْرَمَـوْت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلـون». ولا شك أن أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم قد أصـابهم مثل ما أصاب المؤمنين السـابقين مع الأنبياء والمرسلين كما قال عـز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكـروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكـم جنود فأرسلنـا عليهم ريحا وجنودا لم تَـرَوْها، وكـان الله بما تعملون بصيرا * إذْ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم وإذْ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحنـاجرَ وتظنون بـالله الظنونا * هنـالك ابْتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلـوا زلزالا شديدًا﴾. وقوله عز وجل: ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب﴾ أي يصل البلاء بالمسلمين إلى حالة يحسّ المؤمنون أن أعداءهم لن يـؤمنوا فعندئذ يطلبـون من الله عز وجل أن يهلك الكـافرين ولا يُبْقِيَ منهم أحدا كما قال عز وجل: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُـذِبُوا جاءهم نصرنا فنُجِّيَ مـن نشاء ولا يُرَدّ بأسُنا عن القـوم المجرمين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأُوحِيَ إلى نوح أنـه لن يؤمن من قومك إلا مَن قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلـون * واصنع الفلك بأعيننا ووحينـا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغْرَقون﴾.

شبكة الألوكة www.alukah.net
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم* كتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

هذا هو المقام الثالث في هذه السورة المباركة الذي يوصي الله تبارك وتعالى فيه المؤمنين ويحضّهم على توجيه العناية بذوي القربى واليتامى والمساكين والإحسان إليهم، حيث كان المقام الأوّل في بيان ما أخذه من الميثاق على بني إسرائيل حيث قال: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين﴾ الآية، وكان المقام الثاني في آية البرّ حيث قال: ﴿وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين﴾ الآية. وقال في هذا المقام الكريم: ﴿قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ الآية، وقد أورد هذا المقام الكريم هنا بعد أن حضّ على الإنفاق في سبيل الله في الآية الخامسة والتسعين بعد المائة حيث ختم بها هناك بعض أحكام القتال في سبيل الله وقبل الشروع في بيان أحكام الحج وذكر بعض أركانه وواجباته، وقد ذكر في هذا المقام قبل هذه الآية ما قد يبتلي به عباده المؤمنين من البأساء والضراء والزلزلة كما ذكر بعدها مباشرة أنه كتب عليهم القتال ليلفت انتباه المؤمنين إلى أنه لا ينبغي لهم أن يشغلهم شاغل مهما كان شديدا عن رعاية ذوي القربى واليتامى والمساكين. وهذه التنبيهات الإلهية شبيهة بجرس الإنذار الذي يحذّر من إضاعة ذوي القربى واليتامى والمساكين، ولا شك أن جميع الأنظمة البشرية التي توضع للرعاية الاجتماعية والتكافل الاجتماعي تعجز عن بث هذه الروح الكريمة في نفوس الناس للعناية بهذه الفئات من المجتمع

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

لتستشعر الكرامة والعزة بين سائر الطبقات، وقد قدمت في تفسير قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة﴾ أن عرض العلم بطريقة السؤال والجواب من أعظم أسباب ترسيخ المعلومات في أذهان السامعين، وقد أطبق على هذا علماء النفس والتربية. وقوله عز وجل: ﴿ يسألونك ماذا ينفقون﴾ ليس سؤالا عن طلب ماهية النفقة بل السؤال عن طلب مصارف النفقات التي تكون أحبّ إلى الله ورسوله بعد ما أمرهم بالإنفاق في سبيل الله في الآية الخامسة والتسعين بعد المائة، فأجابهم بأنّ خير ما ينفقونه ما كان على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، ولا شك عند أهل العلم أن من كانت نفقته واجبة على شخص فإنه لا يجوز لهذا الشخص أن يعطي زكاته لمن تجب عليه نفقته، لكن الله تبارك وتعالى يعطي من فضله الأجر الجزيل كلّ من أنفق نفقة يبتغي بها وجه الله حتى إطعام الزوجة كما في صحيح البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حيث قال له رسول الله ﷺ: «وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللّقمة التي ترفعها إلي في امرأتك» وتقديم الوالدين لأن حقهما أعظم من حق غيرهما فوجب تقديمهما على غيرهما في رعاية الحقوق، ثم ذوي القربى لأن رعاية حقوقهم تجمع بين الصلة والصدقة، ثم اليتامى لأن الطفل الذي مات أبوه قد عدم الكاسب وأشرف على الضياع لعدم قدرته على الكسب فصار من حقه أن يبادر كل محسن برعايته حتى يحسّ بأنه وإن كان مات أبوه فقد صار كل ذوي البرّ بمنزلة الوالد الحنون له، وقد أخر المساكين عن اليتامى لأن حاجتهم أقل من حاجة اليتامى، لأن قدرة المساكين على الكسب أكثر من قدرة اليتامى عليه، وقد جعل ابن السبيل في المرتبة الأخيرة من هؤلاء لأن حاجته نادرة، فما أجمل هذا الترتيب الدقيق في كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، وقوله عز وجل: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

به عليم﴾ أي ومهما صدر منكم من فعل خير وعمل معروفٍ فإن الله يعلمه وسيجزيكم عليه أحسن الجزاء، وقد بشّر رسول الله ﷺ من تصدق بناقة مخطومة أي فيها خِطَام وهو ما تُجَرُّ به من أنفها، بأن له يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه ناقة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلّها مخطومة». وقوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم﴾ أي فرض عليكم الجهاد في سبيل الله وملاقاة أعدائه الذي تتعرضون فيه للموت وبذل النفس، ولما كان حبّ الحياة غريزة في نفوس الأحياء من الناس والحيوانات قد غرسها الله عز وجل في كل حيوان وقد علم الناس في جميع الأعصار والأمصار والقرى والبوادي أن غريزة حبّ البقاء غريزة جُبل عليها الإنسان لذلك وصف الله تبارك وتعالى فرض القتال بأنه كُرْهٌ أي شاق على النفس الإنسانية، وليس معنى ذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يكرهون أن يفرض عليهم القتال في سبيل الله بل ثبت أنهم كانوا يتمنونه قبل فرضيته كما أشرت إلى ذلك عند الكلام على أطوار الجهاد في سبيل الله في تفسير قوله تبارك تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ وقد سقت للدلالة على تمني المسلمين أن يشرع لهم قتال أعدائهم قوله عز وجل: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزّلت سورة﴾ أي يشرعُ فيها للمسلمين قتال أعدائهم بدليل قوله تعالى في نفس الآية: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذُكِرَ فيها القتال رأيتَ الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المَغْشِيّ عليه من الموت فأَوْلَى لهم * طاعةٌ وقولٌ معروف، فإذا عزم الأمرُ فلو صَدَقوا اللهَ لكان خيرا لهم﴾ ومع كون القتال شاقا على النفس الإنسانية فإن المسلم ولا سيما من أصحاب رسول الله ﷺ قد يبذل نفسه رخيصة في سبيل الله دفاعا عن

دينه وإعلاء لكلمته، وقد سقت أمثلة لبعض أصحاب رسول الله ﷺ في تفسير قوله عز وجل: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد﴾ ولا شك أن من آمن بالله واليوم الآخر يغلّب ما أُمِرَ به شَرْعا على ما جُبِلَ عليه طَبْعا، ليقينه بأن بذل نفسه في سبيل الله يورثه الدرجات العلى في جنات النعيم، وأكثر أوامر الشرع ونواهيه إنما تربّي في النفس الإنسانية تقديم مراد الشرع على مراد الطبع ولذلك حرمت الاعتداء على الأعراض والأموال والعقول حتى لا يندفع الإنسان وراء شهوته وغريزته، والإنسان يشرب الدواء المرّ لعلمه بحسن عاقبته وحلاوة مآله، وقوله عز وجل: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شر لكم﴾ هذه قضيّة مسلّمة عند سائر البشر، فكم يمر بالعاقل من تجرُبة يتحقق فيها صدق هذه القضية، حيث يرغب الإنسان في شيء ويسعى له ويبذل النفيس في الوصول إليه وتحصيله وتكون عاقبته له غير حميدة ويتمنّى أنه لم يكن سعى له ولا حصل عليه لما يجلبه له من تعاسة في حياته الدنيا، وكم ينزل بالإنسان شيء يكرهه وتكون عاقبته له حميدة، ويفرح بحصوله له ويتأسف على ما سبق من كراهيته له، والإنسان لا يعلم الغيب، والعبرة في الأمور بحسن عاقبتها، ولذلك أُثِرَ في الدعاء: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأَجِرْنا من خِزْي الدنيا وعذاب الآخرة» كما في مسند أحمد من رواية ابنه عبدالله قال: ثني أبي ثنا هيثم بن خارجة ثنا محمد بن أيوب بن مَيْسَرة بن حَلْبَس قال: سمعت أبي يحدث بُسْر بن أرطأة القرشي يقول، وذكر الحديث، ولذلك كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن فقد روى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا

همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولاأعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: في عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسّره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أنه شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضّني به، ويسمّي حاجته». وقوله عز وجل: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي والله أعلم بعواقب أموركم منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم ومعاشكم ومعادكم، فأيقنوا أنّ ما يفرضه عليكم يجلب لكم خير الدنيا والآخرة وعزّ العاجلة والآجلة وإن كان على خلاف ما تشتهيه غريزة النفس الإنسانية، التي تميل إلى الراحة والبقاء الدنيوي، فسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

قال تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولّئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولّئك أصحاب النار هم فيها خالدون * إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولّئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم﴾.

لما ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة أنه كتب القتال على المسلمين ليجاهدوا أعداء الله ولتكون كلمة الله هي العليا استفسر بعض الناس من رسول الله ﷺ عن القتال في الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذوالحجة والمحرم ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان فأنزل الله عز وجل: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه﴾ الآية. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله عز وجل جعل السنة اثني عشر شهرا يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حُرُم، ثلاثة مُتَواليات: ذوالقعدة وذوالحجة والمُحَرَّم، ورجب مُضَرَ الذي بين جُمادى وشعبان» وقد بَيَّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث مجمل قول الله عز وجل: ﴿منها أربعة حرم﴾ حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم﴾ ولا شك أن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفون بها ورثوه من دين إبراهيم عليه السلام هذه الأشهر الحرم، إلا أنهم كانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدّة تحليلَ المحرَّم فأخَّرُوه إلى صَفَر حيث جعلوا

شبكة الألوكة
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

صَفَرا مُحَرَّما والمحرم صَفَرا، ليتمكنوا من القتال وليواطئوا عدة ما حرّم الله فيُحِلّوا ما حرّم الله، وقد افتخر شاعر منهم بذلك حيث يقول عمير بن قيس:

لقد علمَتْ مَعَدّ بأن قومي ... كرامُ الناس إنّ لهم كراما
أَلَسْنا الناسِئين على مَعَدّ ... شهورَ الحِلّ نجعلها حراما

وقد بين الله تبارك وتعالى أن النّسيء من زيادة الكفر عند أهل الجاهلية حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلّونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلوا ما حرّم الله، زُيّن لهم سوء أعمالهم، والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ وفي شهر جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة بعث رسول الله ﷺ سريّة وأمّر عليهم عبد الله بن جحش رضي الله عنه وكتب له كتابا وأمره أن لا يقرأه إلا بعد مسيرة يومين، وأنه لا يُكْرِهُ أحدا من أصحابه على المسير معه بعد قراءة كتاب رسول الله ﷺ عليهم، فلما بلغ المكان الذي أمره رسول الله ﷺ بقراءة الكتاب فيه، ويُذْكَرُ أنه «بطْنُ مَلَلٍ» وقرأ الكتاب على أصحابه تَبِعُوه جميعا سوى رجلين تخلفا للبحث عن راحلتهما، فلقوا ابن الحضرميّ في ناس من قريش راجعين بتجارة من الشام فقتلوهم، واتّفق وقوع ذلك في أول يوم من رجب، ولم يكونوا قد رأوا هلال رجب، وكانوا يظنون أن هذا اليوم هو الثلاثون من جمادى الآخرة، وقتلوا ابن الحضرمي وأخذوا الذي كان معهم، فاستغلّت قريش هذه الحادثة أسوأ استغلال، وقالوا: محمد يزعم أنه يعظّم الشهر الحرام ويقاتل فيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه، قل قتالٌ فيه كبير، وصدّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يرُدوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيَمُتْ وهو كافر فأولئك حبطت

الجديد و طرح
NEW & EXCLUSIVE

أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وِزْرا فإنهم لم يصيبوا أجرًا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولَئك يرجون رحمت الله ، والله غفور رحيم﴾ . وقد أشار البخاري في صحيحه إلى قصة سريّة عبدالله بن جحش هذه حيث قال في كتاب العلم : واحتج بعض أهل الحجاز في المناولة بحديث النبي ﷺ حيث كتب لأمير السرية كتابا وقال : لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا ، فلما بلغ المكان قرأه على الناس وأخبرهم بأمر النبي ﷺ اهـ وقال السيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ الآية : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في سننه بسند صحيح عن جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة بن الحارث فلما ذهب لينطلق بَكَى صبابة إلى رسول الله ﷺ فجلس ، وبعث مكانه عبدالله بن جحش ، وكتب له كتابا ، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا ، وقال : «لا تُكْرِهَنّ أحدا على السّير معك من أصحابك» فلما قرأ الكتاب استرجع وقال : سمعا وطاعةً لله ولرسوله ، فخبّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب ، فرجع رجلان ، ومضى بقيتهم ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى ، فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام؟ فأنزل الله : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ الآية ، فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وِزْرًا فليس لهم أجر ، فأنزل الله : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولَئك يرجون رحمت الله ، والله غفور رحيم﴾ اهـ وقد ساق ابن كثير رحمه الله في تفسيره وفي (البداية والنهاية) حديث جندب بن عبد الله من رواية الحافظ أبي محمد بن أبي حاتم قال : حدثنا أبي حدثنا محمد بن أبي بكر

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المقَدَّمي حدثنا المعْتَمِرُ بن سليمان عن أبيه حدثني الحضرميّ عن أبي السَّوَار عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطا، وساق الحديث باللفظ المتقدم إلى قوله: فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبيرٌ﴾ الآية اهـ، ولا شك أن ابن أبي حاتم أحد الثقات الحفاظ، وأبوه أحد الأعلام الثقات، ومحمد بن أبي بكر المقَدَّميّ من رجال البخاري ومسلم، والمعتمر بن سليمان من رجال الجماعة، وأبوه سليمان بن طرخان التيميّ من رجال الجماعة أيضا، والحضرميّ قد ذكر أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتابه: (الجرح والتعديل) أن عبد الله بن أحمد بن حنبل سأل يحيى بن معين عن الحضرمي الذي يروي عنه التيميّ فقال: ليس به بأس، اهـ وذكر الحافظ ابن حجر في (تهذيب التهذيب) في ترجمة أبي السَّوَار فقال: روى عنه الحضرمي اهـ وأبو السَّوَار من رجال البخاري ومسلم، وبهذا يتبين أن الذين توجهوا بالسؤال إلى رسول الله ﷺ هم المشركون، وقصدوا بذلك التشويش على الإسلام والمسلمين فردّ الله كيدهم في نحورهم وذكر قَواصِمَ الظهر من قبائح أفعالهم، وأثبت مغفرته ورحمته لأهل هذه السَّرِيَّة رضي الله عنهم، وقد قال عبد الله بن جحش رضي الله عنه يوبّخ كفار قريش على كفرهم بالله وصدّهم عن سبيل الله:

تعُدّون قَتْلا في الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرُّشْدَ راشدُ
صُدُودكُمُو عما يقول محمد ... وكفرٌ به واللهُ راءٍ وشاهدُ
وإخراجُكم من مسجد الله أَهْلَه ... لئلاّ يُرَى لله في البيت ساجدُ
فإنّا وإن عيّرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سَقَيْنا من ابن الحضرمي رماحَنا ... بنَخْلَة لمّا أوقد الحربَ واقدُ
دَمًا، وابنُ عبد الله عثمانُ بيننا ... يُنازعه غُلٌّ من القَيْد عاندُ

وقوله: بنخلة، يشير إلى المكان الذي حصلت فيه المعركة، وقوله: أوقد

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

الحربَ واقد، يريد أن واقد بن عبد الله اليَرْبُوعيّ حليف عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي رمى ابن الحضرمي بسهم فقتله، وكان واقدٌ رضي الله عنه في هذه السرية المباركة، وقوله: وابنُ عبد الله عثمانُ بيننا، يشير إلى أنهم أخذوا عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزوميّ أسيراً. وقوله عز وجل: ﴿قتال فيه﴾ بدل اشتمال، وقوله تعالى: ﴿قل قتال فيه كبير﴾ أي أخبرهم أن القتال في الشهر الحرام إثم عظيم يعني لمن تعمّد القتال فيه ولم يكن دفاعا، وقوله عز وجل: ﴿وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾ أي ومنع للناس من الدخول في الإسلام، وكفركم أيها المشركون بالله وصدّكم المؤمنين عن المسجد الحرام وإخراجكم النبيّ محمدا ﷺ والمؤمنين حتى اضطررتموهم إلى الهجرة من مكة هو أعظم إثما وأكبر ذنبا من القتال في الشهر الحرام، وقوله عز وجل: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أي وكفركم بالله وإكراهكم للمسلمين على الكفر بالله أكبر إثما من القتال في الشهر الحرام ومن قتل النفس مطلقا بغير حق. وقوله عز وجل: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم﴾ الآية. أي وسيستمر كفار قريش في حرب المسلمين لكي يصدوهم ويحملوهم على الردة عن الإسلام لو تمكنوا من ذلك، ومن يرجع إلى الكفر بعد الإسلام حتى يموت على الكفر فهؤلاء بطلت أعمالهم الصالحة في الدنيا بهدر دمهم، وفي الآخرة بضياع أجرهم، وهؤلاء أهل النار المخلدون فيها، وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ الآية أي إن المؤمنين المهاجرين المجاهدين أصحاب سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنهم هم طلاب رحمة الله، والله يدخلهم في رحمته ومغفرته.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو، كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكّرون* في الدّنيا والآخرة، ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ وإن تخالطوهم فإخوانكم، والله يعلم المفسدَ منَ المصلحِ، ولو شاء الله لأعنتكم، إنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾.

بعد أن أمر الله عز وجل الناس أن يأكلوا مما في الأرض حلالاً طيباً كما مرّ في الآية الثامنة والستين بعد المائة ثم أمر المؤمنين بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم كما في الآية الثانية والسبعين بعد المائة ثم نهاهم أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل في الآية الثامنة والثمانين بعد المائة وشرع القصاص لحماية أرواح الناس وسلامتهم، ثم الصيام لقمع شهوتي البطن والفرج، ثم الحجّ لإقامة ذكر الله ثم كتب الجهاد لصيانة دين الله وإعلاء كلمته، ذكر في هذا المقام أحد أطوار تحريم الخمر والميسر لما فيهما من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ولإفسادهما للقلب والعقل، ولما فيهما من أكل أموال الناس بالباطل، وتجاوزهم من الطيبات إلى الخبائث، وقد مرّ تحريم الخمر بأطوار أربعة على طريقة التّدرّج في التشريع كما حدث في تشريع الصيام والجهاد بحسب ما تقتضيه تربية النفوس وإعدادها لتلقي الأحكام التي تأتي للحجر على النفوس من الانطلاق وراء الشهوات والمضار، وقبل البدء في الحديث عن أطوار تحريم الخمر في الإسلام أشير هنا إلى أن الخمر لم تكن مباحة قبل هذه الأطوار بنص من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ وإنما كان يشربها من يشربها من المسلمين اتباعا لعاداتهم قبل الإسلام، وقد امتنع بعض ذوي العقول فحرمها على نفسه في الجاهلية قبل الإسلام، منهم قيس بن عاصم المنقري وقد كان شرّابا لها في الجاهلية فلما سَكِرَ مرة غمز عُكْنَة ابنته وسبّ أبويه ورأى القمر فتكلم

بشيء يخزي، فلما أفاق أُخْبِر بذلك فحرم الخمر على نفسه وفيها يقول:

رأيت الخمر صالحةً وفيها خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحا ولا أُشْفَى بها أبدا سقيما
ولا أعطي بها ثمنا حياتي ولا أدعو لها أبدا نديما
فإنّ الخمر تفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيما

وقد قيل للعباس بن مرداس في الجاهلية: لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد في جرأتك؟ فقال: ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله في جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم.

ولما كان العرب في جاهليتهم قد استغرقوا في شرب الخمر وغلبتهم حتى صار بعضهم لا يكاد يصحو منها، وكان تحريمها دفعة واحدة قد يؤدي إلى نفرتهم عن الإسلام كما ذكر عن الأعشى أنه لما توجه إلى المدينة ليُسْلِمَ وعلم بذلك مشركو قريش خافوا أن يكون لشعره أثر في نشر دعوة الإسلام فلقيه بعضهم في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم أنه يريد محمدا ﷺ فقالوا: لا تَصِلْ إليه فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الربّ واجبة، فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء، فقال: إن اصطناع المعروف واجب، فقالوا له: إنه ينهى عن الزنى، فقال: هو فحش وقبيح في العقل وقد صرت شيخا فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر فقال: أما هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع وقال: أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه، فلما رجع من الطريق سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات فلم يصل إلى منزله. فكان من حكمة العليم الخبير التّدرّج في تشريع تحريم الخمر على أربعة أطوار، حيث أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ قبل الهجرة وهو يعدّدُ آلاءه ونعمه على خلقه، ويذكّرهم بآياته وآثار قدرته فقال في سورة النحل: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَرًا ورزقا حسنا﴾ ففي هذا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة
شبكة الألوكة www.alukah.net

إمـاءة إلى التنديـد باتخاذ المسْكِـر من ثمر النخيل والعنب بجعلـه خمرا حيث عطف عليه الرزق الحسن كأنه قال لهم: تجعلونه رزقا رديئا ورزقا حسنا، ولا شك أن هذا الأسلـوب في لفت انتباه النفس إلى التـوقف عن شرب الخمر في الـدرجة العليـا من أساليب التربيـة والتعليم والتحـذير، قـال في القامـوس المحيط: والسَّكَر محرّكـة الخمر. أما الطور الثـاني فكان في هذا المقـام الكريم من سورة البقرة حيث يقول: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ والاستفهام والسؤال هنا من المؤمنين للاستفسار عن حكم الخمر والميسر، والخمر مـا خامر العقل وغطاه وغيّبه، من عصير العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، وسـائر ما يصنعه الناس مما يُسْكِـر سواء كـان مائعا أو جـامدا أو مشمـوما، مـا دام يخامر العقل أي يغطيه ويغيبه. والميسر هو القمار، قال مجاهد ومحمد بن سيرين والحسن وابن المسيب وعطاء وقتـادة ومعاويـة بن صالح وطاوس وعليّ بـن أبي طالب وابن عبـاس رضي الله عنهم: كل شي فيه قمار من نـرد وشطرنج فهـو الميسر حتى لعب الصبيان بالجَوْز والكِعَاب إلا ما أبيح مـن الرّهان في الخيل، والقرعة في إفراز الحقوق كما ذكر القـرطبي رحمه الله. ومن أشهر ميسر العرب قمار الأزلام ومراهنتهم بها حيث كـانـوا يتراهنون على الجزور ويجعلونها أسهما ويكتبون على كل سهم نصيبا معينا منها ويجعلون بعضها مهملا لا نصيب لمن تصيبه، ثم يضعونها في خـريطة ويدفعونها إلى يـد رجل فيُجَلْجِلُها ويدخل يـده فيُخْرج منهـا باسم كل واحـد منهم واحـدًا منها فكـل من خرج لـه سهم من ذوات الأنصباء أخذ من الجزور بقَدْره، ومن خرج له سهم مُهْمَل لا نصيب له غُرِّم ثمن الجزور وكانوا يدفعون أنصباءهم إلى الفقراء ولا يأكلونها ويتباهون بذلك ويتفاخرون به ويذمون من تخلف عن هذا الرهان، وكانت الخمر والميسر هي شغل العرب الشاغل يتمدحون بهما وفي ذلك يقول أعشى بني ثعلبة:

وَسَبيئةٍ ممـا تُعتّق بابـل كدم الذبيح سَلَبْتُها جِرْيالَـها
وغريبةٍ تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال : من ذا قالها
وجزور أيسار دعَوْتُ إلى النّدى ونياطِ مُقْفرة أخاف ضلالها

وقوله عز وجل : ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ أي في تعاطي الخمر والميسر ذنب عظيم وجرم فاحش ، وقوله عز وجل : ﴿ومنافع للناس﴾ هو ما كانوا ينثرون من أموالهم لمن حولهم عند شرب الخمر وما يحصل لهم من بعض اللذة وقت شرابها على ما توهمته نفوسهم كما كانوا يصيرون بعد شربها إلى جرأة تدفع الواحد منهم إلى ارتكاب الصعاب كما قال حسان رضي الله عنه :

ونشرَبُها فتتركنا ملوكا وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُهَا اللّقاء

وكما قال الأعشى :

من قهوة باتَتْ ببابل صفوةٍ تدَعُ الفتى ملكا يَميل مصرّعًا

وقد أشار الأعشى إلى بعض أوضارها مع بعض لذاتها حيث يقول :

لَعَمْرُك إن الرّاح إن كنت شاربا لمختلف آصالُها وغداتُها
لنا من ضحاها خُبْثُ نفسٍ وكَأْبة وذكرى هموم ما تُغِبُّ أَذَاتُها
وعند العِشاء طيبُ نفس ولذّة ومال كثيرٌ عزّة نشَوَاتُها

ومنافع الميسر ما كان يصيب الفقراء من لحوم الجزور التي يقامرون عليها ، وليس في قوله عز وجل : ﴿ومنافع للناس﴾ ما يفيد مدحا للخمر والميسر بحال من الأحوال ، إذ وجود منفعة ما في شيء مع وجود شرّ كبير فيه لا تجعل هذا الشيء ممدوحا ، والعقلاء يقررون : أن درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح ، كما هو في قواعد التشريع ، والخمر هي الخمر ، وقد ذكر ابن أبي الدنيا أنه مرّ على سكران فوجده يبول في يده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضئ ويقول : الحمد لله الذي جعل الإسلام نورا ، والماء طهورا . وقوله عز وجل : ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ تقرير لضآلة ما في الخمر والميسر من منافع

شبكة الألوكة إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بالنسبة لما فيهما من الذنب والجُرْم والقبح ، غير أن بعض الناس قد يرى أن ذلك ليس تحريما للخمر، فكان الطور الثالث هو النهي عن شرب الخمر عند قربان الصلاة حيث يقول عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ ثم كان الطور الرابع والأخير هو الجزم والتصريح بتحريمها مطلقا حيث يقول عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون* إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ فقد روى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من طريق أبي مَيْسَرة عمرو بن شرحبيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال عمر : اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شفاءً، فنزلت الآية التي في البقرة : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ الآية ، قال فدُعِيَ عمر فقُرِئَتْ عليه ، قال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت الآية التي في النساء : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي : ألا لا يقربنّ الصلاة سكران . فدُعِيَ عمر فقُرِئَتْ عليه ، فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت هذه الآية : ﴿فهل أنتم مُنْتَهُون﴾ قال عمر : انتهينا . وقد صحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي . وقوله عز وجل : ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ قد تقدم قوله عز وجل في الآية الخامسة عشرة بعد المائتين : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون﴾ وكان سؤالهم فيها عن المصرف فبينه عز وجل بقوله : ﴿قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ﴾ الآية . والسؤال هنا عن كمية ما ينفقون ولذلك قال عز وجل في الجواب : ﴿قل العفو﴾ أي ما سهل وتيسّر مما يكون فاضلا زائدا عن الكفاية وحاجة صاحب المال ، ثم بينتها بعد ذلك آية

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

الزكاة التي بينها وفسرها رسول الله ﷺ وحدّد فيها الكمية التي تجب في كل نوع من الأموال الزكويّة، وقوله عز وجل: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون* في الدنيا والآخرة﴾ أي كما أوضح الله عز وجل لكم وفصّل وبيَّن ما تقدم من الأحكام يوضح لكم ويبين ويفصل جميع ما تحتاجونه من أحكام في شئون دنياكم وأخراكم ومعاشكم ومعادكم لكي تتدبروا فضل الله عليكم حيث أرسل لكم النبي الأميّ محمدا ﷺ بأكمل الشرائع وأفضل الأنظمة وأحسن المناهج، وقوله عز وجل: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم، والله يعلم المفسد من المصلح، ولو شاء الله لأعنتكم، إن الله عزيز حكيم﴾ بعد أن ذكر الله عز وجل في الآية السابقة بعض الأنظمة المالية ذكر هنا الأمر بحفظ أموال اليتامى ومراعاة صيانتها، وقد روى أبو داود والنسائي واللفظ لأبي داود قال: حدثنا عثمان ابن أبي شيبة ثنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ و﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يَفْضُل من طعامه فيُحْبَس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير، وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه. اهـ وقوله: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ أي وعند الله عز وجل علم بمن كان قصده ونيته الإصلاح أو من كانت نيته وقصده الإفساد، وقوله عز وجل: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾ أي ولو أراد عنتكم ومشقتكم لأوقعكم في الحرج والضيق والمشقة لأنه عزيز قاهر حكيم حميد، وقد رحمكم ويسر لكم التشريع وخفّف عنكم لأنه يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر.

قال تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتّى يؤمنّ، ولأمةٌ مؤمنة خيرٌ من مشركةٍ ولو أعجبتكم، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا، ولعبدٌ مؤمن خيرٌ من مشركٍ ولو أعجبكم، أولَئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبيّن آياته للنّاس لعلّهم يتذكرون﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى ما يوجب صيانة العقول شرع في هذا المقام يبين أحكام النكاح والطلاق مما تصانُ به الفروج، فقال عز وجل: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾ أي ولا تتزوّجوا امرأة مشركة وثنية حتى تدخل في دين الإسلام، وكما لا يجوز الزواج من امرأة مشركة فإنه لا يحل إمساكها لو كانت زوجة لقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تمسكوا بِعِصَمِ الكوافر﴾ ولفظ المشركات قد لا يتناول الكتابيات فقد جاء في لسان الشرع كثيرا عطف أهل الكتاب على المشركين كقوله تعالى: ﴿ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزَّل عليكم من خير من ربكم﴾ و كقوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين مُنْفَكِّين حتى تأتيهم البيّنة﴾ وقد نصّ الله تبارك وتعالى في محكم كتابه على جواز نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب حيث يقول عز وجل: ﴿اليوم أُحِلّ لكم الطيباتُ وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصناتُ من المؤمنات والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتاب مِن قبلكم إذا آتيتموهنّ أجورَهن مُحْصِنين غير مسافحين ولا مُتَخِذِي أخدان﴾ وقد أباح الله تبارك وتعالى نكاح الكتابية وهو يعلم أنّ قولها يضاهئ قول الذين أشركوا لكنّ حكمته فوق ما يخطر بالبال وما يدور في الخيال، فما حرّمه فهو الحرام وما أحله فهو الحلال، وقد أباح ذبيحة الكتابي ولم يبح ذبيحة المشركين، ولا يحل لمسلم أن يتقدم على الله أو على رسوله بقول أو عمل كما قال تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُقَدّموا بين

يَدَي الله ورسولـه واتقـوا الله إن الله سميع عليم﴾ وقـد أشار ابـن جريـر في تفسيره إلى أن الأمة مجمعة على جواز نكاح المسلم الكتابية يهودية أو نصرانية. وضعّف القـول المنسوب إلى بعض السلف بتحـريمهـا وذكر أنـه روي عنهم خلافـه بسند أصحّ منه، ولا شك أن كلّ كـافرٍ مشركٌ، وعلى هذا فقولـه عز وجل: ﴿ولا تنكحـوا المشركات﴾ إمّـا عامٌّ أريـد به الخصـوص، وإما عـامّ مخصوص بقـوله تبـارك وتعالى: ﴿والمحصنـاتُ من الذين أوتـوا الكتاب من قبلكم﴾ على أن الإسلام مع إبـاحته للمسلم أن يتزوج يهوديةً أو نصرانيـةً قد حضّ المسلم على أن يختار الزوجة الصالحة المستمسكة بتعاليم الإسلام، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بـذات الدين، تَرِبَتْ يداك» كما روى مسلم في صحيحـه من حديث عبد الله بن عمـرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «الدنيا كلّهـا متاعٌ، وخير متاع الدنيـا المرأة الصالحة». اهـ ولا شك أن دين الإسلام عنـدما أباح للمسلم أن يتزوج الكتـابية راعى ما قـد يحدث لبعض المسلمين من سفر إلى بلاد الكتابيين، وهو محتاج إلى إعفاف نفسه، وصيانة عرضه، وقد اشترط في نكاح المسلم للكتـابية أن تكـون معروفة بطهـارة العرض حيث يقـول الله عز وجلّ: ﴿والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتـاب من قبلكم﴾ فالمسلمة يكفي فيها أنها مسلمـة وغير معروفـة بسلوك مَشِين؛ أمـا الكتابيـة فلا بـد فيها من التأكد من عفتها وطهارة عرضها، إذ الإحصان المشْتَرَط في الكتابية معناه: أن تكون حرة عفيفة غير متساهلة في عـرضها. وقد أجمعت الأمة على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتـزوج كافـرا مهما كان، ولقـد أحسن بعض أهل العلم عنـدما سُئِلَ: لماذا يبيح الإسلام للمسلم أن يتزوج كتابية ولا يبيح الإسلام للمسلمة أن تتزوج كتـابيا؟ فأجـاب: بأن المسلم يكرّم مـوسى وعيسى عليهما السلام

فإذا كانت تحته كتابية فلن تسمع منه إهانة لموسى أو لعيسى عليهما السلام بخلاف الكتابي فإنه لا يؤمن بمحمد ﷺ ولا يبعد أن يهين المسلمة بتكذيب رسولها ﷺ فلصيانة كرامة المرأة في الإسلام أباح للمسلم أن يتزوج كتابية لأنها لن ترى منه إلا احتراما وتكريما لها، وحرّم على المسلمة أن تتزوج كتابيا لأنها تتعرض عنده للإهانة والأذى لكفره بنبيّها محمد ﷺ . وقوله عز وجل: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ اللام في قوله: ﴿ولأمة﴾ هي لام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد، والأمة هي المرأة المملوكة وقوله: ﴿خير﴾ ليست على بابها من التفضيل بل هي من باب قوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ و(لو) في قوله: ﴿ ولو أعجبتكم﴾ بمعنى (إنْ) إذ القاعدة اللغوية أنّ كلمة (لو) إذا وليها فعل ماضٍ كانت بمعنى (إنْ)ويَطَّرِد حذف كان واسمها بعدها، أي وإن كانت المرأة المشركة أعجبتكم، ونظيره قوله عز وجل: ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ أي وإن كان أعجبك كثرة الخبيث. ومعنى هذه الجملة الكريمة: أي ولزواجكم من امرأة مملوكة مؤمنة خير من زواجكم من امرأة حرّة نسيبة حسيبة مشركة وإن كانت هذه المرأة المشركة أعجبتكم لجمالها ولحسبها ونسبها، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن زواج الحرّ المسلم من الأمة إنما يكون عند عدم قدرته على الزواج من حرة عفيفة حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهنّ أجورهنّ بالمعروف محصناتٍ غيرَ مسافِحاتٍ ولا مُتَّخِذاتِ أخدان فإذا أُحْصِنّ فإنْ أَتَيْنَ بفاحشة فعليهنّ نصفُ ما على المحصَنات من العذاب ذٰلك لمن خَشِيَ العَنَتَ منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾ وإنما اشترط الإسلام في نكاح الأمة المؤمنة هذه الشروط لأن

الإسلام يكـره الرّق لـلإنسان والمعلـوم أن أولاد الحرّ من الأمة المملـوكة لغيره يكونون أرِقّاء لأهل الأَمَة ، إذ أن من مقررات الشريعة الإسلامية أنّ الولد يتبع خير الأبوين دينا ، ويتبع الأم حرية ورِقًـا ، وقد بشّر رسول الله ﷺ من كانت له أمـة مسلمة فأعتقها وتزوجهـا بأنّ له أجرين ، فقـد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي مـوسى الأشعري رضي الله عنه : «ثلاثـة يُؤْتَوْنَ أجـرهم مرتين : رجل من أهل الكتـاب آمن بنبيـه وأدرك النبيّ ﷺ فآمن بـه واتّبعه وصـدّقه فلـه أجران ، وعبد مملـوك أدّى حقّ الله تعالى وحقّ سيـده فله أجران ، ورجل كانـت له أمة فغَذَاها فأحسن غـذاءها ثم أدّبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتـزوجها فلـه أجران» . وقـوله عـز وجل : ﴿ولا تُنكحوا المشركين حتى يـؤمنوا﴾ أي لا تُـزوّجـوا يـا أولياء النسـاء كـافرا حتى يـرجع عن كفـره ويدخل في دين الإسـلام ، فلا يجوز أن يتـزوّج رجل من الكفار امـرأة مسلمة أبدا ، وقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج من الكافر ألبتّة على اختلاف أنـواع الكفرة سواء كـان وثنيا أو كتـابيا أو مجوسيا أو صـابئا أو ملحدا أو غير هؤلاء ولا تتزوج المسلمة إلا مسلما ، وقد ألحق أهلُ السنة أهلَ الأهـواء المعادين لبعض أصحـاب رسول الله ﷺ بهؤلاء في بـاب النكاح فـلا يجيزون تزويج امرأة من أهل السنة لرجل من أهل الأهواء كما أنهم يحرمون أكل ذبائحهم كذلك تعزيرا ، وقولـه عز وجل : ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ أي ولو زوجتم مملوكا مـؤمنا المرأة المسلمة هو خير من المشرك الحر الحسيب النسيب وإن كـان أعجبكم في حسبه ونسبه ، فهـو عنـد الله لا يساوي شيئا ، وليس هذا حضًـا على تزويج المملوك المسلم من الحرة المسلمة وإنما هو لبيان أن المسلمـة لا تكون فراشا لكـافر أبدا ، وفي قولـه عز وجل : ﴿ولا تُنكحـوا المشركين﴾ إشارة إلى أن المرأة لا تـزوج نفسها ، ولا تـزوج المرأةُ المرأةَ ، وأنه لا بد من الولي في عقد النكـاح ، ولا بد أن يكون الولي رجلا ، قال

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

البخاري في صحيحه: باب من قال: لا نكاح إلا بولي لقول الله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تَعْضُلُوهنّ﴾ فدخل فيه الثيب، وكذلك البكر، وقال: ﴿ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ وقال: ﴿وأنكحوا الأَيامى منكم﴾ ثم ساق من طريق عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليّته أو ابنته فيُصْدِقُها ثم يَنْكِحُها، ونكاحٌ آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طَهُرَتْ من طَمْثها: أرسلي إلى فلان فاستَبْضِعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تَسْتَبْضِعُ منه، فإذا تبيّن حملها أصابها زوجها إذا أحبّ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومرّ ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد وَلَدْتُ، فهو ابنك يا فلان، تُسَمِّي من أحبّت باسمه فيَلْحَقُ به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهُنّ البغايا كُنّ يَنْصِبْنَ على أبوابهن رايات تكون عَلَمًا فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حَمَلَتْ إحداهن ووضعت حملها جُمِعُوا لها ودَعَوْا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالْتَاطَتْه به ودُعي ابنَه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كلّه إلا نكاح الناس اليوم. ثم ساق البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها تفسيرها لقوله تعالى: ﴿وما يُتْلَى عليكم في الكتاب في يتامى النساء﴾ ثم ساق البخاري من حديث ابن عمر قصة عرض عمر رضي الله عنه على عثمان و أبي بكر رضي الله عنهما الزواج من

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

حفصة رضي الله عنها حين تأيمت من ابن حذافة السهمي، ثم ساق البخاري من حديث معقل بن يسار قصة نزول قوله تعالى: ﴿فلا تَعْضُلُوهن﴾ قال الحافظ في الفتح: استنبط المصنف هذا الحكم من الآيات والأحاديث التي ساقها لكون الحديث الوارد بلفظ الترجمة على غير شرطه اهـ. وقوله عز وجل: ﴿أولَئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ أي هؤلاء الذين نهيتكم أيها المؤمنون عن مناكحتهم لا يألونكم خبالا ويتسببون في دخولكم النار، والله يدعوكم إلى العمل بما يدخلكم الجنة ويسبب لكم المغفرة بما أذِنَ لكم فيه، والله يوضح لكم أدلة سعادتكم في الدنيا والآخرة، لتتعظوا وتعتبروا .

قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إنّ الله يحب التوابين ويحبّ المتطهرين﴾

في هذا المقام الكريم من كتاب الله عز وجل يرسم الله تبارك وتعالى للمؤمنين منهج الرشد في مسألة تتكرر في جميع الأعصار والأمصار، وقد اضطربت فيها الأمم اضطرابا شديدا ، وساروا فيها على مناهج متناقضة ، وهي صلة الرجل بحليلته الحائض ، فقد كان اليهود والمجوس يخرجونها من منازلهم ويعزلونها عن فراشهم عزلا كاملا ، وكان النصارى لا يفرقون بين الطُّهْر والحيض فكان النصراني يقارف زوجته وهي حائض ولا يعتبر الحيض شيئا ، وكان العرب من أهل يثرب وما جاورها قد استنّوا في هذا الباب بسنة اليهود فكانوا يتجنّبون مؤاكلة الحائض ومساكنتها ، فهدى الله الذين آمنوا إلى الحق وأرشدهم إلى الصواب الذي لا يحرمهم من متعةٍ حلال ، ولا يعرض المرأة لمهونة لا حاجة لها ألبتّة ، وفي نفس الوقت يحمي الرجل من التعرض لأذى قد يجلب له الأمراض والأسقام . فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت امرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت ، فسأل أصحابُ النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ إلى آخر الآية ، فقال رسول الله ﷺ : «اصنعوا كلّ شيء إلا النكاح» ، فبلغ ذلك اليهود ، فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه ، فجاء أُسَيْد بن حُضَيْر وعَبّاد بن بِشْر فقالا : يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهنّ؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ حتى ظننّا أنْ قد وَجَد عليهما ، فخرجا ، فاستقبلهما هديّةٌ من لبنٍ إلى النبي ﷺ ، فأرسل في آثارهما

فسقاهما، فعرفا أن لم يَجِدْ عليهما. اهـ وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى قد ذكر قوله عز وجل: ﴿ يسألونك﴾ في الآية الثامنة والثمانين بعد المائة، وفي الآية الخامسة عشرة بعد المائتين، وفي الآية السابعة عشرة بعد المائتين، وفي صدر الآية التاسعة عشرة بعد المائتين بدون أن تسبقها الواو، ثم ذكرها ثلاث مرات مسبوقة بالواو، والظاهر أن هذا التغاير في الأسلوب يشعر بأن الأسئلة التي وردت بدون واو العطف وقعت في أزمنة متغايرة حيث يقع كلّ سؤال في وقت على حدة، أما هذه الأسئلة الثلاثة التي اقترنت بواو العطف فقد وقعت كلها عند السؤال عن الخمر، والمحيض قد يستعمل بمعنى الحيض ويستعمل بمعنى مكان الحيض، وقد أكّد الفخر الرازي أن المراد بالمحيض في الآية هنا مكان الحيض لا نفس الحيض، قال رحمه الله: إذ لو كان المراد بالمحيض ههنا الحيض لكان قوله: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ معناه: فاعتزلوا النساء في الحيض، ويكون المراد: فاعتزلوا النساء في زمان الحيض، فيكون ظاهره مانعا من الاستمتاع بها فيما فوق السّرّة ودون الركبة، ولما كان هذا المنع غير ثابت لزم القول بتطرّق النسخ أو التخصيص إلى الآية، ومعلوم أن ذلك خلاف الأصل، أما إذا حملنا المحيض على موضع الحيض كان معنى الآية: فاعتزلوا النساء في موضع الحيض، ويكون المعنى: فاعتزلوا موضع الحيض من النساء، وعلى هذا التقدير لا يتطرق إلى الآية نسخٌ ولا تخصيصٌ، ومن المعلوم أن اللفظ إذا كان مشتركا بين معنيين وكان حمله على أحدهما يوجب محذورا، وعلى الآخر لا يوجب ذلك المحذور فإنّ حمل اللفظ على المعنى الذي لا يوجب المحذور أولى، هذا إذا سلّمنا أن لفظ المحيض مشترك بين الموضع وبين المصدر مع أنّا نعلم أن استعمال هذا اللفظ في الموضِع أكثر وأشهر منه في المصدر. اهـ والحيض هو دم معروف كتبه الله عز وجل على النساء، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

خرجنا مع النبي ﷺ لا نرى إلا الحجّ فلما كنت بِسَرِف حِضْتُ فدخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قال: «مالَكِ؟أنَفِسْتِ؟» قلت: نعم، قال: «إن هذا أمرٌ كتبه الله على بنات آدم فاقضي ما يقضي الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت». الحديث، وقد جعل الله تبارك وتعالى للحيض صلة وثيقة بعملية التناسل، وهو أمارة بارزة من أمارات بلوغ المرأة، كما أن انقطاعه لغير مرض دليل على بلوغ المرأة سن اليأس، ودم الحيض يتميز عن سائر الدماء التي تراها المرأة، فهو دم أسود خاثر ثخين تعلوه حمرة كأنه محترق من شدة حرارته، يخرج برفق ولا يسيل سيلانا، له رائحة كريهة تخالف سائر الدماء. وكل دم تراه المرأة مخالفا لهذه الصفة لا يكون دم حيض. وقد روى أبو داود والنسائي من حديث فاطمة بنت أبي حبيش رضي الله عنها أنها كانت تُسْتَحاض فقال لها النبي ﷺ: «إذا كان دم الحيض فإنه دم أسود يُعْرَف فإذا كان ذلك فأمسكي عن الصلاة، فإذا كان الآخر فتوضئي وصلّي، فإنما هو عِرْق» وقد صحح هذا الحديث جماعة من أهل العلم بأخبار رسول الله ﷺ.
وقوله عز وجل: ﴿قل هو أذى﴾ يعني أخبر يا محمد السائلين عن المحيض وقل لهم: مباشرة الرجل زوجته في مكان حيضها يعني في قُبلها هو ضرر وقذرٌ ولا شك أنّ هذا الفعل قد يسبّب لفاعله أمراضا خطيرة قد تنغّص عليه عيشه وتسبّب له آلاما وبثوراً تجلب له الإزعاج، وقد علم بالاستقراء التام أن الله عز وجل ما نهى عن شيء إلا لما فيه من المضار وما أمر بشيء إلا لما فيه من المنافع والخير. وقوله عز وجل: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي فتجنّبوا قربان الحائض في محل حيضتها أي في فرجها. وقوله عز وجل: ﴿ولا تقربوهنّ حتى يطهرن﴾ هو تفسير وتأكيد لقوله عز وجل: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي ولا تباشروهن في فروجهن ولا تدنوا من مكان الحيض في زمان الحيض حتى ينقطع دم حيضهن. وقد بيّن رسول الله ﷺ ما يحلّ للرجل

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

من زوجته وهي حائض، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كـان رسول الله ﷺ يأمرني فأتزر فيبـاشرني وأنا حائض. كما روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حـديث ميمـونـة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان النبي إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرهـا فاتزرت وهي حائض. وقـد صرح رسول الله ﷺ كذلك بما يحل للرجـل من زوجته وهي حـائض فقال: «اصنعوا كـل شيء إلا النكاح» كما تقدم في حديث أنس في سبب نـزول هذه الآية. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿فإذا تطهـرن فأتوهن من حيث أمـركم الله﴾ أي فإذا انقطع دم حيضهن واغتسلن من الحيض فقد أبيح لكم منهن مـا كان محظورا عليكم بسبب الحيض حيث أذن الله لكم في مقارفة نسائكم طاهرات نظيفات من الأذى. وكان رسول الله ﷺ يأمر النساء عند الاغتسـال من الحيض أن يأخذن شيئا يسيرا من المسك يتطيبن به، فقـد روى البخاري ومسلم من حديث عائشـة رضي الله عنها أن امـرأة سألت النبي ﷺ عن غُسلها من المحيض فأمـرها كيف تغتسل قـال: «خذي فِرْصـة من مِسْك فتطهّري بها» قالت: كيف أتطهـر؟ قال: «تطهّري بها» قالت: كيف؟ قال: «سبحان الله تطهّري» فاجتبذتها إليّ فقلت: تتبعي أثر الدم. وفي رواية لمسلم من حديـث عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت أسماء بنت شَكَلٍ على رسـول الله ﷺ فقـالت: يـا رسـول الله كيف تغتسل إحـدانا إذا طهـرت من الحيض؟ فقـال: «تأخذ إحـداكن مـاءها وسِـدْرتها فتطَهّر فتحسن الطّهور ثم تَصُبّ على رأسها فتَـدْلُكُه دَلْكا شديدا حتى تبلغ شئـون رأسهـا ثم تصب عليهـا الماء ثم تأخـذ فِـرْصـة مُمَسَّكـة فتطهّـر بها». الحديث. كما روى مسلم من حـديـث أم سلمـة رضي الله عنهـا أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إني امرأة أشدّ ضَفْـر رأسي فأَنقضه للحيضة والجنابة؟ قـال: «لا». هـذا ولا شك أن الحائض لا تحل لها الصـلاة حتى تغتسل من

حيضتها، فعليها بمجرد انقطاع الدم عنها أن تغتسل كاغتسالها للجنابة، وهي كذلك ممنوعة من قراءة القرآن حتى تطهر من الحيض. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ أي إن الله عز وجل يرضى عن عباده الرجاعين إلى مرضاته الواقفين عند حدوده التائبين من ذنوبهم ومعاصيهم مهما عظمت، وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلا، ولله المثل الأعلى، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مَهْلَكَةٌ ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومةً فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى اشتد عليه الحرّ والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده» وفي رواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأَيِسَ منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بِخِطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح» وفي قوله عز وجل: ﴿ويحب المتطهرين﴾ لفت انتباه الناس إلى أن الله يبغض من يقارف زوجته وهي حائض لأن هذا الفعل قذارة يبغضها الله عز وجل ولذلك حرّمها، والتطهر هو التنزه عن الأقذار والأذى، وهو معنوي وحسّي، فالمعنوي: هو التطهر من الشرك وسائر المعاصي، والحسّي: هو الوضوء والغسل وإزالة النجاسة من البدن والثوب، ولذلك لا يقبل الله صلاة أحد إلا أن يكون طاهر الثوب والبدن والمحل، وقد بشر رسول الله ﷺ المتوضئ بمغفرة خطاياه، فقد روى مسلم من حديث عثمان بن عفّان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن

الـوضوء خـرجت خطايـاه من جسده حتى تخرج من تحت أظفـاره» كما روى مسلم من حديث أبي مـالك الأشعري رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «الطُّهُـور شطر الإيمان». كما روى مسلم من حـديث عمر رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قال: «مـا منكم من أحـد يتـوضأ فيُسْبِغُ الـوضوء ثم يقـول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيّها شاء».

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم، واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه، وبشر المؤمنين* ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، والله سميع عليم﴾.

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى منهاج السعادة في معاملة الزوج لزوجته الحائض، وحذّر أشد التحذير من قربانها في مكان الحيض زمان الحيض، ذكر هنا أن الزوجة كالحرث لزوجها، وأنه له أن ينتفع بحرثه على أي وجه يحبّ ما دام في حدود ما أذن الله عز وجل له فيه، مبطِلاً بذلك عقيدةً يهوديّةً منحرفة عن الحق منغمسةً في الخرافة حيث كان اليهود يعتقدون أن مقارفة الرجل لزوجته وهي باركة كالساجدة يجعل الولد الذي تنجبه من هذا الوقاع أحول، وقد تأثر العرب من سكان يثرب بهذه الخرافة اليهودية، فكانت المرأة اليثربية تمنع زوجها من مقارفتها على هذه الصفة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول، فنزلت الآية ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ زاد مسلم في رواية عن الزهري: إن شاء مُجبِّيةً، وإن شاء غير مُجبِّيةٍ غير أن ذلك في صمام واحد. وقد روى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكتُ، قال: «وما أهلكك؟» قال: حوّلْتُ رَحْلي البارحة، قال: فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئا، قال فأوحي إلى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ قال: «أقبِلْ وأدْبِرْ، واتق الدّبُر والحيْضَة». ومعنى قوله في الحديث: «مُجَبِّيَة» أي باركة كهيئة الساجدة، وقوله: غير أن ذلك في صمام واحد. أي في منفذ واحد وهو القبل إذ هو

موضع الحرث، وقال القاضي أبو بكر بن العربيّ في كتابه أحكام القرآن: قال النسائي عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر: قد أُكْثِرَ عليك القول، إنك تقول عن ابن عمر: إنه أفتى بأنْ يأتوا النساء في أدبارهن، قال نافع: لقد كذبوا عليّ، ولكن سأخبرك كيف كان الأمر؟ إن ابن عمر عرض المصحف يوما، وأنا عنده أسمع، حتى بلغ: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ قال: يا نافع هل تعلم ما أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: كنّا معشر قريش نُجَبّي النساء، فلما دخلنا المدينة، ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن ما كنا نريد من نسائنا، فإذا هنّ قد كرهن ذلك وأعظمنهُ، وكان نساء الأنصار إنما يُـؤْتَيْن على جنوبهن، فأنزل الله سبحانه: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾. وقوله عز وجل: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ أي وليكن همّكم هو طاعة الله عز وجل والانتهاء عما نهاكم عنه ولا يكن همّكم مجرد قضاء الشهوة، واطلبوا من الله عز وجل أن يرزقكم الذرية الصالحة التي ينفعكم الله بها في حياتكم وبعد موتكم، واحرصوا على ذكر الله عند قربانكم نساءكم ليحفظ لكم ما يرزقكم من ذريتكم، فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث منها: ولد صالح يدعو له، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفعُ به، أو ولدٍ صالح يدعو له» كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولد في ذلك لم يضرّه شيطان أبدا» وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله﴾ أي واحذروا بأسه وعقوبته لمن يخالف أمره ويقع في معاصيه، وقوله عز وجل: ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ أي وأيقنوا أنكم

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ستقفون بين يديه يوم الحساب، وسيجزي كل عامل بما عمل، كما قال عز وجل: ﴿وما تقدِّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا﴾، وقوله عز وجل: ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي وأخبر يا محمد المستجيبين لله ورسوله بأن الله أعد لهم في جنات النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الجزاء الحسن الجميل، وتذييل الآية الكريمة بهذا للفت انتباه المؤمنين حتى يكونوا على حذرٍ شديد فيما يكون بينهم وبين نسائهم وأن يخافوا الله عز وجل ويراقبوه في كل شأن من هذه الشؤون التي أوضحتها هذه التعاليم الإلهية ليندرجوا في سلك المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم. وقوله عز وجل: ﴿ولا تجعلوا الله عُرْضةً لأيمانكم أن تَبَروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ لما أمر الله تبارك وتعالى بأبواب الخير المتقدمة من الإنفاق في سبيله، والإنفاق على الوالدين وذوي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل وحسن عشرة النساء، وحذّر من معاصيه كشرب الخمر ولعب الميسر وأنواع القمار وقربان النساء في المحيض أو مكان محذور، وكان بعض الناس قد يلعب به الشيطان فيحمله على الحَلِف بالله أن لا يفعل الخير من بر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الأيتام أو المساكين أو يحمله الشيطان على الحلف أن يفعل معصية من المعاصي، فنهى الله عز وجل المؤمنين أن يحلفوا بالله أن لا يفعلوا الخير أو أن يحلفوا بالله أن يفعلوا المعاصي، يقال: هذا عُرْضة لكذا أي معترض مانع منه كما يقال: هذا عُرضةٌ لك أي عُدّةٌ تبتذله في كل ما يَعِنّ لك، وقوله عز وجل: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ أي ولا تجعلوا الحلف بالله مانعا معترضا بينكم وبين ما يقربكم إلى الله عز وجل من فعل الخيرات تعتلّون به أن لا تفعلوا الخير أو تعتلون به في قطيعة رحم أو عمل شر. أو: لا تكثروا من الحلف فتجعلون الحلف على ألسنتكم

في كل كبيرة وصغيرة وتجعلونه مبتذلا حتى يوصف الواحد من هؤلاء بأنه حلّاف ، وقد كره الله ذلك وعدّه في جملة الصفات المذمومة حيث قال : ﴿ولا تُطع كلَّ حلاَّف مَهين﴾ وقد أوصى رسول الله ﷺ من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها أن يفعل الذي هو خير وأن يكفر عن يمينه ، وأن هذا أحبّ إلى الله عز وجل من الاستمساك باليمين في عمل الشر، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : «و إذا حلفتَ على يمين فرأيتَ غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفّر عن يمينك» . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين ثم أرى خيرا منها إلا كفّرت عن يميني وأتيتُ الذي هو خير» . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفّر عن يمينه ، وليفعل الذي هو خير» . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لأن يَلَجَّ أحدكم في يمينه في أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطي كفارته التي فرض عليه» . أي إنّ أحدكم إذا حلف على الإساءة لأهله فإن تماديه على ذلك واستمراره عليه أكبر إثما وأعظم معصية من الحنث في يمينه والتكفير عنها ، وقد تفضل الله عز وجل فأرشد المسلم إذا حلف على شيء يحول بينه وبين الأعمال الصالحة إلى أن يعمل الأعمال الصالحة و يكفّر عن يمينه حيث يقول عز وجل : ﴿قد فرض الله لكم تَحِلَّة أيمانكم ، والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾ كما أرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى عدم الإكثار من الحلف و إلى عدم ابتذال اليمين والتّلفظ به في كل ساعة حيث يقول عز وجل : ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ ، والعرب تمتدح الرجل بقلة أيمانه حيث يقول كُثيّر:

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قليـــل الألايا حافـــظ ليمينـــه وإنْ صَـــدَرَتْ منه الأَلِيـــّة بَـرَّتِ

ولا شك أن الإنســان إذا تعوّد كثرة الحلف فـإنه لا يستطيع المحـافظة على يمينـه، ولذلك ربط الله عـز وجل بين وصف الرجل بكـونه مهينـا أي حقيرا وبين كثرة الحلف حيث يقول: ﴿ولا تُطِعْ كل حلاّف مهين﴾ وقد أرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى أنهم لا ينبغي لهم أن يحلفوا على ترك فعل الخير حتى لو حصلت لك إسـاءة ممن تفعل الخير معه فإنـه لا ينبغي لك أن تحلف على قطع الخير عنه وفي ذلك يقول الله عـز وجل: ﴿ولا يَأْتَلِ أُولُواْ الفضل منكم والسَّعَـة أن يؤتـوا أولي القـربى والمسـاكين والمهاجـرين في سبيل الله ولْيَعْفُـوا ولْيَصْفَحوا، ألا تحبّون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم﴾ وقد نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنـه وقد كان ينفق على مِسْطَح بن أُثاثة لقـرابته وفقره فلما عَلِمَ أنـه كان ممن يتحـدث بحديث الإفك الـذي جاء بـه عدو الله رأس المنافقين عبدالله بن أُبَيّ ابن سَلُـول حلف أبو بكـر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح وقال: والله لا أنفق على مسطح شيئـا أبدا. فقـد روى البخاري من حديث الصـديقة بنت الصـديق حبيبة رسول الله ﷺ عـائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في قصة الإفك ونزول القرآن في براءتها قالت: فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصـديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منـه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قـال لعائشة مـا قـال، فأنزل الله: ﴿ولا يـأتل أولواْ الفضـل منكم والسعة أن يـؤتـوا أولي القربى والمسـاكين والمهاجـرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحـوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفـور رحيم﴾ قال أبو بكر: بلى والله إني أحبّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مِسْطَح النفقـة التي كان ينفق عليـه وقال: والله لا أنزعهـا منه أبدا. اهــ وقولـه عــز وجل: ﴿والله سميع عليم﴾ أي والله عــز وجل سميع لأقوالكم عليم بنيّاتكم لا يخفى عليه شيء من شؤونكم وأحوالكم فراقبوا الله عز وجل في جميع أعمالكم.

قال تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولّكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، والله غفور حليم﴾

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يجعلوا الله عرضةً لأيمانهم أن يبرّوا ويتّقوا ويصلحوا بين الناس بيّن هنا أن الله عز وجل لا يؤاخذ المؤمنين باللّغو في أيمانهم ولكن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم، والأيمان جمع يمين وهو الحَلِف والقسم، والأيمان تنقسم بالنسبة للمحلوف به إلى قسمين: قسم لا يجوز بحال من الأحوال فهو محظورٌ أبدا لا يحل لمسلم أن يتلفظ به مهما كان لأنه شرك بالله وهو الحَلِف بغير الله كالحلف بالنبي أو الوليّ أو الكعبة أو المَلَك أو المِلك أو الأب أو الأم أو الولد أو البلد أو غير ذلك من كل ما سوى الله عز وجل وقد سماه رسول الله ﷺ كفرا وشركا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب في رَكْب وعمر يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ نهى عنها، لا ذاكرًا ولا آثِرًا. اهـ وقول عمر رضي الله عنه: لا ذاكرًا ولا آثرا، يعني لا أحلف أنا بها ولا أنقل عن غيري أنه حلف بها. كما روى مسلم من حديث عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم». كما روى الترمذي وحسّنه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك. كما روى أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون». كما روى أبو داود بسند صحيح من حديث بُرَيْدة رضي الله عنه

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بالأمانة فليس منا» وقد حذرت الشريعة الإسلامية أشد التحذير من الشرك ووسائله، والشرك نوعان: أكبر وهو الذي يُخْرِج من الملّة ومن مات عليه خُلّد في النار، وشرك أصغر وهو لا يُخْرِج عن الملّة، وصاحبه لو مات عليه لا يُخلّد في النار لكنه داخل في عموم قوله عز وجل: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء﴾ ومن الشّرك الأصغر الحَلِف بغير الله، وهو أكبر من القتل والزنا وشرب الخمر والسرقة لأن الله تعالى لا يغفر الشرك إلا بتوبة بخلاف سائر المعاصي التي دون الشرك فإنها تحت مشيئة الله إنْ شاء عَذب عليها وإن شاء عفا عنها ولو بدون توبة من العاصي، كما هو صريح الآية، أمّا قَسَم الله تبارك وتعالى بمصنوعاته ومخلوقاته للدلالة والتنبيه على عظيم قدرته وجليل نعمته وعظمته فليس من هذا القبيل لأن الله تعالى له أن يُقْسِم بما شاء، ولا يدخل في شيء من القياس مع خَلْقه تبارك وتعالى. وأما ما جاء في لفظ في إحدى روايات حديثٍ: «أفلح وأبيه إن صدق» فقد قال ابن عبد البر: هذه اللفظة غير محفوظة من وجه صحيح فقد رواه مالك وغيره من الحفاظ فلم يقولوها فيه اهـ يعني لم يذكروا لفظة: وأبيه، وإنما لفظه: «أفلح إن صدق»، وفي رواية: «أفلح والله إن صدق». قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في كتاب الأيمان: وأما ما وقع مما يخالف ذلك كقوله ﷺ للأعرابي: «أفلح وأبيه إن صدق»، فقد تقدم في أوائل هذا الشرح في باب الزكاة من الإسلام في كتاب الإيمان الجواب عن ذلك وأن فيهم من طعن في صحة هذه اللفظة، قال ابن عبد البر: هذه اللفظة غير محفوظة وقد جاءت عن راويها وهو إسماعيل بن جعفر بلفظ: «أفلح والله إن صدق»، قال: وهذا أولى مِن رواية مَن روى عنه بلفظ: أفلح وأبيه، لأنها لفظة منكرة تردّها الآثار الصحاح، ولم يقع في رواية مالك أصلا اهـ أما القِسْم الثاني من أقسام اليمين بالنسبة

الجديد والحصري
NEW & EXCLUSIVE

للمحلوف بـه فهو الحَلِف بـالله عز وجل بذاتـه المقدسـة أو باسم من أسمائه الحسنى أو بصفة من صفاته العلى، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول يمين اللغو والثاني اليمين المنعقـدة والثالث اليمين الغَمُوس، أمـا يمين اللغو فهو ما يجري على اللسان من الحلف بغير قصـد القَسَم كقول الإنسان: لا والله، بلى والله، ممـا يجري على لسـان الإنسان بغير إرادتـه ولا يقصـد منـه اليمين، وكذلك أن يحلف الإنسـان على شيء يظنّه كما قال والواقع بخلافـه كأن يرى شخصا قادمـا من بعيد فيظنّه محمدا مثلا فيقول لشخص معـه: هذا محمد، فيقول له صـاحبه: لا، هذا إبراهيم، فيحلف بالله أنه محمـد بناء على غالب ظنه، ثم يتبين أنه إبـراهيم فهذا كذلك من يمين اللغـو، وقد روى البخاري عن عـائشـة رضي الله عنها في قـولـه تعـالى: ﴿لا يـؤاخذكم الله بـاللغـو في أيمانكم﴾ قالت: هـو قول الرجل: لا والله، وبلى والله. ومعنى قولـه تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يعاقبكم الله ولا يحمّلكم إثما ولا كفارة بما يقع منكم من الأيمان لغـوًا، وأصل اللَّغْو واللَّغَا: ما لا يعتـدّ به من الكلام وغيره، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال الراغب: هو في الأصل ما لا يعتـدّ به من الكلام، والمراد بـه في الأيمان ما يورد من غير رَوِيّـة فيجري مجرى اللَّغَـاء وهو صـوت العصـافير اهـ أمّـا اليمين المنعقـدة فهي أن يحلف الإنسـان على شيء يفعلـه أو أن يحلف على شيء أن لا يفعلـه، فإن حَنِث في يمينـه بأن فعل مـا حلف أن لا يفعلـه أو لم يفعل ما حلف أن يفعلـه، فقـد أوجب الله عليـه الكفـارة، وقـد ذكر الله تبـارك وتعـالى يمين اللغـو واليمين المنعقدة في كتابه الكريم هنـا وفي سورة المائدة حيث قال: ﴿لا يؤاخذكم الله بـاللغو في أيمانكم ولٰكن يـؤاخذكـم بما عَقَّدتم الأيمانَ فكفـارتُه إطعـامُ عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكـم أو كسوتُهم أو تحريرُ رقبة فمن لم يجد فصيام ثـلاثة أيام ذٰلك كفارة أيمانكم إذا حَلَفتم، واحفظـوا أيمانكم، كذٰلك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يبيّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ وقوله عز وجل في آية المائدة: ﴿ولَكن يؤاخذكم بما عَقَّدتم الأيمان﴾ يفسر قوله عز وجل هنا: ﴿ولَكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ فالقلب هو الملك الذي تصدر الأقوال والأفعال عنه فإذا لم يعلم الإنسان ما يقول لم يكن ذلك صادرا عن القلب بل يجري مجرى اللغو، والشارع لم يرتب المؤاخذة إلا بما اجتمع فيه كَسْب القلب وقَصْده مع عمل الجوارح. وهذا من فضل الله و إحسانه وجوده أن لا يؤاخذ الناس إلا بما كسبت قلوبهم، وأن يعفو عما وقع منهم من اللغو في أيمانهم، أما يمين الغَموس فهي أن يحلف الإنسان كاذبا، ولا يكون إلا على شيء مضى كأن يحلف على شيء أنه ما فعله وهو قد فعله أو أن يحلف على شيء أنه فعله وهو لم يفعله. وسميت هذه اليمين الكاذبة الفاجرة يمين الغَموس لأنها تَغْمِس صاحبها في نار جهنم، وهي لا كفارة لها إلا النار أو عَفْو الجبار، وتُسمّى أيضا اليمين الصّبر واليمين الفاجرة، واليمين الكاذبة واليمين الزور، وهي من أكبر الكبائر فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» قال: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عز وجل: ﴿إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ إلى آخر الآية. كما روى مسلم من حديث أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع حقّ امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة». فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا؟ قال: «وإن كان قضيبا مِن أراكٍ». كما روى البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغَموس». وفي رواية له أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله» قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين

الغمـوس»، قلت: وما اليمين الغمـوس؟ قال: «الـذي يقتطع مال امـرئ مسلم» يعني بيمين هـو فيها كـاذب. اهـ ومع أن اليمين الغمـوس من أكبر الكبائر فإنها أصغـر من الحَلِف بغير الله لأنه شرك بـالله. ولا شك أن اليمين الغموس تدع الـديار بَلاقِع وقد جـرت العادة أن الله يعجّل بهلاك أصحاب اليمين الغموس، فقـد روى البخاري من حـديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن أول قَسَامـة كانت في الجاهلية لفينا بني هـاشم، كان رجل من بني هاشم، استأجـره رجل من قريش من فخذ أخـرى فانطلق معه في إبلـه فمر رجل به من بني هاشم قد انقطعت عُرْوة جُـوَالقه، فقال: أَغِثْني بعِقال أشدّ به عروة جُوالقي، لا تَنْفر الإبل، فأعطاه عِقالا فشدّ به عروة جُوالقه فلما نزلوا عُقِلَت الإبل إلا بعيرا واحـدا، فقال الـذي استأجـره: ما شأن هـذا البعير لم يُعْقَلْ من بين الإبل؟ قال: ليس له عِقال، قال: فأين عقـاله؟ قال: فحذفه بعصا كان فيها أجله، فمرّ به رجل من أهل اليمن، فقال: أتشهد الموسم؟ قال: مـا أشهد، وربما شهـدته، قـال: هل أنت مُبْلِغٌ عني رسالـةً مرةً من الـدهـر؟ قـال: نعم. قـال: فكنـت إذا أنت شهـدت الموسم فناد: يـا آل قـريش، فإذا أجابـوك فناد: يـا آل بني هـاشم، فإن أجابـوك فسل عن أبي طـالب فأخبره أنّ فلانـا قتلني في عِقـال، ومات المستأجَـر، فلما قدم الـذي استأجـره أتاه أبو طـالب فقال: مـا فعل صـاحبنـا؟ قال: مـرض فأحسنت القيام عليه فَـوليتُ دَفْنَه، قال: قد كـان أهل ذاك منك، فمكث حينا، ثم إن الرجل الـذي أوصى إليه أن يُبْلِغَ عنه وافى الموسم، فقال: يـا آل قريش، قالوا: هذه قريش، قال: يا آل بني هـاشم، قالوا: هذه بنو هاشم. قال: أين أبو طالب؟ قالوا: هذا أبو طـالب. قال: أمرني فلان أن أبلغك رسالة، أنّ فلانا قتله في عِقال. فأتاه أبو طالب فقال له: اختر مِنّا إحدى ثلاث، إن شئت أن تـؤدّي مـائة من الإبل فإنك قتلتَ صـاحبنـا، وإن شئت حلف

خمسون من قومك إنك لم تقتله، فإن أبيتَ قتلناك به ، فأتى قومه فقالوا: نحلف، فأتته امرأة من بني هاشم كانت تحت رجل منهم قد ولدت له فقالت: يا أبا طالب أُحب أن تُجيز ابني هذا برجل من الخمسين، ولا تصبر يمينه حيث تُصْبَر الأيمان ففعل، فأتاه رجل منهم فقال: يا أبا طالب، أردتَ خمسين رجلا أن يحلفوا مكان مائة من الإبل يصيب كلَّ رجل بعيران، هذان بعيران فاقبلهما عني ولا تصبر يميني حيث تُصْبَر الأيمان، فقبلهما، وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا. قال ابن عباس: فوالذي نفسي بيده ما حال الحول ومن الثمانية والأربعين عينٌ تَطْرِف. اهـ وتذييل الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿والله غفور حليم﴾ لتقرير مضمون قوله عز وجل: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ مع إفادة أن مغفرة الله وحلمه هي أساس صفحه عنكم وترك مؤاخذتكم باللغو في أيمانكم، وقبول الكفارة فيما عَقَّدتم من الأيمان تيسيرا في التشريع ورفعا للإصْر و الأغلال عنكم.

قال تعالى: ﴿للـذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعـة أشهرٍ فإن فاءُوا فإنّ الله غفور رحيم* وإن عزموا الطلاق فإنّ الله سميع عليم﴾.

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يجعلـوا الله عرضة لأيمانهم أن يبرّوا ويتقوا ويصلحـوا بين الناس، وبيّن أنـه لا يؤاخـذ المؤمنين باللغـو في أيمانهم وإنما يؤاخـذهم بما كسبت قلوبهم، ذكر هنا نـوعا خاصا من الأيمان وهـو ما كان أهل الجاهلية يحلفون فيه على عدم قـربان نسائهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿للذين يُؤْلُون من نسائهم تَـرَبُّص أربعة أشهر﴾ والإيلاء في اللغة مشتق من الأَلِيَّة وهي اليمين، والجمع أَلايا على وزن عَطَايا كما قال كُثَيِّر:

قليـل الألايـا حافـظ ليميـنه فإن سَـبَقَتْ منه الأَلِيَّـة بَرَّتِ

وكما قال الشاعر:

فآليت لا أنفك أَحْذُو قصـيدة تكون وإياها بها مثَلا بعـدي

وكما قال الأعشى:

فآليت لا أَرْثِي لها من كَـلاَلـة ولا من حفًى حتى تلاقي محمدا

ومنه الحديث: آلى رسول الله ﷺ من نسائه شهرا. أي حلف على اعتزالهن وعـدم الدخـول عليهن لمدة شهـر. أمـا الإيلاء في الاصطـلاح الشرعي فهـو الحَلِف على ترك قربان الزوجة مدة تزيد على أربعة أشهر، وقد كان الإيلاء في الجاهلية لونا من ألـوان الأذى والإضرار بالمرأة حيث يحلف عليها الزوج أن لا يَمَسَّهـا لمدة قد تصل إلى السنـة والسنتين فـرفع الإسلام عن المرأة هـذا الأذى حيث ضرب للـرجل المؤلي أجلا هـو أربعة أشهـر إن رجع في أثنائهـا وقارف زوجتـه فليس عليـه سـوى كفـارة يمين ويستغفـر الله، وإن لم يَقْـرَبْها حتى مضت أربعة أشهر اعتُبِرَ عازما على الطلاق وأُلْزِم به. ولا يحل له بعد الأربعة الأشهر إلا أن يُمْسِك بمعروف أو يفارق بإحسـان. فرفع الإسلام بهذا الحكم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عبئا ثقيلا كانت تنوء به المرأة في الجاهلية ويُسَخِّره الرجال في العبث بهن والنّيل منهن، فلله الحمد وله الشكر، قال البيهقي: أخبرنا أبو الحسين بن بشران ببغداد، أنا أبو جعفر محمد بن عمرو الرزاز، نا محمد بن عبيد الله بن المنادي، نا يونس بن محمد، نا الحارث بن عبيد، نا عامر عن عطاء بن أبي رباح، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ح وأخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان ببغداد، نا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عَمْرَوَيْه الصفار، نا محمد بن إسحاق الصغاني، نا موسى بن إسماعيل، نا الحارث (بن عبيد) أبو قدامة حدثني عامر الأحول حدثني عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، فوقّت الله عز وجل لهم أربعة أشهر، فإن كان إيلاؤه، (وفي رواية يونس: فمن كان إيلاؤه) أقلّ من أربعة أشهر فليس بإيلاء اهـ وقوله في الحديث: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، أي كان الرجل في الجاهلية قبل أن تشرق شمس الإسلام إذا أراد أن يلحق الأذى والإهانة والإضرار بزوجته حَلَف أن لا يَقْرَبها مدة طويلة قد يصل بها إلى سنة وقد يصل بها إلى سنتين وقد يصل بها إلى أكثر من ذلك إمعانا في الأذى وإغراقا في الإهانة، وقوله: فوقّت الله عز وجل لهم أربعة أشهر، أي فجعل الله تبارك وتعالى للمؤلين من نسائهم وقتا محدّدا هو أربعة أشهر يُوقَفُ بعدها المؤْلي حتى يفيء إلى زوجته أو يطلّقها، وقد جاء ذلك التوقيت في قوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر﴾ وقوله في الحديث: فإن كان إيلاؤه أقلّ من أربعة أشهر فليس بإيلاء، أي فإن كان حلف أن لا يقرب زوجته مدّة تقل عن أربعة أشهر فلا سبيل لأحد عليه؛ لأن المرأة قد تتحمل ذلك بلا كبير ضرر فلا يعتبر ذلك إيلاء بالمعنى الذي ذكرته الآية الكريمة، لأن الآية ذكرت الإيلاء بالمعنى الشرعي لا بالمعنى اللغوي الذي هو مطلق الحَلِف. وقد قال

الشافعي رحمه الله: أنا ابن عيينة عن يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار قال: أدركت بضعة عشر من الصحابة أي من أصحاب رسول الله ﷺ كلّهم يقول: يُوقَفُ المؤلي. قال الشافعي رحمه الله: فأقل بضعة عشر أن يكونوا ثلاثة عشر اهـ وقد قال البخاري في صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر﴾ إلى قوله: ﴿سميع عليم﴾ فإن فاءوا: رجعوا. ثم ساق من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: آلى رسول الله ﷺ من نسائه، وكانت انفكت رجله، فأقام في مَشْرُبة له تسعا وعشرين ثم نزل، فقالوا: يا رسول الله آليْتَ شهرا؟ فقال: «الشهر تسع وعشرون». ثم ساق البخاري من طريق نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول في الإيلاء الذي سمّى الله تعالى: لا يحلّ لأحد بعد الأجل إلا أن يُمْسك بالمعروف أو يعزم بالطلاق كما أمر الله عز وجل. ثم ساق البخاري من طريق نافع أيضا عن ابن عمر: إذا مضت أربعة أشهر يُوقَف حتى يطلّق، ولا يقع عليه الطلاق حتى يطلّق، ثم قال البخاري: ويذكر ذلك عن عثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة واثني عشر رجلا من أصحاب النبي ﷺ. اهـ وقوله في حديث أنس: وكانت انفكت رجله، أي بسبب سقوطه ﷺ عن الفرس وقد صلى بأصحابه جالسا، ومن العجيب إيراد البخاري رحمه الله حديث أنس رضي الله عنه تحت قوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر﴾ لأن حديث أنس ليس الإيلاء فيه من قبيل الإيلاء الاصطلاحي الشرعيّ بل هو من قبيل الإيلاء اللغوي إذ أن رسول الله ﷺ لم يحلف على أن لا يَقْرَب نساءه بالمعنى الشرعي للإيلاء، بل المراد هو الحلف مطلقا دون إرادة عدم مباشرتهن وقربانهن، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: وأنكر شيخنا في (التدريب) إدخال هذا الحديث في هذا الباب فقال: الإيلاء المعقود له الباب حرام يأثم به من علم بحاله فلا تجوز نسبته للنبي ﷺ

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اهـ وقد جاء في حديث البخاري ومسلم قصة اعتزال رسول الله ﷺ نساءه لمدة شهر وأنّ ذلك كان لمَوْجِدَة عليهن بسبب تَحَزُّبِهن وتظاهر بعضهن على سائر نساء رسول الله ﷺ وإكثارِهن من سؤاله النفقة، ولم يثبت أن رسول الله ﷺ حرّم نساءه على نفسه قط، والصحيح الثابت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك، والله غفور رحيم﴾ هو أن رسول الله ﷺ قد حرّم على نفسه العسل بسبب قول بعض نسائه رضي الله عنهن له ﷺ: أكلت مغافير، وكان يكره أن يوجد منه ريح غير محبوبة ﷺ والمعروف في ريح المغافير أنها شبيهة بريح الخمر وكان رسول الله ﷺ قد شرب عسلا عند بعض نسائه فغارت بعض زوجاته، وقُلْن هذه المقالة حتى لا يشرب عسلا عند التي كانت تسقيه هذا العسل من نسائه كما هو ثابت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها. وتحديد أربعة أشهر للذين يؤلون من نسائهم تشريع الحكيم العليم الذي يعطي كلّ ذي حق حقّه، إذ أن هذه الأشهر الأربعة قد عُرِف من عادة النساء أن المرأة قد تصل في صبرها على زوجها إلى هذه المدة دون أن يلحقها كبير ضرر، ويقف عندها صبر المرأة غالبا، كما أن من حق الرجل أن يؤدب زوجته بهجر مضجعها كما قال عز وجل: ﴿واللاّتي تخافون نشوزهنّ فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان عليّا كبيرا﴾ وقد جعل الله تبارك وتعالى الحد الأقصى للهجر أربعة أشهر، فرض عليه بعدها الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان، وقد روى مالك في الموطأ عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل، فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبُه ... وأرّقني ألاّ خليل أُلاعِبه

فوالله لولا الله أني أُراقبه ... لحُرِّكَ من هذا السرير جوانبه

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر، فقال عمر رضي الله عنه: لا أحبس أحدا من الجيش أكثر من ذلك. وقد ذكر القرطبي في قصة عمر رضي الله عنه وسماعه لشعر هذه المرأة أنه لما كان من الغد استدعى عمر بتلك المرأة وقال لها: أين زوجك؟ قالت: بعثتَ به إلى العراق، فاستدعى نساء فسألهن عن المرأة: كم مقدار ما تصبر عن زوجها؟ فقلن: شهرين، ويقل صبرها في ثلاثة أشهر، وينفد صبرها في أربعة أشهر. فجعل عمر مدة غزو الرجل أربعة أشهر. اهـ وقد يستفاد ذلك من قوله عز وجل: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ أي جُعِل للذين يحلفون بالله عز وجل على عدم قربان نسائهم انتظار أربعة أشهر توسعة عليهم هذه المدة، وقوله عز وجل: ﴿فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم﴾ أي فإن رجعوا عن يمينهم وقارفوا نساءهم في مدة التربّص واختاروا طريق البرّ وكفّروا عن يمينهم استرشادا بقول رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه» كما مرّ في تفسير قوله عز وجل: ﴿ولا تجعلوا الله عُرْضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ فإنّ من فاء من الأزواج الذين يؤلون من نسائهم بهذه المثابة فإن الله عز وجل غفور رحيم، يغفر له زلاته ويتجاوز له عن هفواته وهو رحيم بعباده، ولذلك شرع لهم هذا الشرع الحكيم الذي يجلب لهم سعادة الدارين، وقد اشتمل على الرحمة والإحسان للزوجة والزوج جميعا. وقوله عز وجل: ﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾ أي وإن قصدوا الطلاق وأصروا على عدم قربان نسائهم بعد مدة التّربّص المحدّدة بأربعة أشهر وجب على الحاكم الشرعي إيقافه وسِجْنه حتى يُجبَرَ إما على الإمساك بمعروف ومباشرة زوجته وإما على التسريح بإحسان وإلزامِه بالطلاق، فإن امتنع عن الطلاق في هذه الحالة طلّق عليه الحاكم طلقة واحدة. وبهذا تحفظ الشريعة الإسلامية للمرأة حقّها ولا تهضم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة
شبكة الألوكة www.alukah.net

حقّ الرجل لكنها تمنعه من التعسف والجور في حق زوجته، ولا شك أن هذا النظام الذي شرعه الله عـز وجل هو أكمل الأنظمة في كل شيء، ولعل نساء المسلمين يشكرن الله عز وجل على هذه النعمة الجليلة التي صان بها كرامتهن ودفع الأذى بها عنهن، وليس في قولـه عز وجل: ﴿وإن عزموا الطـلاق﴾ ما يفيد أن مجرد نية الطـلاق تكون طلاقا، إذ أن المراد هـو أنه إذا أصر المؤلي على عدم الفيئة كان قصده الإضرار بالمرأة فَيُجْبَرُ إما على الفيئة وإما على الطلاق، فإذا قصد الطلاق وصمَّم عليه وطلّق فإن الله لا تخفى عليـه خافية منه أو من غيره، والإسلام لا يعتبر نيّـة الطلاق طلاقـا، فلا يقع الطلاق بمجـرد العزم عليه ونيتـه بل لا بد من التلفظ بـه وهذا من دفع الإصْـر عن المسلمين، أما عند اليهود فإنه متى نوى اليهودي الطـلاق حرمت عليه امرأته بمجرد النية، ووجب عليـه تنفيذ مـا عزم عليـه في الحال. والطلاق في اللغـة هو الإرسـال والتخلية، وفي الاصطلاح هو حَلّ عقدة النكاح وفكّ رابطة الزوجية. ونظام الطلاق في الإسـلام لا نظير له عند جميع الأمم فهـو أعدلها وأدقها وأوفـاها، حيث كـان اليهـود يطلقـون لعذر ولغير عـذر، كما أن الطـلاق مشروع عنـد النصارى وإن كـانوا اقتصروا في إباحتـه على علة الـزنا واستباحـوه في عصرنا لأتفه الأسباب، وكان أهل الجاهلية لا يقفون عند حدّ في الطلاق، فجاءت شريعة الإسـلام وحددت حق الرجل بثلاث تطليقـات، وحضته على الصبر على مـا قـد يكـره من زوجتـــه، وأوصت بالإصـــلاح عنـد النزاع بين الـزوجين. والمسْتَقْرِئ لـوصـايا الإسـلام في هـذا الباب يعلم أن الطـلاق في الإسلام ليس من الأمـور المحبوبة وأنه عنـدما تسوء العلاقـة بين الزوجين إلى حـد يتعذر الصلح فيـه يصبح الطـلاق من مقتضيـات الفطرة للخـروج من نحس الدنيا ونكدها على حد قول الشاعر:

ومِن نكَد الدنيا على الحُر أن يَرى ... عـدوًّا له مـا مِـنْ صداقته بُـدّ

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وإن يتفرقا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ من سَعَتِهِ﴾.

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

قال تعـالى : ﴿والمطلقات يتربّصن بأنفسهن ثلاثـة قروء، ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحـامهن إن كنّ يؤمنّ بـالله واليوم الآخـر، وبعولتهن أحق بردّهن في ذٰلك إن أرادوا إصـلاحا، ولهنّ مثل الذي عليهن بـالمعروف، وللرجال عليهن درجةٌ، والله عزيز حكيم﴾

بعد أن بيّن الله عز وجل حكم الإيلاء ومـا أوجبه فيه على الزوج من الفيئة إلى قُربان زوجته أو إلزامه بالطلاق شرع يبيّن أحكام الطلاق، وبدأها بإيجاب العدة على الـزوجة، حيث قـال عز وجل : ﴿والمطلقـات يتربّصن بأنفسهن ثلاثة قُرُوء﴾ ولا شك أن الرجل لو قـال لامرأة قبل أن يتزوّجها: أنت طالق، ثم تزوجهـا، فلا عبرة بطلاقـه هذا ولا عـدة عليها من هذا الطـلاق الباطل بإجماع أهل العلم، وإذا طلّق الرجل زوجته التي لم يدخل بها فلا عدة عليها كـذلك لقولـه تبـارك وتعالى: ﴿يـا أيها الـذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنـات ثم طلقتموهنّ من قبل أن تمسّـوهنّ فما لكم عليهنّ من عِدّة تَعْتَـدُّونها فمتّعوهنّ وسرّحوهن سراحا جميلا﴾ أما إذا كانـت المطلقة مدخولا بها فهي إما أن تكون حائلا أو حاملا، فإن كانت حاملا فعدّتها بوضع الحمل لقوله تبارك وتعالى: ﴿وأُولاتُ الأحمال أجلُهن أن يضَعْن حَمْلَهن﴾ وأمـا إذا كانت المطلقـة حائلا فإما أن تكون من ذوات الحيض، وإما أن تكون ممن لا تحيض، إمّا لصِغَرِها وكونها لم تبلغ، وإما لكونها قد تقدمت بها السّن ويئست من المحيض، فإذا كانت المطلقة لا تحيض إما لصِغَر وإما لكِبَر فعدتها بالأشهر لا بالأقراء لقوله تبارك وتعـالى: ﴿واللائي يَئِسْن من المحيض من نسـائكم إن ارتبتم فعِدَّتهن ثـلاثة أشهـر واللائي لم يَحِضْـن﴾ أي واللائي لم يحضـن أصـلا لصغـر أو لمرض فعِدّتهن ثلاثة أشهر كذلك كـاليائسة، وإذا كانت المطلقة المدخول بها أمةً من ذوات الحيض فعدتها حيضتان، وإذا كانت حرّة فعدتها ثلاثة قروء،

وهي المرادة بقوله تبارك وتعالى هنا: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قُرُوء﴾ ومعنى: ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ أي تنتظر إحداهن بعد طلاقها من زوجها ثلاثة قروء لا يحل لها أن تتزوج في مدة هذه القروء الثلاثة، وأسند التربص والانتظار لهن لأنهن هُنّ اللائي يعلمن قروءهنّ متى تجيء ومتى تنتهي، والمعنى: فعليهن عدّة من الطلاق مقدارها ثلاثة قروء لا يحل لهن فيها الزواج من غير المطَلِّقين لهنّ، ولفظ القُرْء من الأضداد، فالعرب يستعملونه بمعنى الحيض ويستعملونه بمعنى الطُّهْر، والسياق هو الذي يحدد المراد، فإن من سمع قول الأعشى ميمون بن قيس:

وفي كل عام أنتَ جاشمُ غزوةٍ تشدّ لأقصاها عزيم عزائكا
مُورِّثةٍ مالاً وفي الذكر رِفْعة لما ضاع فيها من قروء نسائكا

علم يقينا أن الأعشى يريد بالقروء في شعره هذا الأطهار، لأنه يمدح هَوْذة بن علي الحنفي الذي آثر الغزو على القعود حتى ضاعت أيام الطّهر من نسائه، كما أن من سمع قول الله عز وجل: ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهن ثلاثة أشهر﴾ علم أن الله عز وجل أقام الأشهر الثلاث مقام الحيضات الثلاث عند اليائسات من المحيض، ولما كان الغرض من العِدَّة هو استبراء الرحِم، واستبراؤه إنما يكون بالحيض لا بالطهر، كان ذلك دليلا ظاهرا على أن المراد بالقروء في قوله عز وجل: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ أي ثلاث حيض، وهذا بخلاف من تعتد بالأشهر فإن الرجال والنساء في علمه سواء. وقوله عز وجل: ﴿ولا يحل لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كُنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ فيه إشعار بأن المرأة جُعِلَتْ أمينة على عدتها، لأن انقضاء العدة مبني على انقضاء القروء الثلاثة في حق ذوات الأقراء، وعلى وضع الحمل في حق الحامل، وقد يخفى على الرجال علم ذلك بل يتعذر الوصول

إليه من طريق الرجال غالبا، وإنما المرأة هي الخبيرة به لذلك جُعِلَتْ أمينة فيه مع تخويفها من الله عز وجل بقوله: ﴿إن كُن يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ كما قال عز وجل: ﴿فإن أَمِنَ بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانته وليتق اللهَ ربَّه﴾ وكما قال عز وجل في حق مريم: ﴿فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها رُوحَنا فتمثّل لها بَشَرا سويا* قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا﴾. والذي يمكن أن تكتمه المرأة مما خلق الله في رحمها يشمل دم الحيض كما يشمل الحمل، إذ قد تكون لها مصلحة في كتمان شيء من ذلك، قال الفخر الرازي: أما كتمان الحبل فإنّ غرضها فيه أنّ انقضاء عدّتها بالقروء أقلّ زمانا من انقضاء عدتها بوضع الحمل فإذا كتمت الحَبَل قصّرت مدة عدتها فتتزوج بسرعة، وربما كرهت مراجعة الزوج الأول وربما أحبت التزوج بزوج آخر أو أحبت أن يلتحق ولدها بالزوج الثاني فلهذه الأغراض تكتم الحَبَلَ، وأما كتمان الحيض فغرضها فيه أن المرأة إذا طلقها الزوج وهي من ذوات الأقراء فقد تحبّ تطويل عدتها لكي يراجعها الزوج الأول، وقد تحبّ تقصير عدّتها لتبطيل رجعته، ولا يتمّ لها ذلك إلا بكتمان بعض الحيض في بعض الأوقات، لأنها إذا حاضت أولا فكتمته ثم أظهرت عند الحيضة الثانية أن ذلك أوّل حيضتها فقد طوّلت العدة، وإذا كتمت أن الحيضة الثالثة وُجِدَتْ فكَمِثْلٍ، وإذا كتمت أن حيضها باقٍ فقد قطعت الرجعة على زوجها فثبت أنه كما أنّ لها غرضا في كتمان الحَبَل فكذلك في كتمان الحيض فوجب حمل النّهي على مجموع الأمرين. اهـ فمعنى: ﴿ولا يحلّ لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ أي ولا يجوز للمرأة أن تخفي شيئا مما أوجد الله تبارك وتعالى في رحمها من حيض أو ولد، والأرحام جمع رَحِم وهو بيت مَنْبِت الولد ووعاؤه، ولا شك أن الحيض دم يخرج من الرحم، كما أن الولد يخرج منه، وقوله عز وجل: ﴿إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ هو تهديد ووعيد شديد

لمن تكتم من النساء شيئا مما خلق الله في رحمها لتتلاعب بِعِدَّتها كما تشاء، وكأنه يقول: إن المؤمنة بالله واليوم الآخر لا تكتم شيئا مما خلق الله في رحمها، وليس المراد أن ذلك النهي مشروط بكونها مؤمنة. وقوله عز وجل: ﴿وبعولتهن أحق بردّهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا﴾ البُعُولة جمع بَعْل والمراد به هنا الزوج، إذ البعل في الأصل يستعمل في الأرض المرتفعة تمطر في السنة مرّة، وكل نخل وشجر وزرع لا يُسْقَى، أو ما سقته السماء، والذّكَر من النخل، والسيد والزوج، وقد أجمع علماء المسلمين على أن الحرّ إذا طلّق زوجته الحرة تطليقة أو تطليقتين طلاقا رجعيًّا وكان قد دخل بها فهو أحقّ برجعتها ما لم تنقض عدتها، سواء كانت راضية أو كارهة ولا يحتاج إلى عقد جديد أو مهر جديد أو وليّ، فإن لم يراجعها المطلّق حتى انقضت عدّتها فهي أحقّ بنفسها وتصير أجنبية منه، لا تحل له إلا برضاها وبعقد جديد ومهر جديد ولا بد في ذلك من الولي، قال القرطبي: وهذا إجماع من العلماء قال المهلب: وكلّ من راجع في العدة فإنه لا يلزمه شيء من أحكام النكاح غير الإشهاد على المراجعة فقط وهذا إجماع من العلماء لقوله تعالى: ﴿فإذا بلغن أجلَهن فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذَوَيْ عَدْلٍ منكم﴾ فذكر الإشهاد في الرجعة ولم يذكره في النكاح ولا في الطلاق. قال ابن المنذر: وفيما ذكرناه من كتاب الله مع إجماع أهل العلم كفاية اهـ ومعنى قوله عز وجل في آية سورة الطلاق: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي قارَبْنَ انقضاء عدّتهن وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ فقد أجمع العلماء على أن قوله: ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قاربن الخروج من عدّتهن، إذ بعد بلوغ الأجل والخروج من العدة لا خيار للزوج في الإمساك، ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿وبُعولَتُهن أحق بِرَدِّهن في ذلك﴾ يشمل بعمومه مراجعَتَها في العدة

ومـراجعَتَها بعـد انقضـاء العـدة، وقد علمـت أن الإجماع منعقد على أنـه لا يملك عليها حقّ الـرجعة بعد انقضـاء العدة، فيكـون هذا العموم مـرادًا به الخصوص وهـو أحقيته في رجعتهـا قبل انقضاء عـدتها، على أن قولـه تبارك وتعالى: ﴿والمطلقـات يتربصن بأنفسهن ثـلاثة قـروء﴾ يشمل المطلقة ثـلاثا ويشمل مـا دون الثلاث بـلا خلاف عنـد أهل العلم. وقـوله تعـالى: ﴿إن أرادوا إصلاحا﴾ أي وللأزواج حقّ الرجعة على زوجاتهم المطلقات ما دُمْن في العدّة وما دام الرجل يريـد من رجعتها الإصلاح ودفع الضرر عنها، وقد أراد الله عز وجل بـذلك لفت انتباه الناس إلى مـا كانت تقاسيـه المرأة في الجاهلية حيث كـان الـرجل إذا أراد الإضرار بـالمرأة طلقهـا فإذا قـاربت عـدّتها على الانتهاء راجعها ثم طلقها مرة ثانية فإذا أوشكت العدة من الطلاق الثاني على الانتهـاء راجعهـا قبل أن تنتهي العـدة واستأنف طلاقـا ثـالثـا فإذا أوشكت عدتها من الطلاق الثـالث على الانتهاء راجعها واستأنف طـلاقا رابعا، فإذا أوشكت عـدتها من الطـلاق الـرابع على الانتهاء راجعهـا واستأنف طـلاقـا خـامسـا وهكـذا ولو بلغ مئـات المرات فتصير كـالمعلقـة لا يطلقهـا فتبتغي الأزواج ولا يؤويها كذوات الأزواج. فأكّد الله تبارك وتعالى على الأزواج الذين طلقـوا نساءهم وأرادوا الـرجعـة قبل انقضـاء العدة أنـه إنما يحل لهم ذلك إن أرادوا إصلاحـا ورغبوا في إقامـة بيت الزوجيـة السعيد، أما إذا كـان مرادهم الإضرار بـالـزوجـة والتنكيل بها فإن ذلك يـوقع مَن فعلـه في الـذنب والإثم والمعصية، وإن كان له الحق في ذلك قضاء لأن مـا في قلبه من النية السيئة لا يَطَّلع عليه إلا الله عز وجل، ولذلك أكّد الله تبـارك وتعالى هذا المعنى بقوله: ﴿ولا تمسكوهـن ضِرارًا لتعتدوا﴾. وقولـه تعالى: ﴿ولهن مثل الـذي عليهن بالمعروف وللـرجال عليهن درجة﴾ يفيد أن للنسـاء على أزواجهن حقوقا وأن للأزواج على زوجاتهم حقوقا بالمعـروف، وأن للرجال على النساء درجة، وقد

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بين رسول الله ﷺ ما للرجل على المرأة وما للمرأة على الرجل فقد روى الترمذي وصححه من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقّكم على نسائكم فلا يوطئن فُرُشَكم من تكرهون، ولا يأذَنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقّهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن». كما روى أبو داود والنسائي بسند حسن عن معاوية القُشَيْري رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله ما حقّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: «تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت».

كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيرا» الحديث. كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر». كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرُشَكم أحدا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهنّ بالمعروف». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان، لعنتها الملائكة حتى تصبح». وقد جعل الله عز وجل للرجال على النساء درجة وهي كونه قوّامًا عليها كما قال عز وجل: ﴿الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾، وتذييل الآية بقوله عز وجل: ﴿والله عزيز حكيم﴾ لتربية خوف الله في قلوب الرجال والنساء ليؤدي كل واحد ما عليه من الحق خوفا من الله ورجاءَ ما عنده من المثوبة.

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

قال تعالى: ﴿الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به، تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾

لقد وضع الإسلام للمسلمين أكمل المناهج في شئون الحياة الزوجية وغيرها، وقد أقرت الشريعة الإسلامية مبدأ الطلاق إلا أنها وضعت لهذا المبدأ قيودا تحدّ من استعماله والاستهتار به، فقد قسمت الشريعة الإسلامية الطلاق إلى قسمين: طلاق السنة وطلاق البدعة، فطلاق السّنة أن يطلّق الرجل امرأته في طهر لم يَمْسَسْها فيه أو أن تكون حاملا تطليقة واحدة رجعية، ثم لا يتبعها بطلاق آخر، حتى تنقضي عدّتها، وله الحق في رجعتها متى شاء قبل أن تنقضي عدّتها، وإنما سمّي هذا الطلاق طلاق السنة لأنه الطلاق الذي يوافق أمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ، أما أمر الله عز وجل بذلك فهو قوله تبارك وتعالى: ﴿ياأيها النبي إذا طلّقتم النساء فطلّقوهن لعدّتهن وأحصوا العدّة﴾ وقد فسّر هذه الآية رسول الله ﷺ وبينها بأن المقصود منها هو أن يطلّق الرجل امرأته في طهر لم يمسسها فيه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلّق امرأة له وهي حائض فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فتغيّظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلّقها فليطلّقها طاهرا قبل أن يمسّها، فتلك العدّة التي أمر الله أن تطلّق لها النساء» وفي رواية: «مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهرا أو حاملا» وفي رواية لمسلم من طريق أبي الزّبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن (مولى عزة) يسأل ابن عمر وأبو الزبير يسمع ذلك: كيف ترى في رجل طلّق امرأته

حائضا؟ فقال: طلّق ابن عمر امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال: إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض، فقال له النبي ﷺ: «ليراجعها»، فردّها، وقال،: «إذا طهرت فليطلّق أو ليمسك»، قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: ﴿ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلّقوهن في قُبُل عدّتهن﴾ اهـ أما طلاق البدعة فهو أن يطلق الرجل امرأته وهي حائض أو يطلّقها في طهر مسّها فيه، أو يجمع لها تطليقتين أو ثلاثا في لفظ واحد، فمن طلّق طلاق البدعة عصى الله وعصى رسوله ﷺ ووقع عليه الطلاق كما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، فكان من العوائق التي جعلها الإسلام في طريق الطلاق أنه جعل طلاق السنة لا يكون إلا في طهر لم يمسّ الرجل زوجته فيه وقد قيّده بذلك، لأنه وقت تتجدد فيه الرغبة في مقارفة الزوجة وتميل إليها نفسه، فتضعف الرغبة في الطلاق، وقد تتغير عزيمته، ويثبّت عتبته، وكما ضيّق الإسلام الزمن الذي يسن فيه للرجل الطلاق فقد ضيّق عدد التطليقات التي منحها للزوج حيث كان قبل الإسلام لا حدّ لعدد التطليقات حتى لو طلق الرجل امرأته مائة مرة فلا بأس عليه عندهم، فجعل الإسلام الحد الأقصى الذي يباح للرجل هو ثلاث تطليقات، وله أن يردّها بعد تطليقة واحدة أو تطليقتين ما دام الطلاق رجعيا، وحتى لو انقضت عدتها فله أن يردّها برضاها بمهر جديد وعقد جديد، أما إذا أوقع عليها الطلقة الثالثة فإنها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، وكان هذا من أكبر الكوابح التي تكبح جماح الرجل عن الطلاق الثلاث، وقوله عز وجل: ﴿الطلاق مرتان﴾ أي عدد الطلاق المباح للزوج على زوجته والذي يمكنه فيه أن يردها دون أن تحتاج إلى الزواج من زوج آخر هو مرتان، فإن طلقها التطليقة الثالثة فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، وقد بينت السنة كيفية إيقاع الطلاق على الوجه المشروع

المسنون، لكنه لو خالف السنة وطلقها تطليقتين في لفظ واحد أو طلقها ثلاثا في لفظ واحد أو طلقها وهي حائض فإنّ طلاقه يقع وإن كان عاصيا آثما، فقد جاء في لفظ للبخاري من طريق شعبة عن أنس بن سيرين قال: سمعت ابن عمر قال: طلق ابن عمر امرأته وهي حائض، فذكر عمر للنبي ﷺ، فقال: «ليراجعها». قلت: تُحْتَسَب؟ قال: «فَمَهْ؟» وعن قتادة عن يونس بن جُبَيْر عن ابن عمر: قال: «مُرْه فليراجعها» قلت: تحتسب، قال: «أرأيت إن عجز واستحمق؟» وقال أبو معمر: حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال: حسبت عليّ تطليقة اهـ وقد ساق مسلم رحمه الله حديث ابن عمر بعدة ألفاظ قال: حدثنا يحيى بن يحيى وقتيبة وابن رُمْح واللفظ ليحيى، قال قتيبة: حدثنا ليث، وقال الآخران: أخبرنا الليث بن سعد عن نافع عن عبد الله أنه طلق امرأة له وهي حائض تطليقة واحدة، فأمره رسول الله ﷺ أن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض عنده حيضة أخرى ثم يمهلها حتى تطهر من حيضتها، فإن أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلّق لها النساء. وزاد ابن رمح في روايته: وكان عبد الله إذا سئل عن ذلك قال لأحدهم: أما أنت طلّقت امرأتك مرةً أو مرتين فإن رسول الله ﷺ أمرني بهذا، وإن كنت طلقتها ثلاثا فقد حرمت عليك حتى تنكح زوجا غيرك، وعصيت الله فيما أمرك من طلاق امرأتك. قال مسلم: جوّد الليث في قوله: تطليقة واحدة. ثم ساقه مسلم من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر وفي آخره قال عبيد الله: قلت لنافع: ما صنعت التطليقة؟ قال: واحدة اعتدّ بها. ثم ساقه مسلم من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر، وفي آخره: فكان ابن عمر إذا سئل عن الرجل يطلق امرأته وهي حائض يقول: أمّا أنت طلّقتها واحدة أو اثنتين، إن رسول الله ﷺ أمره أن

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يَرْجِعَها ثم يمهلها حتى تحيض حيضة أخرى ثم يمهلها حتى تطهر ثم يطلقها قبل أن يمسّها، وأمّا أنت طلّقتها ثلاثا فقد عصيت ربّك فيما أَمرك به من طلاق امرأتك وبانت منك . ثم ساقه مسلم من طريق سالم بن عبد الله عن ابن عمر وفي آخره: وكان عبد الله طلقها تطليقة واحدة فحُسِبت من طلاقها. اهـ أما ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم. فقد جاء في بعض ألفاظ سند هذا الحديث ما يدل على أنه من الأمور المستغربة عند المسلمين، فقد أخرج مسلم من طريق ابن جُرَيج أخبرني ابن طاوس عن أبيه أن أبا الصهباء قال لابن عباس: هاتِ من هَنَاتك، ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر واحدةً؟ فقال: قد كان ذلك فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطلاق فأجازه عليهم اهـ فقول أبي الصهباء لابن عباس: هات من هناتك أي أخبارك وأمورك المستغربة وهو يشعر بأن هذا الأمر وهو أن الثلاث تقع واحدة وأن عمر رضي الله عنه هو الذي جعله ثلاثا من الأمور المستغربة عند المسلمين، علما بأنه قد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يفتي بعد موت عمر رضي الله عنه بأن من طلق ثلاثا بلفظ واحد أنه تقع عليه الثلاث، فقد أخرج أبو داود بسند صحيح من طريق مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال إنه طلّق امرأته ثلاثا، فسكت حتى ظننت أنه سيردها إليه، فقال: ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس؟ إن الله قال: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجا، عصيت ربك وبانت منك امرأتك. وهو يوافق ما مرّ عند مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال لمن طلق امرأته ثلاثا:

وأما أنت طلقتها ثلاثا فقد عصيت ربك فيما أمرك به من طلاق امرأتك وبانت منك . وروى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن رجلا طلق امرأته ثلاثا فتزوجت فطلّق فسئل النبيّ ﷺ: أتحلّ للأول؟ قال: «لا، حتى يذوق عُسَيْلَتها كما ذاق الأول». وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ أي فعليكم أيها الأزواج إمساك زوجاتكم بالمعروف أو تسريحهن بإحسان، وهذه وصية من الله تبارك وتعالى لجميع الأزواج بحسن العشرة سواء كان الزواج ابتداء أو كان بعد طلقة أو بعد طلقتين، كما أنه وصية من الله تبارك وتعالى لجميع الأزواج عند ما يريدون تطليق نسائهم وتسريحهن أن يكون التسريح بإحسان فلا يذكرون نساءهم عند الطلاق أو بعده إلا بخير، ولا يلحقونهن بأذى من قول أو فعل، وهذه قاعدة الإسلام في الحياة الزوجية، ولا شك أنها اللّبنة الأولى في بناء البيت السعيد، وهو تأكيد لما أفاده قول الله عز وجل في الآية السابقة: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ وتأكيد هذه الوصية في حق الرجال لأنهم هم القوامون على النساء، وهم أقدر على إدارة البيت بالعشرة الحسنة وترك الإضرار، وقد أشار ابن عباس رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ بأنه الميثاق الغليظ الذي جعله الله عز وجل للنساء على الرجال في قوله تبارك وتعالى: ﴿وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: حدثني المثنّى قال: حدثنا سُوَيد بن نصر قال: أخبرنا ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ قال: قوله: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ اهـ ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن خير الناس هو خيرهم لأهله، فقد روى الترمذي بسند صحيح من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خيركم خيركم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لأهله، وأنا خيركم لأهلي». كما روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم». وقد كان رسول الله ﷺ يحرص على مؤانسة نسائه وإدخال السرور عليهن، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يَنْقَمِعْن، فيُسَرِّبهن إليّ، فيلعبن معي. ومعنى: ألعب بالبنات، تعني اللعب التي تلعب بها الصَّبِيَّة. وقولها: ينقمعن، أي يستترن حياء منه، ومعنى: يسرّبهن إليّ، أي يرسلهن سربا سربا ويردّهنّ إلي. وقدكان رسول الله ﷺ جميل العشرة لنسائه يضاحكهنّ ويتلطف بهن، وقد أكد الله تبارك وتعالى على الأزواج أن يحسنوا عشرة أزواجهم في غير موضع من القرآن العظيم، كما قال: ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾. وقوله تعالى: ﴿ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ قد فرض الله تبارك وتعالى للنساء في النكاح صداقا وبين أنه حق من حقوق الزوجة لا يحل لأحد أن يأخذ منه شيئا إلا بطيب نفس منها حيث يقول عز وجل: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا﴾ وقال عز وجل: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾ وقال عز وجل: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ وشريعة بني إسرائيل تفرض للمرأة مهرا لكنها لا تملّكه لها بالفعل إلا إذا مات زوجها أو طلقها لأنها في نظرهم لا يجوز لها أن تتصرف في مالها وهي

ذات زوج. وقد جعل الإسلام لحل رابطة الزوجية ثلاثة طرق، الطريق الأول الطلاق، وقد جعله الله عز وجل بيد الزوج، والطريق الثاني فسخ الحاكم لعقد الزوجية عند وجود أسباب طبيعية أو أسباب شرعية مع امتناع الزوج عن الطلاق، فالأسباب الطبيعية كعيوب الخلقة المانعة من أداء وظيفة الزوجية كالعُنّة والجَبّ ونحوهما في الرجال، والأسباب الشرعية كامتناع الرجل في الإيلاء بعد مضيّ أربعة أشهر. أما الطريق الثالث فهو ما ذكره الله عز وجل في هذا المقام الكريم من سورة البقرة وهو المعروف شرعا باسم الخُلْع الذي جعله الله عز وجل مخرجا للزوجة إذا كرهت الزوج لغير سبب من الأسباب التي تعطي الحاكم حق فسخ عقدة النكاح، وأصل الخُلْع في اللغة هو فراق الزوجة على مال، مأخوذ من خَلع الثوب لأن المرأة لباس الرجل. وإنما ضُمّت الخاء للتفرقة بين الحسّي وهو خلع الثوب والمعنوي وهو خُلع المرأة، أما الخُلع في الاصطلاح فهو فِراق الرجل زوجته بعِوَض يحصل لجهة الزوج وهو مشروع بكتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ، حيث يقول الله عز وجل هنا: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي ولا يجوز لكم أيها الرجال أن تأخذوا من الصداق الذي أعطيتموه لنسائكم شيئا عند رغبتكم في طلاقهن بل عليكم تسريحهن بإحسان حتى لو كنتم أعطيتم إحداهن قنطارا من الذهب فلا تأخذوا منه عند طلاقهن شيئا فإنه سُحْت لا يحل إلا بطيب نفس منها، لكن إذا كان الرجل غير راغب عنها وكانت هي راغبة عنه، وصارت لا تطيعه إذا أمرها، وأصبحت عاجزة عن القيام بحقه الذي فرضه الله له عليها، ولم يصبر هو على هذا الحال، وغلب على ظنه أن إصلاحها غير قريب المنال، لأنها لا تطيق النظر إليه، ويُخْشَى على الزوج أن تندفع نفسه فيعاملها بمثل معاملتها له ويقصر في

الحق الذي طالبه الله عز وجل لها من الإمساك بالمعروف، ولكونه لا ذنب له معها فلا يُجْبَر على فراقها، وقد أحسّ بهذا الحال المصلحون من أهلها ومن أهله وصاروا يخافون من تقصير كل واحد من الزوجين في حق صاحبه مع علمهم أن المرأة قد استحكم نشوزها فعند ذلك يباح للزوج أن يأخذ منها ما دفعه لها من صداق أو نحوه تفتدي نفسها وتختلع منه بذلك. وقد نص الله تبارك وتعالى على حِلّ المال الذي يأخذه الزوج من زوجته المختلعة في هذه الآية الكريمة، وقد قال البخاري في صحيحه: باب الخُلع، وكيف الطلاق فيه، وقول الله تعالى: ﴿ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألّا يقيما حدود الله﴾ إلى قوله: ﴿الظّالمون﴾ وأجاز عمر الخلع دون السلطان، وأجاز عثمان الخلع دون عِقَاص رأسها، وقال طاوس: إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فيما افترض لكل واحد منهما على صاحبه في العشرة والصّحبة، ولم يقل قول السّفهاء: لا يحل حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة. حدثنا أزهر بن جميل حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتِبُ عليه في خُلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أتردّين عليه حديقته؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلّقها تطليقة». حدثنا إسحاق الواسطيّ حدثنا خالد عن خالد الحذّاء عن عكرمة أنّ أخت عبد الله بن أبيّ بهذا وقال: «ترُدين حديقته؟» قالت: نعم، فردّتها وأمره يطلّقها. وقال إبراهيم ابن طَهْمان عن خالد عن عكرمة عن النبي ﷺ: «وطلّقها»، وعن أيوب بن أبي تميمة عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إني لا أعْتِبُ على ثابت في دين ولا خلق ولكني لا أطيقه، فقال رسول الله ﷺ: «فتردّين عليه حديقته؟» قالت:

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

نعم. حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك المخَرِّميّ حدثنا قُرَادُ أبو نوح حدثنا جرير بن حازم عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شَمّاس إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أنْقِم على ثابت في دين ولا خلقٍ، ولكنّي أخاف الكفر، فقال رسول الله ﷺ: «فتردِّين عليه حديقته؟» فقالت: نعم، فردّت عليه، وأمره ففارقها اهـ وقول البخاري: وقال طاوس: إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فيما افترض لكل واحد منهما على صاحبه في العشرة والصحبة، ولم يقل قول السفهاء: لا يحل حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة. قال الحافظ في الفتح: هذا التعليق اختصره البخاريّ من أثر وصله عبد الرزاق قال: أنبأنا ابن جريج أخبرني ابن طاوس وقلت له: ما كان أبوك يقول في الفداء؟ قال: كان يقول ما قال الله تعالى: ﴿إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله﴾ ولم يكن يقول قول السفهاء: لا يحل حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة. ولكنه يقول: إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فيما افترض لكل واحد منهما على صاحبه في العشرة والصحبة. اهـ وهو يشير إلى رد ما زعمه بعض الناس من أنّ الخلع لا يحل حتى تعصي المرأة الرجل في جميع ما يطلبه منها حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة، ولا أبرّ لك قسما، ولا أطيع لك أمرا. وقولها: لا أعتب عليه في خلق ولا دين، أي لا أطعن عليه في سلوكه وأخلاقه، فسلوكه حسن وأخلاقه مرضية، وكذلك هو مستقيم على شرع الله ودينه. وقولها: ولكني أكره الكفر في الإسلام، أي ولكني أخشى إن بقيت معه أن أسيء إليه، وأن أكفر بالعشير وأن أقصر فيما يجب عليّ القيام به من حقه، ولعلها تشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة صلاة الكسوف حيث قال رسول الله ﷺ: «وَأُرِيتُ النار فلم أر منظرا كاليوم قطّ أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء»

قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «بكفرهنّ»، قيل: يكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنْتَ إلى إحداهنّ الدّهر كلّه ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط». وقوله عليه السلام: «أتردّين عليه حديقته؟» أي أترجعين إليه بستانه الذي كان دفعه لك صداقا؟ وقوله تبارك وتعالى: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ قد ذكر الله تبارك وتعالى قوله: ﴿حدود الله﴾ أربع مرات في هذه الآية الكريمة حيث قال: ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ وقال: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ ثم قال: ﴿تلك حدود الله﴾ ثم قال: ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ وهو يفيد وجوب الوقوف عند مراسيم الشريعة التي رسمها الله عز وجل لسعادة عباده، وأن يحذر المسلم حذرا شديدا من مخالفة أمر الله عز وجل والتعدي على حدوده سواء كانت حقوقا لله تبارك وتعالى أو حقوقا لخلقه، فقيام الزوجة بما عليها للرجل من حقوق هي حدود الله، وقيام الرجل بما عليه للمرأة من حقوق هي حدود الله كذلك، والصداق الذي دفعه الرجل للمرأة هو حق من حقوقها لا يجوز للرجل أن يأخذ منه شيئا بغير طيب نفس منها فإن أخذ من ذلك شيئا بغير رضاها فهو سُحْت وتَعَدٍّ على حدود الله، وإذا خافت المرأة أن لا تقوم بحق زوجها فافتدت بمال واختلعت فقبله منها وطلقها فقد حافظا على حدود الله، وإن استهواهما الشيطان وقصّر كل واحد منهما في حق الآخر وأساء العشرة فقد اعتديا على حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، ولذلك وصف من يتعدى حدوده بأنهم هم الظالمون وجمع بين النهي والوعيد للمبالغة في التحذير والتهديد حيث يقول عز وجل: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فأولَئك هم الظالمون﴾ كما أن وضع اسم الله بدل ضميره في المواضع الثلاثة الأخيرة من قوله: ﴿حدود الله﴾ مع أن السياق يقتضي المجيء بضميره لكن مقتضى الحال من تربية المهابة والحض

على الامتثال اقتضى وضع الاسم الجليل مكان الضمير. هذا وقد وهم بعض الناس من المنتسبين للعلم فجعل الخُلْع فسخا لا طلاقا ظنّا منه أنه لو كان طلاقا لكان للرجل أربع تطليقات بدعوى أن الله تعالى قال في صدر الآية: ﴿الطلاق مرتان﴾ ثم قال في الآية التي تليها: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾ قال: فإذا اعتبرنا الخلع طلاقا صار للرجل أربع تطليقات. وهذا فهم عاطل باطل فاسد كاسد واجتهاد مع النص، فقد وقع التصريح في الحديث الصحيح بقوله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» على أن ابن قدامة رحمه الله ذكر في المغني أن من ذكر أنه فسخ أنه أراد إذا لم يذكر طلاقا، حيث قال رحمه الله: وهذا الخلاف فيما إذا خالعها بغير لفظ الطلاق ولم ينوه، فأما إن بذلت له العِوَض على فراقها فهو طلاق لا اختلاف فيه اهـ وإذا كان الخلع طلاقا فإنه لا يغير ما جعل الله للرجل من التطليقات الثلاث فقط، إذ تطليقة الخلع محسوبة من الثلاث فلو لم يكن طلقها قبل تطليقة الخلع فقد بقي له اثنتان وإن كان طلقها مرة قبلها فلم يبق له إلا تطليقة واحدة فإن طلقها قبلها مرتين كانت تطليقة الخلع متممة للثلاث فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى: ﴿فإن طلقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره، فإن طلّقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله، وتلك حدود الله يبيّنها لقوم يعلمون﴾ وإذا طلّقتم النساء فبلغن أجلهنّ فأمسكوهن بمعروف أو سرّحوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه، ولا تتخذوا آيات الله هزوا، واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم.﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى حكم الطلاق الذي يجوز للرجل فيه أن يراجع زوجته وهو ما كان في حدود طلقة أو طلقتين، وأشار إلى وجوب الصداق وأنه لا يحل للزوج منه شيء إلا بطيب نفس من الزوجة، وأنه يجوز للمرأة في حالة خوفها من تقصيرها في حق زوجها وهو راغب فيها أن تفتدي نفسها منه وأنه يجوز للزوج أخذ هذا العوض ليطلقها، ذكر هنا أن الرجل إذا طلق زوجته التطليقة الثالثة فإنها لا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج زوجا آخر زواجا شرعيا مستوفيا لجميع شروط النكاح، فإذا طلقها الزوج الثاني وتأيّمت بعده فللزوج الأول أن يتزوجها فقال عز وجل: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾ أي فإن فارقها بتطليقة ثالثة بعد التطليقتين السابقتين سواء كانت إحدى التطليقتين السابقتين بعوض وهو الخُلع أو بغير عوض، فإنها لا تحل له بعد ذلك إلا بشرط أن تتزوج زوجا آخر يعني زواجا شرعيا، والمقصود من قوله تبارك وتعالى: ﴿حتى تنكح﴾ أي تتزوج، فالمراد من النكاح هنا العقد أي حتى يعقد عليها زوج آخر عقدا صحيحا، وكان مقتضى هذا الإطلاق أن مجرد العقد للزوج الثاني يبيحها للزوج الأول، لكنّ رسول الله ﷺ الذي أُنْزِل عليه الذكر ليبيّنه للناس قد قيّد هذا الإطلاق

فبيّن أن مجرد العقد على الثاني لا يُبيحها للأول حتى يذوق الثاني عُسَيْلتها، أي يدخل بها، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة فطلقني، فبَتَّ طلاقي، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزَّبِير وما معه إلا مثل هُدْبة الثوب، فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟» قالت: نعم، قال: «لا، حتى تذوقي عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتك». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رجلا طلّق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجا، فطلّقها قبل أن يمسها فسئل رسول الله ﷺ: أتحلّ للأول؟ فقال: «لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأوّل». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ وأنا جالسة وعنده أبو بكر فقالت: يا رسول الله إني كنت تحت رفاعة فطلقني فبتّ طلاقي، فتزوجتُ بعده عبد الرحمن بن الزَّبير وإنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهُدْبة، وأخذت هُدْبة من جلبابها، فسمع خالد بن سعيد قولها وهو بالباب لم يؤذن له، قالت: فقال خالد: يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ، فلا والله ما يزيد رسول الله ﷺ على التبسّم، فقال لها رسول الله ﷺ: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عسيلتك، وتذوقي عسيلته». فصار سنّة بعدُ. ولفظ مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رفاعة القُرَظِي طلّق امرأته فبتّ طلاقها فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزّبير فجاءت النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله إنها كانت تحت رفاعة فطلّقها آخر ثلاث تطليقات، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزّبير وإنّه والله ما معه إلا مثل الهدْبة، وأخذت بهدبةٍ من جلبابها، قال: فتبسّم رسول الله ﷺ ضاحكا فقال: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عسيلته». وأبو بكر الصّدّيق جالسٌ عند رسول الله ﷺ وخالد بن سعيد بن العاص جالسٌ بباب الحجرة لم يؤذن له، قال: فطفق خالدٌ ينادي أبا بكر: ألا تزجر هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ؟. وبهذا يصير شرط زواج الرجل بمن طلقها ثلاثا أن يعقد عليها زوج آخر يكون راغبا فيها قاصدا لدوام عشرتها كما هو المشروع في كل تزويج، والشرط الثاني أن يدخل بها الزوج الثاني ويباشرها، فإن قصد الزوج الثاني من الزواج بالمرأة مجرّد تحليلها للأول صار ملعونا بلعنة رسول الله ﷺ له، وإذا رضي الزوج الأوّل بعمل هذا الزوج الثاني صار هو كذلك ملعونا بلعنة رسول الله ﷺ له. فقد روى أحمد والترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَعَنَ رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والمحَلِّل والمحَلَّل له، وآكل الربا ومُوكله. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر وعثمان وابن عمر وهو قول الفقهاء من التابعين ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس اهـ وقوله عز وجل: ﴿فإن طلّقها﴾ أي فإن فارقها الزوج الثاني بعد الدخول بها وبعد مباشرتها ولم يقصد الثاني بطلاقه إباحتها للأول وتحليلها له، وقوله عز وجل: ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله﴾ أي فلا إثم ولا حرج على الزوج الذي كان قد طلق زوجته ثلاثا ثم تزوجت بعده زواجا شرعيا ودخل بها الزوج الثاني وفارقها ثم طلقها، أن يتزوجها هذا الزوج الأول زواجا جديدا إن غلب على ظن هذين الزوجين أن يقيما حدود الله فيتعاشرا بالمعروف ويحسن كلّ واحد منهما صحبة الآخر، ويتّقي الله فيه، ولا حرج على الزوجة في ذلك كذلك، وهذا من أعظم كوابح الطلاق وردع الرجال عن أن يطلقوا غير طلاق السنة، فإن شيم أكثر الناس تنفر من أن تعرّض نفسها لمثل هذا الحال، لذلك تتروّى إذا أغراها الشيطان بالطلاق

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

حذرا من أن تصير زوجته فراشا لرجل آخر ولا سيّما إذا كانت ذات عيال، فما أدق أحكام الشريعة وما أجلّها لصيانة البيوت وحماية الأسر من أسباب الانهيار. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرّحوهن بمعروف﴾ هذا تأكيد لما أفاده قوله عز وجل: ﴿وبعولتهنّ أحقّ بردّهنّ في ذٰلك إن أرادوا إصلاحا﴾ ولما أفاده قوله عز وجل: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ وقد بينت في تفسير قوله عز وجل: ﴿وبعولتهنّ أحقّ بردّهن في ذٰلك إن أرادوا إصلاحا﴾ أن المراد من قوله تبارك وتعالى: ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ في سورة الطلاق وفي قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ﴾ أي قاربن انقضاء عدّتهن، وأن العلماء قد أجمعوا على أن قوله: ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ أي قاربن الخروج من عدّتهن إذ بعد بلوغ الأجل والخروج من العدة لا خيار للزوج في الإمساك، وأن الإجماع منعقد على أنه لا يملك عليها حق الرجعة بعد انقضاء العدة وقد كرّر الله تبارك وتعالى أمره للرجال بإمساك نسائهم بالمعروف أو تسريحهن بإحسان لتنبيههم إلى الاعتناء بذلك والمبالغة في إيجاب المحافظة عليه، والحذر من الإضرار بالمرأة، وردع الرجال عما كان يفعله أهل الجاهلية بنسائهم حيث كان الواحد منهم يطلق امرأته ثم إذا قاربت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها مرة ثانية حتى إذا قاربت عدتها على الانقضاء راجعها ثم طلقها وهكذا لمجرد إلحاق الأذى بها وإضرارها، فأمرهم الله عز وجل في هذه المقامات بأنهم إذا طلق أحدهم المرأة طلاقا له عليها فيه حقّ المراجعة أن يحسن في أمرها إذا قاربت عدتها على الانقضاء فإن كان له فيها رغبة في الإمساك راجعها وأمسكها بالمعروف وأحسن عشرتها وخاف الله عز وجل فيها، وإن لم يكن له فيها رغبة تركها حتى تنقضي عدّتها، وأحسن تسريحها فلا يذكرها إلا بخير، ولا يتحدث عنها بما تكره، بل ويمتّعها بما يستطيع من

الهدايا التي تجبر خاطرها كما قال عز وجل: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين﴾. ولذلك جاء في تخيير رسول الله ﷺ نساءه: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتّعكنّ وأسرّحكنّ سراحًا جميلا﴾ وقد أُثِرَ أن بعض السلف متّع امرأته عند تسريحها بهديّة عظيمة ثم قال لها عند مفارقتها: متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارق. وقوله عز وجل: ﴿ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا﴾ تأكيد لوجوب الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان وتحذير شديد من إمساك المرأة بقصد الإضرار بها وأن من راجع امرأته في عدتها التي يملك فيها حقّ الرجعة عليها وكان قصده الإضرار بها كان معتديا ظالما آثما يعرّض نفسه لغضب جبار السموات والأرض، ولذلك أتبع الله قوله: ﴿ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا﴾ بقوله عز وجل: ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي حمّلها ما لا تطيق من غضب الله وما أعده للظالمين، وقد حرمت الشريعة الإسلامية على المسلم أن يلحق الأذى بأحد من خلق الله وأن من ضار أحدًا عاقبه الله بضرر أعظم مما ضرَّ به غيره، فقد روى أبوداود والترمذي وحسنه من حديث أبي صِرْمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ضارّ ضارّ اللهُ به، ومن شاقّ شاقّ اللهُ عليه» ولا شك أن دفع الأذى والضرر عن النفس والغير وعدم المضارّة هو من القواعد الإسلامية التي أطبق عليها علماء الإسلام مستنبطين ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ولا تمسكوهن ضِرارًا لتعتدوا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولا تضارّوهن لتُضيّقوا عليهن﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا تُضارَّ والدة بولدها ولا مولودٌ له بولده﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولا يُضَارَّ كاتب ولا شهيد﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من بعد وصية يُوصَى بها أو دين غير مُضَارٍّ وصيةً من الله﴾ وقرن الله تبارك وتعالى الضرار بالكفر في قوله عز وجل: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضِرارًا وكفرا

وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب اللهَ ورسوله من قبل﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن دفع الأذى والضرر عن الناس من أعظم ما يقرّب العبد إلى ربه، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان بضع وستون أو سبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول: لا إله إلا الله». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخّره فشكر الله له فغفر الله له» وفي رواية لمسلم بلفظ: «لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين». كما روى البخاري ومسلم من حديث جرير ابن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لا يرحم الناسَ لا يرحمه الله». وفي قوله عز وجل: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هُزُوًا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ مجموعة من التحذيرات المتتابعة التي يخوّف الله عز وجل بها عباده المؤمنين من التهاون في أحكام الله واللعب بحقوق النساء، وعدم الانضباط في أمر الطلاق، مع تنبيههم إلى وجوب شكر نعمته على هذه التشريعات الجالبة لسعادة الدارين التي جاءت في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ لإرشاد الناس وعظتهم، والله عليم بمن يسلك سبيله ومن ينحرف عنه وهو بكل شيء عليم.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهنّ إذا تراضوا بينهم بالمعروف، ذُلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذالكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

في الآية السابقة بيان حكم المطلقة التي لزوجها عليها حق الرجعة لأنها لم تخرج من عدّتها من طلاق رجعي ولذلك كان توجيه الأمر الكريم من الله عز وجل للأزواج الذين يملكون حقّ الرجعة بأن يمسكوا بالمعروف قبل نهاية العدة، أو يسرّحوا بمعروف بأن يتركوا المطلقة الرجعية حتى تنتهي عدّتها وتصير أملك لنفسها، وليس لزوجها بعد خروجها من العدة حقّ الرجعة عليها إلا برضاها بعقد جديد ومهر جديد وولي، وفي هذه الآية الكريمة يوجّه الله عز وجل الخطاب لأولياء المطلّقات اللاّتي خرجن من العدة بأن لا يعضلوا من لهم عليهن ولاية التزويج إذا حصل تراض بين المرأة وزوجها الذي بانت منه بخروجها من العدة وزال ما بينهما من شقاق، ورغبا في العودة إلى الحياة الزوجية من جديد، فقال عز وجل: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تَعْضُلوهنّ أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ المراد بأزواجهن هنا أي الذين كانوا أزواجا لهن قبل خروجهن من عدة الطلاق، فإطلاق لفظ الزوج باعتبار ما كان للعلم بذلك. وقد بينت في تفسير الآية السابقة أن معنى قوله عز وجل: ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قاربن انقضاء عدّتهن ولم تنته العدة بعد، أما قوله عز وجل في هذه الآية: ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ فإن بلوغ الأجل هنا هو الخروج من العدة تماما، والذي يحدّد المراد هو السياق الكريم لأنه قال هناك بعد قوله: ﴿فبلغن أجلهن﴾: ﴿فأمسكوهنّ بمعروف أو سرّحوهن بمعروف﴾ فدل ذلك على أن المراد من بلوغ الأجل قرب انتهائه وكان الخطاب موجّها للأزواج. وهنا يقول عز وجل

بعد قوله: ﴿فبلغن أجلهنّ﴾: ﴿فلا تَعْضُلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ فدل ذلك على أن المراد من بلوغ الأجل انتهاء العدة والخروج منها، وكان الخطاب موجّها للأولياء لا للأزواج، ولا شك أن هذا درجة في الفصاحة عالية، ومنزلة في البلاغة رفيعة لا يعقلها إلا العالمون، وهو لون من الإعجاز البلاغي في القرآن العظيم. وقد أخرج البخاري في صحيحه أن هذه الآية نزلت في مَعْقِل بن يَسَار المزَنيّ رضي الله عنه لما طلّقت أخته وخرجت من عدتها، وجاءها الخطّاب ومن بينهم زوجها الأول فرغبت فيه وأحبت أن يعود الزواج بينهما وهَوِيَتْه وهَوِيَها فامتنع أخوها مَعْقِل بن يسار رضي الله عنه من تزويجها منه فنزلت هذه الآية الكريمة، فقد روى البخاري في صحيحه في باب من قال: (لا نكاح إلا بولي) من طريق يونس عن الحسن: ﴿فلا تعضلوهنّ﴾ قال: حدثني معقل بن يسار رضي الله عنه أنها نزلت فيه قال: زوّجت أختا لي من رجل، فطلّقها، حتى إذا انقضت عدّتها جاء يخطبها، فقلت له: زوّجتك وأفرشتك، وأكرمتك، فطلّقتها، ثم جئت تخطبها، لا والله لا تعود إليك أبدا، وكان رجلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية ﴿فلا تعضلوهن﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوّجها إياه. وفي رواية للبخاري ساقها في كتاب النكاح من طريق قتادة قال: حدثنا الحسن أن معقل بن يسار كانت أخته تحت رجل فطلّقها، ثم خلّى عنها، حتى انقضت عدتها، ثم خطبها، فحمي معقل من ذلك أَنَفًا، فقال: خلّى عنها وهو يقدر عليها، ثم يخطبها، فحال بينه وبينها، فأنزل الله: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ﴾ إلى آخر الآية، فدعاه رسول الله ﷺ فقرأ عليه، فترك الحميّة، واستقاد لأمر الله. اهـ وأصل العَضْل في اللسان العربي الحبس والمنع والتضييق، ولا شك أن تحريم عَضْل الولي في قوله تبارك وتعالى: ﴿فلا تَعْضُلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بينهم بالمعروف﴾ هو دليل ظاهر على أنه لا بد في عقد النكاح من الولي إذ لو لم يكن الوليّ شرطا في صحة العقد لزوّجت نفسها دون الرجوع إليه وهذا يفسر قوله ﷺ: «الثّيب أحق بنفسها من وليها» الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، فإنّ لفظة أحقّ هنا للمشاركة ومعناه أن لها في نفسها في النكاح حقا، ولوليّها حقا، وحقّها أوكد من حقه فإنه لو أراد تزويجها كُفْؤاً وامتنعت لم تُجْبَر، ولو أرادت أن تتزوج كُفْؤاً فامتنع الولي أجبر على عقد النكاح لها، فإن أصرّ على عدم تزويجها وعضلها نقل الحاكم الشرعي الولاية إلى من يليه من الأولياء وسلب ولايته عليها فإن لم يكن لها وليّ زوّجها القاضي. ولا شك أن اشتراط الولي في صحة عقد النكاح هو لحماية كرامة المرأة ووقايتها من قالة السوء. فالولي شرط في صحة العقد، ورضا المرأة بمن تتزوج شرط في صحة العقد كذلك، فإن رغبت الزواج من كفء وعَضَل وليُّها انتقلت الولاية للسلطان، وإن رغبت في غير كفء كان ذلك إشارة سفه فيها، ووليّها يمنعها من ذلك حرصا على مصلحتها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ أي إذا حصل التراضي بين الأزواج والزوجات في العودة إلى الحياة الزوجية على هُدًى من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. وقوله عز وجل: ﴿ذٰلك يُوعَظُ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ في سياق بيان حكم من طلق زوجته تطليقة له فيها حق الرجعة عليها لكنه لم يراجعها حتى انقضت عدتها ثم رغبا في الزواج بعقد جديد، ونَهْي وليها من عَضْلها وهو شبيه بما ساقه في سورة الطلاق بعد بيان حكم من طلق امرأته تطليقة رجعية وأن له أن يمسكها في عدتها بالمعروف أو يتركها حتى تنقضي عدتها وتَبِين منه بالمعروف، حيث قال هناك: ﴿ذالكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾. وتخصيص هذين المقامين بالوعظ مع قوله عز وجل في الآية السابقة: ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم

به﴾ للترهيب من مخالفة هذه التعاليم الإلٰهية، والترغيب في المحافظة عليها، وأصل الوعظ هو التذكير بما يليّن القلب من ثواب الله أو عقابه بطريق الترغيب والترهيب، قال ابن منظور في لسان العرب: الوَعْظ والعِظة والعَظَة والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب، قال ابن سِيدَه: هو تذكيرك للإنسان بما يليّن قلبه من ثواب وعقاب، وفي الحديث: «لأجعلنّك عظة» أي موعظة وعبرة لغيرك اهـ. والخطاب بقوله عز وجل: ﴿ذٰلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ للنبي ﷺ ثم رجع إلى خطاب المؤمنين كقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها النبيّ إذا طلّقتم النساء فطلّقوهن لعدتهن وأحصوا العدّة واتقوا الله ربكم﴾ ويجوز أن يكون قوله ﴿ذٰلك﴾ بمعنى هذا، كأنه قيل: هذا البيان وهذه التعاليم ينتفع ويتعظ ويعتبر بها من كان مصدقا بالله واليوم الآخر، على أنه في سورة الطلاق قال: ﴿ذالكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فلما جعل الخطاب موجها بصيغة الجمع في سورة الطلاق لم يقل: (منكم) ولما كان الخطاب هنا موجّها بصيغة المفرد قال: ﴿من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ ولا شك أن هذا الأسلوب في القمة من الإعجاز، وهو من أمثلة كون القرآن العظيم متشابها مثاني، وتخصيص الوعظ بمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأن المؤمنين بالله المصدقين بأنهم مبعوثون موقوفون بين يدي ربهم مجزيّون بأعمالهم هم الذين ينتفعون بالوعظ والإرشاد، وتؤثر فيهم النصيحة ويسارعون إلى العمل بوصية الله ووصية رسوله محمد ﷺ ولذلك وصف الله عز وجل القرآن بأنه هدى للمتقين، وقال عز وجل: ﴿سَيَذَّكَّرُ من يخشى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾: وكما قال عز وجل: ﴿وذَكِّرْ فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وجاءك في هٰذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾ وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مثلا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكَلأ والعُشْب الكثير، وكانت منها أَجَادِبُ أمسكت الماء فنفع اللهُ بها الناسَ، فشربوا وسَقَوْا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قِيعَان لا تمسك ماء ولا تُنْبِتُ كَلأً، فذلك مَثَل مَن فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هُدَى الله الذي أرسلتُ به». اهـ ولما كانت الحياة الزوجية وتكوين البيت السعيد هو الأساس الأول لإقامة المجتمع المثالي نبّه الله تبارك وتعالى هذه التنبيهات السّنيّة وكرّرها للفت انتباه ذوي العقول للعض عليها بالنواجذ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذالكم أزكى لكم وأطهر﴾ الإشارة فيه إلى ما تقدم من الوصايا والأحكام التي ذكرها الله عز وجل لإقامة البيت السعيد والاتعاظ بما وعظ الله عز وجل به الأولياء والأزواج من الإمساك بالمعروف أو التسريح بالمعروف وتحريم العضل. ومعنى ﴿أزكى لكم﴾ أي أنمى وأنفع وأعظم بركة لكم في معاشكم ومعادكم، وقوله تعالى: ﴿وأطهر﴾ أي وأنقى لنفوسكم من الريبة والشك مما قد يقع في قلوب الأولياء بسبب تعلق كل واحد من الزوجين بصاحبه، فإن الجمع بينهما على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هو أزكى الطرق وأطهرها وأبعدها عن قالة السّوء. وقوله عز وجل: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ حضّ على المسارعة والامتثال لأوامر الله عز وجل، والابتعاد عن مخالفة أمره، لأن ما يقرّره من التشريع يجلب سعادة الدنيا والآخرة لأنه تشريع العليم الخبير، والإنسان مهما اتسعت مداركه يعجز أن يشرّع لنفسه أو لغيره تشريعا يسعده في الدنيا الآخرة، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟

قال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يُتمّ الرّضاعة، وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، لا تكلّف نفسٌ إلا وسعها، لا تضارّ والدةٌ بولدها ولا مولود له بولده، وعلى الوارث مثل ذٰلك، فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف، واتقوا الله واعلموا أنّ الله بما تعملون بصير﴾.

بعد أن بين الله تبارك وتعالى بعض حقوق الزوجين في حال قيام الحياة الزوجية بينهما، ونظّم للمسلمين أحوال الطلاق، ونظرا إلى أنه إذا حصلت الفرقة بين الزوجين بالطلاق قد يترتب على ذلك تباغض بين الزوجين، وربّما كان لهما طفل صغير، وقد يؤدي هذا التباغض إلى إلحاق الضرر والأذى بهذا الطفل إما من بغض أمه لأبيه فيدفعها الشيطان إلى إيذائه لمضارة أبيه، وإما لرغبة الأم في التزوج بزوج آخر مما قد يحملها على إهمال أمر الطفل، نظّم الله عز وجل هنا حقوق الوالدين ما لهما وما عليهما فيما يتصل برضاع الطفل ويحميه من إضرار أحد الوالدين به، ومع أن شفقة الأم بطفلها هي مضرب المثل إلا أن الشيطان ذئب الإنسان قد يغريها على مخالفة طبيعتها وإلحاق الضرر بولدها، وفي ذلك لفت انتباه الناس إلى أن الله عز وجل أشفق بالولد من والديه وأرحم بعباده من أنفسهم كما جاء في حديث البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ بسَبْيٍ، فإذا امرأة من السَّبْي تسعى، إذا وجدت صبيّا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أَتُرَوْنَ هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، والله، فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»، وقد سقت هذا الحديث في تفسير سورة الفاتحة. وقوله عز وجل: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حَوْلَيْن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كاملين﴾ قد سيق مساق الخبر والمقصود منه أمر الوالدات بإرضاع أولادهنّ حولين كاملين، والأمر فيه للندب وللحضّ على تربية الطفل بلبن أمه لأنه أصلح للطفل من سائر الألبان ما لم تكن مريضة بمرض يؤثر على صحة الطفل، وكذلك لمراعاة أنّ شفقة الأم على الطفل أتمّ من شفقة غيرها عليه، وهذا إنما يكون للندب في حالة الاختيار لا في حالة الاضطرار، أما في حالة الاضطرار كأن لا يوجد غير الأم أو لا يرضع الطفل إلا منها فعند ذلك يكون الأمر بإرضاعها للإيجاب لا للاستحباب. والدليل على أن الأمر في الأصل للاستحباب لا للإيجاب قوله عز وجل في سورة الطلاق: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهن وَأْتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسَرْتُم فستُرْضِع له أخرى﴾ وقوله عز وجل: ﴿حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة﴾ أي إن الرضاعة تكون لمدة عامين تامَّيْنِ لمن رغب أن يستوفي مدة الرضاع، ولا شك أن تحديد مدة الرضاع بعامين كاملين يثمر فوائد كثيرة منها حاجة الطفل للرضاع هذه المدة فإنه لا يوجد ما يسدّ مسدّ الرضاع في تكوين جسمه وإنشاز عظمه وإنبات لحمه والوفاء بغذائه، وقد فطر الله تبارك وتعالى على ذلك جميع الحيوانات الثديية وإن كان الإنسان أشدها حاجة لذلك الرضاع، ومن فوائد تحديد مدة الرضاع بعامين قطع التنازع بين الزوجين في مدة الرضاع فإذا رغبت الأم في إرضاع الطفل أكثر من عامين لا يُلْزَم الأبُ بدفع الأجرة لما زاد على الحولين، وإذا أراد الأب فطم الولد قبل العامين ولم ترض الأم لم يكن له ذلك. مع أن قوله تبارك وتعالى: ﴿لمن أراد أن يُتِمَّ الرضاعة﴾ يفيد أن إرضاع الطفل لمدة سنتين ليس حتما لازما وأنه يجوز الفطام قبل الحولين، وإنما يلزم الحولان عند التنازع، فإذا رضي الأب والأم بفطامه قبل الحولين جاز ذلك بشرط أن لا يكون فيه ضرر على الطفل، وأيضا فإن الشريعة الإسلامية حرمت بالرضاع ما يحرم من النسب، فيكون الإرضاع الذي يتعلق به

التحريم هو ما كان في مدة الحولين الكاملين، قال الترمذي: باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين، حدثنا قتيبة نا أبو عوانة عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُحرِّم من الرضاع إلا ما فتَق الأمعاء وكان قبل الفطام». هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أن الرضاعة لا تحرّم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرّم شيئا، وفاطمة بنت المنذر بن الزّبير ابن العوام وهي امرأة هشام بن عروة اهـ وقوله: «إلا ما فتق الأمعاء» أي إلا ما شَقَّ أمعاء الرضيع وجرى فيها وأثّر في تغذيته، وقد روى البخاري من حديث البراء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لما مات إبراهيم قال: «إنّ له مُرْضِعًا في الجنة». والمعروف أن إبراهيم بن محمد ﷺ قد مات دون الحولين. أما ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت ترى أن رضاع الكبير يحرّم كما يحرم رضاع الصغير محتجة بما ثبت أن رسول الله ﷺ قد أمر سهلة بنت سُهيْل بإرضاع سالم مولى أبي حذيفة بعد أن بلغ مبلغ الرجال، ولفظ البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن أبا حذيفة بن عتبة بن عبد شمس وكان ممّن شهد بدرا مع النبي ﷺ تبنّى سالما وأنكحه بنت أخيه ـ الحديث ـ وفيه: فجاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشي ثم العامري وهي امرأة أبي حذيفة بن عتبة النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله إنا كنا نرى سالما ولدا وقد أنزل الله فيه ما قد علمت، فذكر الحديث. أما لفظ مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن سالما مولى أبي حذيفة كان مع أبي حذيفة وأهله في بيتهم، فأتت (تعني ابنة سهيل) النبيَّ ﷺ فقالت: إن سالما قد بلغ ما يبلغ الرجال، وعقل ما عقلوا، وإنه يدخل علينا، وإني أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئا، فقال لها النبي ﷺ: «أرضعيه تحرمي عليه

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة» فرجعت فقالت: إني قد أرضعته فذهب الذي في نفس أبي حذيفة. وقد ساق مسلم بعد ذلك من طريق زينب بنت أم سلمة أن أمها أمّ سلمة زوج النبي ﷺ كانت تقول: أبى سائر أزواج النبي ﷺ أن يُدْخِلْن عليهن أحدا بتلك الرضعة وقلن لعائشة: والله ما نرى هذه إلا رخصة أرخصها رسول الله ﷺ لسالم خاصة فما هو بداخل علينا أحد بهذه الرضاعة ولا رائينا اهـ وقد أطبق أكابر الصحابة، والفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة على أن الرضاع المحرّم ما كان قبل الفطام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى فطام الطفل في سورة لقمان حيث قال: ﴿وفصاله في عامين﴾ وفي سورة الأحقاف حيث قال: ﴿وحَمْلُه وفِصَاله ثلاثون شهرا﴾ وقد فهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنها تدل على أن مدة الحمل ومدة الرضاع تتداخل، فإن ولدته لستة أشهر فرضاعه حولان كاملان، وإن ولدته لسبعة أشهر فرضاعه ثلاثة وعشرون شهرا وهكذا، وقد بيّنتُ أن الحولين الكاملين للرضاع تقطع النزاع، والعلم عند الله عز وجل. وقوله عز وجل: ﴿وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف﴾ المراد بالمولود له هو الوالد، والتعبير بالمولود له للإشعار بأن النساء أوعية وقد ولدن الأولاد للآباء، كما قال الخليفة المأمون بن الرشيد العباسي:

وإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناء

ولا شك أن في هذا التعبير إثارة للعاطفة لدى الآباء لمراعاة جانب الوالدة والشفقة عليها والإحسان إليها لأنها جاءت له بالولد الذي ينسب إليه دونها، ولا شك أن إحسان الأب إلى الأم يعود بالخير الكثير على الولد ولتكون الأم قادرة على رعاية مصلحة الطفل، أي ويجب على الأب تقديم الطعام والكساء للمرضع مدة رضاعها على قدر سعته وبما يتعارفون عليه لقوله عز وجل هنا: ﴿بالمعروف﴾ أي بالمتعارف بينهم من غير إفراط ولا تفريط.

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

ولذلك قال عز وجل بعدها هنا : ﴿لا تُكَلَّف نفسٌ إلا وُسْعَها﴾ وقال في سورة الطلاق بعد ذكر نفقة المرضع : ﴿لِيُنْفِقْ ذو سَعَة من سَعَته ومن قُدِر عليه رزقه فلينفقْ مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾ وقوله عز وجل : ﴿لا تُضارَّ والدةٌ بولدها ولا مولودٌ له بولده﴾ أي لا يجوز للأم أن تمتنع عن إرضاع الولد إضرارا بالأب أو أن تطلب أجرا كثيرا لا يطيقه الرجل مضارة له ، كما لا يجوز لوالد الرضيع أن يمنع الأم من إرضاعه مضارة لها أو أن لا يعطيها من النفقة ما يكفيها ، والمقصود تحريم المضارة بينهما وأنه لا يحل لواحد منهما أن يلحق بالآخر أو بالطفل أذى وضررا . وقوله عز وجل : ﴿وعلى الوارث مثل ذٰلك﴾ هو معطوف على قوله تبارك وتعالى : ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ كأنه قيل : وإذا مات والد الطفل أثناء مدة الرضاع فإن النفقة التي كانت واجبة عليه للمُرْضِع تنتقل إلى ورثته فيجب على الورثة رزق المرضع وكسوتها بالمعروف بمثل الذي كان على أبيه بقدر أنصبتهم من الميراث . وقوله عز وجل : ﴿فإن أرادا فِصَالا عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جُناح عليهما﴾ أي فإذا رغب الأب والأم في فطام الطفل قبل إتمام الحولين فلهما ذلك بشرط أن يكون هذا الفطام قد تم عن رضى واختيار منهما جميعا دون إجبار من واحد منهما للآخر أو إكراه ، وأن يكون قد حصل الفطام بعد اتفاق وتأمل وإمعان نظر فيما يعود على الطفل بالمصلحة ، فإن رضي الأب والأم بالفطام بهذه الصفة قبل الحولين فلهما ذلك وإن رَضِيَا بتأخير الفطام عن الحولين لمصلحة الطفل جاز لهما ذلك كذلك ولا حرج ولا إثم عليهما فيه ، وينبغي لهما أن يأخذا رأي ذوي الخبرة من الأطباء أو غيرهم في تقديم الفطام عن الحولين أو تأخيره عنهما .
وقوله عز وجل : ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ أي وإن رغبتم أن تتخذوا مُرْضِعَات يرضعن لكم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أولادكم بسبب تعاسركم في أجرة الرضاع، أو امتناع الأم عن إرضاع ولدها لمرض يمنعها، أو زوج آخر يحول بينها وبين إرضاع ولدها، أو أبت قبول الولد إيذاء للزوج المطلِّق، ومُضارةً له، أو اتفق الوالدان على أن مصلحة الطفل أن ترضعه مُرضِعة أخرى غير أمه، رغبة في حصول النجابة له، فإنه لا إثم عليكم ولا حرج إذا وفّيتم لكل ذي حق حقه، فأرضيتم أمّ الطفل وأعطيتموها ما تستحق من الأجرة، ووفيتم للظِّئْر التي اتخذتموها لإرضاع ولدكم حقّها بالجميل لتكون طيبة النفس مما يحملها على الإحسان لولدكم والعناية به. وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ أي وخافوا ربكم في جميع تصرفاتكم واحرصوا على العمل بما يشرعه لكم، وأيقنوا أنه مطّلع عليكم لا يغيب عنه شيء من شؤونكم، فراقبوه مراقبة من يراه، فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم.

قال تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجًا يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرًا فإذا بلغن أجلهنّ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ بالمعروف، والله بما تعملون خبير﴾

بعد أن بين الله تبارك وتعالى عدة المطلقات ذكر هنا عدة المتوفَّى عنها زوجها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾ أي والذين يموتون من الأزواج ويتركون وراءهم زوجات، على هؤلاء الزوجات أن ينتظرن معتدّات مدة أربعة أشهر وعشر ليال يعني بأيامها، وتوجيه الخطاب للرجال لأنهم هم القوامون على النساء المبلّغون إليهن الأحكام الشرعية التي يسمعونها من رسول الله ﷺ، وهذه الآية الكريمة قد نسخت الحكم السّابق لعدة المتوفّى عنها زوجها حيث كانت قبل ذلك سنة كاملة بقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجا وصيّةً لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج، فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف، والله عزيز حكيم﴾ ولا غرابة في كون الآية المنسوخة جاءت في ترتيب التلاوة بعد الآية الناسخة، إذ من المقطوع به وجود سور مكية في ترتيب التلاوة بعد سور مدنية مع أنها متقدمة عليها في النزول، وجَعْلُ عدة المتوفّى عنها زوجها هنا أربعة أشهر وعشرة أيام بلياليها تشمل المدخول بها وغير المدخول بها ما لم تكن حاملا، فإن كانت المرأة المتوفَّى عنها زوجها حاملا فعدتها بوضع الحمل ولو بعد ساعة أو لحظة من موت زوجها لقوله تبارك وتعالى: ﴿وأُولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ فقد جعل الله تبارك وتعالى عدة الحامل بوضع حملها سواء كانت مطلقة أو متوفَّى عنها زوجها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإذا بلغن أجلهنّ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ أي فإذا انقضت عدتهن

فلا حرج عليكم ولا إثم ولا لوم فيما يفعلنه بأنفسهن من التزين وطرح الإحداد ولا إثم عليهن في ذلك ما دمن قد خرجن من عدة الوفاة وما دمن يلتزمن في زينتهن وطيبهن بتعاليم الشريعة الإسلامية . وتذييل الآية بقوله عز وجل : ﴿والله بما تعملون خبير﴾ هو تحذير للأولياء وللنساء اللاتي خرجن من عدة الوفاة من مخالفة أمر الله عز وجل . فلا يجوز للولي أن يَعْضُلها بعد خروجها من العدة، ولا أن يمنعها من الزينة بعد ذهاب زمن الإحداد، ولا يجوز للمرأة أن تسرف في زينتها بعد خروجها من حدادها، وقد ألزمت الشريعة الإسلامية المرأة التي مات عنها زوجها بأن تُحِدّ عليه أربعة أشهر وعشرا، قال أهل اللغة : الإحداد والحِداد مشتق من الحدّ وهو المنع يقال : أحدّت المرأة وحدّت وهي حادّ ولا يقال : حادة، وقال الأصمعي : يقال : أحدت ولا يقال : حدّت . أما الإحداد في الشرع فهو ترك الطّيب والزينة للمُعْتَدة عدة الوفاة، وقد روى البخاري في صحيحه من طريق أيوب عن حفصة عن أم عطية رضي الله عنها قالت : كنا نُنْهَى أن نُحِدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا، ولا نكتحل ولا نَطّيّب ولا نلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عَصْب، وقد رُخّص لنا عند الطهر إذا اغتسلت إحدانا من محيضها في نُبْذة من كُسْت أظفار، وكنا نُنْهَى عن اتباع الجنائز. ثم أخرجه من طريق هشام عن حفصة عن أم عطية قالت : قال النبي ﷺ : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحدّ فوق ثلاث إلا على زوج، فإنها لا تكتحل ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عَصْبٍ» وقال الأنصاري : حدثنا هشام حدثتنا حفصة حدثتني أم عطية : نهى النبي ﷺ : «ولا تمسّ طِيبا إلا أدنى طُهْرها إذا طهرت نُبْذة من قُسْط وأظفار» . قال أبوعبدالله : القُسْط والكُسْت مثل الكافور والقافور اهـ . قال الحافظ في الفتح : قوله : «من كُسْت أظفار»، كذا فيه بالكاف وبالإضافة وفي الذي بعده : «من قسط وأظفار»، بقاف وواو

عـاطفة وهـو أوجـه اهـ وأخرج مسلم هـذا الحديث من طـريق هشـام عن حفصة عن أم عطية رضي الله عنهـا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحدّ امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا، ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثـوب عَصْب ولا تكتحل ولا تمسّ طيبـا إلا إذاطَهُـرت نُبْـذة من قُسْط أو أظـفار». وأخرجه من طريق عبد الله بن نُمَيْر ويزيد بن هارون عن هشام عن حفصة عن أم عطيـة وقالا: «عند أدنى طهـرها نبـذة من قسط وأظفار». ثم أخرجـه من طريق أيوب عن حفصـة عن أم عطية قالت: كنـا ننهى أن نحدّ على ميّت فـوق ثـلاث إلا على زوج أربعـة أشهـر وعشرا، ولا نكتحل ولا نتطيب ولا نلبس ثوبـا مصبوغا، وقـد رُخّص للمرأة في طهـرها إذا اغتسلت إحـدانا من محيضهـا في نبذة من قسط وأظفـار. اهـ ولا معـارضة بين روايـة «قسط وأظفار» وروايـة: «قسط أو أظفار» لأن الـواو محمولة في الـرواية الأولى على العطف وأوفي الرواية الثانية محمولة على الإباحة والتسوية. وإنما جعلت الشريعـة الإسلاميـة عدة المتـوفى عنها زوجهـا أربعة أشهـر وعشرا إن لم تكن حاملا وبوضع الحمل إن كانت حاملا للاحتياط ورعاية حق الميت، لأنها إن كانت حاملا فالأمر ظاهـر وإن كانت غير حامل فإنه يحتمل أن يكون الرحم مشتملا على حمل فإذا انْتُظِـرَ به هذه المدة ظهـر إن كان موجـودا، لما جاء في حديث البخـاري ومسلم من حديـث عبد الله بن مسعود رضي الله عنـه عن رسـول الله ﷺ: «إنّ خلق أحـدكم يجمع في بطن أمـه أربعين يومـا نطفـة ثم يكون علقـة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلـك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيـه الروح». فهـذه ثلاث أربعينـات جملتها أربعـة أشهر، والاحتيـاط بعشر بعـدها، إذ قـد تنقص بعض الشهور، وتتجلى أيضـا حركـة الجنين في بطن أمـه، ولـذلك لـو وضعت بعد لحظـة من وفـاة زوجهـا حلّت للخطـاب في الحال، فقـد قال البخـاري في صحيحه: بـاب ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يضعن حملهن﴾ حدثنا يحيى بن بُكَيْر حدثنا الليث عن جعفر بن ربيعة عن عبدالرحمن بن هُرمُز الأعرج قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن زينب ابنة أبي سلمة أخبرته عن أمها أم سلمة زوج النبي ﷺ أن امرأة من أسلم يقال لها: سُبَيْعة، كانت تحت زوجها تُوُفِّيَ عنها وهي حُبْلَى، فخطبها أبو السنابل ابن بَعْكَك فأبت أن تنكحه، فقال: والله ما يصلح أن تنكحيه حتى تعتدّي آخر الأجلين، فمكثت قريبا من عشر ليال، ثم جاءت النبي ﷺ فقال: «انكِحِي». حدثنا يحيى بن بكير عن الليث عن يزيد أنّ ابن شهاب كتب إليه: أن عُبَيْد الله بن عبد الله أخبره عن أبيه أنه كتب إلى ابن الأرقم أن يسأل سُبَيْعَة الأسلميّة كيف أفتاها النبي ﷺ؟ فقالت: أفتاني إذا وضعتُ أن أنكح. حدثنا يحيى بن قَزَعَة حدثنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن المِسْوَر بن مَخْرَمة أنّ سُبَيْعة الأسلمية نُفِسَتْ بعد وفاة زوجها بليال، فجاءت النبي ﷺ فاستأذنته أن تنكح فأذن لها فنكحت. وقد ساق مسلم من طريق ابن وهب حدثني يونس بن يزيد عن ابن شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته، فكتب عمر بن عبد الله إلى عبد الله ابن عتبة يخبره أنّ سُبَيْعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خَوْلَة وهو في بني عامر بن لُؤَيّ وكان ممن شهد بدرا، فتُوُفّي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تَنْشَب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلّت من نفاسها تجمّلت للخُطّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك (رجل من بني عبد الدار) فقال لها: مالي أراك متجملة لعلّك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمرّ عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعتُ عليّ ثيابي حين أمسيتُ فأتيتُ رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حَلَلْتُ حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي. قال ابن شهاب: فلا

أرى بأسًا أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها غير أنه لا يقربها زوجها حتى تطهر اهـ وقد ذكّر رسول الله ﷺ بنعمة الله عز وجل حيث جعل عدة المتوفّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا التي نسخت العدة التي كانت سنة كاملة تحدّ فيها المرأة على زوجها الميت، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق حُمَيْد بن نافع عن زينب بنت أبي سلمة أنها أخبرته هذه الأحاديث الثلاثة قال: قالت زينب: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان، فدعت أمّ حبيبة بطيب فيه صُفْرة - خَلُوق أوغيره - فدهنت منه جارية ثم مسّت بعارضيها ثم قالت: والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحدّ على ميّت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» قالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين تُوُفِّي أخوها فدعت بطيب فمسّت منه ثم قالت: والله مالي بالطّيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تُحِدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» قالت زينب: سمعت أمّي أمّ سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا». مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: «لا». ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعَشْرٌ، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبَعْرة على رأس الحول» قال حميد: فقلت لزينب: وما ترمي بالبَعْرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفّي عنها زوجها دخلت حِفْشًا ولبست شرّ ثيابها ولم تمسّ طِيبا ولا شيئا حتى تمرّ سنة ثم تُؤْتَى بدابّة - حمار أو شاة أو طير - فَتَفْتَضّ به فقلّما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتُعْطَى بَعْرة فترمي، ثم تراجع ما شاءت من طيب أو غيره اهـ ولا شك أن مداواة المرأة الحادّ عينيها بالمراهم ونحوها لا خلاف في جوازه عند العلماء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خِطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم، علم الله أنكم ستذكرونهنّ ولّكن لا تواعدوهنّ سرّا إلاّ أن تقولوا قولاً معروفا، ولا تعزموا عقدة النّكاح حتّى يبلغ الكتاب أجله، واعلموا أنّ الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه، واعلموا أنّ الله غفور حليم * لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسّوهن أو تفرضوا لهنّ فريضة، ومتّعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى حكم عدة الوفاة، التي شرعها رعاية من الزوجة لزوجها الذي مات عنها ووفاء بحقه بعد موته، وبيّن رسول الله ﷺ أنه يحرم على المرأة الحادّ أن تتجمل للخطاب ونهاها أن تلبس ثوبا صبيغا أو أن تمسّ طيبا إلا شيئا يسيرا عند اغتسالها من الحيض لو كانت تحيض، وحرّم عليها أن تكتحل تنظيما للطبع بالشرع، ذكر الله عز وجل هنا أنه لا تحل خِطبة المرأة الحادّ المتوفَّى عنها زوجها حتى تنتهي عدّتها، لكنه أباح لمن يُضْمِر في نفسه الزواج بها بعد خروجها من العدة أن يعرّض بخِطبتها في العدة دون التصريح بذلك حيث يقول عز وجل: ﴿ولا جُناح عليكم فيما عَرَّضْتُم به من خِطْبة النساء أو أَكْنَنْتُم في أنفسكم﴾ أي لا بأس على راغب الزواج بالمرأة التي مات زوجها أن يضمر في نفسه الزواج منها أو أن يعرّض بخِطْبتها، ولا خلاف عند أهل العلم أن المطلقة الرجعية لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها أو التعريض بها ما دامت في عدتها، أما المطلَّقة المَبْتُوتة فإنه يجوز التعريض بخِطْبتها ولا يجوز التصريح بها كالمتوفَّى عنها زوجها لما جاء في صحيح مسلم من حديث فاطمة بنت قيس أن زوجها طلقها ألبتة، وفي لفظ: طلقها ثلاثا، وفي لفظ: فطلقها آخر ثلاث تطليقات، وأن رسول الله ﷺ قال لها: «اعتدّي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك فإذا

حَلَلْتِ فآذِنيني» قالت: فلما حللت قال: «انكِحِي أسامة بن زيد». فقوله عليه السلام: «إذا حللت فآذنيني» هو من نوع التعريض بالخطبة وإن كان ﷺ قد أضمر في نفسه أن يخطبها بعد العِدَّة لأسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، والتعريض هو التلويح بالشيء وعدم التصريح به وهو محاولة إفهام المطلوب بشيء يحتمله ويحتمل غيره، مأخوذ من عُرْض الشيء وهو جانبه كأن المعرِّض يحوم حول الشيء ولا يصرح به. والخِطْبة بكسر الخاء هو ما يذكره الخاطب مُلْتَمِسا به طلب الزواج من المرأة، أما الخُطْبة بضم الخاء فهي الكلام الذي يقال في النكاح وغيره. يقال: خطب يخطُب خِطْبة أي تقدم إلى المرأة ملتمسا الزواج بها. وخطب يخطُب خُطبة أي تكلّم بكلام بين يدي عقد النكاح أو غيره كخطبة الجمعة وغيرها. ومن أمثلة التعريض أن يقول لولي المرأة أو للمرأة نفسها: إني حريص على الزواج من امرأة صالحة من صفاتها أن تكون كذا وكذا ويذكر أوصافا تكاد تنطبق على هذه المرأة، أو يقول لوليها: إذا انتهت عِدّتها لا تعجلوا بتزويجها لعل الله يرزقها رجلا يعرف قدرها ويُكَرِّمها، أو يقول لها: اصبري على مصيبتك فإنّ الله سيسوق لك خيرا كثيرا فأنت امرأة صالحة. وقوله عز وجل: ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ أي أو أضمرتم في أنفسكم الرغبة في الزواج بها إذا خرجت من عدتها فإنه لا إثم عليكم ولا حرج في ذلك، فتعريضكم بخِطْبة النساء أو إضماركم في أنفسكم أن تتزوجوا بها بعد خروجها من عدتها لا يلحقكم فيه إثم ولا حرج عليكم في ذلك ما دمتم تجتنبون التصريح بخطبتها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهنّ﴾ هو تعليل لبيان رفع الحرج عن الرجال الذين يعرّضون بخطبة النساء وهنّ في عدة الوفاة، أو يضمرون في أنفسهم الزواج بهن بعد خروجهن من العدة، إذ هو يدلّ على أن طبيعة الرجال التي جُبِلُوا عليها ممن له حاجة في الزواج أن يندفعوا عندما يسمعون أن رجلا مات وترك زوجة

تصلح لهم إلى العمل على اقتناصها خوف فواتها عليهم فحرّم عليهم التصريح بخِطْبتها في أثناء العدة وأجاز لهم التعريض لتهذيب الطبع بالشرع مع صيانة كرامة المرأة ورعاية حق زوجها الميت فأذن ببذل بعض الأسباب التي قد تحقّق له بعض ما يتمناه وهو التعريض والتلويح برغبته فيها. وقوله عز وجلّ: ﴿ولَكن لا تُواعِدُوهنَّ سِرًّا﴾ أي ولا يحل لكم أن يكون في تعريضكم بخِطْبة النساء في عدّتهن أن تذكروا شيئا عن شَبَقكم، والعرب تكْني عن مفارقة الرجل أهله وتسمّيه سِرًّا. ومن ذلك قول امرئ القيس:

ألا زعمت بَسْباسةُ اليوم أنّني كَبِرْتُ وأن لا يُحْسِن السِّرَّ أمثالي

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾ أي لكن قد أبحت لكم التعريض فاقتصروا على الألفاظ الكريمة في التعريض برغبتكم، ولا تقولوا قولا يخدش حياءها أو يثير غريزة الجنس فيها، ولا بأس أن يذكر الرجل شرفه في قومه، فقد قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: حدثنا المثنى قال: حدثنا سويد قال: أخبرنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن سليمان عن خالته سُكَيْنة ابنة حنظلة بن عبد الله بن حنظلة قالت: دخل عليَّ أبو جعفر محمد ابن علي وأنا في عِدَّتي، فقال: يا ابنة حنظلة، أنا مَن عَلِمْتِ قرابتي من رسول الله ﷺ، وحقّ جدّي عليّ، وقَدَمي في الإسلام، فقلت: غفر الله لك يا أبا جعفر، أتخطبني في عدّتي، وأنت يؤخذ عنك؟ فقال: أو قد فعلتُ؟ إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ وموضعي، قد دخل رسول ﷺ على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبي سلمة فتُوُفِّيَ عنها فلم يزل رسول الله ﷺ يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثّر الحصير في يده من شدة تحامله على يده، فما كانت تلك خِطْبة. اهـ وعبد الرحمن بن سليمان بن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة ويعرف بابن الغسيل، من رجال البخاري ومسلم، وأبو جعفر هو محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

رضي الله عنهم، وقد أخرج هذا الأثر المرسل أيضا محمد بن سعد في الطبقات الكبرى في ترجمة أم سلمة رضي الله عنها قال: أخبرنا الفضل بن دُكَيْن حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل قال: حدثتني خالتي سُكَيْنة بنت حنظلة عن أبي جعفر محمد بن عليّ أن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة حين توفي أبو سلمة، فذكر ما أعطاه الله، وما قسم له، وما فضّله، فما زال يذكر ذلك ويتحامل على يده حتى أثّر الحصير في يده مما يحدّثها. اهـ وقد سُقْتُ هذا الأثر لأنه إحدى صور التعريض الجائزة ولا تعد خِطْبة صريحة.
وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تَعْزِموا عُقْدَةَ النكاح حتى يبلُغَ الكتابُ أجلَه﴾ أي ولا تعقدوا عقد الزواج حتى تخرج المرأة من عدتها وينقضي الأجل الذي ضربه الله عز وجل لذلك وهو وضع الحمل لمن كانت حاملاً أو مُضِيُّ أربعة أشهر وعشر لمن لم تكن حاملا في عدة الوفاة، أو مُضِيُّ ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر للمطلقة المبتوتة أو التي بانت من زوجها بعد طلاق رجعي كما مرّ، والمراد بالكتاب هنا هو الحدّ الذي جعله الله ورسمه وفرضه وكتبه في شأن عدة النساء، وقد أجمع العلماء على بطلان عقد النكاح في العدة من غيره ووجوب التفريق بينهما. وقوله تبارك تعالى: ﴿واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أنّ الله غفور حليم﴾ أي وأَيقنوا أيها الراغبون في الزواج ممن بانت من زوجها بطلاق أو تُوُفِّيَ عنها زوجها أن الله مطّلع على سرائركم ومكنونات ضمائركم فاحذروا أشد الحذر أن تأتوا شيئا مما نهاكم عنه، وإن أغراكم الشيطان بشيء من معصية الله فسارعوا إلى التوبة، ولا تيأسوا من روح الله لأنه غفور حليم لا يعجل بالعقوبة. وبعد أن بين الله تبارك وتعالى أحكام من عليهن عدّة من النساء شرع في بيان أحكام المطلقات اللاتي لا عدة عليهن وهن المطلقات قبل الدخول بهن، وهن على قسمين القسم الأول من طُلِّقَتْ قبل الدخول ولم يُسَمَّ لها مهر، والثاني من

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

طلقت قبل الدخول وقد سمّي لها مهر، فقال عز وجل: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمَسُّوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة﴾ قال القرطبي رحمه الله: لما نهى رسول الله ﷺ عن التزوج لمعنى الذّوق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله وقصد دوام الصحبة، وقع في نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءا من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعة للجناح في ذلك إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن اهـ والمطلقات التي مضى ذكرهن في هذه السورة الكريمة قبل ذلك هي التي دخل عليها زوجها وكان قد فرض لها مهرا، وقد بين الله تبارك وتعالى أنها استحقت كامل مهرها بالدخول حيث قال عز وجل: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ وفي هذه الآية الكريمة يبيّن الله تبارك وتعالى حكم المطلقة التي يطلقها زوجها قبل الدخول بها وقبل أن يفرض لها صَدَاقا معلوما، وقد نفى الله تبارك وتعالى الحرج على من طلق امرأته قبل الدخول وقبل تسمية الصَّدَاق، وفرض لها على زوجها متعة بحسب يُسْره وعُسْره، حيث يقول عز وجل: ﴿ومتّعوهن على الموسع قَدَرُه وعلى المقْتِرِ قَدَرُه متاعًا بالمعروف حقا على المحسنين﴾. وقوله عز وجل: ﴿ما لم تمسّوهن أو تفرضوا لهنّ فريضة﴾ أي من قبل أن تدخلوا بهن أو تقدّروا وتحدّدوا لهن صداقا، و«أو» في قوله تعالى: ﴿أو تفرضوا﴾ بمعنى الواو على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تُطِعْ منهم آثما أو كفورا﴾ أي وكفورا، وكقوله عز وجل: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ معناه: وجاء أحد منكم من الغائط وأنتم مرضى أو مسافرون. وإذا كان المراد من نفي الجناح هو عدم وجوب المهر فـ«أو» على معناها الأصلي لأن المهر لا يجب إلا عند المسيس أو فرضه عند العقد، وإن كان يتنصف

بالطلاق قبل المسيس. وقوله عز وجل: ﴿وَمَتِّعُوهن على الموسِع قَدَرُه وعلى المقْتِرِ قَدَرُه﴾ أي وأعطوهنّ شيئا من المال يكون متاعا لهن، والتعبير بـ«على» في قوله عز وجل: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾ بعد الأمر بقوله: ﴿ومتعوهن﴾ لتأكيد وجوب المتعة للمطلقة قبل المسيس ولم يكن قد فرض الزوج لها صداقا معلوما. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿حقا على المحسنين﴾ زيادة في تأكيد الإيجاب، وتخصيص المحسنين بالذكر لأنهم هم المنتفعون بأوامر الله الوقّافون عند حدوده. والموسع هو الموسر الذي اتسعت حاله، والمقْتِر هو المقِلُّ في المال، وتقييد المتاع بالمعروف لأنه لا حدّ له وإنما يعطي كلّ واحد بحسب أحواله وبما عُرف في الشرع من الاقتصاد والتوسط. وأصل المتاع ما ينتفع به انتفاعا غير باقٍ بل منقضيا عن قريب، ولهذا يقال: الدنيا متاع، ويُسمّى التلذّذ بالشيء تمتعا به لانقطاعه بسرعة، وصارت المتعة تُطْلَق على ما يُعْطَى للمرأة مما ينتفع به عند طلاقها، وقد جعلها الله تبارك وتعالى غير محدودة بحَدّ لأنها كالنفقة التي أوجبها الله تبارك وتعالى للزوجات، فهي راجعة إلى يُسْر الزوج وعُسْره مع مراعاة حال المرأة أيضا بقدر الطاقة، وقوله عز وجل: ﴿قَدَرُه﴾ أي قَدْر طاقته وإمكانه، والقَدْر بسكون الدال والقَدَر بفتح الدال لغتان بمعنى واحد، وقد قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بسكون الدال. وقد اتفق أهل العلم على أن المراد بالمسيس في هذه الآية هو المفارقة، وعبّر عنها بالمسيس تأديبا للعباد في اختيار أحسن الألفاظ التي لا تخدش حياءً، وهذا هو دَيْدَن دين الإسلام، ولله الحمد والمنة.

قال تعالى: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسّوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النّكاح، وأن تعفوا أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم، إنّ الله بما تعملون بصير* حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوُسطى وقوموا لله قانتين* فإن خفتم فرجالاً أو ركبانًا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى حكم المطلقة قبل الدخول بها التي لم يسمّ لها زوجها مهراً، وأنّ لها على زوجها متعة الطلاق بحسب يسره وعسره، بيّن هنا حكم المطلقة قبل الدخول بها التي سمّى لها زوجها صداقا حيث يقول: ﴿وإن طلّقتموهن من قبل أن تمسّوهن وقد فرضتم لهنّ فريضة فنِصْفُ ما فرضتم﴾ أي وإن طلقتم النساء من قبل الدخول بهن وقد كنتم قدّرتم لهن صداقا فالواجب على الزوج لزوجته إذا طلقها قبل الدخول وبعد تحديد المهر هو نصف المهر الذي قدّره الزوج لها ويبقى نصف المهر له، ولا خلاف عند أهل العلم أنّ من تزوّج امرأة وسمّى لها مهرًا ومات قبل الدخول بها فإنّ لها المهر كاملا وعليها العدة ولها الميراث الذي تستحقه الزوجة من زوجها الميت، وقد أجمع أهل العلم أيضا على أن الزوج إذا طلق زوجته بعد أن قارفها أنّ لها المهر كاملا ولو لم تكن قد زُفّت إليه ما دام أن ذلك قد حصل بعد عقده عليها، أما إذا خلا بها خَلْوة صحيحة خالية من الموانع فإنه يجب لها المهر كاملا وإن لم يمسّها، وقد أجمع على ذلك الخلفاء الراشدون المهديون وسائر أصحاب رسول الله ﷺ، واعتبروا الخَلْوة الصحيحة بمنزلة المسيس، وأن عليها العدة، كما أن الإفضاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ هو الخلوة كما حُكي عن الفراء فقد قال: الإفضاء: الخَلْوة دخل بها أو لم يدخل اهـ واللغة تؤيد ذلك فإن الإفضاء مأخوذ من الفضاء وهو الخلاء

فكأنه قيل: وقد خلا بعضكم إلى بعض، وقد فسّر غير واحد من أئمة اللغة قوله تعالى: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أي خلا الرجل بامرأته سواء قارفها أم لم يقارفها. وقوله عز وجل: ﴿إلا أن يَعْفُون﴾ أي إلا أن تعفو وتتنازل المرأة عن نصف المهر الذي استحقته بالطلاق قبل الدخول بعد أن سُمِّيَ لها الصداق، فإنّ نصف المهر صار خالص حقها ولها أن تتنازل عنه أو عن بعضه للذي طلقها ما دامت مؤهلة لذلك بأن كانت عاقلة بالغة رشيدة، وقد ثبتت النون في قوله عز وجل: ﴿يعفون﴾ مع أنها مسبوقة بأن؛ لأن هذه النون نون النسوة فالفعل المضارع هنا مبني لاتصاله بنون النسوة ووزنه (يفعُلْن) بخلاف ما لو قلت: الرجال يعفون فإن وزنها (يفْعُون) والواو فيها ضمير جماعة الذكور وقد حذفت منها الواو التي هي لام الفعل (يعفو) لالتقائها مع واو الضمير حذر التقاء السّاكنين، والنون في قولك: الرجال يعفون، علامة الرفع لأنه من الأفعال الخمسة التي تُرْفَعُ بثبوت النون وتنصب وتجزم بحذفها، فلو أدخلت (أن) على قولك: الرجال يعفون، لوجب حذف النون فتقول: جاز للرجال أن يعفوا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ لا شك أن عقدة النكاح بيد الوليّ قبل عقد النكاح وعند عقده، أما بعد عقد النكاح فإن عقدة النكاح بيد الزوج، وبالنظر إلى أنه إذا طلقها قبل الدخول بها بانت منه في الحال ولا يملك عليها حقّ الرجعة لأنها لا عدة لها، فصار قوله تبارك وتعالى: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ يحتمل الزوج ويحتمل الولي، ولا شك أن الذي له الحق في العفو عن شيء من الصداق هو من يملك التصرف في الصَّدَاق بَذْلا أو إمساكا، وقد جعل الله تبارك وتعالى مهر المطلقة قبل الدخول نصفين: نصفا للزوجة التي طُلّقت ونصفا للزوج الذي طلقها، وقد ذكر الله تبارك وتعالى عفو المرأة عن حقها أو بعض حقها في قوله عز وجل: ﴿إلا أن يعفون﴾ ولما

كان الزوج هو الذي يملك النصف الآخر من المهر فلا شك أن عفوه عنه أو عن بعضه للزوجة التي طلقها لا سيما إذا كانت قد قبضت المهر كاملا قبل الطلاق، وتنازُلَه لها عن ذلك داخل دخولا أوّليًّا في قوله عز وجل: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ غير أن المطلقة إذا كانت صغيرة أو غير رشيدة وكان أبوها مسئولا عن مهرها وله الحق في التصرف فيه كوليّ اليتيم فإنه حينئذ يكون داخلا تحت قوله عز وجل: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ وكون الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج أظهر لإجماع العلماء على أن ما تستحقه المرأة من المهر هو حق خالص لها ليس لوليها حق التسامح فيه أو العفو، وقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ هو حضّ على التسامح فيما بينهما، والخطاب فيه للرجال والنساء حيث سياق الكلام فيهم جميعا، وغُلِّبَ التذكير لأن الرجال قوامون على النساء وهم الأصل في الخطاب، والنساء فرع فيه، ألا ترى أنك تقول في الرجل: جالس، فإذا أردت المرأة قلت: جالسة، فصار اللفظ الدال على المذكر هو الأصل والمؤنث فرعه، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ أي وأن يعفو بعضكم عن حقه أو بعض حقه لدى الآخر أقرب إلى اتصافه بتقوى الله عز وجل، وصيرورته مع المتقين، لأنه إذا عفا عن بعض حقه الذي يستحقه تقربا إلى الله عز وجل والتماسا للأجر والثواب من عنده عز وجل كان ولا شك أبعدَ عن الظلم وأخْذِ ما ليس له، ومن كان بهذه المثابة كان من المتقين. وقوله عز وجل: ﴿ولا تَنْسَوُا الفضلَ بينكم﴾ أي ولا يحملكم السّبب الذي من أجله حصل الطلاق على التباغض والتنافر، وعليكم أن تتذكروا ساعاتٍ من الإحسان والمودة التي كانت حصلت بينكم حتى حصل عقد الزواج، فالكرامُ وأهلُ الفضل يتذكرون ما يكون بينهم وبين غيرهم من الإحسان عندما يصير بينهم بعض الجفوة، ويغلّبون جانب الإحسان على جانب الإساءة، وهذا هو

الخلق الذي يعمل الإسلام على تربيته وتنميته في نفوس المسلمين وسلوكهم كما قال عز وجل: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم* وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم* وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾. وقوله عز وجل: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ ترغيب في التسامح وحضّ على الإحسان والعفو، وترهيب من ظلم أحد المتفارقَيْن للآخر بسبب ما يلقيه الشيطان بينهما بسبب الطلاق. وقوله تبارك وتعالى: ﴿حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ هذا أمر من الله عز وجل بالمحافظة على الصلوات الخمس وتأكيد المحافظة على الصلاة الوُسْطى، وفي توسيط الأمر بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى بين سياق ذكر أحكام النكاح والطلاق والعِدَد والمحافظة على الأولاد للتنبيه على ما تؤديه الصلاة لنفس الإنسان من الاستقرار والطمأنينة وهو يخوض في خضمّ الحياة، وفيه إشارة إلى أن المرأة الصالحة التي ينبغي أن يحرص المؤمن على اختيارها لتكون زوجة له يجعلها الله عز وجل قُرّة عَيْن هي وأولادها لزوجها كما أشار إلى ذلك عز وجل في قوله تبارك وتعالى في وصف عباده الصالحين: ﴿والذين يقولون ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرَّةَ أَعْيُن﴾ وقد ربط رسول الله ﷺ بين النساء والطِّيب والصلاة فيما رواه النسائي من طريق ثابت عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حُبِّبَ إليّ من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة». وفي لفظ: «حُبِّب إلي النساء والطِّيب وجُعلت قُرة عيني في الصلاة». كما أن في إيراد الصلاة في هذا المقام إشارة إلى أنه لا ينبغي للمسلم أن يشغله عن الصلاة شيء من نفس أو أهل أو ولد، قال أبو السعود العماديّ في تفسيره المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم): ولعلّ الأمر بها في تضاعيف بيان

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أحكام الأزواج والأولاد قبل الإتمام للإيذان بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشأنهم بل بشأن أنفسهم أيضا كما يُفْصِح عنه الأمر بها في حالة الخوف، ولذلك أمر بها في خلال بيان ما يتعلق بهم من الأحكام الشرعية المتشابكة الآخذ بعضها بحُجْزة بعض. اهـ ولا شك أن إقامة الصلاة من أكبر العون على تخطّي هموم الحياة الدنيا كما قال عز وجل: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وكما كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمر قام إلى الصلاة، والمراد بالمحافظة على الصلاة في قوله عز وجل: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ هو المواظبة على الصلوات المكتوبات في أوقاتهن، مع حفظ حدودهن وحقوقهن على الوجه الذي بيّنه رسول الله ﷺ بقوله وفعله صلوات الله وسلامه عليه، والمراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر، فقد روى البخاري رحمه الله من حديث علي رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله ﷺ: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس». وفي رواية للبخاري رحمه الله من حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم الخندق: «حبسونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم أو أجوافهم نارا».
وفي رواية للبخاري رحمه الله من حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس». وفي رواية للبخاري رحمه الله من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس جعل يَسُبُّ كفار قريش، وقال: يا رسول الله ما كدت أن أصلّي حتى كادت الشمس أن تغرب، قال النبي ﷺ: «والله ما صلّيتُها» فنزلنا مع النبي ﷺ بُطْحَان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب. وقد أخرجه مسلم من

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

حـديث علي رضي الله عنه قـال: لما كـان يوم الأحـزاب قال رسـول الله ﷺ: «ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارا كما حبسونـا وشغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمـس» وفي لفظ لمسلم من حديث علي رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب وهو قاعد على فُـرْضة من فُرَض الخندق: «شغلونا عن الصلاة الـوسطى حتى غربت الشمس مـلأ الله قبورهـم وبيـوتهم نارا». وفي لفظ لمسلم من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صـلاة العصر ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا» ثم صلاّها بين العشائين بين المغرب والعشاء. اهـ ومعنى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي وقفوا في صلاتكم خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه. وقوله عز وجل: ﴿فإن خِفْتُم فرِجالا أو رُكبـانا فإذا أمِنْتُم فاذكروا الله كما علَّمكم مـا لم تكونوا تعلمون﴾ أي فإن أصـابكم خوف من عـدو أو سَبُع أو سَيْل ولم تتمكّنوا من القيـام لله في صلاتكم قـانتين فصلّوا بحَسَب قـدرتكم رجالاً أي مُشـاةً على أرجلكم أو ركبانـا أي راكبين على مراكبكم كيف أمكنكـم مستقبلي القبلة أو غير مستقبليهـا، بـركوع وسجـود أو إيماء، فإذا زال الخوف عنكم فـالتـزمـوا بالمحافظـة على القيام في صلاتكم خاشعين لله كما علمكم مـا كنتم تجهلونه من أمور دينكم وصفة صلاتكم. وقد أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: فإذا كان خوف هو أشدَّ من ذلك صَلَّوْا رجالا قياما على أقدامهم أو ركبانـا، مستقبلي القبلة أو غير مستقبليهـا، وأخرجه مسلـم بلفظ: وقال ابن عمر: فإذا كان خوف أكثر من ذلك فصلّ راكبا أو قائما تُومئ إيماءً.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال تعالى: ﴿ والذينَ يُتَوَفَّوْنَ منكم وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيّةً لأزواجِهِم متاعًا إلى الحوْلِ غيرَ إخْراجٍ، فإنْ خَرَجْنَ فلا جُناح عليكُم فيما فَعَلْنَ فى أنفُسهنَّ مِن معْرُوف، والله عزيزٌ حكيمٌ* ولِلْمُطَلَّقاتِ متاعٌ بالمعروف حقًّا على المتقين* كذلك يبيّنُ الله لكم آياته لعلكم تعقلونَ﴾

قد بينت في تفسير قوله عز وجل: ﴿والذين يُتَوفَّوْن منكم ويذرون أزواجًا يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا﴾ الآية، بأنها ناسخة لقوله عز وجل: ﴿والذين يُتَوفَّون منكم ويذرون أزواجا وصيّةً لأزواجهم متاعًا إلى الحول غَيْرَ إخراج﴾ وذكرت أنه لا غرابة في كون الآية المنسوخة جاءت في ترتيب التلاوة بعد الآية الناسخة، إذ من المقطوع به وجود سور مكية في ترتيب التلاوة بعد سور مدنية مع أنها متقدمة عليها في النزول، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿ما نَنْسَخْ من آية أو نُنْسِها﴾ الآية، أن النسخ قد يكون للآية وحكمها، وقد يكون للتلاوة مع بقاء الحكم، وقد يكون النسخ للحكم مع بقاء التلاوة كعدة المتوفَّى عنها زوجها حيث كانت عدتها سنة كاملة لا تخرج فيها من بيتها لقوله تعالى: ﴿والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج﴾ فقد نسخ حكمها مع بقاء تلاوتها بقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهنّ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾ فإن قال قائل: كيف ينسخ الحكم وتبقى التلاوة مع أن التلاوة هي دليل الحكم فلو رفع المدلول لبقي الدليل بلا فائدة؟ فالجواب أن الفائدة موجودة وهي التعبّد بلفظها حيث لا تزال قرآنيّتها التي أبقاها العليم الخبير الحكيم. فمن قرأ منها حرفا فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، فقد روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن ابن

مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: آلم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف». ومعنى قوله عز وجل: ﴿وصيّة لأزواجهم متاعًا إلى الحول غير إخراج﴾ أي يوصيكم الله عز وجل ويعهد إليكم يا أولياء التركة بأن تقدّموا للزوجات المتوفى عنهن أزواجهن ما يمتعهن لمدة سنة كاملة من النفقة والسكنى ولا تخرجوهن من بيوتهن مدة الحول. وقد نسخ هذا الحكم من إيجاب النفقة والسكنى للمتوفى عنها زوجها بما جعل الله تبارك وتعالى لها من الميراث، كما نسخ الحول بأربعة أشهر وعشر كما تقدم. وقوله عز وجل: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ أي فإن انتهت عدّتهن وخرجن من الإحداد فلا حرج عليكم فيما يفعلن بأنفسهن من التجمل للخطاب والتزيّن ما دام في حدود المعروف شرعا، وقوله عز وجل: ﴿والله عزيز حكيم﴾ وعيد لمن خالف أمر الله من الأولياء والنساء المتوفّى عنهن أزواجهن وإشعار بأن شرع الله عز وجل مبني على الحكمة التامة التي فيها صيانة حقوق الأحياء والأموات، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين﴾ هذا هو ختام المسك لأحكام النكاح والطلاق والعِدَد والرضاع في هذا المقام الكريم، وقد ختم الله عز وجل هذه الأحكام بلفت الانتباه إلى رعاية حق الزوجة المطلقة بتقديم متعة لها عند طلاقها، وهذه المتعة غير المتعة التي فرضها الله عز وجل للمطلقة قبل المسيس التي لم يُسَمَّ لها مهر، فإن المتعة لغير المطلقة قبل المسيس التي لم يُسَمَّ لها مهر إنما تكون على سبيل الهدية من المطلّق لمطلّقته للإشعار ببقاء المعروف والإحسان بينهما، وقد أرشد إلى ذلك قوله عز وجل: ﴿يا أيها النبيّ قل لأزواجك إن كنتن تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنّ وأسرّحكنّ سراحا جميلا﴾ ونساء النبي ﷺ قد دخل بهن رسول الله ﷺ وسمّى لهن مهرا،

ففي هذه الآية الكريمة الحضّ على تمتيع المطلقات المدخول بهن بما تيسّر، وقد متّع رسول الله ﷺ الجَوْنيَّةَ بِرَازِقِيَّيْنِ. فقد روى البخاري من حديث أبي أُسَيْدٍ رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ حتى انطلقنا إلى حائط يقال له: الشوط، حتى انتهينا إلى حائطين فجلسنا بينهما، فقال النبي ﷺ: «اجلسوا ههنا» ودخل، وقد أُتِيَ بالجونيّة فأُنْزِلَتْ في بيت، في نخل، في بيت، أُمَيْمَةُ بنت النّعمان بن شراحيل، ومعها دايتها حاضنة لها، فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: «هبي نفسك لي» قالت: وهل تهبُ الملكةُ نفسَها للسُّوقة؟ قال: فأهوى بيده يضعُ يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: «عذت بمَعَاذٍ» ثم خرج علينا فقال: «يا أبا أسيد، اكْسُها رازقيّتين، وألحقها بأهلها» وقال الحسين بن الوليد النّيسابوريّ عن عبد الرحمن عن عباس بن سهل عن أبيه وأبي أسيد قالا: تزوّج النبي ﷺ أميمة بنت شَرَاحِيل، فلما أُدْخِلَتْ عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهّزها ويكسوها ثوبين رازقيين. حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا إبراهيم بن أبي الوزير حدثنا عبد الرحمن عن حمزة عن أبيه، وعن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه بهذا. اهـ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: قوله: فأنزلت في بيتٍ في نخلٍ في بيتٍ أميمةُ بنت النعمان بن شراحيل. هو بالتنوين في الكلّ وأميمة بالرفع إما بدلا عن الجونية وإما عطف بيان، وظنّ بعض الشرّاح أنه بالإضافة فقال: في الكلام على الرواية التي بعدها: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، ولعل التي نزلت في بيتها بنت أخيها. وهو مردود، فإنّ مخرج الطريقين واحد، وإنما جاء الوهم من إعادة لفظ «في بيت» وقد رواه أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده عن أبي نعيم شيخ البخاري فيه فقال: في بيت في النخل أميمةُ الخ، اهـ وقوله في الحديث: «اكسها رازقيين» أي أعطها رازقيين كسوة ومتعة لها، قال في القاموس المحيط عن

الرازقية : ثيـاب كتّان بيض اهـ وقال الجوهري في الصّحاح : والـرّازقية ثياب كَتّان بيض، قال لبيد يصف ظُرُوف الخمر:

لها غَـلَلٌ من رازِقيّ وكُرْسُفٍ　　　بأيْمـان عُجْمٍ يَنْصُـفُون المَقَـاوِلا

أي يخدمـون الأقيـال اهـ وقـال ابن منظـور في لسـان العرب : والـرّازقيـة والرّازقي : ثياب كَتّـان بيض، وقيل : كلّ ثوب رقيق رازقيّ ، وقيل : الرازقيّ الكتّان نفسه، قال لبيد يصف ظروف الخمر:

لها غـلل من رازقيّ وكرسـف　　　بأيمـان عجـم ينصـفون المقـاولا

أي يخدمون الأقيال . وأنشد ابن بَريّ لعوف بن الخَـرِع :

كـأنّ الظّبـاء بها والنّعـا　　　ج يُكْسَيْـن من رازقيّ شـعارًا

وفي حديث الجونية التي أراد النبيّ ﷺ أن يتزوجها قال : «اكسها رازقيين» وفي رواية : رازقيتين ، هي ثيـاب كَتّان بيض اهـ وقـوله تبارك وتعـالى : ﴿حقا على المتقين﴾ بتخصيص حقيته للمتقين للتنبيه على أن أوامر الله عز وجل إنما ينتفع بها المتقون ، كما تقـدم نظيره كثيرا ، وقوله تبارك وتعـالى : ﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : يقول تعالى ذكره : كما بينت لكم ما يلزمكم لأزواجكم ويلزم أزواجكم لكم أيها المؤمنون ، وعرفتكم أحكامي ، والحقّ الواجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات ، فكذلك أبيّن لكم سائر الأحكام في آياتي التي أنـزلتها على نبيّي محمد ﷺ في هذا الكتاب ، لتعقلـوا ـ أيها المؤمنون بي وبرسـولي ـ حـدودي ، فتفهمـوا الـلازم لكم من فرائضي ، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم ودنياكم ، وعاجلكم وآجلكم ، فتعملوا بـه ليَصْلُح ذاتُ بينكم ، وتنالوا بـه الجزيل من ثوابي في معـادكم اهـ وفي قـوله عـز وجل : ﴿لعلكم تعقلون﴾ إشعـار بأن من لم يستفدْ من أنـوار أحكام الشريعة الإسلامية ويحرصْ على أن تكـون منهجه ونبراسه ليس بعاقل حتى ولو كـان في نظر الناس من أعقل الناس ، كما أشـار إلى ذلك رسول الله

ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنّة، وحدثنا عن رفعها قال: «ينام الرجل النّومة فتُقْبَضُ الأمانة من قلبه فيظلّ أثرها مثل أثر الوَكْتِ، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل أثر المَجْلِ، كجَمْر دَحْرَجْتَه على رجلك فنَفِطَ فتراه مُنْتَبِرًا، وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدّي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقله، وما أظرفه، وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبّة خردل من إيمان، ولقد أتى عليّ زمان، ولا أبالي أيّكم بايَعْتُ، لئن كان مسلما ردَّه عليَّ الإسلامُ وإن كان نصرانيا ردّه عليَّ ساعيه، وأما اليومَ فما كنتُ أبايع إلا فلانا وفلانا». اهـ وقوله: «نزلت في جَذْر قلوب الرجال» أي في أصل قلوب الناس وهو كناية عن خلق الله تعالى في تلك القلوب قابلية حفظ الأمانة. والوَكْتَة هي الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه، والمَجْلُ هو أثر يحدث لليد من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة، ويقال: نَفِطَتْ اليد إذا صار بين الجلد واللحم ماء فوقه قشرة رقيقة كأنها بَثْرَة مُنْتَبِرة منتفخة. وفي هذا الحديث نصّ ظاهر على أن العقل الحقيقي هو ما يقود الرجل والمرأة للعمل بشريعة الإسلام، والعضّ عليها بالنواجذ.

قال تعـالى: ﴿ألم تر إلى الّذين خـرجوا من ديارهم وهم ألـوف حذر الموت فقـال لهم الله موتـوا ثم أحيـاهم، إنّ الله لـذو فضل على النّاس ولَكنّ أكثـر النّاس لا يشكرون﴾ وقـاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم﴾ من ذا الّذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾

قد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرة فـأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ ثم بعثنـاكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ أنّ هـذا هو أول مقام من المقامـات التي ذكرها الله عز وجل في سورة البقرة الشاهدة بقدرة الله على إحياء الموتى المنكِرَة على مُنكِر البعث بعد الموت وكأنه يقول لهم: قد أحييت الموتى فعلا، وكلّ ما وقع فعلاً فهو ممكن عقلاً، فكيف ينكر عاقلٌ البعثَ بعـد الموت؟ والمقام الثاني في قوله عز وجل في قصة البقرة وقتيل بني إسرائيل: ﴿فقلنـا اضربوه ببعضها كذَلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾. والمقام الثالث في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهـم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ والمقـام الرابع قصة الـذي مرّ على قريـة وهي خاوية على عـروشها قال: أنّى يحيي هـذه الله بعد مـوتها؟ فأماته الله مـائة عام ثم بعثـه قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يـوما أو بعض يوم، قال: بل لبثت مـائة عام، وأحيا الله أمامه حماره الذي كان قدمات معه وقال له: انظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما؟ والمقام الخامس في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قـال: أو لم تـؤمن قـال: بلى ولَكن ليطمئن قلبي، قـال: فخـذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كـل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾. والملاحظ أنّ الله تبارك وتعالى بعد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن ذكر أحكام النكاح والطلاق والعدد والرضاع ختمها بقوله عز وجل: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ ثم ضرب المثل بقدرته على إحياء الموتى بقوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ وقد نبه في قصة إحياء قتيل بني إسرائيل بتذييلها بقوله عز وجل: ﴿كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ كما لوحظ أنه تبارك وتعالى ذيل ذكر المقام الأول من مقامات إحياء الموتى في سورة البقرة بقوله عز وجل: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ كما ذيل هذا المقام هنا بقوله عز وجل: ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ وهذا إعجاز بلاغي عرفه الذين سمعوه من أساطين البلاغة وأرباب الفصاحة من قريش وأيقنوا أنه من عند الله وإن كانوا جحدوا ذلك كما قال عز وجل عنهم: ﴿قد نعلم إنّه ليحزنك الذي يقولون فإنّهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ لقد كان الواحد من المشركين المعادين للإسلام ينصت لبعض آية من كتاب الله فيخر ساجدا لما وقع في قلبه من بلاغتها وفصاحتها وما اشتملت عليه الجملة القصيرة من المعاني الغزيرة كما حدث لبعضهم عندما سمع قوله عز وجل: ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجيًّا﴾ أيقن أن هذا الكلام فوق قدرة البشر. ولذلك قال بعض رؤساء المشركين في وصفه وقد استمع له: إن له لحَلاوة وإنّ عليه لطَلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق أو معذق وإنه يعلو ولا يُعلى عليه اهـ وإنك لتجد الآيات المتشابهة المثاني تتباعد أماكنها في كتاب الله وقد يكون بعضها مكيا وبعضها مدنيا وتحسبها آية واحدة مع ما وُضع لكل واحدة منها من علامات فارقة وشارات مميزة تناسب ترنيم مكانها وجَرْس موضعها، ونبرات الأحرف التي تتركب منها ولذلك قال عز وجل: ﴿حم* تنزيل من الرحمن

الرحيم * كتاب فُصِّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ أي ألم تنظر بعين بصيرتك وينْتَهِ علمك إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم عدد كبير بلغوا ألوفا مؤلفة، فرارا من الموت، فأماتهم الله عز وجل ثم أحياهم ليعلموا أن الحذر لا ينجي من القدر وأن الأعمار بيد القهار فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ولو كانوا في بروج مشيدة وأينما كانوا يدركهم الموت، والمقصود تربية نفوس المسلمين وتقوية عزيمتهم على الجهاد في سبيل الله لأنهم لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم بإعلام رسول الله ﷺ ومن يَتَأَتَّى منه أن يُوَجَّهَ إليه هذا الإخبار بقصة قوم من بني آدم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم لِيَرَوْا هم وكلّ من جاء من بعدهم ممن يصل إليه العلم بقصتهم أن الإماتة إنما هي بيد الله وحده وأنه هو وحده القادر على إحياء الموتى كذلك، فهو لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، وعلى المسلم أن يطمئن إلى قدر الله وقضائه ويرضى به، وفي هذا أيضا تقديم بين يدي الأمر بالقتال في سبيل الله ومجاهدة أعداء الله بالنفس والمال في قوله تبارك وتعالى بعدها مباشرة: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم* من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ الآية ولم يَصِحَّ خبر عن رسول الله ﷺ في بيان جنس هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، كما لم يصح خبر عن رسول الله ﷺ في أن فرارهم كان من الطاعون أو من خوفهم من الجهاد في سبيل الله، وإنما جاء علم اليقين بأنهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فأصابهم ما فرّوا منه وجاءهم الموت الذي كانوا يحذرون، كما قالت أعرابية لما فرّ ولدها فأصابته المنية في طريق هروبه فقالت في قصيدة لها ترثيه:

والمنايا رُصَّدٌ للفتى حيث سَلَكْ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على أن الإسلام قد حذّر من الفرار من الطاعون، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عن الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدُمُوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه». كما روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها أنه كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد. كما حذر الإسلام أشد التحذير من الفرار من الزحف، وعدّه في السبع الموبقات. فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتّولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وقوله عز وجل: ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ الأمر في قوله عز وجل: ﴿موتوا﴾ أمر كونيّ قدريّ لا يتخلف أبدا على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ ولذلك حذف من الكلام قوله: فماتوا، لأنه معلوم قطعا، ودلّ عليه قوله عز وجل بعدها: ﴿ثم أحياهم﴾ المرتّب على موتهم كأنه قيل: أراد الله عز وجل موتهم فماتوا، ثم أحياهم الله عز وجل. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي إن الله تبارك وتعالى لصاحب جود وإحسان وإنعام على عباده، ولكن أكثر بني آدم لا يعترفون للمنعم الجليل بنعمته بسبب انقيادهم للشيطان الذي تعهّد بصرفهم عن شكر الله، وإضلالهم عن الصراط المستقيم وحملهم على الجحود

ونكران النّعم، كما قال الله عز وجل: ﴿قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم* ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وقد أشار الله عز وجل إلى أن الشكر نقيض الكفر حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فجعلناه سميعا بصيرا* إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾ وقوله عز وجل: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم﴾ أي وجاهدوا أعداء الله لإعلاء كلمة الله وابذلوا أنفسكم في سبيل الله وأيقنوا أن الله معكم يسمع خفقات قلوبكم ويعلم ما تكنّه صدوركم. والمقاتل في سبيل الله ينال إحدى الحسنيين، الشهادة في سبيل الله أو النصر على أعداء الله، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون يفرحون بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين سيلحقون بهم من قوافل الشهداء: ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقوله تبارك وتعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ القرض ما قدّمتَه وسلّفتَه وأعطيتَه لِتُقْضَاه. والمقصود من إقراض الله عز وجل بذل النفس والنفيس في سبيل الله وإعانة المجاهدين، وتجهيز الغازين، كما يشمل كذلك الصدقات على الفقراء والمساكين، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ درجة عُلْيا في الحض على النفقة في سبيل الله وعلى الفقراء والمساكين، وكأنّ الذي يقدم المال في هذا الوجه إنما يسلّمه لله عز وجل الغني الحميد الذي لا تنفد خزائنه ولا تغيض على كثرة العطاء والجود والإحسان. وهو شبيه بما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، قال: يا ربّ كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنّ عبدي فلانا مَرِض فلم

تَعُدْه؟ أما علمتَ أنك لو عُدْتَه لوجَدْتَني عنده؟ يا ابن آدم استطعَمْتك فلم تطعمني، قال: يا رب كيف أطعمك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطْعِمْه؟ أما علمتَ أنك لو أطعمْتَه لوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتُك فلم تَسْقِني، قال: يا ربّ كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تَسْقِه، أما علمتَ أنك لو سَقَيْتَه لوجدتَ ذلك عندي». اهـ أي لوجدت جزاء هذا العمل عندي مدّخرا لك في موازينك، وقوله: ﴿قرضا حسنا﴾ أي طيبا خالصا لله لا مِنّة فيه ولا أذًى لمن أعطيته، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ أي فيوفّيه الله أجره وقرضه مضاعفا فوق ما أعطى سبعمائة ضعف، وقد تزيد، فإنه يعطي من يشاء بغير حساب، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يَقْبِض ويَبْسُط وإليه ترجعون﴾ أي والله هو القابض الباسط يضيّق على من يشاء بعدله ويوسّع على من يشاء بفضله، ومرجع جميع الخلائق ومصيرهم إلى الله وحده، وسيجزي كلّ عامل بما عمل، فافعلوا الخير لعلكم تفلحون.

قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا : ومالنا ألاّ نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلمّا كتب عليهم القتال تولّوا إلاّ قليلا منهم ، والله عليم بالظالمين* وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكًا ، قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله واسع عليم* وقال لهم نبيّهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربّكم وبقيّة ممّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ، إنّ فى ذٰلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالقتال في سبيل الله وبذل المال في الجهاد ووجوه الخير، ساق هنا قصّة من قصص بني إسرائيل تكشف تعنّتهم مع أنبيائهم ونكوصهم عن الجهاد في سبيل الله حتى ولو كانوا هم الملحِّين في طلب القتال ، وترشد إلى أنّ نصر الله قريب من المحسنين ، وأنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله وأن الله مع الصابرين . وفي إيراد هذه القصة تحذير للمسلمين من أن يسلكوا سبيل المتعنتين العاصين المذكورين في هذه القصة ، وحضٌّ لهم على التَّأسِّي بالصالحين المذكورين في هذه القصة ، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى زمان هذه القصة ، واسْمَيْ قائِدَيْ فريقَيْها من المؤمنين والكافرين ، وذكر فيها عبرا عظاما ، وقد انتهت بتمليك داود عليه السلام على بني إسرائيل وما أنعم الله به عليه من الـمُلْكِ والحكمة وأنه علَّمه مما يشاء ، وقد بدأ الله تبارك وتعالى هذه القصة هنا فذكر أنها حدثت لبني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام ، والظاهر من سياق القرآن الكريم يدل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على أن جالوت رأس الوثنيين أوقع ببني إسرائيل، فأجْلَى رجالهم، وسبى نساءهم وذراريَّهم، وتمكن من أرضهم وبلادهم، وكانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيّ بعث الله عز وجل لهم نبيا آخر، يشرح لهم التوراة ويحكم بها فيهم، ويبين لهم ما غيّروه وبدّلوه وحرّفوه من الكلم عن مواضعه، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلّما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي». فلما اشتد تسلّط جالوت ومن معه من الوثنيين على بني إسرائيل قال وُجَهَاؤهم وأعيانهم لنبي من أنبيائهم: ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله. والظاهر أنهم لم يكن قد فرض عليهم قتال أعدائهم فأخبرهم نبيّهم عليه السلام أنه يخشى عليهم أن يَنكِلوا عن القتال إذا فرض عليهم، ولا يفوا بما التزموا به فقالوا: وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، أي أخذت منا البلاد، وسُبِيَتْ الأولاد، فأخبرهم نبيهم عليه السلام أن الله قد عيّن لهم ملكا منهم هو طالوت، فاعترضوا على هذا التعيين وقالوا: كيف يعيّن الله علينا طالوت ملكا ولم يكن في آبائه من ملك؟ فنحن أحقّ بالملك منه مع أنه فقير قليل المال، فأجابهم نبيّهم عليه السلام بأن الله عز وجل قد اختاره ملكا على بني إسرائيل، وقد فضّله من بينكم لمهام الملك وأعطاه الله بسطة في العلم والجسم، فهو أعلم منكم بشئون الحرب وتدبير الأمور، وأشدّ منكم قوة وصبرا وجَلَدًا لملاقاة الأعداء، فلا تعترضوا ولا تعنّتوا، وأنتم تعلمون أن الله هو الذي اختاره وعيّنه ملكا عليكم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيّهم إن الله تبارك وتعالى جاعلٌ لكم آية على صحة مُلْك طالوت عليكم وهي رجوع الصندوق الذي يشتمل على بعض آثار موسى وهارون، وقد عَجَزْتُم عن إرجاعه من يد مغتصبيه، ولن يطلب منكم بذل مجهود في

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

استرجاعه، بل سيجيء الصندوق تحمله الملائكة، لا تَرَوْن أحدا من بني آدم يحمله أو يرافقه، وسيكون فيه طمأنينة لبني إسرائيل ودلالة ظاهرة على أن الله تبارك وتعالى لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فصدّقوا وَعْد الله، وسارعوا إلى طاعة طالوت وآمنوا بما أخبرتكم به عن الله عز وجل إن كنتم صادقين في إيمانكم بالله عز وجل، والله تبارك وتعالى قادر على إهلاك الكافرين والانتصار منهم بدون حرب بينهم وبين المسلمين، وإنّما يَشْرَعُ القتال ليبلو بعضكم ببعض ويتخذ منكم شهداء، وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. وقوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى﴾ أي قد أتاك العلم يا محمد فيما أقصه عليك من القصص الحق عن الملأ من بني إسرائيل من بعد وفاة موسى عليه السلام. والملأ: هم أشراف القوم ووُجَهَاؤهم وأعيانهم، وقد يراد بالملأ القوم، وهو اسم جمع كالرهط والقوم، لا واحد له من لفظه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذ قالوا لنبي لهم ابعَثْ لنا مَلِكًا نقاتلْ في سبيل الله﴾ أي حيث قالوا لنبيّ من أنبيائهم أقم لنا ملكا نقاتل تحت رايته أعداء الله لإعلاء كلمة الله. وقوله عز وجل: ﴿قال هل عَسَيْتُم إنْ كُتِبَ عليكم القتالُ ألا تقاتلوا﴾ هذا استئناف بياني كأن سائلا سأل: فماذا قال لهم نبيهم حينئذ؟ فقيل: قال: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟ أي هل عسيتم ألا تقاتلوا إن فرض عليكم القتال، كأنه قال لهم: هل أتوقّع منكم أن تجبُنُوا وتَنْكِلوا عن قتال ومنازلة أعدائكم إن أُلْزِمْتُم بقتالهم؟ وقد وقع ما توقع نبيهم حيث تولّوا عن القتال إلا قليلا منهم، وقوله عز وجل: ﴿قالوا: وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخْرِجْنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي وأي شيء يمنعنا من قتالهم، ثم أكدوا زعمهم بعِلّة قوية موجبة للقتال وهي قولهم: ﴿وقد أُخْرِجْنا من ديارنا وأبنائنا﴾ وقوله عز وجل: ﴿فلما كُتِبَ عليهم القتال تَوَلَّوْا إلا قليلا منهم﴾

شبكة الألوكة
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أي فلما فرض عليهم القتال وألزموا به جبنوا ولم يقدموا على قتال أعدائهم بل تولّوا ورجع أكثرهم عن القتال، ولم يثبت منهم إلا القليل الذين جاوزوا النهر مع طالوت، وقد طوى الله تبارك وتعالى جملا كثيرة هنا لأنها معلومة من السياق إذ تقدير الكلام: فسأل نبيّهم ربه عز وجل أن يكتب عليهم القتال وأن يعيّن لهم ملكا ليقاتلوا تحت لوائه، فاستجاب الله لنبيهم وفرض عليهم القتال وعيّن لهم ملكا ليقاتل بهم فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وعيد شديد لهؤلاء الذين أعرضوا وتولّوا عن القتال ونكلوا عنه بعد طلبهم له، وتناقضت أفعالهم مع أقوالهم، ووضع الاسم الظاهر موضع الضمير حيث قال: ﴿بالظالمين﴾ ولم يقل: بهم، لتسجيل صفة الظلم عليهم وبيان أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، وقوله عز وجل: ﴿وقال لهم نبيّهم: إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا﴾ أي وأخبرهم نبيّهم وقال لهم: إن الله أجابكم إلى ما سألتم وعيّن لكم طالوت ملكا. وهذا شروع في تفصيل بعض ما أُجْمِل في قوله عز وجل: ﴿تَوَلَّوْا﴾ حيث كان من أوّل توليهم وتعنتهم وإعراضهم عن أمر الله هو إنكارهم إمرة طالوت رضي الله عنه وتمردهم عليه حيث قال عز وجل عنهم: ﴿قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يُؤْتَ سَعَةً من المال﴾ أي قالوا مستبعدين جدّا أن يكون طالوت ملكا عليهم: كيف يكون له التملك علينا والحال أنه لا يستحق التملّك لوجود من هو أحق بأن يكون ملكا علينا من أبناء ملوكنا الأولين، ولعدم ثرائه وغناه فهو رجل فقير قليل المال؟ وقوله عز وجل: ﴿قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطَةً في العلم والجسم﴾ هو بيان لردّ شبهتهم وفساد رأيهم من وجوه، الأول: أن الله اصطفاه عليكم واختاره وهو العليم الخبير فكان من الواجب عليكم والتأدب مع نبيكم أن تسارعوا إلى الرضى والقبول لا أن تتعنّتوا وتعترضوا على

الجديد و طرح
NEW & EXCLUSIVE

أمر الله الذي أخبركم به نبيكم عليه السلام، والله أعلم بمصالحكم منكم، وقد خصّ الله تبارك وتعالى طالوت بالملك والإمرة من بينكم. والوجه الثاني: أن الله تبارك وتعالى زاد طالوت بسطة في العلم، والعلم من الكمالات الحقيقية التي جعل الله لها أثرا عظيما في صلاح الدولة وشئون السياسة وتدبير أمور الحرب وإحباط خُطَط الأعداء ومعرفة أحوال الناس والوفاء لكل ذي حق بحقه. والوجه الثالث: أن الله تبارك وتعالى زاده بسطة في الجسم والناس يعرفون عادة أن العقل السليم في الجسم السليم، ولا شك أن الرجل القويّ الشديد الجامع لصفة العلم وصفة القدرة والقوة أحقّ من يتولى أموركم ويكون له الملك عليكم، إذ قوة الجسم مع قلة العلم والمعرفة قد تكون مهلكة، كما أن زيادة العلم مع عجز الجسم وضعفه قليلة الجدوى. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن تدبير شئون الدولة في الحرب والسلم يحتاج إلى هذين الوصفين: بسطة العلم وبسطة الجسم، كما أشار إلى أن الأجير الصالح هو من تتوافر فيه قوة الجسم والأمانة حيث قال في كتابه الكريم: ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ وقوله عز وجل: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ زيادة توبيخ وتعنيف للمعترضين على أمر الله بتعيين طالوت ملكا، إذ الله عز وجل هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويمنعه من يشاء، والله جليل العطاء واسع الفضل عليم بمن يليق بالملك عليكم، وهو أعلم بمصالحكم منكم. وقوله عز وجل: ﴿وقال لهم نبيهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي إنّ علامة اختيار الله لطالوت ليكون ملكا عليكم أن يجيئكم صندوق العهد المشتمل على بعض آثار موسى وهارون حتى يصير بين أيديكم دون أن تروا حاملا من البشر له بل تحمله الملائكة، وهو معجزة من الله عز وجل أجراها

لنبيهم تصديقا له على أن الله تبارك وتعالى قد اختار لهم طالوت ملكا . وليست هذه معجزة لطالوت بل هي معجزة لنبيهم تصديقا لما أخبر به من شأن طالوت . والسكينة : الطمأنينة ، والبقية : الأثر الباقي ، والمراد بآل موسى وآل هارون : هو موسى وهارون ، ويؤتى بآل في مثل هذا المقام للتفخيم كما قال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري فيما رواه البخاري ومسلم من حديثه رضي الله عنه : «لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود» . اهـ والمراد داود نفسه عليه السلام .

قال تعـالى : ﴿فلما فصل طالوت بـالجنود قـال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منـه فليس منّي ومن لم يطعمـه فإنـه منّي إلا من اغترف غـرفـة بيـده، فشربوا منه إلا قليلا منهـم، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قـالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئـة كثيرة بإذن الله، والله مع الصّابـرين* ولما بـرزوا لجالوت وجنـوده قـالوا ربنـا أفـرغ علينـا صبرًا وثبّت أقدامنـا وانصرنـا على القوم الكـافـرين* فهـزموهم بـإذن الله وقتل داود جالـوت وآتـاه الله الملك والحكمـة وعلّمه ممّا يشـاء، ولـولا دفع الله النـاس بعضهم ببعض لفسـدت الأرض ولَكنّ الله ذو فضل على العـالمين* تلك آيـات الله نتلـوهـا عليك بـالحقّ، وإنّك لمن المرسلين﴾

عندمـا أبصر بنو إسرائيل التـابوت مقبـلا عليهم تحمله الملائكـة أظهروا الإذعان والانقيـاد لطالـوت ورضوا به ملكًـا عليهم، فَتَهَيَّئُوا لقتـال أعدائهم وكان من بينهم داود عليـه السلام ولم يكن قد بُعِثَ بعد، فلما خـرج طالوت بجيشه متجها لقتـال جالوت ومن معه من الـوثنيين أراد أن يجعل لهم اختبار تصفيـة وتنقية فأخبرهم أن الله سيختبرهم بنهـر يمرون بـه وهم عطاش وأنـه يمنعهم من الشرب من هـذا النهر فمن شرب منـه لا يشهد القتـال، ومن لم يشرب منـه فإنـه مؤمـن يجاوز النهر مع المؤمنين وقـد أبيح للـواحـد منهم أن يغترف غُرْفة بيده لا يذوق من النهر غيرها، فعصى أكثرهـم وشربوا من النهر، وتولـوا معرضين، فلـم يجاوز النهر مع طـالوت سـوى بضعة عشر وثلثمائة.
وهذا الاختبـار والابتلاء دليل ظـاهر على علم طـالوت، وشهـادة جليّةٌ على أهليته للملك وقيادة الجيوش وأنـه ذو خبرة ودراية بنفوس بني إسرائيل الذين لا يثبتـون على حـال، ولا يستقـرون على هـدًى شأنُهُم عصيـان أنبيـائهم

وملوكهم، فجعل لهم هذا الاختبار قبل لقاء العدو ليتميز من يصبر منهم ممن لا يصبر، ولا شك أن رجوع هؤلاء قبل لقاء العدو لا يؤثر كتأثيره حال لقاء العدو، فكان هذا أحد معالم علم طالوت رضي الله عنه الذي زاده الله فيه بسطة، ومن الحكمة أيضا منعهم من الشرب من النهر والاكتفاء بغُرْفة تَبُلُّ ريقهم ولا تؤذيهم في صحتهم، إذ من العلوم التجريبية أن المجهود من السير يضرّه شرب الماء إلا ما يَبُلُّ الريق ولا يزال بعض قادة الجيوش إلى اليوم يحرّمون على جنودهم أن يشربوا في أثناء زحفهم على عدوهم لما يترتب على ذلك من الضرر بصحتهم ويسمحون لهم عند شدة العطش في أثناء الزحف أن يكتفوا ببل ريقهم بَلاًّ خفيفا، وقد يصاب الإنسان بالعمى إذا شرب في مثل هذا الحال، وقوله عز وجل: ﴿فلما فَصَل طالوت بالجنود﴾ أي فلما خرج طالوت بالعسكر وشخص بهم من بلده، وارتحل في طريقه للقاء العدو، وقوله عز وجل: ﴿قال إنّ الله مبتليكم بنهَر﴾ أي إن الله عز وجل سيختبركم بمروركم عند نهر عذب الماء وأنتم عطاش، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾ أي من كَرَعَ وارتوى فإنه ليس على منهاجي، والظاهر أنه نظير قول رسول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني». الذي رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخْبِرُوا كأنهم تَقَالُّوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أمّا أنا فأنا أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أَعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومَن لم يَطْعَمْه فإنه

مني﴾ أي ومن لم يذق من ماء النهر شيئا فإنه على منهجي ويتجاوز النهر معي لقتال أعداء الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إلا من اغترف غُرْفَةً بيده﴾ أي لكن من تناول بيده غرفة من النهر فإنّ الله تبارك وتعالى يتجاوز عنه ولا يحرّم ذلك عليه، والغُرْفة بضم الغين هي الشيء المغتَرف، والغَرْفة بفتح الغين هي المرة الواحدة من الاغتراف وهو التناول باليد أو بالمغرفة. وما لم تغرفه لا يسمى غرفة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾ أي فعصى أمْرَ طالوت أكثرُ جيشه وشربوا من النهر سوى عدد قليل منهم امتنع عن الشرب من النهر طاعة لطالوت رضي الله عنه وجاوزوا النهر معه، وقد جاء في بعض الآثار الصحيحة أن الذين جاوزوا النهر مع طالوت رضي الله عنه وعنهم كانوا بضعة عشر وثلثمائة رجل بعدد أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا بدرا معه صلوات الله وسلامه عليه، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدرا أنهم كانوا عدّة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر بضعة عشر وثلثمائة. قال البراء: لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن. وفي لفظ للبخاري عن البراء قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا مؤمن: بضعة عشر وثلثمائة. وفي لفظ للبخاري رحمه الله من حديث البراء رضي الله عنه قال: كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلثمائة وبضعة عشرة بعدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ الآية، أي فلما عبر طالوت النهر هو والذين آمنوا معه وجدوا أن عدوّهم جالوت لعنه الله قد حشد جنودا كثيرة، وأعد عدّة عظيمة فقال بعض المؤمنين من أصحاب طالوت رضي الله عنهم: لا طاقة ولا قدرة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لنا اليوم على قتال هذا العدو الكثير، كأنهم استقَلُّوا أنفسهم عن لقاء عدوهم، فشجّعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حقّ وأن النصر من عند الله ليس بكثرة العَدَد وقوة العُدَد، وأنه ينبغي للمسلم أن يرغب في الاستشهاد ولقاء الله في سبيل الله قائلين لهم: كم من جماعة قليلة غلبت جماعة كثيرة بإذن الله وعونه ونصره فاصبروا واحتسبوا واستعينوا بالله إن الله مع الصابرين بتأييده وقدرته، ولا غالب لمن كان الله معه، وفي قولهم: ﴿لا طاقة لنا اليوم﴾ يشعر برغبتهم في تأجيل لقاء العدوّ يومئذ لا أنهم أرادوا ترك قتال العدو والنكول مثل الذين لم يجاوزوا النهر، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربنا أَفْرِغْ علينا صَبْرًا وثَبِّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي ولما ظهروا لقتالهم وتصافُّوا قالوا: ربنا اصْبُبْ علينا صبرا واحبس أنفسنا عن الجزع وثبت أقدامنا بتقوية قلوبنا حتى نرسخ في مقارعة عدونا ولا نتزلزل في أرض المعركة وأعنّا على هذا العدو حتى تكون الغلبة لنا عليه، واهزم الكافرين وزلزل أقدامهم واملأ قلوبهم رعبا منا حتى نتمكن من سحقهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داودُ جالوتَ﴾ أي فاستجاب الله عز وجل دعاءهم، ونصرهم على أعدائهم، ومكّن لهم في الأرض، وقتل داودُ جالوتَ ملكَ الوثنيين، وقد سارع طالوت بالتنازل عن الملك لداود عليه السلام، وصار أحد جنود داود عليه السلام، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على طالوت، ووصفه بأوصاف كريمة، أما ما زعمه بعض المفسرين والإخباريين من أن طالوت حسد داود، وأصيب بالجنون وهام على وجهه في الصحراء فإنه زعم باطل، وأكاذيب إسرائيلية لا دليل عليها من خبر ثابت، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ أي ومنح الله عز وجل داود عليه السلام الملك على بني إسرائيل، وبعثه نبيا رسولا، وأنزل عليه الزبور، وعلمه ما يحتاجه بنو إسرائيل

من المنهج القويم، وعلمه صنعة لَبُوس، وألانَ له الحديد، فصنع الدروع التي قد تسمّى الزَّرَدَ وكان أوّل من صنعها على الوجه الأمثل من بني آدم، وقد أرشده الله تبارك وتعالى إلى الطريقة المثلى في صناعتها فجعلها حِلَقًا بعد أن كانت صفائح ليسهل استعمالها، وأمره عز وجل أن يعملها سابغات، تغطي كلّ جسم لابسها، ويجرّها على الأرض، وتصلح للأجسام المختلفة طولا وعرضاً فيعمّ نفعها جميع المقاتلين، وأمره أن يقدّر في السَّرْد أي في نسج الدّرع وهو إدخال الحَلَقات بعضها في بعض، ولا تُجْعَل المسامير غلاظا فتكسر الحلْقة، ولا دِقَاقا فتَتَقَلْقَل فيها، ولا تزاد في متانتها فتَثْقُل على المقاتل، وهذه نعمة جليلة لفت الله تبارك وتعالى انتباه المؤمنين إلى وجوب شكره عليها حيث يقول عز وجل: ﴿وعلّمناه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكم لِتُحْصِنكم من بَأْسِكم فهل أنتم شاكرون﴾ كما يسّر الله عز وجل لداود عليه السلام قراءة الزبور وخفّفه عليه حتى إنه كان يقرؤه بمقدار ما تُسْرَج دَوَابُّه كما أخبر بذلك الصادق المصدق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى حبيب الله ورسوله وسيد المرسلين محمد ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خُفِّفَ على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابّه فتُسْرَج فيقرأ القرآن قبل أن تُسْرَج دوابّه، ولا يأكل إلا من عمل يده» والمراد بالقرآن في هذا الحديث هو الزبور الذي أنزله الله عز وجل على داود عليه السلام حيث يقول عز وجل: ﴿وآتينا داود زَبُورًا﴾ كما يطلق لفظ القرآن بمعنى القراءة، أي قراءة داود الزبور، وقد منح الله عز وجل داودَ عليه السلام صوتا جميلا يتغنى به وهو يقرأ الزبور ويترنّم، وقد وصف رسول الله محمد ﷺ ترنُّم داود بالزبور بصَوتِ المزامير، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى لقد أُوتيتَ مزمارا من مزامير آل داود» وقد سقت هذا الحديث قريبا في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تفسير قوله عز وجل: ﴿مما ترك آل موسى وآل هارون﴾. وقوله عز وجل: ﴿ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لفسدَت الأرضُ ولَكن الله ذو فضل على العالمين﴾ أي ولولا أن الله تبارك وتعالى تفضّل وأنزل الشرائع وفرض فيها على المؤمنين أن يدفعوا شر الكافرين، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر لعمّ الفساد والشرّ في الأرض، وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلا فقد روى البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم. فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نصيبنا خَرْقًا ولم نُؤْذِ مَن فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعا» وقوله عز وجل: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ أي هذه الآيات التي تقدم ذكرها وقصصت عليكم فيها ما قصصت لكم من القصص الحق شاهدة بأنّ محمدا هو رسول الله ﷺ وأنا أشهد بأن محمدا رسول من جملة رسلي الذين أرسلتهم لينيروا الطريق للإنسانية ويرشدوا إلى صراط الله المستقيم.

قال تعالى: ﴿تلك الرّسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات، وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القُدس، ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيّنات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكنّ الله يفعل ما يريد﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى قصة طالوت رضي الله عنه مع بني إسرائيل وأنهم اختلفوا فمنهم من أطاعه لقتال الجبارين ومنهم من عصاه وشرب من النهر بعد أن نهاهم عن الشرب منه، وأن الله تبارك وتعالى نصر الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة، وأنه مكّن داود من قتل جالوت وأعطاه الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء وذكر عز وجل أنه شرع جهاد أعدائه حتى لا يعمّ الفساد في الأرض وأكّد أنّ محمدا ﷺ رسول من رسل رب العالمين، ذكر هنا أنه فضّل بعض هؤلاء الرسل على بعض فجعل بعضهم كَلِيمَه وهو موسى عليه السلام ورفع بعضهم درجات فوق درجات موسى وغيره وهو محمد ﷺ وجعل عيسى ابن مريم كَلِمَتَهُ ورُوحًا منه، وقد لاحظت في غير موضع من القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى يذكر داود عليه السلام في مقامِ مواساة رسوله محمد ﷺ وتسليته مما يلقاه من أذى اليهود أو المشركين ومقامِ التفضيل بين المرسلين ليُثبّتَ قَلْب رسوله محمد ﷺ ويشعره بأن نواصي العباد بيد الله عز وجل يصرّفها كيف يشاء فيهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عدلا، وأن ما يلقاه الإنسان من أذى في جهاد أعداء الله وعند دعوتهم إلى الله عز وجل ليس دليلا على منزلته عند الله إذ لا شك أن موسى عليه السلام أحد أولي العزم من المرسلين وهو أفضل من داود عليه السلام ومع ذلك قد مكّن الله لداود ما لم يمكّنه لموسى عليه السلام فقد لقي موسى عليه السلام

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من أذى قومه ما لقي فصبر، ومكّن لداود فجعله ملكا كريما وسلّطه على بني إسرائيل يحكم فيهم فيسمعون له ويطيعون، ليعلم الناس أن الأمر بيد الله، ولو شاء الله لآمن من في الأرض كلّهم جميعا ولم يختلفوا على أنبيائهم ورسلهم ولم يقتتلوا، كما قال عز وجل: ﴿ذٰلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولٰكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ فقد ذكر الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء وهي مكية في سياق ما يلقاه رسول الله ﷺ من أذى قومه وتعنّتهم بعد أن قال: ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا* أو خلقًا مما يكبر في صدوركم، فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرّة، فَسَيُنْغِضُونَ إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾ وبعد أن يقرّر أن بعث العباد سهل عليه ويحذرهم من اتباع الشيطان يقول عز وجل: ﴿وربّك أعلم بمن في السمٰوات والأرض، ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا﴾. كما ذكر عز وجل في سياق بيان ما يلقاه رسول الله ﷺ من أذى قريش في أقسى ما مرّ برسول الله ﷺ من أذاهم له في سورة ص وهي مكية حيث يقول عز وجل: ﴿وقالوا ربنا عَجِّل لنا قِطَّنَا قبل يوم الحساب* اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأَيدِ إنه أوّاب* إنا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق* والطيرَ محشورةً كلّ له أوّاب* وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ وفي هذا المقام من سورة البقرة يواسي رسول الله محمدا ﷺ مما يلقاه من تعنت اليهود وأذاهم ومكرهم وكيدهم فيقص عليه ما جرى بين اليهود ونبيٍّ لهم وطالوت وما كان من تعنتهم مع نبيهم ومع طالوت وكيف اختلفوا على طالوت، وعصوا أمره ثم يذكر داود عليه السلام وكيف مكّن الله له في الأرض ثم يذكر أن محمدا ﷺ رسول من المرسلين ثم يذكر التفضيل بين الرسل حيث يقول عز وجل: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ أي هؤلاء رسلي الذين قصصت عليك قصتهم في هذه السورة وهم موسى وإبراهيم

وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ويجوز أن يكون المراد بالرسل في قوله: ﴿تلك الرسل﴾ هم ما ذكرهم الله في قوله عز وجل: ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ فيشمل جميع رسل الله عز وجل المذكورين في هذه السورة وغيرها. وقد أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض وأن محمدًا رسول الله هو أفضل الأنبياء والمرسلين جميعا، ولا شك أن القرآن الكريم قد صرح بتفضيل بعض الأنبياء على بعض في هذا المقام الكريم من سورة البقرة وفي سورة الإسراء كما ذكرت آنفا، ولا معارضة بين هذا التصريح بتفضيل بعض الأنبياء على بعض وبين ما ورد من الأحاديث الكثيرة الصحيحة التي قد يفهم منها النهي عن تفضيل محمد ﷺ أو تفضيل بعض الأنبياء على بعض، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما يهودي يعرض سِلْعة له، أُعْطِيَ بها شيئا كَرِهه أو لم يَرْضَهُ قال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فلطم وجهه قال: تقول: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، ورسولُ الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إنّ لي ذمّة وعهدا، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: «لم لَطَمْتَ وجهه؟» قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال: «لا تفضّلوا بين أنبياء الله، فإنه يُنْفَخُ في الصور فيُصْعَق مَن في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله» قال: «ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أوّل من بُعِثَ فإذا موسى عليه السلام آخِذ بالعرش، فلا أدري أحُوسِبَ بصَعْقته يوم الطّور أو بُعِثَ قبلي؟ ولا أقول إنّ أحدًا أفضل من يونس بن مَتَّى» فهذا الحديث ونحوه محمول على أنه من باب تواضعه ﷺ إذ أنّ تواضع الرّفيع القدر لا يُنزل من قدره. ولا شك عند أهل العلم أن أولي

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

العزم من المرسلين أفضل ممن سواهم من الأنبياء والمرسلين، وأن أفضل أولي العزم محمد ﷺ ثم أبوه إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليهم وسلم أجمعين، غير أنه إذا كان المقام مقام تنازع بين أهل الأديان وسببا لإثارة الشرّ وإلحاق الضّرر بالمسلمين فإنه ينبغي الكفّ عن التفضيل على حد قوله تعالى: ﴿ولا تسُبّوا الذين يدعون من دون الله فيسُبّوا الله عَدْوًا بغير علم، كذلك زيّنا لكل أمة عملهم، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبّئهم بما كانوا يعملون﴾ فإن الأصنام والأوثان تستحق السّبّ لكن إذا كان سبّ الأصنام يثير عابديها على المسلمين فإنه يُنْهَى عن سبّها لذلك. وكذلك التّفضيل على وجه الفخر أو الحمية والعصبيّة، وعلى هذا يحمل ما ورد عن رسول الله ﷺ في منع التفضيل بين الأنبياء. وقوله في الحديث عن موسى عليه السلام: «فأكون أول من بعث فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطّور أو بعث قبلي». لا يدلّ على أنّ موسى أفضل من محمد ﷺ إذ القاعدة عند أهل العلم أنّ المزِيَّة لا تنافي الأفضلية، أي إن ثبت لأحد مَزِيَّة على أحد في جانب من جوانبه لا يدل على أن صاحب هذه المزية أَفضل من الآخر، ومثال ذلك أنّ رسول الله ﷺ رأى في منامه أن بلالاً رضي الله عنه يمشي بين يديه في الجنة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال حدّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دَفَّ نعليك بين يَدَيَّ في الجنة» قال: ما عملت عملا أرجى عندي أني لم أتطهر طُهُورا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطُّهور ما كُتِبَ لي أن أصلّي. وفي لفظ لمسلم«: فإني سمعت الليلة» وفي لفظ له بدل: دَفَّ نعليك: خَشْفَ نعليك. والدّف الحركة الخفيفة والخَشْف الحركة الخفيفة أيضا فالدّف والخشْف بمعنى واحد. وقد جاء في رواية الترمذي وابن خزيمة وأحمد من

الجديد و طهرك NEW & EXCLUSIVE

حديث بريـدة رضي الله عنه في حديث بلال رضي الله عنـه هذا أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال بِمَ سبقتني إلى الجنـة؟» ولا يخطر على بال مسلم أن بلالا أفضل من رسول الله ﷺ لهذه المزية. وقوله عز وجل: ﴿منهم من كلّم الله﴾ المقصود بالـذي كلمه الله عز وجل هو موسى عليه السـلام كما قال عز وجل عن ذلك: ﴿قـال ياموسى إني اصطفيتك على الناس بـرسالاتي وبكـلامي فخـذ ما آتيتك وكن من الشـاكرين﴾ وفي قـوله عـز وجل: ﴿منهم من كلّم اللهُ﴾ دليل قطعي على إثبـات صفـة الكلام لله عـز وجل وهـو مـذهب أهل السنة والجماعة فهم يجزمون ويعتقـدون أن الله عز وجل يتكلم متى شاء وأنّى شاء، وفيهـا ردّ وإفحام لأهل الأهواء المنكـرين إثبات صفة الكـلام لله، وما أجمل قول أبي عمرو بن العلاء عندما حاول بعض كبار أهل الأهواء أن يَرْشِيَه ليقرأ قوله عـز وجل: «منهـم مـن كلَّم اللهَ» بنصب لفظ الجلالـــة، فقال له أبو عمرو بن العلاء رحمه الله: هب أني قـرأت كما تريد فماذا تفعل في قوله عز وجل: ﴿فلما جـاء موسى لميقـاتنا وكلمـه ربُّه﴾؟ فبُهِتَ هـذا المنحرف، وهذا من فضل الله على أهل السنة والجماعة فإنك لا تجد مسألة يختلف معهم أهل الأهواء فيها إلا وجـدتَ مع أهل السنة دليلا قاطعـا من كتاب الله تعالى أو من صحيح وصريح السنة النبويـة، ولن تجد لأهل الأهواء فيها دليلا غير التخبّط والاضطراب واتبـاع الأهواء، فللـه الحمد والمنة. وقولـه عز وجل: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ يعني محمدا ﷺ الذي خصه الله عز وجل بمزايا لم يعطها أحدا سواه، فقـد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث جـابر بن عبـد الله رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خمسـا لم يُعْطَهُنّ أَحَدٌ قبلي، نُصِرْتُ بالـرّعب مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدا وطهـورًا فأيّما رجل من أمّتي أدركتـه الصلاة فليصلّ، وأُحِلّتْ لي الغنـائم ولم تَحِلّ لأحـد قبلي، وأُعْطِيتُ الشفـاعة، وكـان النبي يُبْعَثُ إلى قـومـه خاصـة

وبُعِثْتُ إلى الناس عامّة» . كما رفعه الله عز وجل ليلة المعراج إلى سدرة المنتهى ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي ومنحنا عيسى ابن مريم المعجزات الظاهرات الدّالة على أنه رسول الله ، إذ صار يبرئ الأكْمَه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وقوله عز وجل : ﴿وأيدناه بروح القُدُس﴾ أي وقويناه وأعنّاه بالروح المقدّسة أي المطهّرة والمراد جبريل عليه السلام والإضافة في روح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وقد مرّ في تفسير الآية السابعة والثمانين زيادة بيان لمعنى : ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ الآية . أي ولو أراد الله عز وجل إرادة كونية ألا يختلف الناس بعد مجيء الرسل إليهم بالمعجزات فيؤمن بعضهم ويكفر بعضهم وألا يفرض على المؤمنين قتال الكافرين لنفذت مشيئته وما اختلف الناس في أنبيائهم وما اقتتلوا ولكن قضى الله عز وجل اختلافهم واقتتالهم لحكمته البالغة فاختلفوا واقتتلوا ، إذ لو شاء الله عز وجل لهدى الناس جميعا ، ولكن الله الذي يفعل ما يريد اقتضت حكمته البالغة أن يوفق مَن عَلِمَ فيهم الخير بفضله وأن يخذل من علم فيهم الشر بعدله ، ولا يظلم ربك أحدا .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة، والكافرون هم الظالمون . ﴾

هذا مقام آخر من مقامات الحض على الإنفاق التي كرّر الله عز وجل الأمر فيها بالبذل والإنفاق في طرق الخير وأفعال البرّ ولا سيما ما كان في تأييد المجاهدين في سبيل الله . وهذا التأكيد لحمل النفس على السخاء بالمال بعد الحض على بذل النفس في سبيل الله، لأن بذل النفس هو أقصى غاية الجود كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إن ضنّ البخيل بها والجود بالنفس أسمى غاية الجود

ولما كان بعض الناس قد لا يقدر على الجهاد في سبيل الله وكانت معاونة الغازين بالمال تعتبر مشاركة في الغزو أكد الأمر بالإنفاق وأورده مقرونا بالجهاد في مواضع حيث قال عز وجل: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ بعد قوله عز وجل في سياقة الجهاد: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ الآيات، وكما قال عز وجل: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم * من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ وكما قال عز وجل هنا: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ بعد قوله عز وجل مباشرة: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولٰكنّ الله يفعل ما يريد﴾ فالله تبارك وتعالى يأمر المؤمنين بمكافحة الكافرين بالقتال بالأنفس وبإنفاق الأموال في معاونة المجاهدين . والأمر بالإنفاق هنا يشمل الزكاة الواجبة ويشمل التطوع بالصدقة . وقوله تبارك وتعالى: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة﴾ أي سارعوا بالإنفاق قبل أن تموتوا ويجيئكم يوم القيامة حيث لا تتمكنون فيه من عمل صالح إذ قد انتهت دار العمل وجاء

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

يوم الحساب والحصاد والجزاء فلا يستطيع أحد استدراك النفقة ببيع أو شراء، إذ لا بيع في هذا اليوم ولا شراء، كما لا يوجد لمن كفر بالله خليل يوم القيامة فإن الخلّة تنقطع عن جميع الكافرين كما قال عز وجل: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين﴾ والخلّة بضم الخاء هي خالص المودّة مأخوذة من تخلّل الأسرار بين الصديقين، والخلالة بكسر الخاء والخلالة بفتح الخاء والخلالة بضم الخاء هي الصداقة والمودة كما قال النابغة الجعدي رضي الله عنه:

وكيف تواصل من أصبحَتْ خِلالته كأبي مَرْحَب

وأبو مرحبٍ كناية عن الظل الذي لا دوام له ولا بقاء. أما الخلّة بفتح الخاء فهي الحاجة والفقر، وقوله عز وجل في سورة الزخرف: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ يفيد أن قوله عز وجل هنا: ﴿ولا خلّة﴾ عام أريد به الخصوص لأن آية الزخرف مكية وهذه الآية مدنية، ولا نسخ في الأخبار. كما أخبر تبارك وتعالى أنه لا يوجد يوم القيامة شفاعة لمن كفر بالله، وقوله تبارك وتعالى هنا: ﴿ولا شفاعة﴾ عام أريد به الخصوص كذلك، لثبوت الشفاعة لأهل الإيمان بكتاب الله تبارك وتعالى وبسنة رسوله ﷺ ففي القرآن الكريم إثبات الشفاعة في آية الكرسي التي تلي هذه الآية مباشرة وهي قوله عز وجل فيها: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ فأثبت الشفاعة بإذن الله، كما أثبتها في قوله تبارك وتعالى في سورة الأنبياء بقوله عز وجل: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ فأثبت الشفاعة لمن ارتضى، وقد ذكر شَرْطَي الشفاعة المثْبَتة للمؤمنين في قوله عز وجل في سورة النجم: ﴿وكم من ملك في السمٰوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ وقد تقدم الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

ﷺ في دعوة فرفع إليه الذراع فكانت تعجبه فنهس منها نَهْسَة وقال: «أنا سيد ولد آدم» الحديث، فقد أثبت فيه الشفاعة العظمى لرسول الله ﷺ، وقد سقته بتمامه مع تحقيق معنى الشفاعة في تفسير قوله عز وجل: ﴿واتقوا يوما لا تَجزي نفس عن نفس شيئا ولا يُقبَل منها شفاعة ولا يُؤخَذ منها عَدْل ولا هم ينصرون﴾ على أن في تذييل هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ إشعارا بأن هذا الشأن خاص بالكفار فإنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يعني تعالى ذكره بذلك: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا في سبيل الله مما رزقناكم من أموالكم، وتصدقوا منها، وآتوا منها الحقوق التي فرضناها عليكم، وكذلك كان ابن جريج يقول فيما بلغنا عنه، حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني حجاج عن ابن جريج قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ قال: من الزكاة والتطوع ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلّة ولا شفاعة﴾ يقول: ادّخروا لأنفسكم عند الله في دنياكم من أموالكم، بالنفقة منها في سبيل الله والصدقة على أهل المسكنة والحاجة، وإيتاء ما فرض الله عليكم فيها، وابتاعوا بها ما عنده مما أعدّه لأوليائه من الكرامة، بتقديم ذلك لأنفسكم ما دام لكم السبيل إلى ابتياعه بما ندبتكم إليه، وأمرتكم به من النفقة من أموالكم ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ يعني من قبل مجيء يوم لا بيع فيه، يقول: لا تقدرون فيه على ابتياع ما كنتم على ابتياعه بما أمرتكم به أو ندبتكم إليه في الدنيا قادرين، لأنه يوم جزاء وثواب وعقاب لا يوم عمل واكتساب وطاعة ومعصية، فيكون لكم إلى ابتياع منازل أهل الكرامة بالنفقة حينئذ أو بالعمل بطاعة الله سبيل، ثم أعلمهم تعالى ذكره أن ذلك اليوم مع ارتفاع العمل الذي يُنال به رِضَى الله أو الوصولُ إلى كرامته بالنفقة من الأموال إذ كان لا مال هنالك يمكن إدراك ذلك به، يومٌ لا مخالّة فيه نافعة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كما كانت في الدنيا، فإن خليل الرجل في الدنيا قد كان ينفعه فيها بالنصرة له على من حاوله بمكروه وأراده بسوء والمظاهرة له على ذلك، فآيسهم تعالى ذكره أيضا من ذلك، لأنه لا أحد يوم القيامة ينصر أحدا من الله، بل ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين﴾ كما قال الله تعالى ذكره وأخبرهم أيضا أنهم يومئذ مع فقدهم السبيل إلى ابتياع ما كان لهم إلى ابتياعه سبيل في الدنيا بالنفقة من أموالهم، والعمل بأبدانهم، وعدمهم النصراء من الخلّان والظّهراء من الإخوان، لا شافع لهم يشفع عند الله كما كان ذلك لهم في الدنيا، فقد كان بعضهم يشفع في الدنيا لبعض بالقرابة والجوار والخلة وغير ذلك من الأسباب، فبطل ذلك كلّه يومئذ، كما أخبر تعالى ذكره عن قِيلِ أعدائه من أهل الجحيم في الآخرة إذا صاروا فيها: ﴿فما لنا من شافعين* ولا صديق حميم﴾ وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عامّ والمراد به خاصّ، وإنما معناه: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ لأهل الكفر، لأن أهل ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ أصل الظلم هو تجاوز حدّ الاعتدال ووضع الأمور في غير مواضعها، والاعتداء سواء كان على نفس أو عرض أو مالٍ، وأعظم أنواع الظلم هو الشرك بالله، والكفر به، وجحود آياته، وتكذيب رسله، كما قال عز وجل: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وإنما يحدث الظلم بسبب ظلمة القلب، وليس كلّ ظلم كفرا، لما رواه البخاري في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قال أصحابه: وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله

ﷺ: «إنـه ليس بـذاك، ألا تسمـع إلى قـول لقمان لابنـه: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾» وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآيـة: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسـوا إيمانهم بظلم﴾ شقّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالـوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسـول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك، ألا تسمعـون إلى قول لقمان: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾» وهـذا يدل على أن قولـه تبارك وتعـالى: ﴿والكافـرون هم الظـالمون﴾ أي والجاحدون لله المكـذبون بـه وبرسلـه هم الموصـوفون بأنهم أظلم النـاس الواصلـون أقصى درجـات الظلم، على أن الظلم ظلمات يـوم القيـامـة فقـد روى البخـاري ومسلم من حـديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة» كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقـوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامـة، واتقوا الشح فإنّ الشحّ أهلك من كـان قبلكم، حملهم على أن سفكـوا دمـاءهم واستحلّـوا محارمهم». وقـد حذّر الإسـلام من عواقب الظلم بجميع أنـواعه وقـد أخبر رسول الله ﷺ أن الله يقول في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فـلا تظالموا». الحديث، كما وصف الله تبارك وتعالى الحال الفظيعة التي يؤول إليها الظالمون يوم القيامة حيث يقول: ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخـرهم ليوم تشخص فيه الأبصار* مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئـدتهم هواء* وأنذر الناس يـوم يأتيهم العذاب فيقـول الذين ظلمـوا ربنا أخـرنا إلى أجل قـريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال* وسكنتم في مسـاكن الـذين ظلمـوا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنـا بهم وضربنـا لكم الأمثال* وقـد مكروا مكـرهم وعند الله مكـرهم وإن كان مكـرهم لتـزول منه الجبال* فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾. وكما قال

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عز وجل: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ هذا وينبغي للمسلم أن يكثر من الاستغفار من ظلمه لنفسه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفرلي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

قال تعالى: ﴿الله لا إلّه إلا هو الحيّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السمٰوات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيّه السّمٰوات والأرض ولا يؤوده حفظهما، وهو العليّ العظيم﴾.

بعد أن بيّن الله عز وجل أنّ النّاس اختلفوا لمّا جاءتهم الرسل بالبينات، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وأمر المؤمنين بالبذل في مكافحة أعداء الله وأن الكافرين الظالمين المكذبين بالله وبرسله لن يشفع فيهم يوم القيامة شافع، ذكر هنا جملة من صفاته الكريمة وأسمائه الحسنى وبين أنه لا يجرؤ أحدٌ يوم القيامة على الشفاعة لأحد إلا بإذن الله، وقد بيّن قبل ذلك فيما أنزل على رسوله ﷺ بمكة في سورة طه وفي سورة الأنبياء وفي سورة النجم أنه لا شفاعة إلا لمن مات على الإيمان فرضي الله عنه، كما أوضحت ذلك في تفسير الآية السابقة. وهذه آية الكرسي وهي أعظم آية في كتاب الله، وقد جعل الله تبارك وتعالى فيها وضمّنها ما لم تتضمنه أية واحدة أخرى في كتاب الله عز وجل، وما تضمنته إنما تتضمنه آيات كثيرة لا آية واحدة، وقد جعل الله تبارك وتعالى فيها من الخصائص الشيء الكثير كما صحت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ، فقد قال البخاري في صحيحه: قال عثمان بن الهيثم حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني، فإني محتاج وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كَذَبَك وسيعود» فعرفتُ أنه سيعود لقول

شبكة الألوكة
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رسول الله ﷺ إنه سيعود، فَرَصَدْتُه، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعليّ عيالٌ، لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالا فرحمته فخلّيت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأَرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذه آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿الله لا إلَه إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: «ما هي؟» قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: «أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت: لا، قال: «ذاك شيطان» اهـ فقراءة آية الكرسي تطرد الشياطين، وتحفظ المسلم من شرهم وخبثهم وقد روى مسلم من حديث أُبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: ﴿الله لا إلَه إلا هو الحي القيوم﴾ قال: فضرب في صدري وقال: «والله لِيهْنِك العلمُ أبا المنذر». وقد اشتملت هذه الآية العظيمة على عشر جمل، الجملة الأولى هي قوله عز وجل: ﴿الله لا إلَه

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

إلا هو﴾ أي الله الذي لا يستحق العبادة إلا هو ولا تجوز العبادة لسواه، وقد اشتملت هذه الجملة على كلمة التوحيد التي هي مفتاح الإسلام ومفتاح الجنة، وقد تقدم مزيد بيان لمعناها في تفسير قوله عز وجل: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ والجملة الثانية من الجمل العشر التي اشتملت عليها هذه الآية العظيمة هي قوله عز وجل: ﴿الحي القيوم﴾ والحيّ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو الحي القيوم، والحيّ القيوم مذكوران معا في القرآن في ثلاث سور: أوّلها في هذا المقام من سورة البقرة والثاني في مطلع سورة آل عمران: ﴿الم* الله لا إله إلا هو الحي القيوم* نزّل عليك الكتاب بالحق﴾ والثالث في سورة طه: ﴿وعَنَت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما﴾ وهذان الاسمان من أعظم أسماء الله الحسنى حتى قيل إنهما الاسم الأعظم، فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال لله عز وجل أكمل تضمّن وأصدقه، فعلى هذين الاسمين الكريمين مدار الأسماء الحسنى كلّها وإليهما ترجع معانيها، لأن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، والقيوم متضمن كمال غناه وكمال قدرته، والله تبارك وتعالى موصوف بالحياة لا يموت أبدا ولذلك قال عز وجل: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ فحياته عز وجل حياة كاملة باقية لازمة لذاته لا تقبل الفناء أبدا، بخلاف حياة غيره فإنها حياة ممكنة قابلة للزوال والفناء، والقيوم هو القائم بنفسه فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته عز وجل له. والجملة الثالثة من جمل هذه الآية العظمى هي قوله تبارك وتعالى: ﴿لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم﴾ السِّنَة مقدِّمة النوم وهي حالة فتور وارتخاء تسبق الاستغراق في النوم، وقد يطلق عليها اسم النُّعاس، ونفي السنة والنوم مستلزم لكمال حياته وقيوميته. قال ابن جرير رحمه الله: ﴿الله لا إله إلا هو الحي﴾ الذي لا يموت ﴿القيوم﴾ على كل ما هو دونه بالرزق والكلاءة والتدبير والتصريف

من حال إلى حال ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ لا يغيّره ما يغير غيره ولا يُزيله عما لم يَـزَلْ عليه تنقّل الأحوال وتصريف الليالي والأيام، بل هو الدائم على حال، والقيّوم على جميع الأنام، لو نام كان مغلوبا مقهورا لأن النوم غالب النائم قاهره، ولو وَسَنَ لكانت السموات والأرض وما فيهما دكًّا، لأن قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته، والنوم شاغل المدبّر عن التدبير، والنّعاس مانعٌ المقدّر عن التقدير بوَسَنِه اهـ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله عز وجلّ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرْفَع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». اهـ وسبحات وجهه أي نوره وجلاله وبهاؤه. أما الجملة الرابعة من جمل هذه الآية الكريمة فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿له ما في السموٰات وما في الأرض﴾ أي إنّ جميع الكائنات في السموات وفي الأرض ملك لله وتحت قهره وسلطانه، فهو خالقها ومدبّرها والمهيمن عليها، والإنس والجن والملائكة جميعا عبيد له، وكما قال عز وجل: ﴿إنْ كُلُّ من في السموٰات والأرض إلا آتي الرحمن عَبْدًا* لقد أحصاهم وعَدَّهم عَدًّا* وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ وإذا كان الله عز وجل هو مالك جميع ذلك بغير شريك ولا ند وهو وحده خالق كل شيء، فلا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. والجملة الخامسة من جمل هذه الآية الكريمة هي قوله تبارك وتعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ أي من هذا الذي يجرؤ على أن يشفع لأحد من غير إذن الله له بالشفاعة؟ والمراد بالاستفهام هنا النفي، أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه بسبب عظمة الله وكبريائه وجلاله فلا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد إلا أن يأذن الله له في الشفاعة، ولذلك عندما يطلب الناس من الأنبياء

ليشفعوا لهم عند الله في الموقف العظيم فيتأخر عنها الأنبياء ويحيلهم آدم على نوح ثم يحيلهم نوح على إبراهيم ثم يحيلهم إبراهيم على موسى ثم يحيلهم موسى على عيسى ثم يحيلهم عيسى على سيد المرسلين محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين فيأتي رسول الله ﷺ تحت العرش ليستأذن في الشفاعة ويخر لله ساجدا ضارعا إليه في الإذن له بالشفاعة ويُلْهَمُ تحميدات وتقديسات لله عز وجل ما أُلْهِمَها من قبلُ فينادى: يا محمد ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تُشفع. أما الجملة السادسة من جمل هذه الآية العظيمة فهي قوله عز وجل: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي إنّ علمه محيط بجميع خلقه وسائر الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها لا يتحرّك متحرك منها ولا يسكن ساكن إلا بعلمه كما قال عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ والجملة السابعة من جمل هذه الآية العظمى هي قوله عز وجل: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ أي ولا يطّلع أحد من خلق الله مِن مَلَك مقرب أو نبي مرسل أو غيرهما على شيء من علم الله إلا بما أراد الله تبارك وتعالى اطّلاعه على ذلك وأطلعه عليه كما أنه لا يعلم أحد شيئا عن ذاته المقدسة وأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى إلا بما يُعَلِّمه الله من ذلك، ولذلك يقول عز وجل: ﴿ ولا يحيطون به علما﴾ وكما قال عز وجل: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا* إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَدًا* ليعلم أنْ قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عَدَدًا﴾ ولذلك أخبر عز وجل عن ملائكته قولهم: ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ وإذا كان العلم لله وحده، وغيره لا يعلم شيئا من العلم إلا ما يعلّمه الله فكيف يُعْبَدُ غيرُ الله؟ والجملة الثامنة من جمل هذه

الآية العظمى هي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّه السمٰوات والأرض﴾ هذه الجملة هي التي سميت الآية كلّها باسم كلمة منها فقيل لها آية الكرسي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقد سئل: هل العرش والكرسيّ موجودان أو أن ذلك مجاز؟ فأجاب: الحمد لله، بل العرش موجود بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، وكذلك الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع جمهور السلف، وقد نقل عن بعضهم أن كرسيّه علمه وهو قول ضعيف فإن علم الله وسع كلّ شيء كما قال: ﴿ربّنا وَسِعْتَ كُلَّ شيء رحمة وعلما﴾ والله يعلم نفسه ويعلم ما كان وما لم يكن، فلو قيل: وسع علمه السموات والأرض لم يكن هذا المعنى مناسبا، ولا سيما وقد قال تعالى: ﴿ولا يَؤُودُه حِفْظُهما﴾ أي لا يُثْقِلُه ولا يَكْرِثُه وهذا يناسب القدرة لا العلم، والآثار المأثورة تقتضي ذلك اهـ. أما الجملة التاسعة فهي قوله عز وجل: ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ أي لا يُتْعِبُه حفظُ السموات والأرض وهذا النفي مستلزم لكمال قدرته، يقال: آدَه الأمر، إذا بلغ منه المجهود وأتعبه، وقد نفى الله عز وجل عن نفسه المقدسة أن يصيبه تعب من حفظ السموات والأرض كما أنه لم يصبه تعب في خلق السموات والأرض كما قال عز وجل: ﴿ولقد خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مَسَّنَا من لُغُوب﴾ وفيها ردّ على اليهود قبحهم الله الذين يزعمون في أول صفحة من التوراة التي حرّفوها بأيديهم أن الله تعب لما خلق السموات والأرض واستراح يوم السبت. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرا. أما الجملة العاشرة من هذه الآية العظمى فهي قوله عز وجل: ﴿وهو العلي العظيم﴾ أي وهو عز وجل الكبير المتعال القاهر فوق عباده.

قـال تعالى: ﴿لا إكـراه في الـدين قـد تبين الرّشـد من الغيّ، فمن يكفـر بالطّـاغوت ويـؤمن بالله فقد استمسك بـالعروة الـوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليمٌ﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى اختلاف الناس بعد مجيء الحق وأن منهم من آمن ومنهم من كفر، وقد حضّ على مكـافحة الكفر، حتى لا يعم الفساد في الأرض، وذكـر آيـة الكـرسيّ المشتملة على أصـول أسمائه الحسنى وصفـاتـه العلى، الدالة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده، قال هنا: ﴿لا إكراه في الـدين قد تبيّن الـرّشد من الغيّ﴾ ولا نـزاع عند أهل العلم أنّ من ارتـد عن الإسلام بعد الدخول فيه وأبى أن يرجع إلى الإسلام بعد أن يُبَيَّـنَ له بطلان ما قـد يكون عنـده من شبـه أنـه يجب قتله، لما رواه البخـاري في صحيحـه من طريق عكرمـة قال: أُتِيَ علي رضي الله عنه بزنادقـة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ: «لا تعذّبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم لقول رسـول الله ﷺ: «من بدّل دينـه فاقتلوه» اهـ وقد أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على قتال المرتدين ومانعي الزكاة وعلى رأس أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ شيخ الأمة الإسلامية وأفضلها بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ومعـه عمر الفاروق رضي الله عن أصحـاب رسول الله ﷺ أجمعين، وقال أبـو بكر رضي الله عنـه: والله لو منعـوني عَنَاقـا كانـوا يؤدونـه على عهد رسـول الله ﷺ لقاتلتهم عليـه، فقـد روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه قال: لما تُـوُفِّي نبيّ الله ﷺ واستُخْلِفَ أبو بكـر وكفر من كفر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر، كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أن أقاتـل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمـن قال: لا إله إلا الله عصم منّي مالـه ونفسه إلا بحقه، وحسـابُه على الله»؟ قال أبـو بكر:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَنَاقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى دعوة أبي بكر لقتال المرتدين في محكم كتابه حيث يقول عز وجل: ﴿قل للمُخَلَّفين من الأعراب سَتُدْعَوْن إلى قوم أُولي بأس شديد تقاتلونهم أو يُسْلِمُون فإن تطيعوا يؤتكم اللهُ أجرا حسنا وإن تَتَولَّوْا كما تولَّيْتُم من قبلُ يُعذِّبْكم عذابا أليما﴾ وفي هذه الآية الكريمة شهادة من الله سجلها في كتابه الكريم بصحة إمامة أبي بكر وخلافته رضي الله عنه لأن هذه الآية نزلت في معاتبة المخَلَّفين عن غزوة تبوك ولم يقاتل رسول الله ﷺ بعد غزوة تبوك أحدا، ولم يدع رسول الله ﷺ إلى قوم ليس لهم إلا الإسلام أو السيف بعد نزول هذه الآية قطعا، فكانت هذه الآية شاهد صدق على صحة خلافة الصديق وشرعية دعوته لقتال المرتدين ومانعي الزكاة، وقد صار هذا الحكم معلوما من دين الإسلام بالضرورة، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أقبلت إلى النبي ﷺ، ومعي رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني، والآخر عن يساري، ورسول الله ﷺ يَسْتَاكُ، فكلاهما سأل، فقال: «يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس!» قال: قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شَعَرْتُ أنهما يطلبان العمل، فكأني أنظر إلى سِواكه تحت شَفَتِهِ قَلَصَتْ، فقال: «لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس إلى اليمن» ثم أتبعه معاذَ بنَ جبل، فلما قدم عليه ألقى له وسادة قال: انزل، وإذا رجل عنده مُوثق، قال: ما هذا؟ قال: كان يهوديا فأسلم ثم تهوّد، قال: اجلس، قال: لا أجلس حتى يُقْتَل، قضاءُ الله ورسوله، ثلاث مرات، فأمر به فقُتِلَ، ثم تذاكرنا قيام

الليل، فقال أحدهما: أمّا أنا فأقوم وأنام، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي. اهـ ولا يستطيع أحد أن ينكر مثل هذا الحكم في شريعة الإسلام لحفظ الدين وحماية الشريعة من التلاعب بها، وحفظ الدين من الكليات الخمس التي اتفق عليها جميع النبيين والمرسلين، على أن جميع الأنظمة الأرضية كالشيوعية ونحوها من المذاهب الباطلة لا يُسْمَح لأحد ممن يُبْتَلَى بالوقوع تحت سيطرة المتسلطين بها أن يَلْمِزَها أو أن يطعن عليها فضلا عن إعلان كفره بها، وهذا لا جدال فيه، وقد أجمع المسلمون على أنّ من أدّى الجزية عن يد وهو صاغر من أهل الكتاب وكذلك المجوس فإنه يُقَرُّ على دينه من اليهودية أو النصرانية أو المجوسية ولا يُكْرَه على الدخول في دين الإسلام، وفي ذلك يقول الله عز وجل في أهل الكتاب: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمون ما حَرَّم الله ورسوله ولا يَدِينون دينَ الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجِزْيَة عن يَدٍ وهم صاغرون﴾ وقد ألحق أصحاب رسول الله ﷺ المجوسَ بأهل الكتاب لأنّ لهم شبهة كتاب، وقد أُثِرَ عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في المجوس: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم». وإن كان هذا الأثر فيه بحث عند أهل العلم إلا أنّ الإجماع منعقد على العمل بحكمه، والإجماع حجة مستقلة لإثبات الأحكام، وما دامت هذه القواعد والأصول التي ذكرتُ قد أجمع عليها المسلمون كان قوله عز وجل: ﴿لا إكراه في الدين﴾ عامًّا أريد به الخصوص وهم أهل الكتاب ومن في حكمهم لأنهم لا يكرهون على دين الإسلام إن أدّوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وما أُثِرَ من سبب نزول هذه الآية الكريمة يؤيد ذلك حيث كان أهل يثرب من الوثنيين يعتقدون أن دين اليهود من أهل الكتاب خير من دينهم وكانت المرأة إذا كانت مقلاتا أي لا يعيش لها ولد أو لا يعيش لها إلا

ولـد واحد نـذرت إن جاءت بـولد أن تهوّده ليعيش على اعتقـادها فلما جـاء الإسلام وأيقنـوا أنه الـدين الحق الذي قد نسخ الله بـه الأديان كلّهـا أراد آباء الأولاد الـذين تهوّدوا أو تنصروا من العرب أن يقهـروهم على الدخـول في دين الإسلام وتـرك اليهودية أو النصرانيـة فنزلت هـذه الآية، قال ابن جـرير رحمه الله: حدثنا محمد بن بشّار قـال: حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عـن ابن عباس قال: كـانت المرأة تكون مِقْـلاتًا فتجعل على نفسهـا إن عاش لها ولـد أن تهوّده فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير كـان فيهم من أبناء الأنصـار، فقالوا: لا ندع أبنـاءنا، فأنزل الله تعالى ذكـره: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ﴾ اهـ قال في القاموس المحيط: والمِقْلاتُ ناقة تضع واحدا ثم لا تحمل وامرأة لا يعيش لها ولد، اهـ وقد حاول بعض الناس أن يجعلها دليلا على حرية الدين وأنّ للإنسان أن يدخل أي دين شاء ويخرج منه متى شاء، وقد ربطوا ذلك بقوله عز وجل: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ وبقوله عز وجل: ﴿أفأنت تُكْرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ وهذا فهم عـاطل باطل فـاسد كـاسد، ينـاقـض القواعد المقـررة المعلومـة من دين الإسـلام بـالضرورة، وقـد جهل هؤلاء أن الأمـر في اللسـان العـربي قـد يأتي للإباحة وللاستحباب وللإيجاب كما يأتي للتهـديد كقوله عز وجل: ﴿اعملوا مـا شئتم﴾ وللتعجيـز والإهانـة كقـولـه عـز وجل: ﴿قل كونـوا حجـارة أو حـديدا * أو خلقـا مما يكبر في صـدوركم﴾ وقد يكـون للصيرورة وللتسخير كقولـه عز وجـل: ﴿كونوا قـردة خاسئين﴾ ومعنى: ﴿قـد تبين الرشـد من الغيّ﴾ أي قـد اتضح الهدى من الضلال. وقـولـه عز وجل: ﴿فمن يكفـر بالطـاغوت ويـؤمن بالله فقد استمسك بـالعروة الـوثقى لا انفصام لها﴾ أي فمن خلع الأنداد والأوثـان وما يدعـو إليه شيـاطين الإنس والجن من عبادة غير الله فقـد ثبت في أمره واستقام على الصراط المستقيم الذي يـوصلـه إلى

جنات النعيم، وقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وأصل العروة ما يجعل في الدّلو أو في الكوز من المقبض ليستمسك به من يتناوله. ومن عادة صانعها أن يحكمها حتى لا تنقطع. وقوله: ﴿لا انفصام لها﴾ أي لا انقطاع لها فلن يسقط المستمسك بها ولن يهلك، وقد روى البخاري ومسلم من طريق قيس ابن عُبَاد قال: كنت جالسا في مسجد المدينة فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة، فصلّى ركعتين تجوّز فيهما ثم خرج وتبعته فقلت: إنك حين دخلت المسجد قالوا: هذا رجل من أهل الجنة. قال: والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدّثك لم ذاك؟ رأيت رؤيا على عهد النبي ﷺ فقصصتها عليه، ورأيت كأني في رَوْضة ذَكَر من سَعَتها وخضرتها، وَسْطها عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عُرْوة فقيل لي: ارْقَهْ، قلت: لا أستطيع، فأتاني مَنْصَفٌ فرفع ثيابي من خلفي فَرَقِيتُ حتى كنتُ في أعلاها، فأخذت بالعروة، فقيل له: استمسِكْ. فاستيقظت وإنها لفي يدي، فقصصتها على النبي ﷺ فقال: «تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العُرْوة عُرْوة الوُثْقَى فأنت على الإسلام حتى تموت». وذلك الرجل عبد الله بن سَلاَم. اهـ والمَنْصَف والمِنْصَف والوَصِيف هو الخادم. وقوله عز وجل: ﴿والله سميع عليم﴾ إشعار بأن ما يتلفظ به الإنسان أو ينطوي عليه من مُعْتَقَدٍ لا يَخْفَى على الله لأنه سميع عليم.

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النور والّذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات، أولّئك أصحاب النّار هم فيها خالدون* ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل أن الكافر بالطاغوت المؤمن بالله قد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، ذكر هنا أثر الإيمان بالله على النفس الإنسانية وما يجلبه لها من نور البصيرة وطمأنينة النفس ومعرفة طريق الرشاد، واتضاح الرؤية عند وقوع المدلهمّات وأن الانقياد للطاغوت من شياطين الجن والإنس يوقع في الحيرة والشك والارتياب وانطماس معالم الحقّ، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ أي الله متولّي أمور الذين آمنوا به واستجابوا لرسله وناصرهم، ومؤيدهم وموفّقهم للهدى، ويدفع عنهم الرّدى، ويُحِبُّهُم ويستعملهم في مرضاته، والولي اسم من أسماء الله الحسنى كما قال عز وجل: ﴿وهو الولي الحميد﴾ وكما قال: ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الوليّ وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ والوليّ: المحبّ والنصير والظهير والمعين والقيّم، وضدّ العدوّ، ومن كان الله وليّه كان وليّا لله يدفع الله عنه ما يكره، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا، ومن أعظم آثار ولاية الله لعبده أيضا تيسير سبيل الرشاد له، وتوفيقه لطاعته، فيحافظ على حدود الله ويسعى في كل ما يقربه إلى الله عز وجل وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

لي وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني أعطيته ، ولئن استعاذني لأعيذنّه»اهـ وبهذه المنزلة يعيش المؤمن في كنف الله ورعايته وتأييده وتسديده وتوفيقه ، وتتنزّل عليه الملائكة عند الموت بما يطمئن خاطره ويثلج صدره ، فلا خوف عليه ولا حزن كما قال عز وجل : ﴿ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون* لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ وقد عرفهم الله عز وجل بقوله : ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فكلّ المؤمنين المتقين أولياء لله والله وليّهم ، وقد استحوذ الشيطان على بعض الناس من المنتسبين للإسلام ، فأوقعهم في حبائله وشباكه ، وأغراهم باتخاذ بعض المنتسبين للصلاح وسائط وشفعاء ، وسماهم لهم أولياء ، فاستجاروا بهم ، وسألوهم حوائجهم ، فأوقعهم فيما وقع فيه المشركون في الجاهلية الأولى وأعادوا معنى سُوَاع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْرٍ وَوَدٍّ ، وصاروا لا يعرفون في الشدائد غير أوليائهم ولا يستغيثون إلا بهم وقالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . وقالوا : هم يقربوننا إلى الله زلفى ، فحكم الله عليهم بالكفر والكذب على الله حيث يقول عز وجل فيهم : ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إنّ الله لا يهدي من هو كاذب كفّار﴾ وقد صار هؤلاء الجاهلون يطوفون حول أضرحة أوليائهم كما يطوف المسلمون بالكعبة مع أن الله عز وجل لم يشرع الطواف حول أي مكان في الدنيا سوى الكعبة المشرفة ، وصاروا يذبحون لأضرحتهم القرابين وينذرون لهم النذور ، ويخافونهم في السر والعلانية ، وينسبون إليهم النفع والضر وقضاء الحاجات

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتفريج الكربات، وقد ادعى هؤلاء الجاهلون لهؤلاء الموتى صفات لا تثبت إلا لله عز وجل فحسبوا أنهم يسمعون أصواتهم وأنهم يكشفون الضرّ عنهم، ويستوي في ذلك من يناديهم من بعيد أو من قريب، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ قد أجمع المفسرون على أن المراد ههنا من الظلمات والنور هو الكفر والإيمان، وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿أَوَمَن كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمَن مثَلُه في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾ وقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلا لنور الإسلام الذي يهتدي به المؤمنون، ومثلا لظلمات الكفر التي صار بها الكفار يعمهون حيث يقول في مَثَل أنوار الإسلام الصافية النقية الخالية من الشوائب والشبهات: ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزّجاجة كأنها كوكب درّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ وقال عز وجل في مَثَل الظلمات التي يعيش فيها الكفار وما هم عليه من الضياع: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بِقِيعةٍ يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه، والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لُجّيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور﴾ ومعنى إخراج الله الذين آمنوا من الظلمات إلى النور هو أنهم إذا حاول الشيطان إيقاعهم في الشبهات والضلالات بصّرهم الله عز وجل وأنار لهم الطريق كما قال عز وجل: ﴿إنّ الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ كما أشار الله عز وجل إلى أن ولايته لعبده تثمر نصره وتأييده حيث

الجديد و طهري NEW & EXCLUSIVE

يقول تبارك وتعالى: ﴿إنّ وليّيَ الله الذي نـزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين* والذين تـدعون من دونـه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ وقـولـه تبارك وتعـالى: ﴿والذين كفـروا أولياؤهم الطـاغوت يخرجـونهم من النور إلى الظلمات﴾ أي ومن اتخذ غير الله وليًّـا تشعبت بـه الطّرق وتلقفتـه الأهـواء فأخرجته عن فطرة الله التي فطر عليهـا الناس، وألقت به في مَهَامِهِ الضلال وقد أشـار الله تبارك وتعـالى بقوله: ﴿أوليـاؤهم الطاغـوت﴾ إلى تَشَتُّتِ أمور الكافرين، وتباين وتشعّب طرقهم، وأن شياطينهم يدعونهم إلى سبل معوجّة تبعـدهم عن الصراط المستقيم كما قـال عـز وجل: ﴿وأن هـٰذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السّبل فتفرق بكـم عن سبيله﴾ وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه وصّى كل نبي ورسول من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام أن يأمـروا قومهم بعبـادة الله وحده والكفر بـالطاغـوت حيث يقول عـز وجل: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ والطاغوت اسم يطلق على المذكـر والمؤنث والواحـد والجمع، ومن استعمالـه في الواحـد قول الله تبـارك وتعالى: ﴿يـريدون أن يتحـاكموا إلى الطـاغوت وقـد أُمِرُوا أن يكفروا به﴾ ومن استعمالـه في الجمع قول الله تبارك وتعالى هنـا في هذا المقام: ﴿أوليـاؤهـم الطـاغـوت﴾ والطـاغـوت: الشيطـان والكـاهن وكلّ رأس في الضلال، وكلّ ما عُبِدَ من دون الله وهـو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادته، والحكم بغير مـا أنـزل الله حكم بـالطـاغـوت، وقـولـه عـز وجل: ﴿أولَئك أصحاب النـار هم فيها خالدون﴾ أي هـؤلاء الذين اتخذوا الطاغـوت أولياء فأخرجـوهم من فطرة الإسلام التي فطـر الله عليها الناس، واجتالـوهم عنها وأوقعـوهم في ظلمات الكفر وديـاجير الجهالـة هم أصحـاب النار الملازمـون لجهنم يوم القيامة المخلّدون في عذابها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم رَبِّـيَ الذي يحيي ويميت

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة ما يفيد تأييده لأوليائه وأن أولياء الطاغوت مقهورون مدحورون في ظلمات الكفر والجهل ذكر هنا صورة مشرقة من صور نصره لأوليائه وإذلاله لأولياء الطاغوت مهما كانت منزلتهم في أعين الناس حيث قص تبارك وتعالى قصة ملك الكلدانيين الذين بعث الله فيهم إبراهيم عليه السلام، فلما دعاه إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله الذي يحيي ويميت حاجّ إبراهيم في ربه وحاول إطفاء نور الله بفمه، فقال: أنا أحيي وأميت فأقتل من أشاء وأترك من أشاء ممن يستحقّ القتل، فأجابه إبراهيم عليه السلام مبطلا تمويهه وتضليله مظهرا قصور ما استدل به وبطلانه؛ لأن هذا ليس إحياء حقيقيا ولا إماتة حقيقية وقال له: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر. ومعنى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ أي هل رأيت مثل هذا الذي خاصم إبراهيم في ربه؟ والمقصود التعجيب من فعل ولي الشيطان هذا الذي بدّل نعمة الله كفرا فبدل أن يشكر الله على ما آتاه من الملك كفر به وادعى لنفسه الإلهية وصار طاغوتا من الطواغيت، وقوله عز وجل: ﴿فَبُهِتَ الذي كفر﴾ أي انقطع عن الجدال وبطلت حجته، وعلم أنه لا طاقة له بمخاصمة إبراهيم وفوجئ بما لم يكن له في الحسبان من الحجة الدامغة التي أفحمه بها خليل الرحمن، وهكذا يُنْصَر أولياء الله ويُهْزَم أولياء الشيطان. ولذلك يقول عز وجل: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ المقصود من الهداية هنا هي هداية التوفيق والإعانة والتسديد والتأييد، يحرم الله الكفار منها عدلا، ويمنحها لأوليائه فضلا. أما هداية

البيان فإنها مبذولة لجميع المكلفين على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي بينا لهم طريق الخير وطريق الشر فاختاروا الكفر على الإيمان. وأما ما ذكره بعض المفسرين من أن المناظرة هذه قد جرت بين إبراهيم وهذا الملك عندما قدم إبراهيم لطلب الطعام منه، وأن الملك رفض بعد المناظرة إعطاء إبراهيم طعاما، فاشتد حزن إبراهيم عندما اقترب من منزل أهله كيف يدخل على سارة وإسحاق بدون طعام فملأ جُوَالِقَيْه ترابا ليؤنس أهله عند دخوله عليهم فلما نام انقلب التراب دقيقًا أبيض خالصًا. فصنعت سارة منه طعاما، فلما استيقظ إبراهيم وجد الطعام فقال لسارة: من أين لك هذا؟ قالت: من جُوالِقِك، أي من غِرَارتك، فذهب إلى الجوالق الآخر فإذا هو مثله إلخ فهذا كذب ظاهر وخبر مختلق، وإسحاق لم يولد إلا بالشام.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى: ﴿أو كالذى مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيى هٰذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت قال: لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما، فلما تبيّن له قال: أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير﴾

بعد أن عجّب الله عز وجل نبيّه محمدا ﷺ من الذي حاج إبراهيم في ربه وكان ملكًا ومع ذلك نصر الله إبراهيم عليه السلام عليه، عجّب هنا نبيّه محمدًا ﷺ من الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها فقال: أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها لينبه عباده بذلك على أنّ قدرته تامّة وأنه لا يعجزه شيء وأنّ إحياء الموتى سهل يسير عليه تبارك وتعالى. كأنه قيل: هل رأيت مثل الذي خاصم وجادل إبراهيم في ربه؟ أو هل رأيت مثل الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ ولم يثبت عن رسول الله ﷺ خبر صحيح يثبت اسم الذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها هذه، قال ابن جرير رحمه الله: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنّ الله تعالى ذِكرُهُ عجّب نبيه ﷺ ممّن قال: ـ إذ رأى قرية خاوية على عروشها ـ أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها حتى قال: أنّى يحييها الله بعد موتها؟ ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصحّ من قِبَلِه البيانُ على اسم قائل ذلك، وجائز أن يكون ذلك عُـزَيْرًا، وجائز أن يكون أُورْمِيَا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت ــ من قريش ومن كان

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

يكـذّب بذلك من سـائر العرب ــــ وتثبيت الحجّـة بذلك على من كـان بين ظهراني مُهَاجَر رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيـل ، بإطلاعه نبيّه محمدا ﷺ على مـا يزيل شكّهم في نبـوّته ، ويقطع عـذرهم في رسالتـه ، إذ كانت هـذه الأنبـاء التي أوحاهـا إلى نبيـه محمـد ﷺ في كتابـه ، من الأنبـاء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومـه ، ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب . ولم يكن محمد ﷺ وقومه منهم ، بل كان أميّا ، وقومه أميّون ، فكان معلوما بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره أن محمدا ﷺ لم يعلم ذلك إلا بوحي مـن الله إليه ، ولو كـان المقصود بذلـك الخبر عن اسم قائل ذلك لكانت الـدَّلالة منصوبـة عليه نصبا يقطع العـذر ويزيل الشّك ولكنّ القصد كـان إلى ذمّ قِيلِه فأبان تعـالى ذكره ذلك لخلقه اهــ كما أنه لم يثبت عن رسول الله ﷺ ما يبيّن اسم القـرية التي مرّ عليها قائل هذه المقـالة ، فتعيينها قول على الله بلا علم ، إذ لـو كان في تعيينها مصلحة لعيّنهـا الله عز وجـل ، ومـا دام القـرآن العظيم قـد نكّرهـا ، ولم يعيّنهـا رسـول الله ﷺ فمن أين لنـا تعريفهـا؟ وقوله عـز وجل : ﴿وهي خاويـة على عروشها﴾ أي وهي سـاقطة على سُقُفِها خـالية من أهلهـا يعني أنها سقطت سُقُفها ثم سقطـت جدرانها فوق سقوفها ، يقال : خوت الدار أي خلت من أهلها أو سقطت ، والعروش جمع عـرش وهو سقف البيت وكـلّ ما هُيِّئَ ليُسْتظَلّ بـه ، وقـوله عـز وجل : ﴿قال أنّى يحيي هـٰذه الله بعد موتها﴾؟ ظـاهر هذا السياق الكـريم يُشْعِرُ أنّ قائل هذه المقالة كان مؤمنًا بـالله مقرا به عز وجل فيكون الاستفهام عن كيفية إحيائهـا بعد موتها ، ولا يكون بـذلك شاكا في قدرة الله عـز وجل على إحياء الموتى وإنما هو شبيه بقـول إبراهيم عليه السلام الذي ذكـره الله عز وجل عنه في الآية التي بعـدها مباشرة حيث قـال : ﴿ربّ أرني كيف تحيي الموتى﴾ وهو شبيه بقول زكريا عليه السلام الـذي ذكر الله عز وجل عنه عندما بشّر بيحيى

شبكة الألوكة
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عليه السلام: ﴿قال ربّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذَٰلِكَ الله يفعل ما يشاء﴾ وهو شبيه أيضا بقول العذراء البتول مريم الذي ذكره الله عز وجل عنها بقوله تبارك وتعالى: ﴿قالت ربّ أنّى يكون لي ولد ولم يمْسسني بشر قال كذالك الله يخلق ما يشاء﴾ غير أن هذا القائل لم يطلب أن يرى بعينه كيفية إحياء الموتى وإنما يستفهم عن كيفية إحيائهم، وكان الجواب من الله عز وجل أن أراه الله عز وجل ذلك في نفسه وفي حماره الذي أماته الله عز وجل معه، ومما يؤكد أنه كان مؤمنا قوله عز وجل عنه في نهاية هذه الآية: ﴿قال أعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ هذا هو المقام الرابع من مقامات إحياء الله الموتى فعلا، ليكون دليلا قطعيا على قدرة الله على إحياء الموتى عقلا، لأن من المسلّمات العقلية أنّ كلّ ما وقع فعلا كان دليلا على أنه ممكن عقلا، وقوله عز وجل: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ أي فتوفاه الله عز وجل وقبض روحه فاستمرّ ميتا مائة سنة ثم ردّ إليه روحه، وقوله عز وجل: ﴿قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوما أو بعض يوم﴾ لا يلزم من هذا السياق الكريم أن يكون قد كلمه الله بنفسه بعد أن بعث فيه الحياة بغير واسطة إذ لا مانع في مثل هذا التعبير أن يكون القائل له هذا القول هو أحد ملائكة الله، ولا يلزم أيضا أن يكون هذا الرجل نبيا أو رسولا إذ أن الله تبارك وتعالى قد يبعث ملكا لغير النبي أو الرسول كما في قصة الرجل الذي زار أخا له في الله فأرصد الله له ملكا على مدرجته وبشره بأن الله تبارك وتعالى قد أحبه لأنه أحبّ في الله، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مَدْرَجَته مَلَكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإني

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه . وقد ذكر بعض المفسرين أن سبب قوله : ﴿يوما أو بعض يوم﴾ هو أنه لما سأله : كم لبثت؟ نظر إلى الشمس فوجدها نحو الموضع الذي رآها فيه عند موته فقال : لبثت يوماً ، ثم بعد تمعّن قليل تذكر أنها لم تكن قد وصلت إلى هذا الموضع من السماء فقال : أو بعض يوم ، ولا إشكال في مثل ذلك عند أهل العلم ، وكما قال عز وجل في قصة أصحاب الكهف : ﴿قال قائل منهم كم لبثتم؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ مع أنهم لبثوا أكثر من ثلثمائة عام . وقوله : ﴿كم لبثت﴾ أي ما مقدار المدة التي مكثت هنا؟ ، وقوله عز وجل : ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ أي بل مكثت ميّتا مائة سنة ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه﴾ أي فانظر بعينيك إلى ما كنت تحمله معك من طعام وشراب فإنه على حاله لم تغيّره السنوات المائة التي مرّت عليه بل حفظه الله من أن يتسرب إليه الفساد أو يتغير بطول هذه المدة التي مرّت عليه ، وقوله عز وجل : ﴿وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها ثم نكسوها لحما﴾ أي وأمعن نظرك إلى حمارك لتتأكد أنه ميّت ولترى بعينيك كيف يحييه الله عز وجل ، وقوله عز وجل : ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ معطوف على مقدر يقتضيه السياق كأنه قيل : فعلنا ما فعلنا لتنظر بعينيك كيفية إحياء الله الموتى وليعتبر من يعلم بقصتك من الناس أن الله عز وجل أحياك بعدما أماتك مائة عام ، حيث إن هذا آية من آيات الله الشاهدة الناطقة بأنه لا يعجزه شيء وهو على جمع عباده بعد موتهم إذا يشاء قدير ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما﴾ أي وبعد أن تنظر إلى حمارك ميّتا كرّر النظر إليه لتشاهد عظام حمارك كيف نحييها فتتحرك وترتفع في أماكنها ثم نغطّيها باللحم ليعود حمارك حيّا كما كان أول مرة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مادة النشوز : وأصل هذه المادة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هو الارتفـاع والغلظ ، ومنه النَّشْز من الأرض وهو المكـان المرتفع الغليظ ومنه قوله تعـالى : ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزهـا﴾ أي نرفع بعضها إلى بعض ، ومن قرأ ﴿نُنْشِرُهـا﴾ أراد : نحييها اهـ وقال البخـاري في صحيحه في تفسير سورة البقـرة : ﴿نُنْشِرُها﴾ نخرجها . اهـ وقراءة (نُنْشِزُها) من السبع المتـواترة وقد قرأ بها حمزة والكسـائي وابن عامر وقرأ البـاقون : (نُنْشِرُها) بالـراء . وقوله تبارك وتعـالى : ﴿فلما تبيّن له قال أعلم أنّ الله على كل شيء قـدير ﴾ أي فلما اتضح له مـا أراد وتحقق بالمشاهدة مـا علمه من قدرة الله وعرف كيفيـة إحياء الله الموتى قال : أعلم أن الله على كل شيء قـدير، وأن ما شاء الله كـان وما لم يشأ لم يكن وأنـه إذا أراد شيئا قـال له كن فيكـون . وقد قـرأ حمزة والكسائي : ﴿قال اعْلَمْ أنّ الله على كل شيء قدير﴾ وقـرأ أكثر القراء : ﴿قال أعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ فعلى القراءة الأولى هو أمرٌ من الله عز وجل له بأن يتيقّن ويعلم علم مشاهـدة ما كان قـد علمه من تمام قدرة الله قبل تلك المعـاينة ، وهو شبيـه بتذييل الآية التـالية التي ذكـر فيها طلب إبراهيم عليـه السلام أن يريه الله كيف يحيي الموتى حيث قال : ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ .

قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال: أولم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطّير فصرهنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءًا ثم ادعهنّ يأتينك سعيا، واعلم أنّ الله عزيز حكيم﴾

هذا هو المقام الخامس والأخير من المقامات التي ذكرها الله عز وجل في سورة البقرة لتكون دليلا يقينيا وبرهانا قطعيا على أن إحياء الموتى سهل يسير على الله عز وجل وردٌّ على من أنكر البعث بعد الموت من المشركين والملاحدة وغيرهم؛ لأن ما وقع فعلا هو داخل في دائرة الإمكان العقلي قطعا، وقد كرر الله تبارك وتعالى هذا الأمر في هذه السورة المباركة خمس مرات، كما أكثر الله عز وجل من ذكر أدلة إحياء الموتى في كتابه الكريم وجعل ذلك أحد الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السّور المكية وهي الإقرار بأنه لا إله إلا الله والإقرار بأن محمدًا رسول الله والإقرار بالبعث بعد الموت، وقد كان جدال الكفار في إنكارهم للبعث كثيرا بل كان أشدّ من إنكارهم للتوحيد والرسالة، فلا جرم أن الله تبارك وتعالى ساق له من الأدلة القطعية والبراهين اليقينية ما يشفي القلوب التي هيأها الله عز وجل لقبول الشفاء، وقوله عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ هذا دليل آخر من أدلة ولاية الله عز وجل للمؤمنين بتأييدهم بالمعجزات، وهو نص صريح على أن إبراهيم عليه السلام كان عند سؤاله موقنا بالبعث بعد الموت وبقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، وأورده الله عز وجل في صورة السؤال والجواب ليكون أوقع في النفس وأثبت للمقصود وهو يقين إبراهيم عليه السلام في قدرة الله على بعث الموتى من قبورهم وتقرير صورة حسية من صور إحياء الله للموتى على يد عبد من عبيده الصالحين،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أي واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم: رب أَطلعني على صورة من صور إحيائك للموتى، فقال الله عز وجل وهو العليم الخبير بإيمان إبراهيم ويقينه: ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألني أن أريك كيف أحيي الموتى؟ وأراد الله بهذا السؤال وهو العليم بأن إبراهيم عليه السلام هو أثبت الناس إيمانا ويقينا بذلك ليكون في جواب إبراهيم تقرير بأنه عليه السلام مؤمن بذلك، لم يدخله شكّ قط فيه، فتتربّى ملكة اليقين في قلوب السامعين بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، حيث كان الجواب: ﴿بلى ولَٰكن ليطمئن قلبي﴾ أي أنا موقن مقر بالبعث وقدرة الله على إحياء الموتى، ولكني أحببت أن أضم إلى علم اليقين عين اليقين، وليكون أحد الأدلة المحسوسة على قدرة الله على إحياء الموتى، ولا يخطر على بال ذي بال أن إبراهيم كان شاكا، وقد كان جوابه الصريح أنه موقن مؤمن، وأما مارواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحقّ بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي» فإن المقصود من هذا الحديث هو الثناء على هؤلاء الأنبياء الثلاثة وبيان علوّ درجاتهم وارتفاع منازلهم وأن إبراهيم لو كان شاكًّا في قدرة الله على البعث لكنتُ أولى بالشك منه لأنه إمام الحنفاء وخليل الرحمن، وما دام لم يخطر على بال أحد أن محمدًا ﷺ يشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فكذلك إبراهيم عليه السلام، وهذا الأسلوب من الأساليب البلاغية المعروفة بتأكيد بالمدح بما يشبه الذم على حد قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الكتائب

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثم اجعل

على كل جبل منهن جزءا﴾ أي إن أردت ذلك فخذ أربعة من الطير فضمّهن إليك وقطّعهن واخلطهن خلطا تتداخل فيه لحومها وأعصابها وعظامها حتى تصير كأنها قطعة لحم واحدة ثم بعد طحنهن على هذا الوصف فرّق لحومهن المختلطة على ما حولك من الجبال واجعل على كل جبل منهن جزءا من أجزاء اللحوم المختلطة بعظامها وعصبها. وهذه الصفة في تقطيع الطيور وخلط بعضها ببعض مأخوذة من قوله تبارك وتعالى: ﴿فصرهنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ الذي يدل على أن كلّ جزء مما يوضع على كل جبل يشتمل على جزء من أجزاء الطيور الأربعة وهذا لا يتأتى إلا إذا خلطت خلطا تاماً يتداخل به بعضها في بعض. وقد قرأ حمزة: ﴿فَصِرْهُنَّ إليك﴾ بكسر الصاد. وقرأ الباقون: ﴿فصُرْهُنّ إليك﴾ بضم الصاد وقد نقل غير واحد من أئمة اللغة أن القراءتين بمعنى واحد لا فرق في ذلك بين كسر الصاد أو ضمها، وقد فهم من استعمال العرب لهذه المادة أنها تدور على معان منها: الضمّ والإمالة والإقبال والتقطيع والتجزئة، قال في القاموس المحيط: صَوِرَ كفرح مال وهو أَصْوَر، وصار وجْهَه يَصُورُه ويَصِيرُه أقبل به والشيءَ قطعه وفصّله اهـ وقال الجوهري في الصحاح: وأصاره فانصار أي أماله فمال. ثم قال: وصاره يَصُورُه ويَصِيرُه أي أماله، وقرئ قوله تعالى: ﴿فصرهنّ إليك﴾ بضم الصاد وكسرها قال الأخفش: يعني وَجِّهْهُن، يقال: صُرْ إليّ وَصُرْ وجهك إليّ أي أقبل عليّ، وصُرت الشيء أيضا قطّعته وفصّلته قال العجاج:

صُرنْا به الحُكْم وأعيا الحَكَما

فمن قال هذا جعل في الآية تقديما وتأخيرا كأنه قال: خذ إليك أربعة من الطير فصرْهنّ. اهـ وهذا الرجز الذي نسبه الجوهري للعجاج وكذلك ابن منظور، قد نسبه بعضهم لرؤبة بن العجاج. وقال ابن منظور في لسان

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

العرب: وصار الشيءَ صَوْرًا وأصاره فانصار: أماله فمال، قالت الخنساء:

لظلّت الشُّهْبُ منها وهي تَنْصارُ

أي تصدّع وتفلّق. ثم قال: وفي التنزيل العزيز: ﴿فصُرْهن إليك﴾ وهي قراءة عليّ وابن عباس وأكثر الناس، أي وجّههن، وذكره ابن سِيدَه في الياء أيضا لأن صُرتُ وصِرْت لغتان، قال اللحياني: قال بعضهم: معنى صُرْهنّ وجّههنّ ومعنى صِرْهنّ قطعهنّ وشققهنّ والمعروف أنهما لغتان بمعنى واحد اهـ والشاهد الذي ذكره ابن منظور عن الخنساء أورده ابن جرير في تفسيره بلفظ: لظلت الشُّمُّ منها وهي تنصار، يعني بالشّم الجبال أنها تتصدع وتتفرق، ومن استعمال صُرْت بمعنى أَمَلْت قول الطِّرِمّاح:

عفائف إلا ذاك أو أن يَصُورَها ‏ ‏ ‏ ‏ هوًى والهوى للعاشقين صَروع

فمعنى يصورها يميلها. ومن استعمال هذه المادة بمعنى التقطيع قول توْبة بن الحميّر في ليلى الأخيلية:

فناديت ليلى والحُمُول كأنها ‏ ‏ ‏ ‏ مَوَاقير نخل زعزعَتْها دَبُورُها

فقالت: أرى أن لا تفيدَك صحبتي ‏ ‏ ‏ ‏ لهيبة أعداءٍ تلَظَّى صُدُورُها

فمدّت ليَ الأسباب حتى بلغتُها ‏ ‏ ‏ ‏ برِفْقِي وقد كاد ارتقائي يَصورُها

فقوله: يصورها أي يقطعها. وفي قوله عز وجل: ﴿فصُرْهن إليك﴾ إشعار بأن يتمكن من النظر إلى هذه الطيور قبل تقطيعها وطحنها وتوزيعها على الجبال، ليعرف ألوانها وسماتها حتى إذا أعاد الله لها الحياة لا تختلف عما كانت عليه من السمات والألوان وفي ذلك من دلائل القدرة ما تعجز العقول عن الإحاطة به. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثم ادْعُهُنّ يأتينك سَعْيا﴾ أي ثم نادِ هذه الطيور التي قطّعتها وطحنتها وفرّقت أجزاءها على الجبال وقل لهن: تعالَيْن إليّ بإذن الله، يجِئْن إليك مُسْرِعات كأنهن ما مسّهن شيء قبل ذلك ويقبلن عليك لا يتأخرن عن دعوتك. وإذا كان المنادي لهن عبد صالح من

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

عباد الله فما بالك لو كان الداعي لهنّ ربّ العالمين، ومع ما في هذه القصة من الآيات العجيبة الدالة على قدرة الله التامة التي لا يعجزها شيء فإنها كذلك آية من آيات الله في تكريم أوليائه وتأييدهم وإعزازهم، وقوله عز وجل: ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: يعني تعالى ذكره بذلك: واعلم يا إبراهيم أن الذي أحيا هذه الأطيار بعد تمزيقك إياهنّ وتفريقك أجزاءهنّ على الجبال، فجمعهنّ وردّ إليهنّ الرّوح حتى أعادهنّ كهيئتهن قبل تفريقكهنّ «عزيز» في بطشه إذا بطش بمن بطش من الجبابرة والمتكبّرة، الذين خالفوا أمره، وعصوا رسله، وعبدوا غيره، وفي نقمته حتى ينتقم منهم «حكيم» في أمره اهـ ومن حكمة الله عز وجل التامة أنه يجيب السائلين بعلمه وبما يقتضيه المقام، ولذلك لم يُرِ الذي قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ لما مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قدرتَه على إحياء الموتى إلا بعد أن أماته مائة عام وأمات حماره معه، وأرى إبراهيم عليه السلام كيفية إحياء الموتى في الحال، فسبحان من له الحجّة البالغة والحكمة التامة.

قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم* الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

هذا مقام من مقامات الحض على الإنفاق في سبيل الله عز وجل، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية الأولى من هاتين الآيتين: وهذه الآية مردودة إلى قوله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ والآيات التي بعدها إلى قوله: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ من قصص بني إسرائيل وخبرهم مع طالوت وجالوت، وما بعد ذلك من نبأ الذي حاجّ إبراهيم مع إبراهيم، وأَمْرِ الذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها، وقصة إبراهيم ومسألته ربّه ما سأل، مما قد ذكرناه قبل ـ اعتراضٌ من الله تعالى ذكره بما اعترض به من قصصهم بين ذلك، احتجاجا منه ببعضه على المشركين الذين كانوا يكذّبون بالبعث وقيام الساعة، وحضا منه ببعضه للمؤمنين على الجهاد في سبيله الذي أمرهم به في قوله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم.﴾ يعرّفهم فيه أنه ناصرهم وإن قلّ عددهم وكثر عدد عدوّهم ويعدهم النّصرة عليهم، ويعلّمهم سنّته فيمن كان على منهاجهم من ابتغاء رضوان الله أنّه مؤيدهم، وفيمن كان على سبيل أعدائهم من الكفار بأنه خاذِلهم، ومفرّق جمعهم، وموهن كيدهم، وقطعا منه ببعضه عذر اليهود الذين كانوا بين ظهراني مُهَاجَر رسول الله ﷺ بما أطلع نبيّه عليه من خفيّ أمورهم، ومكتوم أسرار أوائلهم وأسلافهم التي لم يعلمها سواهم، ليعلموا أنّ ما أتاهم به محمد ﷺ من عند الله، وأنه ليس بتخرّص ولا اختلاق، وإعذارًا منه به إلى أهل النفاق

منهم، ليحذروا بشكّهم في أمر محمد ﷺ أن يحلّ بهم من بأسه وسطوته مثل الذي أحلّهما بأسلافهم الذين كانوا في القرية التي أهلكها فتركها خاوية على عروشها ــ ثم عاد تعالى ذكره إلى الخبر عن الذي ﴿يقرض الله قرضا حسنا﴾ وما عنده له من الثواب على قرضه فقال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ يعني بذلك: مثل الذين ينفقون أموالهم على أنفسهم في جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم ﴿كمثل حبّة﴾ من حبّات الحنطة أو الشعير أو غير ذلك من نبات الأرض التي تُسَنْبِل رَيْعَها، بذرها زارع فـ ﴿أنبتت﴾ يعني: فأخرجت ﴿سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبّة﴾ يقول: فكذلك المنفق ماله على نفسه في سبيل الله، له أجره سبعمائة ضعف على الواحد من نفقته اهـ والحبة اسم جنس لكل بذرة يبذرها الباذر في المزرعة مما يُقتات من حِنْطة أو شعير أو دُخْن أو أرز أو ذرة أو غيرها، وقد اشتهر إطلاق اسم الحبّ على البرّ كما قال المتَلَمِّس:

آليت حَبَّ العراق الدّهرَ أطعَمُه ... والحَبّ يأكله في القرية السوس

أما الحِبّة بكسر الحاء فهي بذرة البقل مما ليس بقوت كما في حديث الشفاعة: «فينبُتُون كما تنبت الحِبّة في حَمِيل السّيل» أما الحبّة بضم الحاء فهي الحبّ، والحِبّ الحبيب. والسّنبلة على وزن فُنعُلة من: أسبل الزرعُ إذا صار فيه السنبل أي صار فيه حبّ مستور كما يُسْبَل الشيء بإسبال السّتر عليه، وقد يقال لها: سَبَلَة، وقد ادعى بعض أهل العلم أنه لا يعرف من الحبوب ما تكون في سنبلته مائة حبة سوى الدخن، قال القرطبي رحمه الله: قلت: هذا ليس بشيء فإن سنبل الدّخن يجيء في السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر على ما شاهدناه. قال ابن عطية: وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبّة فأما في سائر الحبوب فأكثر، ولكنّ المثال وقع بهذا القدر اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أصل الضّعف في اللغة المِثْل

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فإذا قلت لشخص: لك مائة وضعفها، أي لك مائة ومثلها فيصير له مئتان، وكان من فضل الله على المؤمنين أنه من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها كما قال عز وجل: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيّئة فلا يُجْزَى إلا مثلها وهم لا يُظْلَمون﴾ وقد أشار في هذه الآية إلى أن النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف وقد قال في آية القرض السابقة: ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ وقال هنا: ﴿ والله يضاعف لمن يشاء﴾ فردّ عز وجل تضعيف الحسنات إلى مشيئته، وهو يشعر مع قوله في آية القرض: ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ أنّ الله تبارك وتعالى قد يزيد المنفق أكثر من سبعمائة ضعف فضلا منه وجودا، ولا شك أن المنفقين في سبيل الله يتفاوتون فيما ينفقون، ولا يستوي من أنفق مما يحب وهو صحيح شحيح بمن أنفق وهو ليس كذلك، ومردّ ذلك إلى الله وحده العليم الخبير بنوايا خلقه وأحوال عباده والوجه الذي تنفق فيه النفقة من أبواب الخير. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدّق بعِدْل تمرة من كسب طيّب، ولا يقبل الله إلا الطيّب، فإنّ الله يتقبّلها بيمينه ثم يربّيها لصاحبها كما يربّي أحَدُكم فَلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل» اهـ ولا شك أن الجبل يزيد على التمرة بأضعاف لا يكاد يحصي عددها الإنسان، وقد جاء في حديث مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة» وقد أشار رسول الله ﷺ في حديث فضل الصوم إلى أن الله قد يزيد في جزاء الحسنة أكثر من سبعمائة ضعف، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ عمل ابن آدم يُضَاعَف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله تعالى: إلا الصوم

فإنه لي وأنا أجزي بـه يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فـرحتان، فرحة عند فطره وفرحة عند لقـاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». الحديث وقولـه تبارك وتعالى في تـذييل الآية: ﴿والله واسع عليم﴾ يشعر بأن فضلـه ومضاعفته الحسنات لا يقـف عند حدّ. وقد قـال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: في هـذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحِرَف التي يتخـذهـا الناس، والمكـاسب التي يشتغل بها العمّال، ولـذلك ضرب الله به المثل فقـال: ﴿مَثَل الذين ينفقون أمـوالهم﴾ الآية، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «مـا من مسلم يغرس غرسـا أو يزرع زرعـا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صـدقة» وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض» يعني: الزرع، أخـرجه الترمذي، وقـال ﷺ في النخل: «هي الراسخـات في الوَحْل المطعمات في المَحْل» وهذا خـرج مخرج المدح، والزراعة من فروض الكفـاية، فيجب على الإمـام أن يجبر النـاس عليهـا، وما كـان في معنـاهـا من غـرس الأشجار، ولقي عبدُ الله بن عبد الملك ابنَ شهـاب الزهري فقال: دُلّني على مال أعالجه، فأنشأ ابن شهاب يقول:

أقـول لعبـد الله يــوم لقيتـهُ ... وقـد شدّ أحلاس المَطِيّ مُشَرِّقا

تتبّع خبايا الأرض وادْعُ مليكَها ... لعلك يــوما أن تجُاب فتُرْزَقـا

فيؤتيك مالاً واسعـا ذا مثابـة ... إذا ما مياه الأرض غارت تدفُّقا اهـ

وقـول القـرطبي: وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ مـا من مسلم يغـرس غرسا. الحديث هو في البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه وقول القـرطبي في حديث عـائشة: «التمسـوا الـرزق في خبايـا الأرض»: أخرجـه الترمذي، هو وهم من القرطبي رحمه الله، فلم يخرجه الترمذي، وإنما أخرجه الـدارقطني والبيهقي بسنـد ضعيف، وحديث النخل: هـي الراسخـات في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوحل لم أجد له أصلا، وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتْبِعون ما أنفقوا منّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ بعد أن حضّ الله تبارك وتعالى على الإنفاق في سبيل الله ورغّب في ذلك أعظم ترغيب، ووعد المنفقين بعظيم الأجر وجزيل الثواب حذر أشدّ التحذير من إتباع المنْفَق عليهم بمنّ أو أذى، وبيّن أن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ولا يلحقون المنْفَقَ عليهم بمنّ أو أذى لهم الجزاء الجزيل والأجر الحسن عند الله عز وجل، وأنّ الله تبارك وتعالى يطمئنهم عند الموت بأنهم لا يخافون فيما يستقبلونه من أهوال القيامة والفزع الأكبر، وأنهم لا يحزنون على ما خلّفوه وراءهم في الدنيا من الأولاد ولا ما فاتهم من زهرة الحياة الدنيا وزينتها، وأنهم قادمون على ربّ رحيم، جواد كريم. والمنّ: ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها، والأذى: هو السبّ والتشكي، وقد يكون الأذى من ثمرات المنّ، حيث يتحدث بأنه أعطى فلانا فيؤذيه بذلك، وقد يبذل المال للمجاهدين ثم يتحدث بأنه أعطى المجاهدين، ولكنهم مقصّرون فيؤذيهم بذلك كذلك، فبين الله تبارك وتعالى أن الذين يرغبون في الأجر من الله يجب أن يكون بذلهم لوجه الله لا يريدون من الناس جزاء ولا شكورا.

قال تعالى : ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غني حليمٌ ۞ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه ترابٌ فأصابه وابل فتركه صلدًا لا يقدرون على شيء ممّا كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين﴾

بعد أن حذّر الله تبارك وتعالى من إتباع الصّدقة بالمنّ والأذى ليحفظ للمنفقين في سبيل الله ثواب ما أنفقوه وليمنحهم الطّمأنينة في الدّنيا والآخرة ، أكّد هذا التحذير هنا من إتباع الصدقة بالمنّ والأذى حيث يقول : ﴿قولٌ معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ الآيتين . وهذا من أعظم أسباب غرس حبّ الخير وبذل النفقة في سبيل الله ابتغاء وجه الله في نفس الإنسان حتى يصير ذلك ملكة له ، وليحفظ على المنْفَق عليهم كرامتهم ، وليرفعوا هامتهم ، فلا يلحقهم ذلّ ، ولا يصيبهم همّ بسبب منّة من يمتنّ عليهم من خلق الله ، وليبيّن للمسلمين أن كرامة المسلم وعزّته فوق سائر الماديّات فالمال ظل زائل وعارية مستردة ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ أي كلام طيب ووعد بخير ، ودعاء المسلم لأخيه بأن يفرّج الله كربته ويزيل عسرته ، وردّ على السائل بالكلام الحسن والقول الجميل ، وستر لما قد يبدر من السائل من إلحاح ، وصفحٌ عن زلة أخيه المسلم أحبّ إلى الله عز وجل من صدقة يتصدق بها الإنسان ثم يلحقها بالمنّ والأذى وقوله عز وجل : ﴿والله غنيّ حليم﴾ أي والله عز وجل غني عن نفقة المنْفِقِين وصدقة المتصدقين وهو قادر على أن يحوّل الحال فيجعل السائل غنيا والمسئول محتاجا ، وهو حليم لا يعاجل بالعقوبة التي يستحقها المنّان والمؤذي . وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أنّ مَنَّ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإنسان على من أعطاه من كبائر السيئات، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنّان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». قال القرطبي رحمه الله: والعرب تقول لما يُمَنّ به: يدٌ سوداء، ولما يُعْطَى من غير مسألة: يد بيضاء، ولما يُعْطَى عن مسألة: يدٌ خضراء وقال بعض البلغاء: من منّ بمعروفه سقط شكره، ومن أُعجِب بعمله حبط أجره. وقال بعض الشعراء:

وصاحب سلَفَتْ منه إليّ يَدٌ ... أبطا عليه مكافاتي فعاداني
لما تيقّن أن الدّهر حاربني ... أبدى النّدامة فيها كان أولاني

وقال آخر:

أفسدتَ بالمنّ ما أسديتَ من حَسَنٍ ... ليس الكريم إذا أسدى بمنّان

وقال أبو بكر الورّاق فأحسن:

أَحسَنُ من كلّ حَسَنْ ... في كلّ وقت وزمنْ
صنيعة مَرْبوبةٌ ... خالية من المِنَنْ

وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل: فعلت إليك، وفعلت، فقال له: اسكت فلا خير في المعروف إذا أُحْصِيَ اهـ على أن العاقل ينبغي أن يشكر الله إذا سأله سائل أن لم يكن هو السائل، ولله در أبي بكر بن دريد حيث يقول:

لا تَدخُلنّك ضجرة من سائل ... فلخير دهرك أن تُرى مسئولا
لا تجبَهَنْ بالرّدّ وجه مؤمِّل ... فبقاء عزّك أن تُرى مأمولا
تلقى الكريم فتستدلّ بِبِشْره ... وتَرى العُبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنك عن قليل صائر ... خَبَرًا فكن خبرًا يروق جميلا

وقد جعل رسول الله ﷺ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبيّ ﷺ:

«لا تحقرنّ من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» ومن أمثلة العرب: الكرم شيء هين، وجهٌ بشوش وكلام ليّن. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذي﴾ هذا هو التحذير الثالث من إتباع الصدقة بالمنّ والأذى وهو أشدّ التحذيرات الثلاثة، حيث بيّن الله عز وجل أن المنّ والأذى يبطلان ثواب الصدقة التي يلحقها المنّ والأذى، ثم شبّه المنّانَ المؤذِيَ المنفَق عليه بما يجب على المؤمن بالله ورسوله أن ينفر منه ولا يقع فيه ويحذره أشدّ الحذر حيث شبّهه بالذي ينفق ماله رئاء الناس وبالذي ينفق وهو لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وَمَثَلُ هؤلاء جميعا كَمَثَلِ الصخر الأملس الذي غطاه ترابٌ خفيف فنزل عليه مطر غزير فأزال ما عليه من التراب الذي كان يُظَنُّ فيه أنه ربما يُنْبت لو نزل عليه المطر، فانكشف الصفوان وأيقن كلّ من يراه أنّ الوابل الذي أصابه لن ينبت نباتا ولن يثمر ثمرة، ولن ينتفع أحد منه بحال من الأحوال، وذلك لأن عمل المرائي مردود؛ لأنه من الشرك الخفي، والله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه الله الكريم فهو جل وعلا أغنى الشركاء عن الشرك. قال الإمام أحمد في المسند: حدثنا يونس ثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جَزَى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً». ثم ساق من طريق إبراهيم بن أبي العباس ثنا عبدالرحمن بن أبي الزناد عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمر الظَّفَريّ عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم» فذكر معناه، ثم ساق من طريق إسحاق بن عيسى ثنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن عمرو بن عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

لبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، إن الله تبارك وتعالى يقول يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً» اهـ وقد أخرج المنذريّ حديث محمود ابن لبيد هذا في الترغيب والترهيب ثم قال: رواه أحمد بإسناد جيد. وقد أخرجه كذلك الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام وقال: أخرجه أحمد بإسناد حسن. كما أن الكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر لمّا كان لا يصدّق بألوهية الله وربوبيته ولا يؤمن بأنه مبعوث بعد موته ومجزي بعمله فلا يتأتى منه على ذلك أن يعمل عملا لله عز وجل، ولو صنع شيئا من المعروف فإن الله تبارك وتعالى لا يتقبله منه لأنه إنما يتقبل من المتقين وكما قال عز وجل في الكفار: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هَبَاءً منثورا﴾ ولا شك أن تشبيه عمل الذي يُتْبِع صدقته بالمنّ والأذى بالمرائين والكفار هو غاية في التحذير من هذا العمل حتى يجتنبه المسلم فلا يبطل صدقته بالمنّ والأذى ولا يعمل عملا يصير به في صفوف المرائين والكافرين. والصفوان: الصّفا وهي الحجارة الملس، وتقدم مزيد بيان لذلك في قوله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ والوابل هو المطر الشديد العظيم قال امرؤ القيس:

ساعةً ثم انتحاها وابل ساقط الأكناف واهٍ منهمر

والصَّلد هو الحجر الصّلب الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره وهو أملس، كما قال رؤبة بن العجاج:

لمّا رأتني خَلَقَ المُمَوَّه برّاق أصلاد الجبين الأجْلَه

يعني أنّ جبينه قد زال شعره فصار يبرق كأنه صفاةٌ ملساء لا نبات عليها. وقوله عز وجل: ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾ أي لا يتمكن المرائي والكافر والمانّ المؤذي من تصدق عليه من الحصول على ثواب نفقاتهم لأن

المرائي قد ردّ عمله الرياء وكذلك الكافر لا يتقبل الله منه شيئا، وكذلك المانّ المؤذي من تصدّق عليـه قد أبطل عمله كما أخبر بذلك ربّ العـزة جل وعلا فلا ينتفع هؤلاء يوم القيامـة بما بذلوه من المال لأنهم أبطلوه بأعمالهم، وتذييل الآية بقـوله عز وجل: ﴿والله لا يهدي القـوم الكافـرين﴾ تحذير للمسلم من عمل يشبـه عمل الكـافـرين، الـذين خـذلهم الله عـز وجل، فلعبت بهم الشياطين، وصرفتهم عن صراط الله المستقيم.

قال تعالى : ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتًا من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ، والله بما تعملون بصير * أيودّ أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كلّ الثمرات وأصابه الكبر وله ذرّية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكّرون .﴾

هذان مثلان آخران أحدهما للذين ينفقون أموالهم في أنواع البر ابتغاء وجه الله، وهم على يقين بأنّ وعد الله حق لمن أنفق ماله ابتغاء مرضاته، والمثل الآخر لمن ينفق ماله رئاء الناس أو يتبع ما أنفق منّا أو أذى، فقال عز وجل في مثل الأبرار الذين لا يريدون من الناس جزاءً ولا شكورًا إنما يفعلون ما يفعلونه لوجه الله : ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلها ضعفين﴾ أي ومثل الذين يبذلون أموالهم طلبا لمرضاة الله واحتسابا لما عنده للمحسنين من جزيل الأجر ويقينا بأن وعد الله حقّ كمثل من له بستان على نَشْز من الأرض انهمر عليه المطر الشديد العظيم فأثمر هذا البستان ضعفي ما تثمر البساتين التي تشبهه وتضارعه، وإذا كان ضعف الشيء هو مقداره مع زيادة مثله عليه فإن ضعفيه يعادل أربعة أمثاله، وهذا لا شك بالنسبة لما تثمره البساتين عادة يكون مضرب المثل في البركة والنماء. وأصل الجنة في اللغة هي البستان وهي قطعة أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيها، وهي مأخوذة من الاجتنان وهو الاكتنان والاستتار، وسمّيت الجنّة لأن من يدخلها يجتنّ ويستتر تحت أشجارها ومنه الجنّ لأنهم مستورون عن الناس، ومنه الجنين لاجتنانه واستتاره في بطن أمه. والربوة بفتح الراء وبضمها أيضا هي المكان

النّشز الظـاهر المستـوي المرتفع عن السيل، وكون الجنّة بـالربـوة يفيد حسن ثمارها لأنّ مـا ارتفع من الأرض عن المسايل والأودية يكون أغلظ، وجنـان ما غلظ من الأرض تكون أحسن وأزكى ثمرا وزرعا وغرسا من الأرض المنخفضة الواقعـة في المسايل والأوديـة، وقد تغنّت العـرب بوصف جنّـات الرّبـا فقال بعضهم:

مَن مُنـزلي في روضـة برَبَـاوة　　بين النخيـل إلى بقيـع الغرقدِ

والرَّباوة لغة في الرّبوة، وقال أعشى بني ثعلبة في وصف روضة من رياض الحزن يفوح منها ريح كأنه المسك، يشبّه بها ريح صاحبته:

إذا تقـوم يَضُـوع المسـك أصْـورة　　والزّنبق الـورد مـن أردانها شَمِل
ما روضة من رياض الحَزْن مُعْشِبة　　خضـراء جاد عليها مُسْبِل هَطِل
يضاحك الشّمس منها كوكب شرق　　مُؤَزَّر بعميـم النَّبْت مُـكْتَـهِل
يـوما بأطيب منها نَشْـرَ رائحـة　　ولا بأحسن منهـا إذ دنـا الأُصُل

ومعنى: يضـوع المسك أي تنتشر رائحتـه، وقـوله: أصـورة أي قطعـا، وقوله: والـزّنبق الورد، الزّنبق دُهْن الياسمين وورد وأحمره أجوده والظـاهر أنه المراد هنا. والحزْن مـا غَلُظ من الأرض، وقولـه: جاد عليهـا مُسْبِل هَطِل أي انهمر عليها الجَوْد وهو المطـر الغزير أو ما لا مطر فوقـه في القوة، وهو مُسْبِل أي مرسل مـاءه على الأرض، وهطل أي منتشر غزير دائم. وقـال الصِّمَّة بن عبدالله:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الرّبى　　وما أحسـن المصطاف والمتَربَّعا

ودعوى بعض المفسرين بأن طيب جنات الرّبى خـاص برياض نجد هي دعوى غير صحيحـة لأن الله تبارك وتعالى ذكـر امتنانـه على عيسى ابن مريم وأمه بأنـه آواهما إلى ربوة ذات قـرار ومعين حيث يقول: ﴿وجعلنـا ابن مريم وأمّـه آية وآوينـاهما إلى ربوة ذات قـرار ومعين﴾ وهي لا شك في غير جزيـرة

العرب. كما ذكرت قريبا مدح الشاعر روضة بربوة بين النخيل إلى بقيع الغرقد، وهي من نواحي المدينة المنورة.

ومجيء هذا التمثيل بهذه الصفة في القرآن شاهد من شواهد الإعجاز؛ لأن النبي محمدا ﷺ نشأ في واد غير ذي زرع، وقوله عز وجل: ﴿فآتت أكلها﴾ أي فأعطت ثمارها التي تؤكل، والوابل: المطر الشديد الضخم القطر، وقد تقدم قريبا مزيد تعريف له، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإن لم يصبهاوابل فطلٌّ﴾ هو تأكيد لمدح هذه الرّبوة بأنها إن لم يصبها وابل فإنّ الطّل يكفيها وينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين وذلك لكرم هذه الأرض وطيبها، قال المبرّد في قوله عز وجل: ﴿فطلّ﴾ تقديره: فطلٌّ يكفيها، والطّلّ هو المطر الضعيف بل هو أضعف المطر حتى يطلق عليه اسم: النّدى، وقوله عز وجل: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ ترغيب وترهيب قال ابن جرير رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه ﴿والله بما تعملون﴾ أيها الناس في نفقاتكم التي تنفقونها ﴿بصير﴾ لا يخفى عليه منها ولا من أعمالكم فيها وفي غيرها شيء، يعلم من المنفِق منكم بالمنّ والأذى والمنفق ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من نفسه، فيحصي عليكم حتى يجازي جميعكم جزاءه على عمله إن خيرًا فخيرا، وإن شرا فشرا، وإنما يعني بهذا القول جل ذكره التحذير من عقابه في النفقات التي ينفقها عباده، وغير ذلك من الأعمال أن يأتي أحد من خلقه ما قد تقدم فيه بالنهي عنه، أو يفرّط فيما قد أمر به، لأن ذلك بمَرْأَى من الله ومسمع، يعلمه ويحصيه عليهم، وهو لخلقه بالمرصاد اهـ وقوله عز وجل: ﴿أيودّ أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نارٌ فاحترقت﴾ هذا هو المثل الآخر في هذا المقام الكريم الذي ضربه الله عز وجل لمن ينفق ماله رئاء الناس أو يتبع ما أنفق منّا أو أذى، بأنه

يبطل بريـائه أو بمنّه وأذاه ثمرة عملـه فلا يفيده بشيء وهـو في أمسّ الحاجة إليه مع مـا يصيبه عند ذلك من الحسرة والنـدامة والحزن، وقد شبهـه الله عز وجل بـرجل تقدمت بـه السّنّ وبلغ من الكبر عتيّا وقـد فقد القـدرة على أن يعمل بنفسه عمـلا ينفعه، وقد ازداد حسرة وحـزنا بسبب أن لـه أولادا عجزة ضعـافـا لا يتمكنـون من جلب نفـع لهم أو لأبيهم أو دفع ضرّ عنهم أو عن أبيهم، وكان لهذا الرجل بستان يـانع الثمار من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار وقد اشتمل البستان مع نخيله وأعنـابه وأنهاره على كل ما تشتمل عليه البساتين من الـزروع والثمار، وبينما هو يتهيّأ لجني ثماره وتحصيـل ريعه لينفق منه على نفسه وعلى ذريته الضعاف العاجزين أرسل الله عز وجل على بستانه إعصارا فيه نار فأحرقت البستـان وذهبت بجميع ما فيه. فكم تكون حسرته وحزنه عند ذاك، وهكذا من أنفق ماله رئاء الناس أو أتبع ما أنفق منا أو أذى يحصل له يوم القيامة أضعاف ما أصاب ذلك الرجل الذي احترق بستانه من الحزن والهم والغم والكرب العظيم، لأن هـذا الرجل قـد يعطف عليه بعض النـاس فيحسنون إليـه ويمـدون لـه يد العـون، ولكن المرائين ونظـراءهم لا يجدون من يمـدّ لهم يـد العـون عنـد الله يـوم القيـامـة، ولا شك أن جـواب الاستفهـام في قولـه عز وجل: ﴿أيـود أحـدكم﴾ الخ، هو أن يقـول كلّ من عنده مثقال ذرة من عقل: لا أودّ ولا أتمنّى ذلك ولا أحبّ أبدا أن يصير لي ما صار له، قال البخاري في صحيحه: باب قـوله: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ إلى قوله: ﴿لعلكم تتفكرون﴾ حدثنا إبراهيم أخبرنا هشـام عن ابن جريج سمعت عبـد الله بن أبي مليكة يحدّث عن ابن عبـاس قال: وسمعت أخـاه أبا بكـر بن أبي مليكة يحدّث عن عبيـد بن عمير قال: قال عمر رضي الله عنـه يوما لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هـذه الآية نزلت ﴿أيود أحـدكم أن تكون له جنّـة﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمـر فقال:

قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تَحْقِرْ نفسك، قال ابن عباس: ضُرِبَتْ مثلا لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غنيّ يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله اهـ والإعصار في اللغة: الريح الشديدة التي تهبّ من الأرض إلى السماء كالعمود بها سَمُوم تلتف وتدور بسرعة فتتولد فيها نارٌ تشتعل بها الحرائق، وقد تتسبب في تدمير المدن والقرى وإحداث الفيضانات. وهذا فيه إشارة كذلك إلى الإعجاز العلمي في القرآن العظيم، لأن هذا النوع من الرياح نادر في أرض الحجاز وإن كان معروفا، كما قال بعض الشعراء:

إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارا.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أي كذلك يوضح الله لكم الحجج الشاهدة بأن محمدا رسول الله كي تتدبروا وتتفهموا من أين هذه العلوم الكونية والشرعية التي جاء بها هذا الأمي الذي ما قرأ كتابا ولا خطّه بيمينه؟ وتعلموا أنه رسول من رب العالمين.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ما كسبتم وممّا أخرجنالكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منْه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه، واعلموا أنّ الله غنيّ حميد﴾.

بعد أن حض الله تبارك وتعالى على الإنفاق في سبيل الله وفي سائر أبواب الخير ابتغاء مرضاة الله واحتسابا للأجر والثواب عنده عز وجل وحذر أشد التحذير من إتباع الصدقة بالمن والأذى وبيّن أن الذين ينفقون أموالهم ثم يتبعونها بالمن والأذى يصيرون كالمرائين والكافرين الذين لا يتقبّل الله منهم، وأنهم يبطلون أعمالهم ويحرمون أنفسهم من أجرها، وجّه عباده المؤمنين ورغّبهم في الإنفاق من المال الجيد الذي يحصلون عليه من مكاسبهم في التجارة أو مما تخرجه مزارعهم، وحذّرهم أن تكون نفقتهم وصدقتهم من رديء المال وخسيسه ورذيله ممّا لو أُعْطوه لكرهوه وعافوه، والمراد بالطيبات في قوله تعالى هنا: ﴿يا أيها الذين آمنوا أَنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ هي الأنواع الجيّدة من الأموال، أما المراد بالطيبات في قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ فهي أنواع المال الحلال، لأن الإنسان لا يُحَرِّص فيما يأكله إلا على أن يكون حلالا، بخلاف ما ينفقه في أبواب البر فإنه مع اشتراط كونه حلالا فإنه ينبغي أن يختار أجود المال وأحسنه وأحبّه إليه للتقرب به إلى الله عز وجل كما قال تبارك وتعالى: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ والمقصود أنّ الإنسان إذا كانت عنده أموال بعضها جيد وبعضها رديء فلا ينبغي له أن يعمد إلى الرديء لينفق منه في أبواب البر كأن يكون عنده أنواع جيدة من التمر وفيها بعض الحشف، فيخرج الحَشَف في الصدقات، ويبقي لنفسه الأنواع الجيدة المختارة، فنهى الله تبارك وتعالى المسلم عن ذلك، أما إذا كان الإنسان لا يجد عنده إلا الأنواع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرديئة فإن له أن يخرج منها لأن الله تبارك وتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، وكما قيل: الجود من الموجود، ولذلك يدفع الله تبارك وتعالى نار جهنم يوم القيامة عن وجه المسلم الذي تصدّق بشقّ تمرة، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». وأخرجه مسلم من حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوّذ منها ثم ذكر النّار فأشاح بوجهه فتعوّذ منها ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه تَرْجُمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة». كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئا غير تمرة، فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال: «من ابْتُلِيَ من هذه البنات بشيء كنّ له سترا من النار». كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتُها ثلاث تمرات، فأعطت كلّ واحدة منهما تمرةً ورفعَتْ إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتْها ابنتاها فشقّت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعَتْ لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار». وكما

أن المسلم لا ينبغي له أن يحتقر شيئا يتصدق به ما دام لا يجد خيرا منه فقد حذّر رسول الله ﷺ من يُعْطَى من أخيه المسلم شيء أن يحتقره مهما كان حتى ولو كان فِرْسِنَ شاة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المسلمات لا تَحْقِرَنّ جارة لجارتها ولو فِرْسِن شاةٍ». والفرسن: عظم قليل اللحم، وهو للبعير وللشاة موضع الحافر للدابة والقدم للإنسان ويقال له في البعير والشاة والبقرة: ظِلْف، وقد روى أحمد وأبوداود والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، عن أم بُجَيْد قالت: قلت: يا رسول الله إن المسكين ليقف على بابي حتى أستحي فلا أجد في بيتي ما أدفع في يده فقال رسول الله ﷺ: «ادفعي في يده ولو ظِلْفًا محرقًا». وقوله عز وجل: ﴿ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ أصل قوله عز وجل: ﴿ولا تيمموا﴾ أي ولا تتيمّموا فحذفت إحدى التّاءين تخفيفا وقد حذفت كذلك في ثلاثة وعشرين موضعا في كتاب الله عز وجل وهي: ولا تفرّقوا، توفّاهم، تعاونوا، فتفرّق بكم، تلقّف (على إحدى القراءتين) ولا تولّوا «في الأنفال» تنازعوا، تربّصون، فإن تولّوا «في النور» لا تكلّم، تلقّونه، تبرّجن، تبدّل، تناصرون، تجسّسوا، تنابزوا، لتعارفوا، تميّزُ، تخيّرون، تلهّى، تلظّى، تنزّل الملائكة. والتّيمّم في اللغة هو القصد، قال الأعشى ميمون بن قيس في مدح قيس بن معد يكرب الكِنْدِي:

تيمّمت قيسا وكم دونه ... من الأرض من مَهْمَهٍ ذي شَزَن

وكما قال عامر بن مالك مُلاعِبُ الأسنّة في ضِرَار بن عمرو الضّبّيّ:

يمّمته الرّمح شَزْرًا ثم قلت له ... هَذِى البسالة لا لعبُ الزّحاليق

وكما قال امرؤ القيس:

تيمّمتها من أَذْرِعات وأهلُها ... بيثرب أدنى دارِها نظرٌ عال

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكما قال أيضا :

ولما رأت أن المنيـــــّة وردها وأنّ الحصى من تحت أقدامها دامي

تيمّمتِ العين التي عند ضارج يفيء عليها الظّل عَرْمَضُها طامي

والعرمض الطّحلب . وضارج هو الجبل المعروف في القصيم باسم جبل ضاري ، وكما قال حميد بن ثور الهلالي :

سل الرّبع أنّى يمّمَتْ أمُّ طارق وهل عادة للرّبع أن يتكلما

وقال الشافعي رحمه الله :

عِلمي معي أينما يمّمت يتبعني صدري وعاء له لا بطن صندوقِ

والمراد بالخبيث في قوله عز وجل هنا : ﴿ولا تيمّموا الخبيث﴾ هو الرديء ضد الجيد ، والعرب يطلقون على كل شيء يعافونه كلمة خبيث ويقولون : هو خبيث الطّعم ، وهو خبيث اللّون ، قال ابن منظور في لسان العرب : يقال في الشيء الكريه الطعم والرائحة : خبيث ، مثل الثوم والبصل والكرّاث اهـ فمعنى : ﴿ولا تَيَمَّمُوا الخبيث منه تنفقون﴾ أي ولا تقصدوا إلى الرديء من مكاسبكم في التجارة أو ما يخرجه الله لكم من الأرض فتجعلوا منه صدقاتكم وتتركون الطيّب الجيّد لأنفسكم ، وقوله عز وجل : ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تُغْمِضوا فيه﴾ أي ولستم ترضونه لأنفسكم لو أُعطِيتُمُوه إلا بإغماض منكم وكراهية في أخذه ، فلا تجعلوا لله ما لا ترضونه لأنفسكم ، والإغماض يطلق على التساهل وعلى غض البصر، قال الجوهري في الصحاح : وغمّضت عن فلان إذا تساهلت عليه في بيع أو شراء ، وأغمضت ، قال الله تعالى : ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ يقال : أغمِضْ لي فيما بعتني كأنك تريد الزيادة منه لرداءته والحط من ثمنه اهـ والتعبير بقوله : ﴿ولا تيمموا﴾ يفيد أنه لو حصل واختار المنفق نوعا جيدا لإخراجه في النفقة في سبيل الله وكان فيه بعض الحشف القليل فإنه لا يضره ،

وقولـه عـز وجل: ﴿والله غني حميـد﴾ أي والله تبـارك وتعـالى غير محتـاج لصدقاتكم وهو غني عن جميع خلقـه، وهم فقراء محتاجون إليه في كل وقت وحين، وإنما يأمركم بـالجود على الفقراء والمحتـاجين من إخـوانكم فأنفقـوا عليهم من أمـوالكـم الجيـدة، ومـا أنفقتم من شيء فهـو يخلفـه وهـو خير الـرازقين، وعليكم أن تحمـدوا الله عـز وجل على مـا أنعم بـه عليكم وهـو المحمود في جميع أفعـاله وأقواله وقـدره وشرعه، وهو إنما يأمركم بما يأمركم به لتحصلوا على مرضـاته، وتفوزوا بالنعيم المقيم في جناتـه وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾.

قال تعالى : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم* يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وما يذّكر إلاّ أوْلوا الألباب* وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإنّ الله يعلمه، وما للظالمين من أنصار﴾

بعد أن حضّ الله تبارك وتعالى المؤمنين على أن ينفقوا من طيبات مكاسبهم ومزارعهم، وحذّرهم أن يتعمّدوا إخراج النوع الرديء من أموالهم، حذّرهم هنا من وساوس الشيطان التي يلقيها في قلوب بعض الناس حيث يوسوس لهم أنّ إخراج بعض أموالهم يؤدي إلى نقصها، وأنه ينبغي إمساكها خوف الفقر وأنه في الوقت الذي يقبّح لهم فيه البذل في أبواب الخير فإنه يحضّهم على ارتكاب الفواحش والوقوع فيما يغضب الله تبارك وتعالى، وهذه وظيفة الشيطان ذئب الإنسان، ينهاه عن الخير ويأمره بالشر، والله تبارك وتعالى يعد المنفقين بأن يخلف عليهم أضعاف ما أَنفقوا، ويرزقهم من حيث لم يحتسبوا، مع مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم، فإن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، فقد روى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» ثم قال: «ألا أدلّك على أبواب الخير: الصوم جُنّةٌ، والصدقةُ تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» الحديث. وأخبر رسول الله ﷺ أن الصدقة لا تنقص المال، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما

زاد الله عبدا بعفو إلا عزّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه». ولو ظن ظانّ أنه إذا أخرج من مائتي ألف خمسة آلاف فإن مائتي الألف قد نقصت هذه الآلاف الخمسة، لأنا نقول له: وما يدريك أنّ الله تبارك وتعالى قد دفع عنك من الشرّ والأذى والأمراض والآفات ما كان يكلّفك أضعاف أضعاف هذه الآلاف الخمسة لو أمسكتها عن الإنفاق، والعبرة بالكيف لا بالكمّ فالقليل المبارك خير من كثير لا بركة فيه. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الشيطان دائما يخوّف المنْفِق من الفقر وأن الله تعالى يسدّد المؤمن بالملك الموكّل به فيَعِدُه بالخير، فقد قال الترمذي: حدثنا هنّاد حدثنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مُرّة الهمدانيّ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ للشيطان لمّةً بابن آدم وللملك لمّة، فأما لمّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم قرأ: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعلمه مرفوعا إلا من حديث أبي الأحوص اهـ وفي بعض نسخ الترمذي: حسن صحيح غريب. وقوله عز وجل: ﴿والله واسع عليم﴾ أي والله تبارك وتعالى يسع خلقه كلّهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير لا تنفد خزائنه على كثرة العطاء وهو عليم بنفقاتكم وصدقاتكم يحصيها لكم ويجزيكم بها أحسن الجزاء من واسع جوده وفضله مع ما يخلفه عليكم في الدنيا كما قال عز وجل: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾ وقوله عز وجل: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ أي يعطي الفقه في الدين والانقياد لأمر الله من يشاء من عباده فيشرح صدورهم للإسلام، وينير بصائرهم لمعرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ﷺ، وأصل الحكمة ما يمتنع به الإنسان من السّفه والوقوع في القبيح

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويحرص على ما ينفعه في دينه ودنياه، لأن الحكمة مأخوذة من الإحكام وهو إتقان الفعل والقول، وقوله عز وجل: ﴿ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرا﴾ أي ومن يعط الحكمة والفقه في دين الله فقد حصل على الخير الكثير، وقد أخبر رسول الله ﷺ أنّ الفقه في دين الله والاستمساك بشرعه دليل على أن الله تبارك وتعالى يريد الخير لمن مُنح ذلك فقد روى البخاري ومسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من يرد الله به خيرا يفقّهه في الدين» الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما يذّكّر إلا أوْلواْ الألباب﴾ أي وما يتعظ بما يجيء عن الله عز وجل وينتفع به إلا أصحاب العقول. وقوله عز وجل: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه﴾ هذا ترغيب وترهيب من الله عز وجل يفيد أن جميع تصرفات الإنسان عند الله علمها فمن كانت نفقته أو نذره ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من نفسه جازاه بالذي وعده من الخير الكثير والعطاء الجزيل ومضاعفة الحسنات ومغفرة السيئات، ومن كانت نفقته أو نذره رئاء الناس أو متبعةً بالمن والأذى أو قدّم في صدقته رديء ماله، أو امتنع عن بذل الخير طاعة للشيطان الذي خوّفه من الفقر، فإنّ جميع ذلك يعلمه الله عز وجل، ويثيب كلّ عامل بما عمل، والنذر هو أن يوجب الإنسان على نفسه شيئا لله عز وجل لم يكن في الأصل واجبا عليه. قال في القاموس: ونذر على نفسه ينذِر وينذُر نذرًا ونذورًا أوجبه كانتذر، ونذر ما له، ونذر لله سبحانه كذا، أو النذر ما كان وعدا على شرط، فعليّ إن شفى الله مريضي كذا نذرٌ، وعليّ أن أتصدّق بدينار ليس بنذر اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: ويعني بالنذر ما أوجبه المرء على نفسه تبرّرا في طاعة الله وتقرّبا به إليه من صدقة أو عمل خير اهـ وقال القرطبي في تعريف النذر: هو ما أوجبه المكلّف على نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه، تقول: نذر الرجل كذا إذا التزم فعله اهـ

والنذر من أنـواع العبادة فلا يجوز أن يجعل منه شيء لغير الله عـز وجل، وقد كـان أهل الجاهليـة الأولى ينذرون لأصنـامهم وأوثـانهم، وقـد وقع كثير من المنتسبين للإسلام فيما وقع فيه أهل الجاهلية الأولى فنذروا للمنتسبين للصلاح من الموتى، وهم بـذلك يشركـون بـالله عز وجل ويعتقـدون أن هـؤلاء الموتى ينفعون ويضرون، فيجعلـون لهم نذورا من أمـوالهم تقربـا إليهم مدعين أنهم شفعاؤهم عند الله، والغالب في النذر أن يلتـزم الناذر بعمل طاعة في مقابلة استجلاب نعمة أو استدفاع نقمة وقد يعتقد بعض الناس أن النذر هو الذي يجلب النعمة أو يدفع النقمة وقد نبّه رسول الله ﷺ إلى أن النذر لا يقدّم شيئا ولا يؤخره، وقد أجمع أهل العلم على أن من التزم بطاعة في مقابلة استجلاب نعمة أو استدفـاع نقمة فحصل له ما يـريد أنه يجب عليه الوفـاء بنذره، وقد أثنى الله تبـارك وتعـالى على الموفين بالنـذر وجعلهم في جملـة الأبـرار وقمّتهم حيث يقول: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مـزاجها كافورا* عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا* يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا﴾ الآيات. وقد سـاق البخاري من طريق سعيد بن الحارث أنـه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: أو لم يُنْهَوْا عن النـذر؟ إن النبي ﷺ قال: «إن النذر لا يقدم شيئا ولا يـؤخر وإنما يُسْتَخْرَج بالنذر من البخيل». ثم سـاقه البخاري رحمه الله من طريق عبـد الله بن مرّة عن عبـد الله بن عمر: نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: «إنـه لا يردّ شيئا ولكنه يستخـرج به من البخيل». ورواه مسلم بألفـاظ قـريبة من الألفـاظ التي رواه بها البخـاري، وإذا كـان هذا في نـذر الطاعـة فإن النذر لغير الله من أقبح المعـاصي وأكبر السيئات لأنـه شرك بالله عز وجل، وقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ومن نـذر أن يعصي الله فلا يعصـه». كما روى مسلم من حديث عمـران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال: «لا وفاء لنـذر في

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

معصية». وقد روى أبو داود بسند صحيح من حديث ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلا ببُوَانَة، فأتى النبيّ ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً بِبُوَانَة، فقال النبي ﷺ: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا، قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟» قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: «أوفِ بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم» قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في اقتضاء الصراط المستقيم: أصل هذا الحديث في الصحيحين، وهذا الإسناد على شرط الصحيحين، وإسناده كلّهم ثقات مشاهير اهـ وقوله عز وجل: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ هو وعيد شديد لمن انحرف بنفقته أو بنذره فصرفه لغير الله عز وجل فصار بذلك ظالما بل مرتكبا أفحش الظلم وهو الإشراك بالله عز وجل، ولن ينفعه مَن نَذر له مِن أولياء مِن دون الله، ولن ينصره أحد من عذاب الله، ووضع الاسم الظاهر موضع الضمير حيث قال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ ولم يقل: وماهم من أنصار، لتسجيل صفة الظلم عليهم ولإشعارهم بأن من يصرف شيئا من النفقة أو النذر لغير الله يكون ظالما مشركا بالله.

قال تعالى: ﴿إن تبدوا الصّدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفّر عنكم من سيّئاتكم، والله بما تعملون خبير ۞ ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدي من يشاءُ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾

لما حذّر الله تبارك وتعالى المنفقين من المراءاة وبين أن الرياء يحبط العمل ويبطله، ذكر هنا أنّ إظهار الصدقات وإعطاءها علانية لا يضرّ صاحبها ولا يبطلها إذا قصد وجه الله عز وجل ولم يرد بذلك رياء ولا سمعة، ولم يكن في إظهارها إيذاء للمُعْطَى بل قد يكون ذلك من مصلحته، إذ قد يكون في ذلك لفت انتباه أهل الخير له لشدة حاجته، وقد امتدح الله تبارك وتعالى حينئذ إظهار الصدقة حيث يقول عز وجل هنا: ﴿إن تبدوا الصدقات فَنِعِمّاً هي﴾ أي إن تعطوا الصدقات علانية فنعم شيئا إبداؤها، وهذا في الصدقات الواجبة ظاهر وفي غير الواجبة إذا كان فيه مصلحة للمُعْطَى كما وصفت قريبا فقد يسارع أهل الخير لإعطائه فيكون الذي أعطاه أولا وأظهر عطيته له سببا في خير كثير له ويكون للذي دلّ عليه بعطائه أجرٌ مثل أجر الذين يتصدقون عليه بسببه، فقد روى مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أُبْدِعَ بي فاحملني فقال: «ما عندي»، فقال رجل: يا رسول الله أنا أدله على من يحمله، فقال رسول الله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» كما أنّ الذي يظهر صدقته لمن يُعْلَم أن الناس لا يتفطنون له ليتصدقوا عليه يكون قد سنّ سنة حسنة، فقد روى مسلم من طريق المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

في صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاةٌ عراةٌ مجتابي النِّمار أو العَباء، متقلّدي السّيوف، عامّتهم من مضر بل كلّهم من مضر، فتمَعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً، فأذّن وأقام، فصلى، ثم خطب، فقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ إلى آخر الآية ﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾ والآية التي في الحشر ﴿اتّقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد واتقوا الله﴾ «تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع برّه، من صاع تمره»، حتى قال: «ولو بشق تمرة»، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفّه تعجز عنها بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كَوْمَيْن من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيّئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». وقوله عز وجل: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أي وإن تبذلوا الصدقات سرّا وتعطوها في الخفاء فهو خير لكم مدّخر عند ربكم، وكلمة ﴿خير﴾ يحتمل أن تكون للتفضيل فيكون إعطاء الصدقة سرّا أفضل من إعطائها علنا وذلك إذا كانت الحالة واحدةً في الإبداء والإخفاء، ويخشى المتصدق على نفسه الرياء، أو إلحاق المنْفَق عليه أذى، وعلى هذا يحمل ما ورد عن رسول الله ﷺ من الحض على صدقة السّر فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظلّه، الإمام العادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى

لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه». وروى الطبراني في الكبير بإسناد وصفه المنذري في الترغيب والترهيب بأنه إسناد حسن من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السّوء، وصدقة السّر تطفئ غضب الرّب، وصلة الرّحم تزيد في العمر» اهـ ومعنى: «تزيد في العمر» أي يصير العمر مباركا يحصل لصاحبه فيه من الخير ما لا يحصل عليه غيره إلا في عمر يزيد عليه بكثير. أما إذا كان المنْفِق لا يخاف على نفسه الرياء ولا المنّ والأذى بصدقته وكان إعلان الصدقة فيه مصلحة ظاهرة للمُعْطَى كما ذكرت قريبا فإن قوله تبارك وتعالى: ﴿خير لكم﴾ لا يكون للتفضيل بل يكون المقصود منه أن إعطاء الصدقة حال الإخفاء خير من الخيرات وطاعة من جملة الطاعات، وقوله عز وجل: ﴿ويكفّر عنكم من سيئاتكم﴾ هذه قراءة عبد الله بن عامر وحفص عن عاصم أي ويستر الله عليكم أيها المنفقون ويغفر لكم من خطاياكم، والتعبير بـ (مِن) التي تفيد التبعيض ليكون العبد في مسيرته إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وأبو بكر عن عاصم: ﴿ونكفّر عنكم من سيئاتكم﴾ والواو على القراءتين للاستئناف لبيان مزيد فضل الله على عباده المنفقين ابتغاء وجهه، وقرأ نافع وحمزة والكسائي: ﴿ونكفّرْ﴾ بالنون وسكون الراء مجزوما على محل ﴿فهو خير لكم﴾ الواقعة في جواب الشرط، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ هو ترغيب وترهيب أي إن الله مطلع على جميع أحوالكم في سائر أعمالكم يعلم سركم وعلانيتكم، وإخفاءكم وجهركم فراقبوه في عموم أفعالكم وقفوا عند حدوده، واسلكوا صراطه المستقيم، ففي ذلك خير لكم في عاجلتكم وآجلتكم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولّكنّ الله يهدي من يشاء﴾ تبصير الخلق بأن قلوبهم بيد الملك الحقّ، وأن محمدا رسول

الله ﷺ وهو أفضل خلق الله قاطبة لا يقدر على تحويل قلوب العباد إلى طاعة الله ولا يملك التّصرّف والتّسلّط والسّيطـرة عليهم، لأن قلـوب العبـاد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشـاء فيهدي من أراد هدايته فضلا، ويضل من أراد إضلالـه وخذلانه عدلا، كما قـال عز وجل: ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿إن عليـك إلا البلاغ﴾ وإذا كـان محمدٌ رسـول الله ﷺ لا يملك التصرف في قلوب الخلـق ولا يمكنه أن يسيطـر على أفئدة العبـاد فهل يستطيع أحد من خلق الله سـواء كان ملكـا مقربـا أو نبيا مرسلا أو رجـلا صالحا أن يتصرف في قلوب العباد وأن يسيطـر على نفوسهم كما يـدعي بعض المنحـرفين عن الحق من المنتسبين لـلإسـلام بأن أوليـاءهم يسيطرون على الكون ويفعلـون ما يريدون، تعالى الله عما يقـولون علوّا كبيرا.

وقد روى الترمذي من طـريق شهر بن حوشب قـال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين ما كـان أكثر دعـاء رسول الله ﷺ إذا كـان عندك؟ قـالت كـان أكثر دعائه: «يـا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك». قالت: قلت: يـا رسول الله مـا أكثر دعـاءك: يا مقلب القلـوب ثبّت قلبي على دينك؟ قال: «يـا أمّ سلمة إنه ليس آدميّ إلا وقلبه بين أصبعين مـن أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ». الحديث. قال الترمذي: وفي الباب عن عائشة والنوّاس بن سمعان وأنس وجابر وعبد الله بن عمـرو ونعيم بن عمّار، قال: وهذا حديث حسن اهـ كما روى البخاري مـن طريق سالم عن عبد الله قـال: كثيرا مما كان النبيّ ﷺ يحلف: «لا، ومقلّب القلوب»، كما روى مسلم من حـديث عبد الله بن عمـرو رضي الله عنهما أنه سمع رسـول الله ﷺ يقول: «إنّ قلـوب بني آدم كلّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ، يصرّفه حيث يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرّف القلـوب صرّف قلوبنا على طاعتك»، فقوله تبارك وتعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾ للفت

انتباه المؤمنين إلى حاجتهم إلى الله عز وجل، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، وأن رسول الله ﷺ وظيفته أن يبلّغ الناس ما أنزل إليه من ربه، فعلى الناس المسارعة إلى طاعته لمصلحتهم هم، ولذلك قال عز وجل بعدها مباشرة: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾. أي وما تبذلوا من مال في وجوه الخير فنفعه لكم وعائد عليكم، وقوله عز وجل: ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي ومادمتم تخرجون صدقاتكم ابتغاء مرضاة الله فقد وقع أجركم على الله، ولن يضيع عليكم عند الله شيء من أعمال البر التي تعملونها سواء كان المعْطَى الذي طلبها مستحقا لها في نفس الواقع أو غير مستحق لأنكم لستم مطلعين على قلوب الناس ونياتهم، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل: لأتصدّقنّ الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على زانية، قال: اللهم لك الحمد، على زانية، لأتصدّقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على غني، قال: اللهم لك الحمد، على غني، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية وعلى غني وعلى سارق. فأُتِيَ فقيل له: أمّا صدقتك فقد قُبِلَتْ، أمّا الزانية فلعلها تستَعِفّ بها عن زناها، ولعل الغنيّ يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته».

قال تعـالى : ﴿للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعـون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون النّاس إلحافا، وما تنفقوا من خير فإنّ الله به عليم﴾ .

بعـد أن حضّ الله تبارك وتعـالى على التّصـدّق على الفقراء في قـوله تبـارك وتعالى : ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أرشد عز وجل هنا إلى أنه ينبغي مراعاة أشد الناس فقـرا، وهم العاجزون عن الاكتساب إما بسبب انقطاعهم للجهـاد في سبيل الله أو لطلب العلم أو عـدم قدرتهم على العمل وهم في نفس الـوقت متعفّفون حتى يظنّهـم الجاهل بأحوالهم الـذي لم يطّلع على ما هم فيـه من الفاقة أغنيـاء، وقد وصف الله تبارك وتعالى هـؤلاء الفقراء الذين خصّهم بمزيد من الحض على مـراعاتهم وبذل الصدقات لهم بخمس صفات، الصفـة الأولى : ﴿الذين أحصروا في سبيـل الله﴾ والصفة الثـانية : ﴿لا يستطيعون ضربا في الأرض﴾ والصفة الثـالثة : ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التّعفف﴾ والصفة الرابعة : ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ والخامسة : ﴿لا يسألون النّاس إلحافا﴾ ومعنى : ﴿أحصروا في سبيل الله﴾ أصل الإحصار في اللغة أن يعرض للإنسان ما يحول بينـه وبين سفره من مرض أو كبر أو عدوّ أو ذهاب نفقة أو مـا يجري مجرى ذلك، أي إنّ هؤلاء الفقراء حصروا أنفسهم ووقفـوها على الجهاد في سبيل الله لإعـلاء كلمة الله وليس لهم شيء من مـوارد العيش، فوجّـه الله تبارك وتعالى المسلمين إلى رعـاية من كان بهذه المثـابة من المسلمين لإزالـة عَيْلَتِهِم، وتقـويـة قلـوبهم، لما في ذلك من تقـوية الإسـلام بتقـويـة المجاهـدين المنقطعين للجهاد في سبيـل الله، أما الصفـة الثانية مـن صفات هؤلاء الفقـراء فهي قولـه عز وجل فيهم : ﴿لا يستطيعـون ضربا في الأرض﴾

أي لا يقدرون على التجارة وأسباب الاكتساب بالسفر لالتماس الرزق لأنهم لما حبسوا أنفسهم على الجهاد منعهم ذلك من الاشتغال بالكسب والتجارة، ولا سيما وأن الكفار كانوا مطبقين عليهم من جميع جهاتهم، أو لأنهم لا خبرة لهم بالتجارة، وأصل الضّرب في الأرض هو السير فيها والسفر كما قال عز وجل: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تقصروا من الصلاة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ الآية.

أما الصفة الثالثة من صفات هؤلاء الفقراء الذين خصّهم الله عز وجل بلفت انتباه المسلمين إلى رعايتهم وبذل المال لهم فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف﴾ أي يظنّهم الجاهل بحالهم الذي لا خبرة له بهم وبما هم عليه من الفاقة والفقر وشدة الحاجة أغنياء بسبب تعفّفهم عن سؤال الناس، وتنزّههم عن طلب شيء منهم، وقد يظهرون أمام الناس في ثياب حسنة، حتى لا يذلّوا أنفسهم لغير الله عز وجل، ولذلك لا يكاد يتفطن لهم إلا من يخالطهم، ولا يعرف فقرهم إلا من يداخلهم، ولا شك أن الله تبارك وتعالى يحب هذا التّعفف من عباده كما حضّ رسول الله ﷺ على التعفف ودعا للمتعففين، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السّفلى وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًي، ومن يستعفف يعفّه الله ومن يستغن يغنه الله» ولا شك أن أصحاب الصُّفّة من فقراء المهاجرين كانوا في أمس الحاجة إلى أن توجّه إليهم أنظار الموسرين كما كان غيرهم ممن حبس نفسه على تلقي الأحاديث من رسول الله ﷺ يكاد يقتلهم الجوع أحيانا ولا يسألون الناس شيئا، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصُّفّة ما منهم رجل

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عليه رداء، إما إزار وإما كساءٌ، قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته. كما روى البخاري من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيْتُني وإني لَأَخِرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة رضي الله عنها مَغْشِيًّا عليّ فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون وما بي من جنون، ما بي إلا الجوع. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكَبِدِي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرّ بي النبيّ ﷺ، فتبسّم حين رآني وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال: «يا أبا هرّ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الْحَقْ»، ومضى، فاتّبعته فدخل فاستأذن، فأُذِنَ لي، فدخلت، فوجد لبنا في قَدَح، فقال: «من أين هذا اللبن؟» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: «أبا هِرّ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الْحَقْ إلى أهل الصّفّة فادعهم لي»، قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنتُ أحقّ أن أصيب من هذا اللبن شَرْبَة أتقوّى بها، فإذا جاءوا أمرني فكنتُ أنا أعطيهم، وما عسى أن يَبْلُغني من هذا اللبن؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدٌّ، فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا، واستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «أبا هِرّ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «خُذْ فأعطهم»، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يَرْوَى، ثم يردّ عليّ القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتى يَرْوَى، ثم يردّ عليّ القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

رَوِيَ القوم كلّهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسّم، فقال: «أبا هِرّ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «بقيتُ أنا وأنت»، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «اقعد فاشْرَب»، فقعدت فشربت، فقال: «اشْرَبْ»، فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكا، قال: «فأرني» فأعطيته القدح فحمد الله تعالى وسمّى وشرب الفَضْلة. أما الصفة الرابعة من صفات هؤلاء الفقراء الذين حضّ الله تبارك وتعالى على مزيد العناية بهم فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ أي أنت يا محمد ومن كان ذا حسّ مرهف، وبصيرة ثاقبة وعلم بمعرفة أحوال الناس بسيماهم تعرفهم عندما تبصرهم بعلامات تتبيّن بها ما هم عليه من الحاجة والفاقة. والسِّيما والسيماء والسيمياء، والقصر لغة قريش، والسّيمياء لغة ثقيف وبعض بني أسد، والسيماء لغة بعض العرب الآخرين، ومعناها العلامة، ومنه قول ابن عنقاء الفزاريّ يمدح عُمَيْلة بن كلدة الفزاريّ الذي علم بما أصاب ابن عنقاء الفزاريّ من الدَّيْن والحاجة فقسم ماله نصفين وساهمه عليه فقال ابن عنقاء يمجّده في أبيات منها:

غلام رماه الله بالخير يافعا ... له سيمياء لا تَشُقُّ على البصر
كأن الثريّا عُلّقت في جبينه ... وفي خدّه الشِّعْرَى وفي وجهه القمر
إذا قيلت العوراءُ أغضى كأنه ... ذليل بلا ذلّ ولو شاء لانتصر
كريم نَمَتْه للمكارم حرّة ... فجاء ولا بخل لديه ولا حَصَر

أما الصفة الخامسة فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافًا﴾ أي لا يسألون الناس ألبتة فلا يتأتى منهم إلحاف ولا إلحاح، والمقصود من التقييد بالإلحاف هو ذم الملحفين في السؤال المِلحّين فيه، لأن الله يبغض ذلك، وقد روى مسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رسول الله ﷺ قال: «لا تُلحِفوا في المسألة فوالله لا يسألني أحدٌ منكم شيئا فتُخْرِج له مسألته مني شيئا وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته». كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزْعة لحم». وهذا الأسلوب البلاغي نظير قوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ أي لا شفاعة ولا طاعة لشفيع. وكما قال امرؤ القيس:

على لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بمناره إذا سافه العَوْد النّباطيّ جرجرا

فإنه يريد طريقًا غير مسلوك لا اهتداء فيها ولا منار، فقوله تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾ أي لا سؤال ولا إلحاف منهم، وذلك لما وصاهم به رسول الله ﷺ فقد روى مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانيةً أو سبعةً فقال: «ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟» وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ فقال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا الله» وأسرّ كلمة خفيفة: «ولا تسألوا الناس شيئا»، فلقد رأيت بعض أولئك النّفر يسقط سَوْطُ أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه. وقوله عز وجل: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ ترغيب وترهيب.

قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنّهار سرّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون* الذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ، ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الرّبا، وأحل الله البيع وحرّم الرّبا، فمن جاءه موعظة من ربّه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾

لما بيّن الله تبارك وتعالى في الآية السابقة أن بعض الفقراء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وأنهم لا يسألون الناس إلحافا وخصهم عز وجل بلفت انتباه المسلمين إليهم والعناية بتحريهم عند إخراج الصدقات لأن الذين يسألون الناس قد يحصلون على حاجتهم بالسؤال فينبغي التفطّن للذين لا يسألون كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان، ولا اللّقمة ولا اللّقمتان إنما المسكين الذي يتعفف، واقرءوا إن شئتم يعني قوله: ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾. وفي رواية للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين الذي تردّه الأُكْلة والأُكْلَتان، ولكن المسكين الذي ليس له غِنًى، ويستحيي أو لا يسأل الناس إلحافا». وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطّوّاف الذي يطوف على الناس فتردّه اللقمة واللقمتان والتّمرة والتمرتان» قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ «قال: الذي لا يجد غِنًى يغنيه، ولا يُفْطَن له فيُتَصدَّق عليه، ولا يسأل الناس شيئا» اهـ. رغّب هنا ذوي الغنى واليسار في أكمل

وجوه الإنفاق وهي أن يعمّموا الأوقات والأحوال بـالصدقة فيبذلون في أبواب الخير ليلا ونهارا وسرا وجهرا فمتى نزلت بهم حاجة محتاج عجّلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يعلّقوهـا بوقت من الأوقات أو حالة من الحالات ولا يضرهم أن كان ذلك سرّا أو جهرا أو ليلا أو نهارا مـا دام مقصدهم رضى الله عز وجل، حيث قال عز وجل هنا: ﴿الذين ينفقـون أموالهم بالليل والنهار سرّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن النفقة على الأهل إذا ابتغـى بها المنْفِق وجه الله عز وجـل أعطاه الله عز وجل أجر المتصدقين، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي مسعود البـدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «إذا أنفق الـرجل على أهله نفقـة يحتسبها فهي له صدقة». كما روى البخاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: «وإنـك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِـرْتَ بها حتى ما تجعل في في امرأتك» وقولـه: «في في امرأتك» يعني في فم امرأتك. كما روى مسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصـدقت به على مسكين، ودينـار أنفقته على أهلك، أعظمهـا أجرًا الـذي أنفقته على أهلك». كما روى مسلم من حديث ثَوْبـان بن بَجْدَد مولى رسول الله ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قـال: «أفضل دينار ينفقـه الرجل دينـار ينفقه على عيالـه، ودينار ينفقـه على دابته في سبيل الله، ودينـار ينفقه على أصحـابه في سبيل الله» اهـــ وبهذا ييسّر الله عـز وجل للمسلـم أسبـاب تحصيل الأجـر العظيم في جميع أوقاتـه ليلا ونهارا وسرا وجهرا مع أن بعض هـذه النفقات لا مناص له منها وهي النفقة على زوجتـه وعياله لكن الله تبارك وتعالى يحب من الرجل أن يحسن إلى زوجته وعياله، وأن يوسّع عليهم مما وسّع الله عز وجل به عليه، وبهذا يتبين لكل من له ذرةٌ من عقل أن دين الإسـلام هو الدين الذي

لا غنى للبشرية عنه وأنه منّة الله الكبرى، وبه تمام النعمة على الإنسانية عامة والمسلمين خاصة كما قال عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ ولن تجد البشرية أبدا نظاما يحميها كما يحميها نظام الإسلام وشريعة الله. وبعد هذا البيان الشافي الكافي لطرق الخير ووجوه الإنفاق وبذل الصدقات التي تعتبر دليلا واضحا على صدق المسلم في دعوى الإسلام، أعقب ذلك ببيان حكم الربا لما بين الربا والصدقة من مناسبة التضاد حيث إنّ المنفق يبذل من ماله لدفع عوز الناس ابتغاء وجه الله، وآكل الربا على عكسه تماما فهو يغتنم فرصة حاجة الناس لامتصاص دمائهم، والحصول على أموالهم، ولذلك قرن الله تبارك وتعالى في الذكر بين الصدقة والربا في غير موضع من كتابه الكريم كما في هذا المقام الكريم، وكما في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَمْحَقُ الله الربا ويُرْبِي الصدقات﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضْعِفون﴾ وبهذه المقارنة يتضح للناس الفرق بين منهج الرحمة والإحسان الذي جاء به الإسلام ومنهج الظلم والجور الذي ينتهجه من يعادي الإسلام، وأعظم الناس استغراقا في الربا هم اليهود إخوان القردة والخنازير أعداء الإنسانية ومصّاصو الدماء وآكلو السحت لعنهم الله، وهم قد قسّموا الربا إلى الربا الفاحش والربا غير الفاحش ويدعون أن الربا غير الفاحش قد شرعه لهم موسى وصموائيل كما افتراه لهم واضعو التلمود، وأن الربا الفاحش جائز مع غير اليهود لاعتقادهم أن كلّ ما على الأرض ملك لليهود وأن ما تحت يد «الأمميين» من الأموال مغتصب من اليهود، وعليهم استرداده بجميع الوسائل، وقد حرصوا على السيطرة على الاقتصاد العالمي بواسطة البنوك الربوية. وقوله عز وجل: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المسّ﴾ ليس المقصود أن المحرّم من الربا هو أكله فقط فقد أجمع علماء الإسلام على أن الربا يحرم تعاطيه مطلقا سواء كان بأكله أو لبسه أو بناء مسكن منه أو شراء مركب أو غير ذلك من سائر الاستعمالات والتصرفات، وإنما التعبير بالأكل هو نظير قوله عز وجل: ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾ ونظير قوله عز وجل: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ وذلك لأن المقصود الأهم من أخذ الأموال هو أكلها وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ما يفيد أن المقصود من أكل الربا هو تعاطيه والتعامل به حيث لعن آكله وموكله وكاتبه وشاهديه، فقد روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومُؤْكِله، وكاتبه وشاهِدَيْه وقال: «هم سواء». وأصل الربا في اللغة الزيادة وقد بين رسول الله ﷺ الأموال الربويّة التي لا تجوز الزيادة فيها ولا تأجيل قبض أحد العِوضين عند التعامل بها فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب والفضّة بالفضة، والبرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتّمر بالتمر، والملح بالملح، مِثْلا بِمِثْل، سواءً بسواءٍ، يدًا بيدٍ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد». وفي رواية لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مِثْلاً بِمِثْلٍ، يدًا بيدٍ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواءٌ». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا

مِثْلا بِمِثْل، ولا تُشِفّوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مِثْلا بِمِثْل ولا تُشِفّوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها غائبا بناجز». وقد أجمع المسلمون على أنّ كل قرض يجر نفعا فهو ربا، وقد روى البخاري من طريق أبي بردة بن أبي موسى قال: قدمت المدينة، فلقيت عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه فقال: ألا تجيء فأطعمك سويقًا وتمرًا وتدخل في بيت، ثم قال: إنك بأرض، الربا بها فاشٍ، إذا كان لك على رجل حقٌّ فأهدى إليك حِمْل تِبْن أو حِمْل شعير أو حِمْل قَتّ فلا تأخذه فإنه ربا. وقوله عز وجل: ﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبّله الشيطان من مسه إياه، قال القرطبي: وقالوا كلّهم: يبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتا عند جميع أهل المحشر ويقوي هذا التأويل المجمع عليه أن في قراءة ابن مسعود: ﴿لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم﴾ اهـ وقد جعل الله تبارك وتعالى هذه الحالة شعارا لأكَلة الربا يوم القيامة زيادة في خزيهم وتبشيعا لصنيعهم، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «رأيت الليلة رجلين، أتياني فأخرجاني إلى أرض مقدّسة فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم، وعلى شطّ النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه، فردّه حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا الذي رأيته في النهر؟ قال: آكل الربا». اهـ وما أشبه هذه العقوبة بما فعلوا إذ كان المرابون يعيشون في الدنيا على امتصاص الدماء المعنوية فعوقبوا بأن يسبحوا ويعيشوا ويعاقبوا بالانغماس في بحار من الدماء الحسية وما ربك بظلام للعبيد. وقوله عز وجل: ﴿ذٰلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرّم الربا﴾ أجمع المفسرون على أن الذين قالوا:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إنما البيع مثل الربا، هم الكفار، وقد اعترضوا على تحريم الربا، وكأنهم يقولون: لماذا أبحتم البيع وحرّمتم الربا والربا مثل البيع؟ ولكنهم لغلوّهم في الكفر والعناد قلبوا الحقائق فقالوا: إنما البيع مثل الربا فجعلوا الربا أصلاً في الحل مشبّها به والبيع فرعا في الحل مشبّها بالربا وهذا غاية انتكاس الفطرة ولذلك جاء التنصيص على التفريق بينهما حيث قال عز وجل: ﴿وأحل الله البيع وحرّم الربا﴾ والفطر السليمة والعقول المستقيمة تقرر ذلك الفرق، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله﴾ أي فمن أتته موعظة ونصيحة وإرشاد من ربّه فانزجر عن تعاطي الربا فلا عقوبة عليه فيما مضى ولا يسترد منه شيء، وهذا من براهين أن القائلين: إنما البيع مثل الربا، هم الكفار لأنهم إن ينتهوا عن الكفر ويدخلوا في الإسلام يغفر لهم ماقد سلف، بخلاف المسلم إذا تعامل بالربا فإنه يُفْسَخ عقده ويُجْبَر على رد ما زاد عن رأس ماله، ومعنى: ﴿وأمره إلى الله﴾ أي ومستقبله بيد الله يهدي من يشاء فضلا ويخذل من يشاء عدلا. وقوله عز وجل: ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ومن استمر من الكفار على كفره فأولئك أهل النار الملازمون لها المخلّدون فيها، وكلمة «عاد» تستعمل بمعنى: رجع وبمعنى استمر ومن هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين﴾.

قال تعالى: ﴿يمحق الله الرّبا ويربي الصّدقات، والله لا يحبّ كلّ كفّار أثيم* إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصّلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون* يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وذروا ما بقي من الرّبا إن كنتم مؤمنين* فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون* وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى المآل البشع الذي يؤول إليه أَكَلَة الربا، وأوضح انقلاب فطرتهم حتى قالوا: إنما البيع مثل الربا، مع الفرق الجليّ الذي يدركه كلّ من له ذرّة من عقل فجميع أمم العالم تدرك حلّ البيع، وضرر الرّبا، ورغّب هؤلاء المنتكسين في سلوك السّبيل السّوي بالرجوع إلى الله وتحليل ما أحلّ الله وتحريم ما حرّم، وأنهم إن يتوبوا إلى الله يغفر لهم ما قد سلف منهم من سيئاتهم، وما أكلوه من الربا، ورهّبهم من استمرارهم على غيّهم وضلالهم، أوضح هنا الفرق بين أثر الرّبا في محق البركات وأثر الإنفاق في سعة الثروات فقال عز وجل: ﴿يَمْحَق الله الربا ويُرْبِي الصدقات﴾ أي يُذهب الله عز وجل بركة المال الذي يتعاطى صاحبه الربا، ولا يزال ينقصه حتى يهلكه، وينمي أموال المنفقين ويبارك فيها حتى ينتفعوا بها وتزداد وتكثر مع ما يدفع الله عز وجل عن المنفقين من الآفات، وما يكفر لهم بها من السيئات، فآكل الربا يعامله الله عز وجل بنقيض قصده، فهو يتعاطى الربا ليزيد ماله من أموال الناس باجتلابها وتحصيلها فيذهب الله بركتها ويمحقها، ويجلب له بها الحسرة والهمّ في الدنيا والآخرة، وقد روى ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أحد أكثر من الربا إلا كانت عاقبة أمره إلى قلة». وفي لفظ للحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قلٍّ». وقد صححه الحاكم كذلك وأصل المحق هو نقصان الشيء حالاً بعد حالٍ ومنه المحاق بكسر الميم أو فتحها أو ضمّها وهو أن يَسْتَسِرَّ القمر فلا يُرى غدوة ولا عشيّة وسُمّي محاقا لأنه طلع مع الشمس فمحقته وأذهبت نوره وغطّته، وقوله عز وجل: ﴿والله لا يحب كلّ كفّار أثيم﴾ أي والله تبارك وتعالى يبغض من استمرأ الكفر واستمر عليه وانغمس في المعاصي ولم ينزجر بالموعظة التي جاءته من ربه، وصيغة فعّال تأتي لمجرد النّسبة كلبّان وتمّار وعطّار، وتأتي للمبالغة كسرّاق وتأتي لإفادة الاستمرار على الشيء واعتياده والإقامة عليه كما في قوله عز وجل هنا: ﴿كفّار﴾ لأن أصل الكفر يبغضه الله عز وجل ولو لم تكن فيه مبالغة، وقوله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هو ترغيب للكفار في الدخول في الإسلام بعد ترهيبهم ببغض الله لكل كفّار أثيم. وهذه لفتة يلفت بها الله عز وجل انتباه الدعاة إلى الله ألا ييأسوا عند دعوتهم أعداء الله للدّخول في دين الله، كأن الله عز وجل يقول لهؤلاء الكافرين الجاحدين المستغرقين في الربا: أقبلوا على الله واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والإثم، وآمنوا بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وافعلوا الخير وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فإنكم إن فعلتم ذلك خلّصتم أَنفسكم من النار، وفزتم بجنات النعيم وتجاوز الله لكم عما سلف منكم من الكفر والمعاصي، وعاملكم بما يعامل به عباده الصالحين ويطمئنكم عند الموت بأنكم لا تخافون فيما تستقبلونه من أهوال القيامة والفزع الأكبر وأنكم لا تحزنون على ما تخلّفونه وراءكم في الدنيا من الأولاد ولا ما فاتكم من حظوظ

لأنكم قادمون على رب كريم يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وأنه هو القائل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ أي يا أيها الذين آمنوا واستجابوا لله ولرسوله ﷺ اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بترك ما تعاقدتم عليه من ربا، ولا تأخذوا منه شيئا، وقد بينت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾ أن المسلم إذا تعامل بالربا فإنه يفسخ عقده ويجبر على رد ما زاد عن رأس ماله. والظاهر أن قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ إلى آخر آية الدّين من آخر ما نزل من القرآن لأن رسول الله ﷺ قد خطب في حجة الوداع وأمر بوضع الربا وذكر ﷺ في خطبته أن ربا الجاهلية موضوع وأن أوّل ربا يضعه هو ربا عمه العباس رضي الله عنه فقد روى مسلم في صحيحه في قصة حجة الوداع من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما قال: حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِلَتْ له فأتى بطن الوادي، فخطب الناس، وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ـــ وكان مُسْتَرْضَعًا في بني سعد فقتلته هُذيل ـ وربا الجاهلية موضوعٌ، وأول ربا أضع من ربانا: ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كلّه» الحديث، وقوله تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية الكريمة: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ هو للحض على سرعة الامتثال لأن الله عز وجل أثبت لهم الإيمان في صدر الآية فكان قوله في نهايتها: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي فسارعوا إلى امتثال ما يأمركم به الله،

لِعِلْمِكم أنه لا يأمركم إلا بما فيه الخير لكم في دينكم ودنياكم. وقوله عز وجل: ﴿فإن لم تفعلوا فأْذَنُوا بحرب من الله ورسوله﴾ أي فإن لم تذروا ما بقي من الربا فكونوا على علم بأنّ الله محاربكم وأن رسوله محمدا ﷺ محاربكم، والويل كلّ الويل لمن حاربه الله ورسوله، ولا شك أن هذا غاية في التهديد والوعيد على تعاطي الربا، فإن من حاربه الله ورسوله ﷺ محروب مدحور مقهورٌ لا محالة، وقد جاء نظير هذا التهديد فيمن عادى وليا من أولياء الله، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب..» الحديث. وقد تقدم قريبا، ووصف قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله حيث قال: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خِلاف أو يُنْفَوْا من الأرض﴾ وقد نص غير واحد من أئمة أهل العلم على وجوب حرب أَكَلَة الربا فإن كانوا يعتقدون حلّ الربا فإن قتالهم قتال المرتدين، وإن كانوا يتعاملون به مع اعتقاد أنه حرام فقتالهم قتال البغاة، وقال ابن جرير رحمه الله: حدثني المثنى قال: حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا﴾ إلى قوله: ﴿فَأْذَنُوا بحرب من الله ورسوله﴾ فمن كان مقيما على الربا لا ينزع عنه فحقّ على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه اهـ وقوله عز وجل: ﴿وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون﴾ أي وإن رجعتم إلى الله عز وجل ونزعتم عن تعاطي الربا وعزمتم على الابتعاد عن أوضاره وآثامه فلا تأخذوا مما زاد عن رءوس أموالكم شيئا وإذا فعلتم ذلك كنتم غير ظالمين ولا مظلومين في هذا الباب، ولا شك أن تعاطي الربا محرّم في شرائع الأنبياء قبل الإسلام. وقد نص على ذلك كتاب الله تبارك وتعالى حيث يقول

عز وجل : ﴿وأَخْـذِهِمُ الربا وقـد نُهُوا عنه﴾ ولم يبحه الإسلام قط ، وقـد ذكر الله تبارك وتعالى التنـديد به في سورة الروم وهي مكيـة حيث يقول عز وجل : ﴿وما آتيتـم من ربا ليربو في أموال الناس فـلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريـدون وجه الله فأولَئك هم المُضْعِفـون﴾ أي الذين يضـاعف الله لهم الأجر والمثوبة ، وقوله عز وجل : ﴿وإن كان ذو عسرة فنَظِرَة إلى ميسرة ، وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمـون﴾ أي وإن كـان المدين لكم معسرا لا يجد سـداد مالكم عليه من دين أو رأس مـال مما أبحت لكم فعليكم أن تُنْظِروه وتصبروا عليه حتى ييسّر الله له ويجد سدادا ويتمكن من قضـاء حقكم عليه ، وقوله : ﴿وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي وأن تتصدّقوا برؤوس أموالكم أو بعضها مما لكم على هـذا المعسر فإنه أفضل لكم وأحبّ إلى الله عز وجل ، ولـو كنتم تعلمـون مـا لكم من الفضل عنـد الله إن تجاوزتـم عن هـذا المعسر بحقكم أو بعض حقكم لسارعتم إلى ذلك ــ وقد روى مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أنه طلب غريما له فتوارى عنه ثم وجده فقال : إني معسر، قال : الله ، قال : الله ، قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من سره أن ينجيه الله من كـرب يوم القيامـة فلينفّس عن معسر أو يضع عنه» . كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : «تلقّت الملائكة روح رجل ممن كـان قبلكم ، فقالـوا : عملت من الخير شيئا؟ قال : لا. قالوا : تذكّر، قال : كنت أُدَاينُ الناس فآمر فتياني أن يُنْظِروا المعسر ويتجوّزوا عن الموسر، قال : قال الله : تجاوزوا عنه» . وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كان رجـل يداين النـاس ، وكان يقـول لفتاه : إذا أتيت معسرا فتجـاوز عنه لعلّ الله عـز وجل يتجاوز عنا ، فلقـي الله فتجاوز عنه» وفي روايـة لمسلم من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «حوسب

رجلٌ ممن كان قبلكم فلم يوجد لـه من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرا، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال الله تعالى: نحن أحقّ بذلك، تجاوزوا عنه» وروى مسلم في قصة حديث جابر رضي الله عنه الطويل من طريق عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أوّلُ من لقينا أبا اليَسَر صاحب رسول الله ﷺ ومعه غلام له، معه ضِمامةٌ من صُحُفٍ، وعلى أبي اليَسَر بُرْدة ومَعَافِريّ، وعلى غلامه بُرْدة ومَعَافِريّ، فقال له أبي: يا عمّ إني أرى في وجهك سَفْعَة من غضب، قال: أجل، كان لي على فلان بن فلان الحراميّ مال، فأتيت أهله فسلمت فقلت: ثَمَّ هو؟ قالوا: لا. فخرج عليّ ابن له جَفْرٌ فقلت له: أين أبوك؟ قال: سمع صوتك فدخل تحت أريكة أمي، فقلت: اخرج إليّ فقد علمت أين أنت فخرج، فقلت: ما حملك على أن اختبأت مني؟ قال: أنا والله أحدّثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أحدّثك فأكذبك، وأن أعدك فأخلفك، وكنت صاحب رسول الله ﷺ، وكنتُ والله معسرًا. قال: قلت: آلله قال: الله، قلت: آلله قال: الله، قلت: آلله. قال: الله، قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيده فقال: إن وجدت قضاءً فاقضني وإلا أنت في حِلّ، فأشهد بَصَرُ عيني هاتين ووضع إصبعيه على عينيه وسَمْعُ أذنيّ هاتين ووعاه قلبي هذا وأشار إلى مناط قلبه رسولَ الله ﷺ يقول: «من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله».

قال تعالى: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾

قد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ أن الظاهر أن قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ إلى آخر آية الدَّيْن، من آخر ما نزل من القرآن، وقد أشار البخاري رحمه الله إلى ذلك حيث قال: بابٌ: ﴿واتقوا يوما تُرْجَعُون فيه إلى الله﴾ حدثنا قَبِيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن عاصم عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: كذا ترجم المصنّف بقوله: ﴿واتقوا يوما تُرْجَعُون فيه إلى الله﴾ وأخرج هذا الحديث بهذا اللفظ ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس، فإنه جاء عنه ذلك من هذا الوجه، وجاء عنه من وجه آخر: آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾ أخرجه الطبري من طرق عنه، وكذا أخرجه من طرق جماعةٌ من التابعين، وزاد عن ابن جريج قال: يقولون: إنه مكث بعدها تسع ليال. ونحوه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، ورُوِي عن غيره أقل من ذلك وأكثر، فقيل: إحدى وعشرين، وقيل سبعا، وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزّلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن اهـ وقد وسّط الله تبارك وتعالى هذه الآية العظيمة بين آيات الربا وآية الدَّيْن للفت انتباه الناس إلى أن الدِّين هو التوقي في المعاملات والحرص على اكتساب الحلال والحذر كلّ الحذر من تعاطي الربا وسائر المحرمات، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الربا من الكبائر ومن السبع الموبقات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وماهنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». كما روى البخاري من طريق عَوْن بن أبي جُحَيْفة عن أبيه رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا ومُوكِلَه ونهى عن ثمن الكلب وكسب البَغيّ، ولَعَن المصوّرين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿واتقوا يوما تُرْجَعُون فيه إلى الله ثم تُوَفَّى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي واحذروا أيها الناس يوما يجعل الولدان شِيبًا تُرَدُّون فيه إلى الله عز وجل وتقفون بين يديه بأعمالكم من خير أو شر، فيجازي كلّ نفس بما كسبت. قال ابن جرير رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه: واحذروا أيها الناس يوما ترجعون فيه إلى الله فتلقونه فيه، أن تَرِدُوا عليه بسيّئات تهلككم أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم فتهتك أستاركم، أو بموبقات توبقكم فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قِبَلَ لكم به، وإنه يوم مجازاة بالأعمال لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، تُوَفَّى فيه كلّ نفس أجرها على ما قدّمت واكتسبت من سيّئ وصالح لا تُغادَر فيه صغيرة ولا كبيرةٌ من خير وشرّ إلا أحضرت، فوفّيت جزاءها بالعدل من ربها، وهم لا يظلمون، وكيف يظلم من جوزي بالإساءة مثلها وبالحسنة عشر أمثالها؟ كلا، بل عَدَلَ عليك أيها المسيء، وتكرّم عليك فأفضل وأسبغ أيها المحسن، فاتّقى امرؤ ربّه، وأخذ منه حذره، وراقبه أن يهجم عليه يومه وهو من الأوزار ظهره ثقيل، ومن صالحات الأعمال خفيف، فإنه عز وجل حذّر فأعذر، ووعظ فأبلغ اهـ وقد حذّر الله تبارك وتعالى الناس من أهوال يوم القيامة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الوِلدان شِيبًا* السماء مُنْفَطِر به كان وعدُه مفعولاً﴾ وكما

قال عز وجل: ﴿يـا أيها الناس اتقوا ربكم ، إنّ زلزلـة الساعة شيء عظيم* يوم تـرونها تَذْهَل كلّ مُرْضِعة عما أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملهـا وترى النـاس سكارى ومـا هم بسُكـارَى ولَكنّ عذاب الله شـديـد﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها* وأخـرجت الأرض أثقالها* وقال الإنسان مـالها* يومئـذ تحدّث أخبارهـا* بأن ربّك أوحى لها* يومئـذ يصدر النـاس أشتاتا لِيُرَوْا أعمالهم* فمن يعمل مثقـال ذرة خيرا يره* ومن يعمل مثقال ذرة شرا يـره﴾ وقد روى البخـاري ومسلم من حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظـة فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غُرْلاً ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ ألا وإن أول الخلائق يُكْسَى إبراهيم عليه السلام، ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي، فيؤخـذ بهم ذات الشّمال، فأقول: يا رب أصحـابي، فيقول: إنك لا تـدري ما أحـدثوا بعـدك؟ فأقول كما قـال العبد الصـالح: ﴿وكنتُ عليهم شهيـدا ما دمتُ فيهم﴾ إلى قـوله: ﴿العـزيز الحكيم﴾» إلى آخـر الحديث. والمراد بقوله: «أصحابي»، أي إنهم من أمتي، كما روى البخاري ومسلم من حديث عـائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاةً عراةً غـرلاً». قالت عائشة: فقلت: الرجـال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قـال: «الأمر أشد من أن يهمّهُم ذلـك» وفي رواية: «من أن ينظر بعضهم إلى بعض» كما روى الطبراني في الأوسط بـإسناد صحيح من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر النـاس يـوم القيامـة عـراةً حفـاةً» فقالـت أمّ سلمة فقلت: يـا رسـول الله، واسَـوْأتـاه، ينظـر بعضنـا إلى بعض، فقـال: «شُغِلَ النـاس»، قلت: مـا شغلهم؟ قال: «نشر الصحـائف، فيها مثاقيل الـذَّرّ ومثاقيل الخرْدل». كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الله، قال الله تعالى: ﴿الذين يُحْشَرون على وجوههم إلى جهنم﴾ أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه؟» قال قتادة حين بلغه: بلى وعزّة ربّنا. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْرَق الناس يوم القيامة حتى يذهب في الأرض عرقهم سبعين ذراعا، وإنه يُلْجِمهم حتى يبلغ آذانهم». وفي رواية لمسلم من طريق سُلَيم بن عامر حدثني المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشّمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل» قال سليم ابن عامر: فو الله ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض؟ أم الميل الذي تكتحل به العين؟ قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيْه، ومنهم من يُلْجِمُه العرق إلجاما» قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. وقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك» قلت: أو ليس يقول الله: ﴿فسوف يُحَاسَبُ حسابا يسيرا﴾؟ فقال: «إنما ذلك العَرْض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك». كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله يدني المؤمن، فيضع عليه كَنَفَه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربّ، حتى قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾» كما روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «هل تدرون مما أضحك؟» قال: قلنا: الله

ورسوله أعلم قال: «من مخاطبة العبد ربّه، يقول: يا ربّ ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين عليك شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله ثم يخلّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعدًا لكنّ وسحقًا فعنكنّ كنت أناضل». كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرّهيط، والنبيّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيّ ليس معه أحد، إذ رفع لي سوادٌ عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمّتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلّهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلّهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يَرْقُون ولا يسترقون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عُكّاشة بن مِحْصَن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم» ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكّاشة».

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علّمه الله، فليكتب وليملِلِ الّذي عليه الحقّ وليتّق الله ربّه ولا يبخس منه شيئا، فإن كان الّذى عليه الحقّ سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملل وليُّه بالعدل، واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشّهداء أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى، ولا يأب الشّهداء إذا ما دُعُوا، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله، ذالكم أقسطُ عند الله وأقومُ للشّهادة وأدنى ألاّ ترتابوا إلاّ أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم فليس عليكم جُناح ألاّ تكتبوها، وأشهدوا إذا تبايعتم، ولا يضارّ كاتب ولا شهيد، وإن تفعلوا فإنّه فسوق بكم، واتّقوا الله ويعلّمكم الله، والله بكلّ شيء عليم.﴾

هذه أطول آية في كتاب الله، وتسمّى آية الدَّيْن، وقال ابن جرير رحمه الله : حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : أخبرني يونس عن ابن شهاب قال : حدثني سعيد بن المسيب أنه بلغه أنّ أحدث القرآن بالعرش آية الدين اهـ ويكاد أهل العلم يطبقون على الاحتجاج بمراسيل سعيد بن المسيب لأنها فتشت فوجدت كلّها مسانيد قد رواها عن الصحابة رضي الله عنهم، وقد وضعت هذه الآية الكريمة قواعد توثيق المعاملات، وأسباب صيانة الحقوق، وحفظ الأموال التي جعلها الله تبارك وتعالى قياما للناس، وبضبط هذه القواعد يُقْضَى على كثير من المنازعات التي تشتّت شمل الناس، ولما كانت الآيات السابقة قد حذّرت أشدّ التحذير من تعاطي الربا، فقد أذن الله تبارك وتعالى في السَّلَم بهذه الآية الكريمة. والسَّلَم هو بيع موصوف في الذمة إلى أجل ببدل يُعْطَى عاجلاً. وقد عوض الله تبارك

وتعالى المسلمين عن الربا بالسلم واستثناه من قاعدة الربا، وهو يجمع ما قد يكون في الربا من نفع مع كثرة خير السّلم وبركته ومنافعه فإنّ الإنسان إذا كان لديه مال فبدل أن يتعاطى فيه بالربا فقد أذن الله له أن يشتري به قمحا أو شعيرا أو أرزا أو تمرا أو غير ذلك من إنسان محتاج للنقد إلى أجل معلوم فيحصل للمحتاج ما يريده من النقد بما يدفعه للمشتري عند حلول الأجل، فيستفيد البائع والمشتري جميعا ولا يلحق أحدا منهما غَبْن ولا ظلم، وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى ما حرّم لذّة ولا منفعةً إلا وقد وضع للمسلمين من التشريع ما يبيح للمسلمين مثل هذه اللذات والمنافع الخالية من الأوضار والأضرار، فإنه عندما حرّم الربا أباح السّلم وعندما حرّم الزنا شرع الزواج، وقد أغلق الإسلام جميع الأبواب التي تؤدي إلى أكل أموال الناس بالباطل، فحرّم اكتساب المال من طريق الربا أو الرشوة أو التزوير أو الغصب أو الخداع أو الغَرَر أو تلقي الركبان أو المزابنة أو بيع الثمار قبل بُدُوّ صلاحها. ووضع قواعد الأموال الربوية كما ذكرت قريبا، كما أنه شرع للمسلمين من طرق اكتساب الأموال واستثمارها ما يغني ويكفي ويشفي، ويسد حاجة الناس على اختلاف أحوالهم وطبائعهم ومعارفهم وقدراتهم، وقد أوضحت الشريعة الإسلامية أنه لا ينعقد البيع إلا إذا كان عن تراض، وأن يكون العاقد جائز التصرف وأن يكون المبيع مالا، يصح الانتفاع به، من غير ضرورة، وأن يكون المبيع مملوكا للبائع أو مأذونا له في بيعه، وأن يكون مقدورا على تسليمه، وأن يكون معلوما برؤية أو صفة تحصل بها معرفته وأن يكون الثمن معلوما. ورخصت الشريعة الإسلامية في أنواع من المعاملات توسعة على المسلمين ودفعا للأذى والضرر عنهم وسدّا لحاجتهم، فاستثنت بيع العرايا لمّا حرمت الربا والمزابنة، وشرعت كذلك نظام السّلم واستثنته من قاعدة منع بيع الإنسان ما ليس عنده، كما شرعت المضاربة وألوانا من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشركات وفيها وفي السّلم أبواب واسعة لاستثمار الأموال أحسن استثمار دون مضرة تلحق أحد الطرفين، فلم تجعل الفائدة لأحد المتعاقدين والخسارة على أحدهما كالربا، وبمقارنة المعاملات المشروعة بالمعاملات المحرمة يتضح أن هذا التشريع هو تشريع العليم الحكيم الخبير، ولم تحرّم الشريعة شيئا إلا لدفع ما فيه من الأذى والمفاسد، ولم تبح شيئا إلا وفيه ما لا يحصى من المصالح والمنافع والفوائد، وذلك كلّه في إطار قاعدة شرعية مطّردة وهي أن درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح وأنه لا ضرر ولا ضرار. والمتمعّن في آية الدين هذه وما اشتملت عليه من القواعد والفوائد يحسُّ أنه أمام نوع من الإعجاز التشريعي الذي أنزله الله تعالى على النبي الأمي معلّم البشرية منهج سعادتها محمد ﷺ وقد ذكر القرطبي رحمه الله في هذه الآية اثنتين وخمسين مسألة وذكر أنها تتناول جميع المداينات بالإجماع. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ أي إذا تعاملتم وتبايعتم بدين أو اشتريتم به إلى وقت معلوم وَقَّتموه بينكم من سَلَم أو غيره مما فيه أحد العِوَضَيْن مؤجلا، فاكتبوا الدّين الذي تداينتموه إلى أجل واجعلوا به صَكًّا لحفظ حقوقكم وقطع منازعاتكم. وحقيقة الدَّيْن عبارة عن كل معاملة يكون أحد العوضين فيها نقدا والآخر في الذمة نسيئة. والعرب يطلقون على الحاضر النقد والعين وعلى الغائب الدين وفي ذلك يقول الشاعر عندما رأى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لما قال له جماعة من السبئية: أنت الله، فأمر رضي الله عنه مولاه قنبرا فحفر حفرتين وملأهما نارا وألقى فيهما من تحقق لعلي رضي الله عنه أنه على هذا المذهب الخبيث فقال الشاعر:

لترم بي الحوادث حيث شاءت ... إذا لم ترم بي في الحفرتين

إذا ما أوقدوا حطبا ونارا ... فذاك الموت نقدا غير دين

ولا شك أن كتابة الدين ليست شرطا في صحة عقد المداينة، كما أن

الجديد و طريف NEW & EXCLUSIVE

الإشهاد على عقد البيع ليس شرطا في صحـة عقد البيع، وقد روى البخاري من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكـر رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلِفَه ألف دينار فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدا، قـال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيـلا، قال: صـدقت، فـدفعهـا إليه إلى أجل مسمـى، فخرج في البحـر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يركبهـا يَقْدَمُ عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مـركبا، فأخـذ خشبة فنقـرهـا فأدخل فيها ألف دينـار وصحيفة منـه إلى صاحبه، ثم زجّج موضعهـا، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلّفت فلانـا ألف دينار فسألني كفيلا فقلت: كفى بـالله كفيلا، فـرضي بك، وسألني شهيـدا فقلت: كفى بالله شهيـدا، فـرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذي له فلم أقدر وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهـو في ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظـر لعلّ مركبًا قد جاء بماله، فإذا بـالخشبـة التي فيهـا المال، فأخـذهـا لأهله حطبـا، فلما نشرهـا وجـد المال والصحيفة، ثـم قدم الذي كـان أسلفه، فأتـى بالألف دينـار، فقال: والله مازلت جـاهدا في طلب مركب لآتيـك بمالك، فما وجدت مركبـا قبل الذي أتيت فيـه، قال: هل كنتَ بعثتَ إليّ بشيء؟ قـال: أخبرك أني لم أجد مـركبا قبل الـذي جئت فيه، قـال: فإن الله قـد أدى عنك الذي بعثت في الخشبـة فانصرف بالألف الـدينار راشدا. وقوله عـز وجل: ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ أي وليحرّر الصكّ بالدين كاتب فقيه مستقيم يتحرى الحقّ ويخاف الله عز وجل فـلا يكتب إلا ما يتفق عليـه الطرفـان لا يزيـد شيئا ولا ينقص شيئا، ولا يكتفي بكلام أحدهما، ويحرر العبارة تحريرا يدفع اللّبس، ويجتنب الكلمات الموهمة لأكثر من معنى، وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿ولا يأب كاتب أن

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يكتب كما عَلَّمَه الله، فليكتب ولْيُمْلِلِ الذي عليه الحق وليتّق الله ربه ولا يَبْخَسْ منه شيئا﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة عن الكتابة لأنه تعاون على البر والتقوى وليحرص على أن تكون كتابته على ما يرضي الله عز وجل الذي تفضل عليه وعلمه الكتابة، فليلتزم هو بتحرير العبارة القاطعة للنزاع فقط دون أن يكون له هوى لأحد الطرفين المتعاقدين، وعليه أن يسمع ما يمليه عليه الذي عليه الدَّيْن المطالب بالحق لأنه المقر به الملتزم له، فلو قال له الذي له الحق: لي كذا وكذا، لا يكتب كلامه حتى يقر به الذي عليه الحقّ؛ لأنّ الإقرار حجة قاصرة على المقر وحده. وعلى هذا المملي أن يخاف الله عز وجل وأن لا يأتي بعبارة موهمة قد تجلب النزاع عند المطالبة، فالواجب كتابة الدين بجميع صفاته المبيّنة له المعربة عنه المعرّفة للحاكم بحقيقة الحال إذا قدّر للمتداينين أن يترافعا إليه. والتنصيص على أن يكون الكاتب غير الطرفين المتداينين لإزالة التهمة، قال القرطبي: ولم يقل أحدكم، لأنه لما كان الذي له الدّين يتّهم في الكتابة الذي عليه الدين وكذلك بالعكس شرع الله سبحانه كاتبا غيرهما يكتب بالعدل لا يكون في قلبه ولا قلمه هوادة لأحدهما على الآخر اهـ والإملال والإملاء أن يقول القائل كلاما فيكتبه الكاتب عنه. والبَخْس: النقص والظلم والمكْس، وهذا غاية في التوثيق وإقامة العدل.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإن كان الذي عليه الحقّ سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يُمِلّ هو فلْيُمْلِلْ وليُّه بالعدل﴾ أي فإن كان المدين قادرا على الإملاء لكنه لا يُقْبَل إملاؤه لكونه سفيها أو ضعيفا، أو كان غير قادر على الإملاء لخَرَس أو لِعِيّ أو لجهل باللغة فليملل وليه بالعدل، والسفيه هو المبذّر المتلف لماله المحجور عليه، والضعيف هو الصغير والشيخ الهرِم والمجنون، فليتولّ وليّه الإملاء على الكاتب بدلا من الذي عليه الدّين، والمراد بوليه من يلي أمره ويقوم مقامه من قيّم أو وكيل أو مترجم ممن ينصبهم الحاكم

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

الشرعي ويقيمهم مقامه في التصرف في ماله عنه، وقد أجمع العلماء على أن تصرّف السفيه المحجور عليه دون إذن وليّه فاسد مفسوخ أبدا، لا يوجب حكمًا ولا يؤثّر شيئا كما قال القرطبي رحمه الله. أما إذا كان الرجل يُخْدَع في البيوع فإنه يصحّ عقده ويصح إملاؤه إذا اشترط عند العقد أنه لا خِلاَبَة فإنه يكون له الخيار إذا ثبت الغبن، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر رجلٌ لرسول الله ﷺ أنه يخدعُ في البيوع فقال: «إذا بايَعْتَ فقل: لا خِلاَبَة» وقد أورده البخاري في باب ما يكره من الخداع في البيع من طريق عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رجلا ذُكر للنبي ﷺ «أنه يخدع في البيوع فقال: إذا بايعت فقل: لا خِلابة». وفي لفظ لمسلم: أنه كان يقول: لا خِيَابة. فيقلب اللام ياءً. قال الحافظ في الفتح: وكأنه كان لا يفصح باللام للثغة لسانه، ومع ذلك لم يتغير الحكم في حقه عند أحد من الصحابة الذين كانوا يشهدون له بأن النبي ﷺ جعله بالخيار اهـ وهذا الرجل هو حَبَّان بن منقذ بن عمرو الأنصاريّ رضي الله عنه كما ذكر ابن الجارود في المنتقى. ومعنى: يُخْدَع، أي يُغَرّ ويُغْبَن. ومعنى: لا خلابة، أي لا خديعة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممّن ترضون من الشهداء أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى﴾ أي واستحضروا عند تحرير صك الدّين ذكرين بالغين عاقلين من المسلمين ليتحمّلا الشهادة يكونان معروفين بالضبط والقدرة على ذلك، ولم يقل: شاهدين، وقال: ﴿شهيدين﴾ للإشعار بأنهما متمكنان من تحمل الشهادة قادران على أدائها، وقوله عز وجل: ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾ أي فإن لم تحضروا شاهدين من الرجال فليشهد رجل وامرأتان، فجعلت الشريعة الإسلامية شهادة المرأتين بشهادة رجل واحد، وذلك لأن الله تبارك

وتعالى جعل فطرة المرأة وطبيعتها دون جبلّة الرجل وطبيعته وخلقته، فكان الرجل بما جبله الله عز وجل أقوى جسما وأكبر دماغا وأوسع عقلا وأقوى عضلا وأعظم استعدادا لشئون الحياة وأقدر على تحمّل مختلف الأعمال وجعل غُدَد المرأة أكثر رطوبة وأضعف تحملا، واختص النساء بالحيض والحمل والرضاع وحضانة الأطفال، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى الرجال قوامين على النساء، وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمرّ على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدّقن فإني أُرِيتُكُنّ أكثر أهل النار» فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أَذْهبَ للبّ الرجل الحازم من إحداكنّ» قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصلّ ولم تصم؟» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان دينها». وأخرج مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء تصدّقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكنّ أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهنّ جزلةٌ: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكنّ». قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال: «أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ماتصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدّين». وقوله عز وجل: ﴿ممّن ترضون من الشهداء﴾ الظاهر من الأساليب البلاغية الملاحظة في القرآن الكريم أن هذا القيد يشمل جميع الشهود من الرجال والنساء في الحقوق وغيرها، وذلك أنه قد يذكر أشياء فيقيّد بعضها بقيد ويترك تقييد الآخر فلا يقيده بهذا القيد مع

أنه مرادٌ تقييده به فيكتفي بالمذكور عن المحذوف، ومثال ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون* الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين﴾ فقد قيّد العشرين بأنهم صابرون ولم يقيد بها المائة في قوله عز وجل: ﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا﴾ مع أن هذا القيد مرادٌ، وقيد المائة بقيد الصبر في قوله عز وجل: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ ولم يقيد بها الألف في قوله عز وجل: ﴿وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾ مع أن هذا القيد مراد مع الألف أيضا، وكذلك قيد الألف المغلوب بقيد الكفر في قوله: ﴿يغلبوا ألفا من الذين كفروا﴾ ولم يقيد بهذا القيد المائتين المغلوبتين في قوله عز وجل: ﴿يغلبوا مائتين﴾ وكذلك الألفين المغلوبين في قوله عز وجل: ﴿يغلبوا ألفين﴾ مع أن قيد الكفر مرادٌ فيهما، وقيّد قوله عز وجل: ﴿وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾ بقوله تعالى: ﴿بإذن الله﴾ مع أن هذا القيد مراد في الجميع، وهذا من الأساليب البلاغية التي اعتبرت في إعجاز القرآن وهو معروف في البلاغة باسم الاحتباك، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أن تضلّ إحداهما فتُذَكّر إحداهما الأخرى﴾ أي أن تنسى إحدى الشاهدتين وتتردّد في استذكار الشهادة فتذكّرها الشاهدة الثانية، وهذا بسبب الرطوبة التي تغلب على تكوين غدد النساء لتكون ألطف في معاملة أطفالها ومَن تحت يدها مِن خدم، ولتدخل على زوجها الأنس لما قد يلقاه من متاعب الحياة. قال الكرخيّ: من شأن العرب إذا كان للعلة علةٌ قدّموا ذكر علة العلة وجعلوا العلة معطوفة عليها بالفاء لتحصل الدّلالتان معًا بعبارة واحدة كقولك: أعددت الخشبة أن يميل الجدار فأُدْعِمَه بها،

فالإدعام علّة في إعداد الخشبة . والميل علة الإدعام ، وإيضاحه أنك لم تقصد بإعداد الخشبة ميل الحائط وإنما المعنى : لأدعم بها إذا مال ، فكذلك الآية ، وهذا مما يعوّل فيه على المعنى ويهجر فيه جانب اللفظ ، فلا يرد : كيف جعل ﴿أن تضلّ﴾ عِلة لاستشهاد المرأتين بدل رجل مع أن علّته إنما هي للتذكير اهـ قال القرطبي رحمه الله : قال أبو عبيد : معنى تضل تنسى ، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء ، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالا ، ومن نسي الشهادة جملة فليس يقال : ضلّ فيها اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولا يأب الشهداء إذا مادُعُوا﴾ أي ولا يمتنع الشاهد عن أداء الشهادة إذا طُلِب لأدائها عند الحاكم فالشاهد يمشي للحاكم كما قيل في أمثال العرب : في بيته يُؤْتَى الحَكَمُ . ولا شك أن صاحب الحق إن لم يكن تمكينه من حقه إلا بهذا الشاهد فإن أداء الشهادة يكون واجبا ، ويأثم الشاهد إن لم يشهد ، ولو علم الشاهد بحق ولم يذكره صاحب الحق ولم يكن له غيره فإنّ الشاهد إذا حضر وأقام الشهادة لله كان خير الشهداء ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسْأَلَهَا» . وقوله عز وجل : ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله﴾ أي ولا تملّوا أن تكتبوا صك الدين على أي حال كان من القلة أو الكثرة وتحددوا فيه الأجل المسمى ، وهذا الإرشاد والتوجيه يشعر بخطورة الدّين ووجوب صيانة الأموال التي جعلها الله للناس قياما ، وقد حذرت الشريعة الإسلامية من عدم تسديد الدّين أشد التحذير ، فقد روى مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر يكفّر الله عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم»فلما أدبر ناداه . فقال : «نعم إلا الدّين ، كذلك قال جبريل» كما روى

مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين». وقد بشر رسول الله ﷺ من أخذ أموال الناس وهو عازم على قضائها بأن ييسّر الله عز وجل عليه سدادها، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله».

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذالكم أقسط عند الله وأقوم للشّهادة وأدنى ألاّ ترتابوا﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من كتابة صَكّ بالدين وتحرير أجله والإشهاد عليه وأن لا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله هو أعدل عند الله عز وجل وأصحّ وأحفظ وأضبط للشهادة وأقرب ألا تشكّوا في جنس الدّين وقدره وأجله وشهوده، يقال: أقسط الحاكم فهو يقسط إقساطا إذا عدل في حكمه وأصاب الحق فيه، ويقال قسط فلان: إذا جار وظلم وتعدى، وقد استعمل القرآن العظيم أقسط بمعنى عدل، وقسط بمعنى جار حيث يقول عز وجل: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتُقْسِطوا إليهم، إنّ الله يحبّ المقسطين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقْسِطين﴾ وقال عز وجل: ﴿وأنّا منا المسلمون ومنّا القاسطون فمن أسلم فأولّئك تَحَرَّوْا رَشَدًا* وأما القاسطون فكانوا لجهنّم حطبا﴾ ولفظ القسط في اللغة من الأضداد يطلق على معنى العدل وعلى معنى الجَوْر ومصدر قسط بمعنى جار القُسُوط يقال: قسَط يَقْسِط قسوطا إذا جار، قال العلامة ابن منظور في لسان العرب: وأقسط في حكمه: عدل فهو مقسط. وفي التنزيل العزيز: ﴿وأقسِطُوا إن الله يحب المقسطين﴾ والقِسْط الجَوْرُ، والقُسُوط: الجورُ والعدولُ عن الحق، وأنشد:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يشفي من الضِّغْن قُسُوط القاسط

قال: هو من قسَط يَقْسِط قُسُوطًا اهـ ﴿وأقوم للشهادة﴾ أي أصوب لها، قال ابن جرير رحمه الله: وأصله من قول القائل: أقمتُ من عوجه إذا سويته فاستوى، وإنما كان الكتاب أعدل عند الله وأصوب لشهادة الشهود على ما فيه، لأنه يحوي الألفاظ التي أقر بها البائع والمشتري وربّ الدّين والمستدين على نفسه، فلا يقع بين الشهود اختلاف في ألفاظهم بشهادتهم لاجتماع شهادتهم على ما حواه الكتاب، وإذا اجتمعت شهادتهم على ذلك كان فصل الحكم بينهم أبين لمن احتكم إليه من الحكام، مع غير ذلك من الأسباب، وهو أعدل عند الله لأنه قد أمر به، واتّباع أمر الله لا شك أنه عند الله أقسط وأعدل من تركه والانحراف عنه اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إلا أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألاّ تكتبوها﴾ بعد أن أكّد الله تبارك وتعالى على المسلمين إذا تداينوا بدين أن يكتبوه وأن يشهدوا على صك الدين، وألا يسأموا أن يكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله رخّص هنا للباعة والمشترين المتعاملين بالعوضين الحاضرين يدا بيد في ترك كتابة صك بمعاملتهم لأن البائع يقبض الثمن والمشتري يقبض السلعة قبل المفارقة، فلا حاجة لهم في كتابة صك بهذه المبايعة الحاضرة التي من شأنها أن تدار بين التجار، حيث يقول عز وجل: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ وقد قرأ عاصم: ﴿إلا أن تكون تجارةً حاضرةً﴾ بنصب تجارة وبنصب حاضرة، على أن اسم كان ضمير مستتر يعود على المعاملة المفهومة من السياق وتجارةً خبرها وحاضرة صفة لتجارة، وقرأ بقية السبعة برفع تجارة على أنّ كان تامة بمعنى: وقع وحدث، أي إلا أن تقع تجارة حاضرة، وإلى هذا ذهب الأخفش، واعتبرها بعض أهل العلم كان الناقصة وتجارة اسمها وحاضرة صفة تجارة، والخبر جملة تديرونها بينكم فهي

في محل نصب خبر كان الناقصة. وفي قوله عز وجل: ﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ يشعر بوجود الحرج والجناح إذا كانت المعاملة فيها دين إلى أجل مسمى ولم تكتب، وقوله عز وجل: ﴿تديرونها بينكم﴾ قال القرطبي: يقتضي التقابض والبينونة بالمقبوض، ولما كانت الرِّبَاع والأرض وكثير من الحيوان لا يقبل البينونة ولا يغاب عنه حسُن الكَتْب فيها ولحقت في ذلك مبايعة الدّين فكان الكتاب توثّقا لما عسى أن يطرأ من اختلاف الأحوال وتغيّر القلوب، فأما إذا تفاصلا في المعاملة وتقابضا وبان كلّ واحد منهما بما ابتاعه من صاحبه، فيقلّ في العادة خوف التنازع إلا بأسباب غامضة، ونبّه الشرع على هذه المصالح في حالتي النّسيئة والنقد، وما يغاب عليه وما لا يغاب بالكتاب والشهادة والرّهن اهـ وقوله عز وجل: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ يكاد أهل العلم يطبقون على أن هذا الأمر أمر إرشاد وهو يختلف باختلاف الأحوال والسلع فيزداد تأكّده كلّما عظم شأن السلعة، والمسلمون مع اختلاف أعصارهم وأمصارهم يتبايعون في الأشياء التافهة دون إشهاد، فمن يذهب ليشتري خبزة لا يحتاج إلى شاهدين يشهدان على البيع، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ باع وكتب، وباع ولم يشهد، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث العَدّاء بن خالد قال: كتب لي النبي ﷺ: «هذا ما اشترى محمد رسول الله ﷺ من العَدّاء بن خالد، بيع المسلم المسلمَ، لا داء، ولا خِبْثة ولا غائلة» اهـ وقال أبو داود في سننه: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أن الحكم ابن نافع حدثهم أخبرنا شعيب عن الزهري عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدّثه وهو من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ ابتاع فرسا من أعرابي فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس وهم لا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابيُّ رسولَ الله ﷺ فقال: إن كنتَ مُبْتاعا

هذا الفرس وإلا بعتُه، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «أو ليس قد ابتعته منك؟» فقال الأعرابي: لا، والله ما بِعْتُكَه، فقال النبي ﷺ: «بلى قد ابتعتُه منك» فطفق الأعرابي يقول: هلمّ شهيدا، فقال خزيمة ابن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة، فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. وقد روى البخاري في صحيحه من طريق خارجة بن زيد أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: نسخت الصّحف في المصاحف ففقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا يُضَارّ كاتب ولا شهيد﴾ يحتمل أن يكون الفعل ﴿يضارّ﴾ مبنيا للفاعل فيكون المعنى ولا يجوز للكاتب أن يلحق ضررا بأحد طرفي العقد في كتابته بالنقص أو بالزيادة، ولا يجوز للشاهد أن يلحق ضررا بأحد المتبايعين في شهادته بالزيادة أو النقص فيها، ويحتمل أن يكون ﴿يضارّ﴾ مبنيا للمفعول فيكون المعنى: ولا يجوز للمتبايعين أو غيرهما أن يلحق ضررا بالكاتب لكتابته أو للشاهد بسبب شهادته، فيكون معنى ﴿ولا يضارّ﴾ على الأول: ولا يضارِرْ، وعلى الثاني: ولا يضارَرْ. والله تبارك وتعالى كما نهى ووصّى بتحريم إلحاق الضرر بأحد من المسلمين عامة في قوله تبارك وتعالى: ﴿غير مُضَارّ وصيةً من الله﴾ وقرن عز وجل الضرار بأكبر الذنوب حيث قال: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرًا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب اللّهَ ورسولَه﴾ فقد حذّر هنا من إلحاق الضرر بالكاتب أو بالشاهد سواء كان إضراره بالقول أو بالفعل، وقد روى أبو داود والترمذي وحسّنه من حديث أبي صِرْمة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من ضارّ أضرّ الله به، ومن شاقّ شقّ الله عليه». وقوله تبارك وتعالى:

﴿وإن تفعلوا فإنـه فسوق بكم﴾ أي وإن خالفتـم ما أمرتم بـه، أو فعلتم ما نهيتم عنه فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم تتصفـون به، ومن كان به خير لنفسـه لا يفعل مـا يجعلها فـاسقـة بل يحرص كلّ الحرص على أن يكـون من الصالحين، فلا تضروا الكاتب الذي كتب بالعدل، ولا تضروا الشاهد الذي شهد بـالحق. وقوله عـز وجل: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ أي وكـونوا على خـوف من ربكم واجعلوا لأنفسكم وقـاية من عـذابه بأن تأتمروا بما أمـر وأن تنزجـروا عما نهى عنه وزجـر، والله تبارك وتعالى يتفضـل عليكم بتعليمكم ما ينفعكم في دينكم ودنيـاكم، ويـرسم لكم منهج سعـادتكم، ويضع لكم فرقانـا تفرقون به بين الحق والباطل، والهدَى والضلال، وقـد قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فـرقانا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفْلَيْنِ من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به﴾ وقوله عـز وجل: ﴿والله بكل شيء عليم﴾ يفيد أن ما يضعه لكم من منهج يكون أحسن المناهـج وأوفاها وأنقاها وأكملهـا وأتمّها، لأنه العليم بجميع أحوال الناس وميولهم وما ينفعهم ويسعدهم في دنياهم وآخرتهم.

قال تعالى ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربّه، ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه، والله بما تعملون عليم﴾

بعد أن حذّر الله تبارك وتعالى من أكل الربا، وأمر المؤمنين إذا تداينوا بدين إلى أجل مسمى أن يكتبوه، ووضع لهم أقوم المناهج في تحرير الصكوك عند المداينات ورخّص لهم إذا كانت معاملاتهم في تجارة حاضرة يديرونها بينهم ألا يكتبوها لانتفاء المحذور عند ذلك، أوضح هنا أن الإنسان قد يحتاج عند التعامل إلى التوثيق بِرِهَان مقبوضة فقال عز وجل: ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبًا فرِهان مقبوضة﴾ ولا شك عند أهل العلم أن الرهْن جائز في الحضر كما هو جائز في السفر، فإن رسول الله ﷺ توفّي ودرعه مرهونة عند يهودي وكان ذلك في الحضر ولم يكن في السفر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ اشترى طعاما من يهوديّ إلى أجل ورَهَنه دِرْعا من حديد. كما روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: توفّي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير. وليست إباحة الرهن مشروطة بكونه في السفر أو عند عدم وجود الكاتب، إذ المقصود من الشرط هنا هو الغالب، إذ السفر مظنّة عدم وجود الكاتب وحتى لو وجد الكاتب في السفر أو في الحضر جاز الرهن أيضا لأن المقصود هو التوثيق، فإذا لم يرض البائع أن يبيع لأجل إلا برهن جاز ذلك كما دل عليه حديث عائشة المتقدّم المخرّج في الصحيحين. والمعروف في اللسان العربي أن الشرط قد يجيء في الكلام العربي لبيان الواقع أو الغالب فيكون لا مفهوم له وإن كان يفيد الإشارة إلى الغالب أو الواقع كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم

بهن﴾ فإن كون الربيبة في الحجر لا يؤثر في التحريم أو التحليل فهي محرمة سواء كانت في حجر الرجل أو في غير حجره. وإنما الغالب أن تكون في حجره مع أمها. وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فإن قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين في السفر لا يشترط فيه أن يكون السفر مخوفا، كما جاء في صحيح مسلم من طريق يَعْلَى بن أمية قال: سألت عمر ابن الخطاب، قلت له: قوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ وقد أمن الناس، فقال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه فسألتُ رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». والمعروف عند أهل العلم أن القيد إذا كان لبيان الواقع أو خرج مخرج الغالب فإنه يكون لا مفهوم له ولا يتقيد به الحكم. وقد قرأ أكثر القراء ﴿فرهانٌ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿فرُهُنٌ﴾ والرِّهان جمع رَهْن، مثل كِباش وكَبْش، وحِبال وحَبْل ونحوهما وكذلك «رُهُنٌ» جمع رهن أيضا، وأصل الرهن في اللغة يدور على معنى الحبس والدوام والثبات، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾ أي مُحْتَبَسَة بعملها، وقوله عز وجل: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي محتبس بعمله، ومنه قول الشاعر:

نأت بسعاد عنك نوًى شَطُون ... فبانت والفؤاد بها رهين

والرهن في اصطلاح العلماء هو احتباس العين وثيقةً بالحق ليُسْتَوْفَى الحقّ من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم. والمرتهن هو الذي يأخذ الرهن وقوله عز وجل: ﴿مقبوضة﴾ أي مسلّمة مؤدّاة إلى المرتهن، وقد أجمع العلماء على صحة قبض المرتهن أو وكيله، والقبض شرط للزوم الرهن لا لصحته وجوازه، ولا بد من إذن الراهن للمرتهن في القبض. والقبض في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرهن كالقبض في البيع ، فإن كان من المنقول فقبض المرتهن له أخذه إياه من راهنه منقولا ، وإن كان مما لا ينقل كالدّور والأرضين فقبضُه تخلية راهنه بينه وبين مرتهنه دون حائل . وقوله عز وجل : ﴿فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانته وليتّق الله ربّه﴾ أي فإن أحسن بعضكم الظّن ببعض في التعامل وحسن الأداء وكان أحد العوضين أو بعضه مؤجلا فلم يكتب الدائن صكا بالدين على المدين ، أو كان أحدكم ائتمن أخاه المسلم فوضع عنده أمانة ، فإذا جاء وقت الأجل في الدين الذي لم يُكتب به صك أو طلب صاحب الأمانة أمانته فيجب على المؤتَمَن أن يؤدي للذي ائتمنه ما في ذمته من دين أو أمانة ، لما في ذلك من شيوع الثقة والطمأنينة بين الناس ، وليخلّص نفسه من عذاب الله يوم القيامة ، وقد حضَّ الله تبارك وتعالى على ذلك في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل : ﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾ وأثنى على من يؤدي الأمانة ووبّخ من يخونها حيث يقول عز وجل : ﴿ومن أهل الكتاب مَن إنْ تَأْمَنْه بقنطار يؤدّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دُمتَ عليه قائما﴾ وبيّن أن خيانة الأمانة لا تحدث إلا من الظّلوم الجهول حيث يقول عز وجل : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن خيانة الأمانة من أبرز صفات المنافقين ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان» وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن حفظ الأمانة وأداءها من أعظم أسباب نجاة المؤمنين يوم القيامة ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : «يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تُزْلَفَ لهم الجنة ،

الجديد و طريف NEW & EXCLUSIVE

فيأتون آدم صلوات الله عليه فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟ لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، قال: فيأتون إبراهيم، فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك، إنما كنت خليلا من وراءَ وراءَ، اعْمَدُوا إلى موسى الذي كلّمه الله تكليما، فيأتون موسى فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه، فيقول عيسى: لست بصاحب ذلك، فيأتون محمدا ﷺ فيقوم، فيؤذن له، وتُرْسَلُ الأمانة والرحم، فيقومان جَنْبَتَي الصراط يمينا وشمالا، فيمرّ أولكم كالبرق» قلت: بأبي وأمّي، أيّ شيء كَمَرِّ البرق؟ قال: «ألم تروا كيف يمرّ ويرجع في طرفة عين، ثم كمرّ الريح، ثم كمرّ الطير، وأشدّ الرجال تجري بهم أعمالهم، ونبيّكم قائم على الصراط يقول: يا ربّ سلّمْ سلّمْ، حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل لا يستطيع السّير إلا زَحْفًا، وفي حافَّتَي الصراط كَلاَليب معلّقة مأمورة بأخذ من أُمِرَتْ به، فمَخْدُوش ناجٍ، ومَكْدُوس في النار، والذي نفس أبي هريرة بيده إنّ قَعْر جهنّم لسبعون خريفا» اهـ فعلى المؤتَمَن أن يتقي الله ربّه، وليحذر عقوبته إن لم يؤد الأمانة، فإنه يوم القيامة لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وقوله عز وجل: ﴿ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ أي ولا تخفوا الشهادة إن طُلِبْتُم لأدائها، ومن أخفاها عند طلبها فهو فاجر القلب لا يخاف الله ولا يخشاه، وهذا تأكيد لقوله تبارك وتعالى في الآية السابقة: ﴿ولا يَأْبَ الشهداء إذا ما دُعُوا﴾ فإن الشاهد يحرم عليه أن يمتنع عن أداء الشهادة كما يحرم عليه أن يكتمها، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال ابن عباس وغيره: شهادة الزّور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك اهـ يعني وكتمان الشهادة بالحق شبيه بشهادة الزور. وقوله: ﴿والله بما تعملون عليم﴾ هو ترغيب وترهيب ليحرص المسلم على الشهادة بالحق

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والامتناع عن كتمان الشهادة. وقد ذكر القرطبي رحمه الله في ختام تفسير هذه الآية الكريمة كلاما حسنا حيث قال: اعلم أن الذي أمر الله تعالى به من الشهادة والكتابة لمراعاة صلاح ذات البين ونفي التنازع المؤدي إلى فساد ذات البين، لئلا يسوّل له الشيطان جحود الحقّ وتجاوز ما حدّ له الشرع، ثم قال: لما أمر الله تعالى بالكَتْب والإشهاد وأَخْذ الرّهان كان ذلك نصا قاطعا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها، وردًّا على الجهلة المتصوّفة ورِعَاعِها الذين لا يرون ذلك فيخرجون عن جميع أموالهم ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم، ثم إذا احتاج وافتقر عياله فهو إما أن يتعرّض لِـمِنَنِ الإخوان أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظَلَمَتِهِم وهذا الفعل مذموم منهيّ عنه، ثم قال: قال الجوزي: وهذا كلّه خلاف الشرع والعقل وسوء فهم المراد بالمال، وقد شرّفه الله وعظّم قدره، وأمر بحفظه، إذ جعله قوامًا للآدمي، وما جعله قوامًا للآدمي الشريف فهو شريف، فقال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا﴾ ونهى جلّ وعزّ أن يسلم المال إلى غير رشيد فقال: ﴿فإن آنَسْتُم منهم رُشْدًا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ ونهى النبي ﷺ عن إضاعة المال، قال لسعد: «إنك أنْ تَذَرَ ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس» وقال: «ما نفعني مالٌ كمال أبي بكر»، وقال لعمرو بن العاص: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»، ودعا لأنس، وكان في آخر دعائه: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه»، وقال كعب: يا رسول الله إنّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قال الجوزي: هذه الأحاديث مخرّجة في الصحاح. اهـ

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

قال تعالى: ﴿لله ما فى السّمٰوات وما فى الأرض، وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء، والله على كلّ شيء قدير* آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون، كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا و إليك المصير* لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربّنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الّذين من قبلنا، ربّنا ولا تحمّلنا مالاطاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾

هذه الآيات هي خواتيم المسك من سورة البقرة، والآية الأولى تقرر حقيقة الكون الكبرى وهي أنّ جميع ما في السموات وما في الأرض مملوك لله وحده، وأنه تحت قهره عز وجل مِلكا ومُلكا، وأنه من رحمته بعباده أرسل لهم الرسل، وشرع لهم الشرائع فما أباح لهم فهو المباح وما حرمه عليهم فهو الحرام، وأنه أحل لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث، وما حرمه إنما حرّمه لدفع الضرر والأذى عن عباده، وما أباحه فهو لمنافعهم ومصالحهم، وأنه لا تخفى عليه خافية من أمورهم سِرّها وعلنها، وأنه محاسبهم على أفعالهم وطويّات صدورهم، وأنه يغفر لمن يشاء فضلا، ويعذب من يشاء عدلا، وهو لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وهذه الحقيقة التي تقررت في هذه الآية العظيمة تكررت في كتاب الله ليكون الناس على بصيرة في حاضرهم ومستقبلهم حيث قال عز وجل: ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يَعْلَمْه الله، ويعلم ما في السمٰوات وما في الأرض، والله على كل شيء قدير﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما تكون في شأن، وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تُفِيضُون فيه، وما يَعْزُب عن ربك

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من مثقـــال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغـــر من ذٰلك ولا أكبر إلا في كتـاب مبين﴾ وكما قـال عـز وجل : ﴿ولقــد خلقنا الإنســان ونعلم مـا توسوس بـه نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الـوريد﴾ في آيات كثيرة، إلا أنّ هذه الآية الكـريمة قد قررت أمرا زائدا على غيرهـا من الآيات وهي أن الله عز وجل يحاسب العباد على ما يخفونـه في أنفسهم، ولا شكّ أن ما تخفيه النفس إن كان كفرا بالله واعتقادا خبيثا فإنّ الله سيحاسب العبد به إن مات ولم يقلع عنه ولم يتب منه، وإن كـان وسوسة تمرّ بالصدر ولا تستقـر فيه فإنّ الله تبارك وتعالى قـد تفضل على هذه الأمة فلم يـؤاخذهـا بما تحدّثت به صدورهـا ما لم تتكلم أو تعمل به، وقد خاف أصحاب رسول الله ﷺ خوفا شديدا عند نزول هـذه الآية الكـريمـة، فأنزل الله عـز وجل الآيـة الخاتمة لسورة البقـرة : ﴿لا يكلّف الله نفســا إلا وسعها، لها مـا كسبت وعليهـا مااكتسبت﴾ وأرشـدهـم فيها إلى كلمات من الدعاء فدَعَوْه فـاستجاب لهم، فقال : ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال : نعـم، ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملتَه على الذين من قبلنا﴾ قال : نعم، ﴿ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به﴾ قال : نعم، ﴿واعف عنا واغفـر لنا وارحمنا، أنت مولانـا فانصرنا على القوم الكـافرين﴾ قال : نعم . فقد قال البخاري في صحيحه : باب ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قديـر﴾ ثم ساق من طـريق مروان الأصفر عن رجـل من أصحاب النبي ﷺ وهو ابن عمـر أنها قد نُسِخَتْ ﴿وإن تبـدوا ما في أنفسكم أو تخفـوه﴾ الآية . باب ﴿آمن الـرسول بما أنـزل إليه من ربّـه﴾ وقال ابن عبـاس : إصرًا عهدًا، ويقـال : غفرانك مغفـرتك فـاغفر لنـا . ثم سـاق بسنـده من طريق مـروان الأصفر عن رجل من أصحـاب رسول الله ﷺ قال : أحسبـه ابن عمر: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ قال : نسختها الآية التي بعدها . وروى مسلم

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكُم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله كُلّفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير». قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل: ﴿لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: نعم. ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال: نعم. ﴿ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ قال: نعم. ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال: نعم. ثم ساق مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكُم به الله﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبيّ ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا»، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: قد فعلت، ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال: قد فعلت، ﴿واغفر

لنا وارحمنا أنت مولانا﴾ قال: قد فعلت اهـ والمراد بالنسخ في هذه الأحاديث هو عدم مؤاخذة المسلم بحديث نفسه الذي تضمنه قوله عز وجل: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فقد تجاوز الله عز وجل لأمة محمد ﷺ عن حديث النفس بالآية الناسخة هنا، ولم ينسخ من الآية الأولى إلا ما يتعلق بحديث النفس، أما ما تضمّنته من علم الله عز وجل بكل شيء فهذا من صفات الله عز وجل التي لا تزول أبدا، ولا يقول قائل: كيف نُسِخَتْ الآية هذه وهي متضمنة خبرا والأخبار لا يدخلها النسخ؟ فالجواب كما أشرت هو أن المنسوخ منها فقط هو المعاقبة والمحاسبة على حديث النفس، وهو حكم من الأحكام لا خبر من الأخبار، والأصل في الحكم قبوله للنسخ فلا اعتراض ألبتة، وقد روى أصحاب الكتب الستة من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلّم به». وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: قال «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة». وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتُها له حسنة، فإن عملها كتبتُها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتُها سيئة واحدة». ثم ساقه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: عن محمد رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا تحدّث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا

أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها» وقال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة: ربّ، ذاك عبدٌ يريد أن يعمل سيئة، وهو أبصرُ به، فقال: ارْقُبُوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرَّائي».

وقوله في حديث أبي هريرة عند مسلم: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ. الحديث، أي خاف أصحاب رسول الله ﷺ منها ومن محاسبة الله عز وجل لهم على ما يخطر ببالهم وهذا من شدة إيمانهم وعظيم يقينهم وخوفهم من عذاب الله عز وجل، وهذا ولا شك ثمرة خوفهم من الله فإن المسلم يخاف من ذنوبه كأنها جبل يريد أن ينقضّ عليه، بخلاف الكافر فإنه يرتكب أكبر المعاصي ويراها كالذبابة التي يدفعها بيده عن وجهه ومن كان بالله أعرف فهو من الله أخوف، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا». وقوله في الحديث: فلما اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ أي فلما قرأها الصحابة رضي الله عنهم ارتاضت بالاستسلام لذلك ألسنتهم. وقوله في حديث ابن عباس: لما نزلت هذه الآية: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ قال: دخل قلوبَهُم منها شيء لم يدخل قلوبَهُم من شيء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أي دخل قلوبهم من أجل تلك الآية شيء لم يدخلها من أجل شيء سواها وذلك لحرصهم على فكاك أنفسهم من النار وغضب الله. وقوله عز وجل: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ أي وإن تظهروا ما في صدوركم أو تستمروا على كتمانه، وقوله عز وجل: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ أي صدّق الرسول محمد ﷺ بجميع ما أنزله الله عز وجل إليه في هذه السورة وفي غيرها وكذلك المؤمنون قد صدّقوا بما أنزل إليهم من ربهم على رسول الله محمد ﷺ وأنزل الله عليهم في هذه السورة المباركة الصلاة والزكاة والصوم والجهاد والحج وأحكام النكاح والطلاق والإيلاء والحيض والحضانة وقصص الأنبياء وإحياءه الموتى وأصول البرّ، وقواعد المعاملات وكيفيّة توثيق الصكوك، وقد قرر عز وجل في ختام المسك من هذه السورة أن الرسول محمدًا ﷺ قد صدَّق بجميع ذلك وأقر به والتزمه وكذلك المؤمنون قد صدّقوا بجميع ذلك وأقروا به والتزموه، وقوله عز وجل: ﴿كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ أي كلّ واحد منهم آمن بالله وبملائكته وبكتبه وبرسله، وهذا شأن المؤمنين دائما وأبدا، ولا يتحقق الإيمان إلا بذلك، فهذه أربعة أركان من أركان الإيمان الستة، وقد اشتملت بقية هذه الآية والآية التي بعدها على الركن الخامس والركن السادس من أركان الإيمان. ففي قوله عز وجل: ﴿وإليك المصير﴾ إقرار باليوم الآخر، وفي الآية الأخيرة إقرار بالقدر، وقوله عز وجل: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أي لا نصير مثل اليهود والنصارى حيث آمن بعضهم ببعض الأنبياء وكفر ببعضهم، فإن اليهود يزعمون أنهم آمنوا بموسى وجملة من الأنبياء ثم كفروا بعيسى وبمحمد ﷺ، والنصارى زعموا أنهم آمنوا بموسى وعيسى وجملة من الأنبياء ثم كفروا بسيد المرسلين محمد ﷺ، وقد تقدم في هذه السورة المباركة وصية الله عز وجل للمؤمنين أن يؤمنوا بجميع النبيين لا يفرقون بين أحد منهم حيث قال تبارك وتعالى:

﴿قـولوا آمنـا بالله ومـا أنزل إلينـا وما أنـزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحـاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن لـه مسلمون﴾ وكما قال عز وجل في سـورة آل عمران: ﴿قل آمنـا بالله ومـا أنـزل علينا ومـا أنـزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحـاق ويعقـوب والأسباط ومـا أوتي مـوسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفـرّق بين أحـد منهم ونحن له مسلمـون﴾ وقولـه عـز وجل: ﴿وقالـوا سمعنا وأطعنـا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ هـو معطوف على قوله: ﴿آمن الـرسول بما أنزل إليه مـن ربه والمؤمنـون﴾ كأنه قيل: آمنـوا وقالـوا سمعنا وأطعنـا، أي لسنا كاليهود والنصارى الـذين قالوا: سمعنا وعصينا. وقولـه: ﴿غفرانك ربنا﴾ أي اغفر لنا ربنا مغفرة منك، قال ابن جرير رحمه الله: فإن قال لنا قائل: فما الذي نصب قـوله: ﴿غفرانك﴾؟ قيل له: وقـوعُه وهو مصدرٌ مـوقع الأمر، وكذلك تفعل العربُ بـالمصادر والأسماء إذا حلت محلّ الأمر وأدّت عن معنى الأمـر نَصَبَتْهـا، فيقولـون: شكـرا لله يـا فلان وحمدًا لـه، بمعنى اشكـر الله واحمده، والصلاةَ الصلاةَ بمعنى صلّوا، ويقـولون في الأسماء: اللهَ اللهَ يا قوم اهــ وقولـه عز وجل: ﴿وإليك المصير﴾ أي وإليـك يا ربّنـا مرجعنـا ومآلنـا ومصيرنا يـوم تبعث عبادك من قبـورهم لمجازاتهم على أعمالهم. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها﴾ أي لا يأمر الله أحدًا من خلقه ولا ينهاه إلا في حـدود وسعه وقدرته وطـاقته، فلا يكلّفـه ما لا يطيق ولا يطلب منه عمل المستحيل. وقوله عـز وجل: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أي وقد رفع الله تبارك وتعالى الإصر والأغلال عن أمة محمد ﷺ وخفّف عنهم فلا يحاسبهم بما حدثت به نفوسهم وإنما يحاسبهم على ما فعلوه واكتسبوه من الخير أو الشر، وفي التعبير في جـانـب الخير بقـولـه: ﴿لها مـا كسبت﴾ وفي التعبير في جانب الشر بقـوله: ﴿وعليهـا ما اكتسبت﴾ إشعـار بكريم فضل

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الله وجوده وعفوه وأن الإنسان إذا همّ بالخير وحام حوله احتسبه الله عز وجل له خيرا، وأنه لا يؤاخذ بالشر إلا من وقع فيه واجترحه عن عزم وإصرار. وقوله عز وجل: ﴿ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ هذه هي الأدعية التي أرشد الله تبارك وتعالى أمة محمد ﷺ حتى يسألوا الله عز وجل ويدعوه بها، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ربه أنه استجاب لهم حيث جاء في لفظ حديث أبي هريرة عند مسلم أثَر كل دعوة من هذه الدعوات: قال: نعم. وكما جاء في لفظ حديث ابن عباس عند مسلم: قال: قد فعلت. وقد بيّن الله عز وجل في صفات رسول الله ﷺ عند الأنبياء أنه يضع عن أمته إصرهم حيث يقول: ﴿الذين يَتَّبِعُون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ والإصر هو الثِّقَل في التكاليف، والأغلال هي الشدائد التي جعلها الله عز وجل على بني إسرائيل وقيّدهم بها من تحريم الصلاة في غير بناء ومن تحريم الصيد يوم السبت، وكما قال عز وجل: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحِلَّتْ لهم﴾ وكذلك تحريم أكل الغنائم وعدم جواز التيمم عند فقد الماء ومؤاخذتهم بالنسيان وما استكرهوا عليه، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كفتاه». وأورده مسلم من طريق عبد الرحمن بن يزيد قال: لقيت أبا مسعود عند البيت فقلت: حديث بلغني عنك في الآيتين في سورة البقرة فقال: نعم قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأهما في ليلة كفتاه». وقد تقدم

الجديد والحصري NEW & EXCLUSIVE

في تفسير سورة الفاتحة الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نَقِيضًا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قطّ إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم، فسلّم، وقال: أبشر بنورين أُوتيتَهما لم يُؤْتَهُما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطِيتَه اهـ والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

وهذا آخر ما تيسر من تفسير سورة البقرة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تفسير
سورة آل عمران

[illegible]

[illegible]

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿الٓمٓ * الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم * نزّل عليك الكتاب بالحقّ مصدّقا لما بين يديه وأنزل التّوراة والإنجيل * من قبل هدى للنّاس وأنزل الفرقان ، إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديد ، والله عزيز ذو انتقام﴾ .

هذه سورة آل عمران وسُميت بهذا الاسم لأن الله تبارك وتعالى ذكر فيها آل عمران حيث قال : ﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ وقد وصفها رسول الله ﷺ بأنها الزّهراء كما وصف بهذا الوصف سورة البقرة حيث قال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرءوا الزَّهْرَاوَيْن البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غَمَامَتان أو كأنهما غَيَايتان أو كأنهما فِرْقان من طير صَواف تُحَاجّان عن أصحابهما» . الحديث . كما روى مسلم من حديث النّوّاس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تَقْدُمُه سورة البقرة وآل عمران» وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهنّ بعد ، قال : «كأنهما غَمَامَتان أو ظُلّتان سَوْدَاوان بينهما شَرْق أو كأنهما حِزْقان من طير صَوافّ تُحاجّان عن صاحبهما» . وقد تقدم هذان الحديثان في تفسير أول سورة البقرة مع شرح بعض ألفاظهما ، كما تقدم هناك تحقيق بحث الحروف المفرقة في أوائل السورة مثل : الٓمٓ . كما تقدم تفسير قوله عز وجل : ﴿الله لا إله إلا

هو الحي القيوم﴾ في آية الكرسي. قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره في مطلع سورة آل عمـران: وأما معنى قـوله: ﴿لا إلَـه إلاّ هو﴾ فإنـه خبرٌ من الله جلّ وعزّ أخبر عباده أن الألـوهيّة خاصّة به دون مـا سواه من الآلهة والأنداد، وأن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلاّ لـه، لانفراده بالربـوبية، وتوحّده بـالألوهية، وأن كلّ ما دونـه فملكه، وأنّ كلّ ما سـواه فخلقه، لا شريك له في سلطـانه وملكـه، احتجاجـا منه تعـالى ذكـره عليهم بأن ذلك إذ كان كـذلك، فغير جائزة لهم عبـادةُ غيره، ولا إشراك أحد معه في سلطـانه، إذ كـان كلّ معبود سواه فملكـه، وكلّ معَظَّم غيرُه فخلقـه وعلى المملوك إفـراد الطاعـة لمالكه، وصرف خدمتـه إلى مولاه ورازقـه، ومعرّفـا كلّ مَن كان مِن خلقـه ـ يـوم أنزل ذلك إلى نبيـه محمد ﷺ بتنـزيلـه ذلك إليـه، وإرسالـه بـه إليهم على لسانـه صلوات الله عليه وسلامه ـ مقيما على عبادة وثن أو صنم أو شمس أو قمر أو إنسيّ أو مَلَك أو غير ذلك من الأشياء التي كانت بنـو آدم مقيمة على عبادته وإلاهتـه، ومُتَّخِذَه دون مـالكه وخـالقه إلهًا وربّـا ـ أنـه مقيم على ضلالـة، ومنعدل عن المحجة وراكب غير السبيل المستقيمة، بصرفه العبادة إلى غيره، ولا أحد له الأُلُوهـة غيره، قال أبو جعفر: وقد ذكر أنّ هـذه السورة ابتدأ الله بتنزيله فاتحتها بالذي ابتدأ به من نفي الألوهيّة أن تكون لغيره، ووصفه نفسه بالذي وصفها بـه في ابتدائها، احتجاجًا منه بـذلك على طائفة من النصارى قدموا على رسـول الله ﷺ من نجران، فحاجّوه في عيسـى صلوات الله عليه، وألحدوا في الله، فأنـزل الله عز وجل في أمـرهم وأمـر عيسى من هذه السـورة نَيِّفًا وثمانين آيـة من أوّلها، احتجاجا عليهم وعلى من كـان على مثل مقالتهم لنبيّه محمد ﷺ، فأبوا إلا المقام على ضلالتهم وكفرهم، فدعاهم إلى المباهلة، فأبـوا ذلك، وسألـوا قَبُول الجزيـة منهم، فقبلهـا ﷺ منهم، وانصرفـوا إلى بلادهم، غير أنّ الأمـر وإن كان كذلك، وإيّـاهم قصد بـالحِجَاج فإنّ من

كان معناه من سائر الخلق معناهم في الكفر بالله واتّخاذ ما سوى الله ربّا وإلها معبودا، معمومون بالحُجّة التي حجّ الله تبارك وتعالى بها من نزلت هذه الآيات فيه، ومحجوجون في الفرقان الذي فَرَقَ به لرسوله ﷺ بينه وبينهم اهـ

ومن وجوه المناسبة بين خواتيم المسك من سورة البقرة وفواتح الحقّ من سورة آل عمران أنه ذكر أن الرسول ﷺ والمؤمنين آمنوا بكتب الله تبارك وتعالى على سبيل الإجمال حيث قال عز وجل: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ وقد فصّل في مطلع هذه السورة المباركة بعض هذه الكتب فذكر منها هذا القرآن العظيم المنزل على محمد ﷺ المصدّق لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان، وفي البدء بذكر القرآن قبل ذكر التوراة والإنجيل ثم ذكره بعدهما للفت الانتباه إلى أنه الكتاب المهيمن على ما تقدمه من الكتب وأن حظّ المؤمنين به هو أوفر الحظوظ، وأن أهله هم أسعد الخلق بالله عز وجل. وقوله عز وجل: ﴿نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يديه﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن بقواعد الحق الثابتة في العقائد والسلوك ومقرّرا لما جاءت به الكتب السماوية التي سبقته، لا اختلاف فيه ولا تناقض، ولا اعوجاج، يبيّن لكل ذي حق حقه، ويثبت صدق الرسل فيما أخبروا به عن الله عز وجل، وعن ملائكته وكتبه واليوم الآخر. وقوله عز وجل: ﴿وأنزل التوراة والإنجيل ۞ مِن قبلُ هُدًى للناس﴾ أي وأنزل التوراة على موسى بن عمران والإنجيل على عيسى ابن مريم من قبل مجيئك بالقرآن لإرشاد الناس إلى صراط الله المستقيم وتعريف بني إسرائيل بما يوضّح لهم سبيل الهدى وطريق الرشاد، فلستَ أيها الرسول العظيم بِدْعًا من الرسل، ولا آتيا بمنهج في العقائد والعدل والإحسان يناقض منهج الأنبياء، بل منهجك متمم لمناهجهم، مهيمن عليهم، بل هو الذّروة في مناهج الأنبياء والمرسلين،

يفرق بين الحق والباطل في جميع الأعصار والأمصار، ولذلك قال عز وجل: ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي الحقّ الفارق بين الهدى والضلال والرشد والغيّ في جميع ما يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم، مبيّنا كذب اليهود في قولهم: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ كما قال عز وجل: ﴿وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِه إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذَرْهُم في خوضهم يلعبون﴾ وقد زعم بعض المنتسبين للعلم أن «نزّل» تشعر بالنزول على التدريج وأن «أنزل» تشعر بالنزول جملة، وليس هذا القول بسديد بل معنى نزّل وأنزل واحد، والعرب يستعملون كلّ واحد منهما مكان الآخر ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿نزّل عليك الكتاب بالحق﴾ ثم قال: ﴿وأنزل الفرقان﴾ ومما يبيّن ذلك أعظم البيان قوله عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً﴾ وكما سيجيء في الآية السابعة: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ وهذا لا غموض فيه بحمد الله ألبتة، وما التوفيق إلا بالله. والتوراة في اللغة العبرانية معناها الشريعة أو الناموس وهي كتاب الله تبارك وتعالى المنزل على موسى ﷺ نورا وهدى للناس، واليهود المحرفون لكلام الله يزعمون أنها خمسة أسفار هي سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين أو الأحبار وسفر العدد وسفر التثنية. والنصارى يطلقون التوراة على جميع كتب العهد القديم وهي المنسوبة عندهم إلى موسى والأنبياء من بعده من بني إسرائيل وتاريخ قضاتهم وأخبار ملوكهم قبل المسيح عليه السلام سواء عرفوا كاتبه أو لم يعرفوه، وقد يطلق بعض المسلمين اسم التوراة على مجموع كتب العهد القديم، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه وجد صفة رسول الله ﷺ في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونذيرا وحِرْزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صَخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء، ويفتح عيونا عُمْيا، وآذانا صُمّا، وقلوبا غُلْفا بأن يقولوا: لا إله إلا الله. فهذا الوصف الذي وجده عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ليس موجودا في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام وإنما هو في نُبُوّات بعض أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام. والإنجيل باللغة اليونانية معناه البشارة، وفي الاصطلاح هو كتاب الله المنزل على عيسى عليه السلام، وقد أجمع المسلمون والنصارى على أن الأناجيل التي بيد النصارى الآن وهي إنجيل متى وإنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا ليست هي الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام فهي كتب ألفها بعض المنتسبين إلى النصرانية كسيرة للمسيح عليه السلام. وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾ هو ترهيب عظيم وتهديد شديد لمن كفر بآيات الله المنزلة على محمد ﷺ من اليهود والنصارى وسائر المشركين الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله محمدًا ﷺ وتنديد بمن جعل لله ولدا كاليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، والعرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، وتوبيخ لمن ترك عبادة الحي القيوم الذي لا يموت وعبد من أقر هو بموته، فإن اليهود والنصارى قد أطبقوا على أن العُزَيْر قد مات، وقد أقر النصارى بأن المسيح قد مات ثم قام، فهم أهل لعقوبة العزيز المنتقم الجبار.

قال تعالى: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء * هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاءُ، لا إلّه إلاّ هو العزيز الحكيم﴾

في هاتين الآيتين الكريمتين مزيد بيان لتقرير كمال علمه وتمام قدرته لتأكيد كمال حياته وقيوميته، وأنه لا إلّه غيره ولا رب سواه ولا ولد له ولا ندّ ولا نظير، فإن عيسى والعُزَيْر وجميع من عُبِد من دون الله لا يعلم من كان منهم من ذوي العلم إلا ما يطلعه الله عز وجل عليه، وأن الله وحده هو رب كل شيء وسيّده ومليكه وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو علاّم الغيوب، وفي قوله عز وجل: ﴿هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء﴾ آية كبرى وحجة عظمى ناطقة بكمال قدرته وعلمه وعزّه وقهره، حيث صور جميع العباد على الوجه الذي يشاء وهم في بطون أمهاتهم في ظلمات ثلاث وجعل لكل واحد منهم صورة خاصة به دون من سواه من سائر البشر في جميع الأعصار والأقطار من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، مع أن لَوْن نُطَف جميع بني آدم على صورة واحدة، فمن قطرة من هذه النطفة يخلق الله الإنسان إذا أراد، ويصوّره على الصورة التي يريد جل وعلا، لا على ما يريد الأب أو الأم أو غيرهما، فكم من أب نشيط الجسم لا يُنْجِب، وكم من أمّ صحيحة الجسم لا تَحْمِل، وكم من أب أو أمّ يتمنى أن ينجب ذكرا ولا ينجب إلا الإناث وكم من أب أو أمّ يتمنى أن ينجب أنثى ولا ينجب إلا الذكور، ولا يحصل لهما إلا ما أراد الله عز وجل وحده، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء، يَهَبُ لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور * أو يُزَوِّجُهم ذُكْرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير﴾ والنطفة عندما تندفع إلى رحم المرأة لا وجود لصورة الإنسان فيها ألبتة، وتكون بيضاء مهما كان مصدرها وبعد مدة تتحول إلى قطعة دم حمراء

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

علقة لا وجود لصورة الإنسان فيها، وبعد مدة تتحول إلى مضغة لا عظام بها، ثم يبدأ التصوير والتخطيط على هذه المضغة إذا أراد الله عز وجل تخليقها، فيكوّن فيها عظامها وأعضاءها التي ينشئها فيها من العدم ثم يكسو العظام لحما ثم ينشئها خلقا آخر، ويطبع وجه الإنسان فيها بطابَع يتميّز به عن سائر بني آدم، ومهما تقارب الشبه بين وجه ووجه فإنه يضع علامة فارقة مميزة له عن سائر الناس، مع أن هذا الوجه لا يزيد عن شبر في شبر، وتستطيع أن تقف على باب مسجد جامع بعد صلاة الجمعة لتتفرّس في وجوه الناس فإنك لن تجد وجهين متفقين في الصورة أبدا، وقد فعل الله عز وجل ذلك ليتعارف الناس، إذ لو كانوا على صورة واحدة ما تعارفوا، وإلى ذلك يشير عز وجل حيث يقول: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ وكما طبع هذا الوجه بهذا الطابَع المنفرد عن جميع البشر فإنه خطط أطراف أصابع اليدين بخطوط يختلف فيها تخطيط كلّ إصبع عن تخطيط الإصبع الآخر لنفس الإنسان، فتميزت بذلك بصمات أصابع جميع الناس، مع أن هذا البَنان المخطط لا يزيد عن مساحة نصف درهم تقريبا، وإلى هذا يشير الله عز وجل في الاستدلال على عظيم قدرته بأنه يعيد تخطيط الأنامل بعد موت أصحابها عندما يبعثهم يوم القيامة فيقول: ﴿أيحسَب الإنسان ألَّن نجمع عظامه* بلى قادرين على أن نسوّي بَنانَه﴾ ويميّز الله عز وجل الإنسان وهو في بطن أمه عند تصويره وتخطيطه بميزات تقربه إلى آبائه أو أمهاته أو أعمامه أو أخواله، وقد ينزعه في ذلك عِرْقٌ بعيد أو عرق قريب، كما نزع رسولَ الله ﷺ عِرْقُ أبيه إبراهيم خليل الرحمن، فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أشبه ولد إبراهيم به». وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاما

الجديد و الطريف NEW & EXCLUSIVE

أسـود، قال: «هل لك من إبل؟» قـال: نعم . قـال: «فما ألوانها؟» قـال: حُـمْرٌ، قـال: «هل فيهـا من أَوْرَق؟» قال: نعـم، قال : «فـأَنَّى ذلك؟» قال: لعلـه نَزَعَه عِـرْق، قال: «فلعلّ ابنك هذا نزعـه عرق» . اهـ وقـد ذكر رسول الله ﷺ بعض أطوار التخليق التي يمر بها الجنين في بطن أمه فقد روى البخاري ومسلـم من حديث عبـد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنـه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُـجْمَع خلقه في بطن أمـه أربعين يومـا ثم يكـون علقة مثل ذلـك، ثم يكون مضغـة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكـا فيُـؤْمَـر بأربع كلمات، ويقـال لـه: اكتب عملـه ورزقه وأجلـه وشقيّ أو سعيد ثم يُنْفَخ فيـه الروح، فإن الـرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النـار، ويعمل حتى مـا يكـون بينـه وبين النـار إلا ذراع فيسبق عليـه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة» . وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذه الأطوار في كتابه الكـريم حيث يقول: ﴿ولقد خلقنا الإنسـان من سُلالة من طين* ثم جعلناه نطفـة في قرار مكين* ثم خلقنـا النطفة علقـة فخلقنا العلقـة مضغة فخلقنا المضغـة عظاما فكسونـا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخـر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ إعجـاز علميّ، فإن علم التشريح الإنسـاني قـد اكتشف أن الصنـدوق العظمي الذي يتكون بداخله الرحم هو أقوى عظام في الإنسان، ومعلوم أن عظام الـرجل في الجملة أقوى مـن عظام المرأة في الجملة كـذلك، إلا أن هذا الصندوق العظمي الـذي يوجـد بداخلـه بيت الجنين أقوى من سـائر عظام أجسام الرجال والنساء حتى قيل: إن نسبة الماء فيه لا تزيد على ثلاثة بالمائة، حتى ذكـر بعض كبـار الأطبـاء المعـاصرين أنـه يكـاد يعـادل قـوة الحديـد الصلب . وقـد كرر الله تبـارك وتعـالى هـذا المعنى في غير موضع مـن كتابـه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الكريم لتقرير هذا الإعجاز العلمي حيث قال في سورة المرسلات أيضا: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين* فجعلناه في قرار مكين* إلى قدر معلوم* فَقَدَرْنا فنِعْمَ القادرون﴾ ولا شك أن هذا التصوير الدقيق في ظلمات البطن والرحم والمشيمة وإخراج هذه البنية العجيبة والتركيب الغريب الممتلئ بالعوالم الكثيرة والأجهزة المختلفة التي تمثل كلّ واحدة منها عالمًا متكاملاً، وصار الأطباء يتخصصون في بعض جزئيات أو أجزاء هذا العالَم العجيب الدقيق، الذي صنعه وصوّره الحكيم العليم، القادر على الجمع بين النقيضين والضدين، الذي ركّب هذا الجسم من أعضاء مختلفة في الشكل والطبع والصفة، فبعضها عظام وبعضها غضاريف وبعضها شرايين وبعضها أوردة وبعضها عضلات وأعصاب، وركّب في مؤخرة رأس الإنسان كرتين تديرانه، إحداهما في الجانب الأيسر لتدير شقّ الإنسان الأيمن، والثانية في الجانب الأيمن لتدير شقّ الإنسان الأيسر، وقد احتوت على «بلايين» الأجهزة التي تصدر بواسطتها الإشارات لحركات الإنسان وأفعاله وأفكاره. ومع ذلك كله فقد جعل الإنسان على صورة هي أحسن الصور حتى لا يتمنى إنسان مهما كانت صورته دميمة أن يكون طاووسا، ولذلك قال عز وجل: ﴿والتين والزيتون* وطور سينين* وهذا البلد الأمين* لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ كما أشار عز وجل إلى تفاوت الصور بقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم* الذي خلقك فسوّاك فَعَدَلَكَ* في أي صورة ما شاء ركّبك.﴾ وقد لفت الله تبارك وتعالى انتباه الناس إلى آيته في اختلاف ألوان الناس حيث يقول: ﴿ومن آياته خَلْقُ السموات الأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالِمين﴾ وقد روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه لما بلغه مَقْدَم النبي ﷺ المدينة فأتاه يسأله عن أشياء،

فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد يَنْزِعُ إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني به جبريل آنفا» قال ابن سلام: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، قال: «أما أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزعت الولد» قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. وفي لفظ لمسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إذا علا ماؤها ماءَ الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماءُ الرجل ماءَها أشبه أعمامه». وفي لفظ لمسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه أن حبْرًا من أحبار اليهود قال لرسول الله ﷺ: جئت أسألك عن الولد قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعَلاَ منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذْكَرَا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبيّ. هذا وقد جعل الله تبارك وتعالى هذا التخليق والزوجية بين المخلوقين آية بارزة على قدرته على بعث الموتى حيث قال: ﴿ألم يك نطفة مِن مَنِيٍّ يُمْنَى* ثم كان علقة فخَلَقَ فسَوَّى* فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى* أليس ذٰلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تَذَكَّرون﴾ والملاحظ أن الله تبارك وتعالى بعد أن يذكر تصوير الإنسان وتخليقه في رحم أمه يعلن أنه لا إلٰه إلا هو بعد ذلك مباشرة كما قال عز وجل هنا: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذٰلكم الله ربكم له الملك لا إلٰه إلا هو فأنّى تُصْرَفُون﴾ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم﴾ تنزيهٌ لله عز وجل أن يكون له ولد أو نِدّ أو شبيه،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتكذيب لمن زعم أن عيسى إلـه أو ابن إله ، ووعيد شديد لليهود والنصارى والمشركين الـذين قـالـوا: اتخذ الله ولـدًا، أو جعلـوا مع الله إلهًا آخـر، وهـو الغـالب الـذي لا يهرب منه أحد، الحكيم الـذي يبيّن لعبـاده طـريق الخير وطـريق الشر ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينـة ، ولا يظلم ربك أحدا.

قال تعـالى : ﴿هو الـذى أنزل عليك الكتـاب منه آيـات محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب وأخـرُ متشابهاتٌ فأمـا الذين فى قلـوبهم زيغٌ فيتّبعونَ مـا تشابـه منه ابتغاءَ الفتنـةِ وابتغاءَ تأويلهِ، ومـا يعلم تأويلهُ إلاّ الله، والـراسخون فى العلم يقولـون آمنّا بـه كلٌّ من عند ربّنا، ومـا يذّكّر إلا أولـواْ الألباب* ربّنـا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً، إنّك أنت الوهّاب* ربّنا إنّك جامع الناس ليوم لا ريب فيه، إنّ الله لا يخلف الميعاد﴾

قد تقدم قريبا ما ذكره ابن جرير رحمه الله عن نصارى نجران وأنهم جادلوا رسول الله ﷺ وحاجّوه في عيسى عليـه السلام وألحدوا في الله، وكان نصارى نجران عندما وفدوا على رسول الله ﷺ في السنـة التاسعة من هجرة رسول الله ﷺ حاولوا الاستدلال على أن عيسى هو ابن الله ببعض ألفاظ في كتاب الله، حاملين لها على غير مـا أريد بها بسبب زيغ قلوبهم ابتغاء الفتنـة والصّدّ عن سبيل الله، فـزعمـوا أنّ في القـرآن دليلا على أن عيسى ابـن الله في قولـه عـز وجل: ﴿وروح منه﴾ إذ حملـوا لفظ «من» في قوله عـز وجل: ﴿وروح منه﴾ على التبعيض فيكون عيسى بعضا من الله تعالى وجزءا منه، وتجاهلوا أنّ«من» في هذا المقام لا يراد بها التبعيض، وإنما يراد بها ابتداء الغاية، أي إن عيسى روحٌ من الأرواح التي ابتدأ الله خلقها، وتعاموا عن الآيات الكثيرة الصريحة في أن عيسى عبدٌ لله وخلقٌ من خلقه، والعبـد لا يكون ولدا، وأن الله لم يلد ولم يولـد ولم يكن له كفـوًا أحدٌ. ولا شـك أن العرب يستعملون كلمـة «من» في معانٍ كثيرة منها ابتداء الغاية كهذه، ومن معـانيها بيان الجنس كقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرّجس من الأوثان﴾ أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وتأتي للتعليل كقوله عز وجل: ﴿ممّا خطيئاتهم أُغْرِقُوا﴾ وتأتي للبدل كقوله تعالى: ﴿أرضيتم بـالحياة الدنيـا من الآخرة﴾ وتـأتي للغاية كقـولك: رأيته مـن هذا

الموضع، حيث جعلته غاية لرؤيتك، أي محلاً للابتداء والانتهاء، وتجيء للتنصيص على العموم كقوله تعالى: ﴿وما من إلّه إلا الله﴾ وتأتي للفصل وهي الداخلة على ثاني المتضادين كقوله تعالى: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ وتجيء بمعنى الباء كقوله تعالى: ﴿ينظرون إليك من طرف خفيّ﴾ وتأتي بمعنى «عن» كقوله تعالى: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ وتأتي بمعنى «في» كقوله تعالى: ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ وكقوله تعالى: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ وتأتي بمعنى «عند» كقوله تعالى: ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا﴾ وتأتي بمعنى «على» كقوله تعالى: ﴿ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وتأتي للتبعيض كقوله تعالى: ﴿منهم من كلّم الله﴾ والسّياق هو الذي يحدّد المعنى المراد ويبيّنه، لكنّ نصارى نجران تركوا المعنى الظاهر المتبادر الجليّ المحكم، ولجأوا إلى المعنى غير المراد مستغلين تشابه اللفظ لزيغ قلوبهم وفساد نياتهم، ومحاولة صرف اللفظ عن المعنى المراد به إلى شهوات نفوسهم والتشبث بباطلهم وسوء معتقدهم. وقد أنزل الله تبارك وتعالى في شأنهم من أول سورة آل عمران إلى الآية الرابعة والثمانين منها، ردّ فيها باطلهم، وأدحض شبهتهم، وبيّن أنهم بسبب زيغ قلوبهم يتّبعون ما تشابه من القرآن، ويتعامون عن المحكم الصريح الجليّ المثبت أن الله لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كلّ شيء فقدّره تقديرا، وعيسى ابن مريم خلق من خلق الله وعبدٌ من عبيده، وقد اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يجعل من القرآن العظيم محكما وأن يجعل منه متشابها، والمحكم هو الواضح الجلي الذي لا يخفى علم المراد منه على العامة والخاصة، والمتشابه هو اللفظ الذي يحتمل أكثر من معنى كلفظ «من» في قوله تعالى: ﴿وروح منه﴾ وكلفظ «بعد» في قوله تبارك وتعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فأما أهل الإيمان

الراسخون في العلم الثابتون على الحق فإنهم يردّون متشابهه إلى محكمه ويحملون ألفاظه على المعنى المتبادر منها فيحملون معنى «من» في قوله تعالى: ﴿وروحٌ منه﴾ على ما أريد منها وهي ابتداء الغاية، ويحملون كلمة «بعد» في قوله عز وجل: ﴿والأرضَ بعد ذلك دحاها﴾ على معنى «مع ذلك» لأنها تستعمل في الكلام الفصيح أحيانا بمعنى «مع» ومنه قوله عز وجل: ﴿عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم﴾ أي مع ذلك، فلا معارضة بينها وبين قوله تعالى: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء﴾ وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا يُسْأَل عن ذنوبهم المجرمون﴾ مع قوله عز وجل: ﴿وَقِفُوهُم إنهم مسئولون﴾ فالراسخون في العلم يحملون السؤال المنفيّ على سؤال الاستفهام والاستعلام ويحملون السؤال المثبت على السؤال لتوبيخهم وتقريعهم على سوء أعمالهم، وهكذا يفعل الراسخون في العلم يحملون ما تشابه من الآيات على المحكم منها، أما الذين في قلوبهم مرض وانحراف عن سبيل الرشاد فإنهم يحملون المتشابه على غير ما أريد منه لحمل آيات القرآن على التناقض، وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولذلك وصف الله عز وجل الراسخين في العلم الذي يردون متشابهه إلى محكمه بأنهم يقولون: آمنا به، كلّ من عند ربنا، فكلامه عز وجل لا يتناقض ولا يتعارض ولا يتضارب تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. ولذلك بعد أن صدّر الله تبارك وتعالى صدر هذه السورة الزهراء بسياق أدلة جلية على أنه لا إله إلا هو الحي القيوم وأنه أنزل على محمد ﷺ القرآن بالحق، كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى هدى للناس، وأنزل الأدلة الفارقة بين الحق والباطل، وأن الذين يكفرون بآيات الله ويحاولون ضرب بعضها ببعض لهم عذاب شديد من العزيز المنتقم الجبار، وفي هذا تقرير للإيمان بالله وكتبه ورسله، وتحذير شديد من التفريق بين أحد من رسله، وهو يقتضي أن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عيسى عبد من عبيد الله ورسول من رسله ليس إلهًا ولا ابن إلـه ، شرع في إبطال شبهة نصارى نجران ومن على شاكلتهم من الذين يتركون المحكم الجليّ الواضح القطعيّ الدلالة الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا ويستدلون بالألفاظ المتشابهة المحتملة لمعان كثيرة ويتعلقون ببعض المعاني غير المرادة منها مع أن هذه المعاني المتشابهة لا يمتاز بعضها عن بعض في الأصل لو كانت هذه الألفاظ مفردة غير واردة في سياق كلام لأنها إذا كانت واردة في سياق كلام فإن هذا السياق يحدد المراد منها ، وهذا أمرٌ معروفٌ في معاني الحروف ، لكن الذي في قلبه زيغ أي ميل عن الحق إلى الباطل يتتبع المتشابهات ويترك الواضحات الجليات ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب﴾ أي هنّ الأصول والقواعد التي يُرْجَع إليها عند الاختلاف والاشتباه ، لقطعية دلالتها وعدم احتمالها إلا لمعنى واحد . وقوله تعالى : ﴿وأُخَرُ متشابهات﴾ أي ومن الكتاب آيات تحتمل أكثر من معنى ابتلاء واختبارا ، وإن كان سياق الكلام يحدّد المراد منها ، ولا شك عند أهل العلم أن المراد بالمتشابه هنا غير المراد بالمتشابه الذي وصف به القرآن كله في قوله تعالى : ﴿كتابا متشابها مثاني﴾ إذ المراد منه أنه كلّه يشبه بعضه بعضا في الحسن والصدق والإعجاز ، كما أن المراد بالمحكم الذي وصف به القرآن كلّه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ كتاب أُحْكِمَتْ آياته﴾ فإن المقصود به أنه كلّه مُتْقَنٌ لا يتطرق إليه الخلل أو الفساد أو التناقض . وقوله تعالى : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ أي فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق والاستقامة إلى الأهواء الباطلة ، المنحرفون عن سنن الرشاد ، المصرّون على الشر والفساد والعناد ، فإنهم لا يتعلّقون بالمحكمات الجليات وإنما يقصدون الألفاظ المشتبهات ، لا تَحَرِّيًا للحق بل لطلب فتنة الناس عن دينهم

بـالتشكيـك والتلبيس والتأويل البـاطل ، حسبما يشتهـون من التـأويـلات الفاسدة والآراء الزائغة ، وهـم ليسـوا أهلا لتأويل كتاب الله فتأويله يعلمه الله عز وجل من وفّقه من عبـاده الراسخين في العلم الثابتين على الحق المتمكنين من فهم دين الإسـلام الـذين لم يتـزلـزلـوا عن الهدى ، ولم تلعب بهم الأهـواء والشبهات والشهـوات ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ومـا يعلم تأويله إلا الله ، والراسخـون في العلم يقـولون آمنا بـه كلٌّ من عنـد ربنا ، ومـا يذّكـر إلا أوْلوا الألباب* ربنـا لا تزغ قلوبنا بعـد إذ هديتنا وهب لنـا من لدنك رحمة ، إنك أنت الـوهاب* ربنـا إنك جامع النـاس ليوم لا ريب فيـه ، إن الله لا يخلف الميعـاد﴾ أي ولا يحيط بعلمـه إلا الله الـذي أنـزلـه ، والثـابتـون على الحق المستقرون على العلم والهدى يسارعون إلى الإيمان بمحكم الكتاب ومتشابهه ، ويردون متشابهه إلى محكمـه ، ويقولون : المحكم والمتشابـه من القرآن كلّه من عند الله منزّل بالحق لا يتناقض ولا يتضارب ولا يتضادّ ولا يختلف ، ولو كان من عند غير الله لوجـدوا فيه اختلافا كثيرا ، ولا يكون بحـال هؤلاء الراسخين إلا أصحاب العقول ، الـذين يضرعون إلى الله عز وجل أن يثبتهم على الهدى وأن لا يُميل قلوبهم عن الحق بعد مـا عرفوه واطمأنوا بـه وأرشدهم الله إليه ، ويطلبون من الله أن يمنحهـم رحمة من عنده يثبّتهم بها على القـول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة حالة كونهم مقرين بأن الله حاشر الناس ليوم الحساب الذي لا شك فيـه ولا ريب ليجزي كلّ عـامل بما عمل ، كما وعد عـز وجل وهو لا يخلف موعـده . هذا ومن العجيب أن بعض الناس حمل المتشـابه هنا على آيـات الصفات ، وقـد قـال شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمه الله : لا أعلم أحدا من السلف جعلها ـ يعني آيات الصفات ـ من المتشابه الداخل في هذه الآية .

قال تعالى: ﴿إنّ الّذين كفروا لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادُهم من الله شيئاً وأُولئك همْ وقودُ النّار* كَدَأْبِ آل فرعونَ والذين من قبلهم، كذّبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم، والله شديدُ العقاب* قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنّمَ، وبئس المهادُ* قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئةٌ تقاتلُ في سبيل الله وأُخرى كافرةٌ يرونهم مثليهم رأْي العين، والله يؤيّد بنصره من يشاءُ، إنّ في ذٰلك لعبرة لأولي الأبصار﴾

بعد أن أدحض الله تبارك وتعالى شبهة نصارى نجران ومن على شاكلتهم وحذّر من الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء صرفه إلى معان باطلة أنذر هنا الكافرين بأنهم وقود النار، وقد حذّر رسول الله ﷺ المسلمين من سلوك سبيل هؤلاء الزائغين عن الحق فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكماتٌ هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا وما يذّكر إلا أوْلواْ الألباب﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم».

وقوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولٰئك هم وقود النار﴾ أي إن الذين جحدوا الحق وكذبوا رسل الله ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه، وزاغت قلوبهم عن الحق واتّبعوا المتشابهات ابتغاء الفتنة والصدّ عن سبيل الله لن تنفعهم يوم القيامة عند الله عز وجل أموالهم ولا أولادهم ولن تنجيهم من عقوبة الله إنْ أحلّها في العاجلة بهم على تكذيبهم للحق وزيغهم عن طريق الرشاد واتّباعهم للمتشابهات

ابتغاء الفتنة، وهم في الآخرة حطب جهنّم التي وقودها الكفّار والحجارة جزاء الكفر بالله ورسله وكتبه وتحريفهم للكلم من بعد مواضعه، وقوله عز وجل: ﴿كَدَأْب آل فرعون والذين من قبلهم، كذّبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم، والله شديد العقاب﴾ أي كسنّة الله تعالى في آل فرعون ومن قبلهم من الذين كفروا كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط لما كفروا بالله وكذبوا رسله وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، فما أغنت عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، وهم حطب جهنم يوم القيامة، والإضافة في قوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ من إضافة المصدر لمفعوله، والمصدر قد يضاف إلى فاعله وقد يضاف إلى مفعوله. وكما قال عز وجل: ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم، إن الله قوي شديد العقاب* ذلك بأن الله لم يك مغيّرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم* كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون، وكلٌّ كانوا ظالمين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿سنّةَ الله في الذين خَلَوْا من قبلُ ولن تجد لسنّة الله تبديلا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن كادوا لَيَسْتفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذًا لا يلبثون خِلاَفَكَ إلا قليلا* سُنّةَ مَن قد أرسلنا قبلك مِن رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلاً﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أكثر منهم وأشدّ قوّة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون* فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون* فلما رَأَوْا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين* فلم يَكُ ينفعهم إيمانهم لما رَأَوْا بأْسَنا سُنّتَ الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ والدأب: السنّة والعادة والشأن والأمر والفعل، كما قال

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

امرؤ القيس بن حُجْر:

وإنّ شفائي عبرة مهراقة ... فهل عند رسم دارس من مُعَوّلِ
وقوفًا بها صحبي عليّ مطيّهم ... يقولون: لا تهلك أسًى وتجمّلِ
كدأبك من أمّ الحويرث قبلها ... وجارتها أمّ الرّباب بمَأْسَلِ

أي كشأنك وعادتك وأمرك وفعلك في أم الحويرث حين أهلكت نفسك في حبها وبكيت دارها ورسمها، فهل تلقى من وقوفك على هذه الديار وتلك الرسوم إلا ما تعودته من أم الحويرث وجارتها أم الرباب بمأسل؟! وقوله: ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسلهم وجرائمهم، وقوله تعالى: ﴿والله شديد العقاب﴾ أي وكانت عقوبة الله لهم عقوبة العزيز المقتدر المنتقم الجبار. وقوله عز وجل: ﴿قل للذين كفروا سَتُغْلَبُون وتُحْشَرُون إلى جهنّم، وبئس المهاد﴾ أي قل يا محمد لليهود والنصارى والمشركين الذي يكفرون بالله ويكذّبونك: سَتُذَلّون وتقهرون وينالكم خزي في الدنيا، وستُجْمَعون من قبوركم لتكونوا حطب جهنّم، وتكون النار لكم فراشا، وبئس الفراش. وقوله عز وجل: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِم رَأْيَ العين، والله يؤيد بنصره من يشاءُ إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي يجب عليكم أيها الجاحدون أن تعتبروا بما أبصرتموه من تأييد الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يوم بدر، فإنّ ما حدث يوم بدر كان آية ومعجزة وعلامة ظاهرة على أن محمدًا رسول الله ﷺ حقا وصدقا، وقد أيقنتم بما حدث وعلمتم تفاصيله، وفي ذلك آية لكم على أنه سيصيبكم مثل ما أصاب قريشا يوم بدر، وسَتُهْزَمُون وتُغْلَبون وسينتصر محمد عليكم كما هي سنة الله مع أنبيائه ورسله من نصرهم وتأييدهم، وكما هي سنة الله مع أعداء المرسلين من إذلالهم وقهرهم وخذلانهم، فقد علمتم أيها الجاحدون أن

المسلمين كانوا بضعة عشر وثلثمائة وكان المشركون بين التسعمائة والألف ومع ذلك فإنّ الله عز وجل عند ما تواجه الفريقان ببدر قلّل المشركين في أعين المؤمنين حتى صار المؤمنون يحسبون أن المشركين لا يزيدون على الستمائة وقلّل المسلمين في أعين المشركين حتى كانوا يحسبونهم أقلّ من ثلثمائة، وقد ذكر الله تبارك وتعالى ذلك حيث بيّن هنا أن المسلمين كانوا يرون المشركين مِثْلَيْهِم رأْيَ العين، مع أن المشركين كانوا أكثر من ثلاثة أمثال المسلمين، وقد أرى الله عز وجل رسولَه محمدًا ﷺ في منامه المشركين قليلا ليبشر أصحابه بذلك فتقوى نفوسهم وعزائمهم على قتال أعدائهم الذين يتلاقون معهم على غير ميعاد، وعندما أقبل المشركون والمسلمون على المعركة قلّل الله المسلمين في أعين المشركين ليستدرجهم إلى أرض المعركة وقلّل المشركين في أعين المسلمين، ولا شك أن الله تبارك وتعالى فعل ذلك ليقضي أمرا كان مفعولا فتتم معركة بدر، وينتصر فيها المسلمون مع قلة عَدَدهم وعُدَدهم وينهزم المشركون مع كثرة عَدَدهم وعُدَدهم، وفي ذلك عظة وعبرة لكل ذي بصر أو بصيرة سواء من حضر المعركة أو سمع بها من الموجودين آنذاك أو الذين يوجدون بعد ذلك إلى يوم القيامة. وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿إذ أنتم بالعُدْوة الدنيا وهم بالعُدْوة القُصْوَى والرَّكْب أسفل منكم، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولَكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلِكَ من هلك عن بينة ويَحيَى من حَيَّ عن بينة، وإنّ الله لسميع عليم﴾ ﴿إذ يُريكَهُم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولَكنّ الله سلّم، إنه عليم بذات الصدور﴾ ﴿وإذ يُرِيكُموهُم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقلّلكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور﴾ وقوله عز وجل هنا: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا﴾ أي قد كان لكم أيها الكافرون الجاحدون المتّبعون للمتشابه الزائغون عن المحكم عبرة في فرقتين تواجهتا في ميدان الحرب،

وقوله عز وجل: ﴿فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾ أي إحدى الطائفتين وهي المؤمنة تقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله والطائفة الأخرى كافرة مكذبة بالله ورسله تقاتل تحت لواء الشيطان، وقوله عز وجل: ﴿يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِم رَأْيَ العين﴾ أي يبصر المؤمنون أعداءهم ويقدّرونهم بأكثر من ستمائة مقاتل إذ كان المؤمنون بضعة عشر وثلثمائة رجل، وهم يرون الكافرين قدرهم مرتين رأي العين لا مناما ولا وهما، مع أن عددهم في الواقع كان بين التسعمائة والألف لكنّ الله قلّلهم في أعين المؤمنين ليقوّي عزيمة المؤمنين على حربهم، وقد روى البخاري من حديث البراء رضي الله عنه قال: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدرا أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النّهر بضعة عشر وثلثمائة اهـ وقد كان رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بالنصر قبل أن تقع المعركة كما قال عز وجل: ﴿وإذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتَوَدّون أن غير ذات الشَّوْكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ وقد كان رسول الله ﷺ يحدد أماكن مصارع رؤساء قريش كأبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة قبل المعركة، فقد روى مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يُرِينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله» قال عمر: فو الذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ اهـ وقد قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيدا ولم يؤسر من المسلمين أحد، وفي لفت انتباه الناس إلى هذه المعركة يقول الله عز وجل: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذٰلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي إن في نصر الله للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة لَعِظَةً لأصحاب العقول، ليعلموا أن سنة الله في خلقه أن ينصر المؤمنين برسله، وأن يُنْزِلَ بأسه بالكافرين الزائغين.

قال تعالى: ﴿زُيّن للنّاس حبّ الشّهوات من النّساء والبنين والقناطير المُقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدّنيا والله عنده حسنُ المآب﴾

لما كان حبّ الشهوات هو أحد العوائق الكبار التي تحول بين الإنسان وبين سلوك سبيل الراشدين، وقد نبه عز وجل فيما تقدم أن أموال الكافرين وأولادهم لا تغني عنهم من عذاب الله في العاجلة أو الآجلة شيئا، وضرب أمثلة بما أوقعه بآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين الجاحدين، وبما أنزله بصناديد المشركين من قريش يوم بدر، أرشد هنا في هذا المقام الكريم إلى أن الشريعة تهذّب الطبيعة، وأن ما جبل عليه الإنسان طبعا قد وضع الله تبارك وتعالى أحسن السّبل للاستفادة وقضاء الشهوة منه شرعا، فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا، ولا توجد شهوة محرمة إلا وقد يسّر الله للإنسان بدلها شهوة مباحة، والشرع جاء لتهذيب وتنظيم الطبع، وقوله عز وجل: ﴿زُيِّن للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسَوَّمة والأنعام والحرْث﴾ هذه هي أصول الشهوات التي يتصارع البشر من أجلها، ويكاد حبّ الجاه والرئاسة لا يخرج عن دائرتها، وقد بدأها الله عز وجل بذكر الميل إلى شهوة النساء لأنها في الواقع أخطر الشهوات، وأضرّ فتنة تصيب الناس، وقد نبّه إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم من حديث أسامة ابن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء». وفي لفظ لمسلم من حديث أسامة بن زيد وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «ما تركت بعدي في الناس فتنة أضر على الرجال من النساء» وفي رواية لمسلم من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإنّ الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». والمراد بالشهوة اشتياق النفس إلى الشيء وحرصها على الاستمتاع به وحيازته، وحبّ الشهوة هو فرح الإنسان بتحصيل ما يشتاق إليه من هذه الأشياء المذكورة وتلذّذه بها، فإن كانت حلالا فهي شهوة ممدوحة وإن كانت حراما فهي شهوة قبيحة مذمومة، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك في قوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وفي بُضْع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وِزْر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر». وثنى الله عز وجل بالبنين لأن الزينة بهم أتم من الزينة بالبنات لأن مبنى أمر البنات على الستر والحجاب. والقناطير جمع قنطار وهو أكبر ما عرفته العرب من المعايير والموازين ولذلك ضرب الله عز وجل به المثل في قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أهل الكتاب مَن إنْ تَأْمَنْه بقنطار يُؤَدِّه إليك﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهنّ قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئا﴾ وقد استعملت العرب موازين كثيرة مختلفة كالدينار والدرهم والرطل، قال في القاموس المحيط: والرطل اثنتا عشرة أوقية، والأوقية إستارٌ وثلثا إستار، والإستار أربعة مثاقيل ونصفٌ، والمثقال درهمٌ وثلاثةُ أسباع درهم، والدرهمُ ستّةُ دَوَانق والدّانِق قيراطان، والقيراط طَسُّوجان، والطَّسُّوج حَبَّتان والحبة سُدُس ثُمُن درهم، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءا من درهم اهـ والمقنطرة أي المتراكبة المتكاملة المتمّمة، والمقصود من هذا الوصف التأكيد كقولهم: ألوف مؤلّفة وإبل مؤبّلةٌ، ودراهمُ مُدَرْهَمةٌ، والذهب والفضة من المعادن الثمينة التي جعلها الله عز

وجل ثمنا لجميع الأشياء، فمالكهما يحصل بهما على ما يريد، فهما أكمل الوسائل إلى تحصيل مشتهيات النفوس، ولم يزالا مذ أوجدهما الله عز وجل للناس في الذروة في نفوس الناس أفرادًا وجماعات وهما أبرز سمات الغنى وهما من آيات الله عز وجل حيث جبل الناس على شهوتهما مع أنهما من عروق طين الأرض وأحجارها التي لا تأخذ بألبابهم كما يأخذ بها الذهب والفضة، وقد ألف لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني كتابا عن الذهب والفضة سماه: كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء، قال في أوله: الحمد لله خالق الخلق وباسط الرزق وقاسم المعيشة بين عباده بأحسن تقدير، وأتقن تدبير، فلم يَعُلْ عليه صغير، ولم يَعْزُبْ عنه حقير، حتى عمّ الجميع بلطفه، ووسعهم بفضله، وأغناهم بحصاة من أرضه، أخرجها لهم من بين حَجَر ومَدَر، لا ينهشها الكلب، ولا يبتلعها الظّليم، ولا تؤذى شمّا ولا مذاقا، فجعل بها نظام دينهم ودنياهم، ومتزوَّدهم إلى معادهم وأخراهم، فأحلّ بها الفروج، ومَلّك بها الرقاب، ورأَبَ بها الصدوع، وسدّ بها الثغور، وأرقأ بها الدّماء، وفكّ بها الأسرى، وسيَّر بها الحاجّ، وقضى بها الفروض، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إنّ صلواتك سكن لهم﴾ وقال تعالى: ﴿فأنذرتكم نارا تلظّى﴾ إلى آخر السورة، وقرن المال بالولد، قال عز وجل: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ ثم قال رحمه الله: ولما سمعتُ من تَرْداد ذكر الذهب والفضة في كتاب الله عز وجل وفي الأخبار عن رسول الله ﷺ، وأن الله جعلهما حلية أهل الجنة وجمال ملوك بَرِيّته فقال تعالى: ﴿أولَئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يُحَلَّوْن فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرًا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك، نعم الثواب وحسُنت مرتفقًا﴾ وقوله تعالى: ﴿جناتُ عدنٍ يدخلونها يحَلّون فيها من أساور من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حريرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿يُطَاف عليهم بصحافٍ من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين﴾ وقال تعالى: ﴿ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً * قواريراً من فضة قدّروها تقديرا﴾ ثم ذكر أن الأعشى قال في مواهب الملوك:

وَنَادمْتُ فهْدًا بالمعافِرِ حِقْبة ... وفهدٌ سَمَاحٌ لم تَشُبْهُ المواعدُ

ووالدُهُ نعمانُ من حَفَداته ... رُعَيْنٌ وهمْ قومٌ مُلُوكٌ أمَاجدُ

وأَكْؤُسهمْ صافي اللُّجَين مُكَلَّل ... بدُرٍّ وياقوتٍ عليه العساجدُ

هذا بعض ما ذكره الهمداني صاحب كتاب: صفة جزيرة العرب، في كتابه: الجوهرتين. وقد حرم الإسلام الأكل أو الشرب في آنية الذهب والفضة كما حرم على الرجال لبس الذهب، فقد روى البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ نهانا عن الحرير والدِّيباج والشرب في آنية الذهب والفضة وقال: «هي لهم في الدنيا وهي لكم في الآخرة». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم». وفي لفظ لمسلم: «إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب». وفي لفظ لمسلم: «من شرب في إناء من ذهب أو فضة فإنما يجرجر في بطنه نارا من جهنم». كما روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حُرِّمَ لباس الحرير والذهب على ذكور أمّتي وأُحِلّ لإناثهم». والفضة تسمّى اللُّجَيْن، والذّهب قد يسمى العَسْجَد، ويطلق على الذهب والفضة اسم التِّبْر ومنه قول الشافعي رحمه الله:

والتّبر كالتّرب مُلْقًى في أماكنه ... والعود في أرضه نَوعٌ من الحطب

وقوله عز وجل: ﴿والخيل المسَوّمة﴾ أي وزُيِّن للناس حبّ الخيل المسوّمة

وهي المطَهَّمـة الحِسَان، والمطهّـم هو البـارع الجمال التـامّ الحسن، قال أبـو القاسم الدِّينَوَرِيّ في وصف جواد:

ومُطَهَّمٌ طَرِف العنــان مُـعَوَّد   خَوْضَ المهـالك كلّ يوم بِــرَازِ
وإذا توغـّل في ذُرَى مُتَمَـنِّع   صَـعْبٍ بعيـد العهد بالمجتـازِ
تركت سنابكه بصُمِّ صخوره   أثرًا يلـوح كنقش صـدْرِ البازي

وقد أحبّ الناس الخيل مذ عُـرِفَت ولا يزالون يحبونها، بل وصف بعضهم ظهرالفرس بأنه أعز مكان في الدنيا حيث يقول:

أعز مكان في الدنا سَـرْج سابح

ويقول امرؤ القيس في وصف فرسه:

مِكَـرّ مِفَرّ مقبِل مدْبرٍ مـعًا   كجُلْمود صخر حطّه السيل من عَلِ

وقد قال بعض الحكماء في الخيل: ظاهرها عزّ وباطنها كنزٌ. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الخيـل وحض على اقتنائها لإعلاء كلمة الله حيـث يقول عز وجل: ﴿وأَعِـدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ وأشـار إلى أن سليمان عليه السلام ذكر أنه يحب الخيل لأن الله ذكـرها له بخير، حيث يقول عز وجل: ﴿إذ عُـرِضَ عليه بالعَشِـيّ الصافِنَات الجِيَـاد* فقال إني أحببت حُبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجـاب﴾، وقوله: ﴿عن ذكر ربي﴾ أي بسبب ذكـر ربي لها بخير، وقـد سمـى الخيل خيرا. وقـد روى البخـاري ومسلم من حـديث أنس رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال: «البركـة في نواصي الخيل». كما روى البخاري ومسلم من حديث عروة بن الجعد البارقي رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيهـا الخير إلى يوم القيـامـة الأجـر والمغنم». وقـوله في هـذا الحديث: «إلى يـوم القيـامـة» من المعجزات لأنه لا يـزال إلى اليوم رغم (الصواريخ والقاذفـات) يوجد في جميع جيـوش العالم فـرق الخيالـة والفرسـان. وقد روى البخـاري ومسلم واللفظ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر ولرجل سِتْر وعلى رجل وِزْر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال في مرج أو روضة فما أصابت في طِيَلِها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طِيَلَها فاسْتَنَّت شَرَفًا أو شَرَفَيْن كانت أرواثها وآثارها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يُرِدْ أن يسقيها كان ذلك حسنات له، ورجل ربطها تغنّيًا وتعفّفًا ولم ينس حقّ الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخرا ورياءً فهي على ذلك وزر». الحديث، وقوله عز وجل: ﴿والأنعام﴾ أي الإبل والبقر والغنم، وقد وصف الله عز وجل مظهرًا من مظاهر زينتها وجمالها حيث يقول: ﴿والأنعامَ خلقها، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون* ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون* وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالِغِيه إلا بِشِقّ الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم* والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينة، ويخلق مالا تعلمون﴾ وقوله تعالى: ﴿والحرث﴾ أي والبساتين والمزارع، وقد روى أحمد والطبراني من حديث سُوَيْد بن هُبَيْرة سمعت النبي ﷺ يقول: «خير المال مُهْرة مأمورة أو سِكَّةٌ مَأْبُورة». والمراد بالمهرة المأمورة: الفرس الكثيرة النسل، والسِّكّة: النخل المصْطَفّ، والمأبورة: الملَقَّحة. وقوله تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي هذه الزينات التي جُبِلْتم على شهوتها ومِلْتُم لها هي متاع الحياة الدنيا، فاللذة بها لا دوام لها ولا بقاء وسرعان ما تنقضي وتزول، وقوله عز وجل: ﴿ والله عنده حسن المآب﴾ أي وعند الله عز وجل جميل المرجع لعباده الصالحين من اللذات التي لا تزول ولا تفنى في جنات النّعيم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أؤنبّئُكُم بخيْر مِنْ ذالكمْ، للذين اتّقوا عند ربّهم جنّاتٌ تجرى من تحتهـا الأنهارُ خالديـن فيها وأزواجٌ مُطهّرةٌ ورِضْـوانٌ من الله، والله بصيرٌ بالعباد* الذين يقولون ربّنا إنّنا آمنّا فاغفر لنا ذُنوبنا وقِنَا عذاب النارِ* الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغْفرينَ بِالأسحارِ.﴾

بعد أن بيّن الله عـز وجل ما تفضل بـه على عباده من لـذات الحياة الـدنيا ونبّه عبـاده إلى أنها لذات فـانية لابقـاء لها ولا دوام بقوله عـز وجل: ﴿ذلك متـاع الحياة الـدنيا﴾ وأشعـرهم بما أعده للصـالحين من حسن المرجع وجميل المثوبة، أمر نبيه محمدا ﷺ أن يخبر الناس بتفصيل بعض ما عند الله عز وجل من حسن المآب وما أعـد لعباده المتقين من اللـذات الكاملة البـاقية والنعيم الـذي لا يفنى ولا يزول فقـال عـز وجل: ﴿قل أؤنبّئكم بخير من ذالكم؟﴾ أي أأخبركم بأفضـل وأجمل وأحسن ممّـا زُيّن لكم مـن حب الشهـوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث؟ وقولـه عز وجل: ﴿للـذين اتقـوا عندربهم جناتٌ تجري مـن تحتها الأنهارُ خالدين فيهـا وأزواج مُطَهَّرة ورضوانٌ من الله﴾ هو مستأنـف استئنافًا بيانيا كأن سائلا سأل: ماذلك الخير الذي تتصاغر عنده هذه اللذات السّبع المشْتَهيات عند جميع الناس؟ فكان الجواب: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مُطَهَّرة ورضوان من الله﴾ أي عند الله عز وجل في الدار الآخرة لمن آمنوا بالله عـز وجل وصدّقوا المرسلين وخافوا الله عـز وجل وفارقـوا الـدنيا وهم مـؤمنـون نعيمٌ لا يزول ولَـذَّات لا تفنى في حدائق الخلد التي أعدها الله عز وجل لعباده الصالحين تجري تحت أشجارها وقصورها أنهار من مـاء غير آسِن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لَـذّة للشاربين وأنهار من عسَل مُصَفًّى وهم فيهـا من كل الثمرات، حالـة

كونهم ماكثين في هذا النعيم أبدا لا يَرِيمُون ولا يتحولون ولا يزولون عنه ولا يعتريهم مرض ولا شيخوخة، ولا ينتابهم فيها إزعاج، فهم في دار السلام عند ربهم لهم ما يشاءون وعند الله المزيد من النعيم المقيم، ولهم في هذه الجنات زوجات مطهرات من سائر الأرجاس والأنجاس والأقذار والقذى والأذى، فهُنّ لَا يَبُلْن ولا يتغوّطن ولاَ يَبْصُقن ولا يتمخَّطْن ولا يعتريهن حيض ولا نفاس، قاصرات الطّرف، مقصورات في الخيام، لم يطمثهن قبل أزواجهن إنسٌ ولا جان، وحتى ما يكون لهم من أزواجهم المؤمنات فإنهن يرجعن أبكارا عُرُبًا أترابا، لو أن امرأة منهن اطّلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بين السماء والأرض، وهنّ طاهرات مطهّرات حِسًّا ومعنى، فالتمتّع بهن واللذة منهن هو المتاع واللذة على الحقيقة بخلاف التلذذ من نساء الدنيا فهو تلذّذ مع العوج وسرعة انقضائه وكأن التلذذ بهن في الدنيا من باب المجاز، وهو أشبه شيء بطعام شهي أو شراب لذيذ لا يزيد المتاع والتلذذ به عن وقت وجوده في الفم فإذا ابتلعه الإنسان ذهبت لذّته وانقضت متعته، وقد يجلب بعد ذلك لصاحبه الأسقام والأمراض والعقوبات والنكبات، وقوله عز وجل: ﴿ورضوانٌ من الله﴾ أي وللمتقين عند ربهم زيادة على ما هم فيه من نعيم الجنة والزوجات المطهرات والخلود الأبدي السّرمدي في هذا النعيم لذّة تفوق سائر اللذات وهي رضوان الله عليهم، وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، يقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نَرضَى، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا». وقد أشار الله عز وجل إلى أن رضاه على المؤمنين أكبر من جميع نعيم الجنة حيث يقول عز

وجل: ﴿وعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكنَ طيّبة في جنات عدن، ورضوانٌ من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم﴾ وقوله عز وجل: ﴿والله بصير بالعباد﴾ هو ترغيب في الخوف من الله عز وجل والحرص على تقواه وطاعته، واتباع رسوله محمد ﷺ وإخلاص العمل لله وحده، وترهيب من الانجراف وراء شهوات الحياة الدنيا، والانقطاع وراء لذاتها، والكفر بالله وتكذيب رسوله ﷺ الذي يؤدي بصاحبه إلى نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة. والعاقل هو الذي يخلص العمل لمرضاة الله لأنه يعلم أن الناقد بصير، ويخفف ظهره من الأوزار لأن العقبة كَئُود، ويكثر من زاد التقوى لأن السفر طويل، وقوله عز وجل: ﴿الذين يقولون ربنا إنّنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ إرشاد من الله عز وجل لعباده الصالحين أن يتوسلوا إليه تبارك وتعالى بصالح أعمالهم وعلى رأسها الإيمان، حيث قدّموا بين يدي دعائهم قولهم: ﴿ربنا إننا آمنا﴾ ثم سألوه عز وجل أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يصونهم من عذاب جهنم حيث قالوا: ﴿فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ ولا شك أن التوسّل إلى الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وبالأعمال الصالحة قد أرشد إليه الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، وقد ذكرت في تفسير سورة الفاتحة أن رسول الله ﷺ لفت انتباه المسلمين إلى أن الإنسان المسلم إذا دعا الله تعالى بعد أن يذكر أَرْضَى عمل تقرب به إلى الله عز وجل، وعمله لوجهه الكريم كان حَرِيًّا بأن يُستَجاب دعاؤه، حيث ذكر رسول الله ﷺ قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فانطبقت عليهم الصخرة فلما تضرعوا إلى الله عز وجل بأرجى أعمالهم الصالحة انفرجت عنهم الصخرة، وخرجوا يمشون، الذي أخرجه البخاري ومسلم مطولا من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وكقوله عز وجل: ﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا

فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار﴾ فإنهم قدّموا ذكر الإيمان قبل الدعاء، وكذلك ما حكاه الله عز وجل عن المؤمنين في قوله تبارك وتعالى: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربّنا آمنّا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ والتنبيه إلى هذا النوع من التوسل كثير في كتاب الله عز وجل، أما التوسل بغير أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وبغير الأعمال الصالحة التي قصد بها وجه الله فإنه لا يجوز كما لا يجوز التوسل بذوات الأنبياء والصالحين في حياتهم أو بعد مماتهم إذ هو من الشرك المحبط للأعمال نعوذ بالله، وقوله عز وجل: ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنْفِقِين والمستغفرين بالأسحار﴾ نصب الصابرين وما عطف عليه يمكن أن يكون على المدح كأنه قيل: أمدح الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار، ويمكن أن يكون قوله: ﴿الصابرين﴾ نعتا لقوله: ﴿الذين يقولون﴾ باعتباره منصوبا على المدح أو مجرورا على أنه صفة للذين اتّقوا أو بدلٌ منه أو صفةٌ للعباد في قوله عز وجل: ﴿والله بصيرٌ بالعباد﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى هؤلاء المؤمنين المتوسلين إلى الله عز وجل بإيمانهم الضارعين إليه تبارك وتعالى أن يغفر ذنوبهم ويحفظهم من عذاب النار بخمس صفات وهي الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار، والمراد كونهم صابرين في أداء الأعمال الصالحة التي تقربهم إلى الله عز وجل وصابرين عن الوقوع في المحظورات فهم يحبسون أنفسهم عن الشهوات المحرمة، وصابرين في كل ما ينزل بهم من المحن والشدائد فهم راضون عن الله عز وجل في جميع أحوالهم حابسون أنفسهم عن الجزع عند وقوع المكروه بهم، فهم أئمة خير وهدى كما قال عز وجل: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ ولذلك قيل: بالصبر واليقين تُنَال الإمامة في الدين. والصفة الثانية كونهم صادقين، ولا شك أن الصدق يهدي إلى البرّ وأن البرّ يهدي إلى

الجنة. والصفة الثالثة كونهم قانتين أي إنهم يداومون على طاعة الله ويواظبون على العبادة. والصفة الرابعة كونهم مُنْفِقِين أي يبذلون من أموالهم في مرضاة الله، ولا يبخلون على أنفسهم وأزواجهم وعيالهم وأرحامهم وسائر وجوه البر التي تقربهم إلى الله عز وجل. أما الصفة الخامسة فهي الاستغفار بالأسحار، والأسحار جمع سَحَر وهو ثلث الليل الأخير إلى الفجر، ومع أن الاستغفار محبوب مطلوب في جميع الأوقات إلا أنّ وقت السّحر هو أرجى الأوقات لتنزّل الرحمة على عباد الله المستغفرين لأن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة وقت السحر ويقول: من يستغفرني فأغفر له، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: مَن يدعوني فأستجيبَ له، من يسألني فأُعْطِيَه، من يستغفرني فأغفرَ له». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله في السماء الدنيا لشَطْر الليل أو لثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له أو يسألني فأُعْطِيَه ثم يقول: من يُقرض غير عَدِيم ولا ظَلُوم». وفي لفظ: «ثم يبسط يديه تبارك وتعالى يقول: من يقرض غير عَدُوم ولا ظَلُوم». وقد أثنى الله تبارك وتعالى على المستغفرين بالأسحار هنا وفي قوله عز وجل في سورة الذاريات في وصف عباده المتقين حيث يقول: ﴿إن المتقين في جنات وعيون* آخذين ما آتاهم ربّهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين* كانوا قليلا من الليل ما يَهْجَعُون* وبالأسحار هم يستغفرون. ﴾ والاستغفار هو أقرب الوسائل إلى مرضاة الله عز وجل وأعظم أسباب رغد العيش وعز الدنيا وسعادة الآخرة وفي ذلك كله يقول الله عز وجل: ﴿وما كان الله مُعَذِّبَهم وهم يستغفرون﴾ ويقول عز وجل: ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُمَتِّعْكم متاعا حسنا إلى أجل مسَمًّى ويُؤتِ كلَّ ذي فَضْل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فضله﴾ ويقول في نصيحة هودٍ عليه السلام لقومه: ﴿وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مِدْرارًا ويَزِدْكُم قوةً إلى قوتكم﴾ ويقول في نصيحة نوح عليه السلام لقومه: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّارا * يرسل السماء عليكم مِدْرارًا * ويُمْدِدْكم بأموال وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهارا﴾ وقد قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها في النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة». رواه البخاري من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

قال تعالى : ﴿ شهد الله أنّه لا إلّه إلا هو والملائكة وأوْلواْ العلم قائما بالقسط ، لا إلّه إلاّ هو العزيز الحكيم﴾

بعد أن أثنى الله على المؤمنين المستجيبين لله عز وجل المتوسلين إلى مرضاة الله بإيمانهم بيّن عز وجل هنا أن سبيل المؤمنين هو الصراط المستقيم الذي رضيه الله تبارك وتعالى لخلقه وأنه قد نصب لذلك الدلائل وأقام على صدقه البراهين من إعلانه عز وجل أنه لا إلّه إلا هو وأنه هو القائم بالقسط وأنه العزيز الحكيم وأنه شهد بذلك وقضى به في السموات والأرض ووصّى به عباده وأنزل به كتبه وأرسل به رسله وأن ملائكة الله عز وجل يشهدون بذلك ويقرون به ويدعون إليه ، وأن أولي العلم من أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين يقرون بذلك ويعلنونه ويدعون إليه ويأمرون به ، فإن كلمة التوحيد هي الإعلان الحق بالحقيقة الكبرى التي من أجلها خلق الله الخلق ومن أجلها أنزل الكتب وأرسل الرسل وأقام الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، فأهل توحيده عز وجل إلى الجنة ، وأهل الكفر به إلى النار. ومعنى : ﴿شهد الله﴾ أي قضى بذلك وحكم ووصّى وأخبر بكلامه وبما أقام في خلقه من آياته في السموات وفي الأرض وفي الأنفس ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ولا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به ، وقضى به وحكم ، فقال : ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه﴾ وقال : ﴿أن أنذروا أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون﴾ وقال : ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلّهين اثنين إنما هو إلّه واحد فإيّاي فارهبون﴾ وقال : ﴿ وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ وهذا كثير في القرآن ، يوجب على العبادعبادته وتوحيده ، ويحرّم عليهم عبادة ما سواه ، فقد حكم وقضى أنه لا إلّه إلا هو، ثم قال

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رحمه الله: وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارةً، وبفعله تارة، فالقول هو ما أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، وأوحاه إلى عباده كما قال: ﴿ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إلّه إلا أنا فاتقون﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد ويشهد أن لا إلّه إلا هو بقوله وكلامه، وهذا معلوم من جهة كلّ من بلّغ عنه كلامه، ولهذا قال تعالى: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة، قل هاتوا برهانكم هٰذا ذكر مَن معيَ وذكر مَن قبلي﴾ وأما شهادته بفعله فهو ما نصبه من الأدلة الدّالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل وإن لم يكن هناك خبر عن الله، وهذا يستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشاد، فإن الدّليل يبيّن المدلول عليه ويظهره، فهو بمنزلة المخبِر به الشاهد به، كما قيل: سل الأرض من فجّر أنهارها وغرس أشجارها، وأخرج ثمارها، وأحيا نباتها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارها، فإن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارا، وهو سبحانه شهد بها جعلها دالّة عليه فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها، فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إلّه إلا هو، وهو سبحانه الذي جعلها دالة عليه فإن دلالتها إنما هي بخلقه، وبيّن ذلك فهو الشاهد المبيّن بها أنه لا إلّه إلا هو، وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة، قال ابن كيسان: ﴿شهد الله﴾ بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إلّه إلا هو. انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله. وقوله عز وجل: ﴿والملائكة وأولوا العلم﴾ أي وأقرّ الملائكة وأهل العلم من الأنبياء والمرسلين بما أخبرهم به الله وشهد به فشهدوا بذلك وآمنوا به، واستيقنوه وأمروا الناس به ليكونوا على صراط مستقيم، و«قائما» في قوله تعالى: ﴿قائما بالقسط﴾ هو منصوبٌ على الحال من الضمير المنفصل الواقع بعد إلا، فتكون الحال في حيّز الشهادة فيكون المشهود به أمْرَيْن: الوحدانيةَ والقيامَ بالقسط، والعامل في الحال هو

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

معنى جملة لا إله إلا هو، فإن معناهـا: تفرّد. والقِسْط: العدل، قال الفخر الرازيّ رحمه الله: واعلم أن هذا العدل منه ما هـو متصل بباب الدنيا، ومنه ما هـو متصل بباب الـدين، أما المتصل بـالدنيا فـانظر أوّلا في كيفيـة خِلْقة أعضـاء الإنسان حتى تعـرف عدل الله فيهـا، ثم انظـر إلى اختلاف أحـوال الخلق في الحسن والقبح، والغنى والفقـر، والصحـة والسُّقْم، وطول العمـر وقصره، واللذة والآلام، واقطع بأن كلّ ذلك عدلٌ من الله وحكمة وصواب، ثم انظـر في كيفية خِلْقـة العناصر وأجرام الأفـلاك، وتقديـر كلّ واحـد منها بقَدْر معيّن وخـاصية معينـة، واقطع بأن كلّ ذلك حكمـة وصوابٌ، أمـا ما يتصل بأمـر الـدين فـانظر إلى اختـلاف الخلق في العلم والجهل، والفَطَـانـة والبَلاَدة، والهداية والغواية، واقطع بأن كل ذلك عدلٌ وقسط اهـ وقال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: ولفـظ القيام بـالقسط كما يتنـاول القول يتنـاول العمل فيكون التقـدير: يشهد وهو قـائل بالقسط عاملٌ بـه لا بالظلم، فإن هـذه الشهادة تضمنت قـولا وعملا، فإنها تضمنت أنـه هو الـذي يستحق العبادة وحـده فيعبد، وأن غيره لا يستحق العبادة، وأن الذين عبـدوه وحده هم المفلحـون السعداء، وأن المشركين بـه في النار، فـإذا شهد قـائما بالعـدل المتضمّن جزاء المخلصين بالجنة وجزاء المشركين بالنار كان هذا من تمام تحقيق مـوجب هـذه الشهادة، وكـان قـولـه: ﴿قـائما بالقسط﴾ تنبيهـا على جـزاء المخلصين والمشركين، كما في قـولـه: ﴿أفمن هـو قـائم على كل نفس بما كسبت﴾ اهـ وقوله عز وجل: ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ في تكرير قوله عز وجل: ﴿لا إلـه إلا هو﴾ إشعـار للمسلمين بأن يشهدوا بما شهـد الله عز وجل به وبما شهد به الملائكة وأولو العلم، وتعليم للمؤمنين بأن يكرروا كلمة التوحيد هذه التي جعلها الله عـز وجل مفتاح الجنة والتي لو وضعت في كِفّة ووضعت السموات والأرض في كِفّـة لرجحت كِفّة «لا إلـه إلا الله» فقد روى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة
شبكة الألوكة www.alukah.net

النسائي وابن حبان والحاكم من طريق دَرّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى ﷺ: يا رب علمني شيئا أذكرك به، وأدعوك به قال: قل: لا إله إلا الله، قال: يا رب كلّ عبادك يقول هذا، قال: قل: لا إله إلا الله، قال: إنما أريد شيئا تخصُّني به، قال: يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كِفّة ولا إله إلا الله في كِفّة مالت بهم لا إله إلا الله». وقد قال الحاكم فيه: صحيح الإسناد. والحديث فيه دَرّاج بن سمعان أبو السمح وإن كان ضعيفا إلا أنه عرف بالصدق في حديثه عن أبي الهيثم كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في التقريب حيث قال: صَدُوق في أبي الهيثم. كما روى الترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه وابن حبان والبيهقي والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وصححه الذهبي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سيخلّص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فيَنْشُر عليه تسعة وتسعين سِجِلاّ، كلّ سِجِلّ مثل مَدّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كَتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربّ، فيقول: أفلك عذرٌ؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضَرْ وَزْنَك، فيقول: يا ربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تُظْلَم، قال: فتوضع السجلات في كِفّة والبطاقة في كِفّة، فطاشت السجلات، وثَقُلَت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيءٌ». وقوله تبارك وتعالى: ﴿العزيز الحكيم﴾ إشارة إلى كمال قدرته وغلبته وقهره، وكمال علمه وإحاطته بجميع خلقه، فلا إله غيره ولا رب سواه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه قائم بالقسط، وأنه العزيز

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

الحكيم، فتضمنت وحدانيته المنافية للشرك، وتضمنت عدله المنافي للظلم، وتضمنت عزتـه وحكمته المنافية للذل والسفـه، وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسّفـه، ففيها إثبـات التوحيـد، وإثبات العـدل وإثبات الحكمـة وإثبات القدرة اهـ وفي هـذه الآية الكريمة ردّ على من زعم أن المسيح ابن الله أو أن العُزَيْـر ابن الله أو جعل لله شريكا؛ لأنـه لا إلّه إلا الله، فلا نِـدّ له ولا شريك ولا والد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحـد، وقد شهد الله بذلك وشهد به ملائكته وأنبياؤه ورسله وسائر أهل العلم من عباده الصالحين.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى: ﴿إنّ الدّين عندَ الله الإسلامُ، وما اخْتلفَ الّذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العِلم بغيا بينهم، ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريعُ الحساب* فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتّبعَنِ، وقل للّذين أوتوا الكتَابَ والأميّين أأسلَمْتُم، فإنْ أَسلَمُوا فقد اهتدوا وإنْ تَولّوا فإنّما عليك البلاغُ، والله بصيرٌ بالعباد﴾.

بعد أن قرّر الله عز وجل أنه لا إلّه إلا هو وشهد بذلك كما شهد به ملائكته وأولو العلم من أنبيائه ورسله وعباده الصالحين أعلن هنا أنّ الدين الحقّ والشرع المرضيّ عند الله عز وجل هو دين الإسلام المقرر لتوحيد الله عز وجل، الذي بُعث به رسول الله محمد ﷺ المطابق في التوحيد لما بعث الله به جميع النبيين والمرسلين، فلا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا وثنية مرضيّةٌ عند الله، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، وقد أغلق الله تبارك وتعالى جميع الأبواب والطرق بعد بعثة محمد ﷺ إلا الطريق الذي يجيء من جهة محمد ﷺ وقد أُثِرَ في الحديث القدسي أن الله عز وجل قال لرسوله محمد ﷺ: وعزّتي وجلالي لو جاءوا من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، ما فتحت لهم إلا أن يجيئوا من طريقك. ومصداق ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى حيث يقول الله عز وجل لرسوله وحبيبه وسيّد خلقه محمد ﷺ: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ والمراد بالدين هنا الشرع والعقيدة، وقوله: ﴿عند الله﴾ أي الذي رضيه الله لعباده وبعث به رسله وأنزل به كتبه. والمراد بالإسلام هنا: دين محمد ﷺ وشريعته التي بعثه الله عز وجل بها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ يشير إلى أن الله تبارك وتعالى أوضح

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

دلائل الدّين الحق، وأزال الشبهات في آيات محكمات واضحات جليات، فمن كفر بالحق بعدما تبين كما فعل اليهود والنصارى فإنه يستحق عقوبة الله العزيز المقتدر، ومعنى: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ أي وما تنازع اليهود والنصارى في الإسلام وحاربوه إلا بعد ظهور براهينه، فقد كانوا قبل مجيء محمد ﷺ يبشرون به ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حقدًا وحسدًا أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل، والحقد والحسد من أقبح الأخلاق المنتشرة في نفوس اليهود والنصارى، وقوله عز وجل: ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ أي ومن يجحد الدين الذي جاء به محمد ﷺ المؤيد بالآيات الباهرة والحجج النيرة والمعجزات القاهرة فإنّ من يكفر به لن يُفْلِت من عقوبة الله، ولن يهرب من حسابه، وحسابُ الخلائق عليه سهل يسير، وقوله عز وجل: ﴿فإن حاجّوك فقل أسلمتُ وجْهيَ لله ومَن اتَّبَعَنِ﴾ أي فإن جادلك أهل الكتاب وحاولوا إطفاء نور الله، واتّبعوا ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة والصدّ عن سبيل الله وتَشَبُّثًا بباطلهم واعتقادهم أن لله ولدا، فأخبرهم أنك أسلمت وجهك لله وحده لا شريك له وأنك ومن معك من المؤمنين منقادون لأمر الله، وقّافون عند شرعه، مقرّون بأن الله إله واحد لا شريك له ولا نِدّ ولا نظير ولا والد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحد، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ وقوله عز وجل: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأُمّيّين أأسلمتم﴾ أي وبلّغ اليهود والنصارى والمشركين من جميع أجناس الناس أن الله يأمرهم بالدخول في دين الإسلام الذي لا يقبل من أحد دينا سواه، وفي هذا برهان ساطع على عموم رسالته ﷺ إلى جميع الخلق من المكلفين، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من القرآن أن الله بعث

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

محمدا ﷺ بالرسالة العامة للعالمين، حيث يقول عز وجل: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السمٰوات والأرض لا إلٓه إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولٰكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ وقد تواترت الأخبار أن رسول الله ﷺ كتب إلى ملوك الآفاق وطوائف بني آدم عربا وعجما من الكتابيين والأميين يدعوهم إلى عبادة الله وحده والدخول في دين الإسلام، كما روى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّة وبُعِثْتُ إلى الناس عامة». وفي رواية مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: : «كان كلّ نبيّ يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى كل أحمر وأسود» وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وأُرسِلتُ إلى الخلق كافة». كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديّ ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار». كما روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي ﷺ وَضُوءَه، ويناوله نَعْلَيْه فمرض فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه، وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان قل: لا إلٓه إلا الله» فنظر إلى أبيه، فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أَطِعْ أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إلٓه إلا الله، وأنك رسول الله، فخرج النبيّ ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار». وقوله عز وجل: ﴿أأسلمتم﴾

ورد على صورة الاستفهام التقريري والمقصود منه الأمر، يعني: أَسْلِمُوا، وإنما جاء في صورة الاستفهام لإشعارهم بأن أدلة الإسلام ظاهرة وحججه واضحة، فالمفروض ممن له عقل أن يسارع إلى الدخول فيه لينجو من عذاب الله، فلا يتأخر عن الدخول في الإسلام بعد هذه البراهين الساطعة والآيات القاطعة بأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه، ولا يتردد في قبوله إلا بليدٌ عنيدٌ لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة سارع إلى قبولها واستمسك بالحق الذي دلت عليه، قال الفخر الرازي: ونظيره قولك لمن لخّصت له المسألة في غاية التلخيص والكشف والبيان: هل فهمتها؟، فإن فيه الإشارة إلى كون المخاطَب بليدًا قليلَ الفهم اهـ وقوله عز وجل: ﴿فإن أسلمُوا فقد اهتَدَوْا﴾ أي فإن أطاعوك واستجابوا لدعوتك ودخلوا في دين الإسلام وانقادوا للحق فأفردوا الله عز وجل بالألوهية والربوبية وآمنوا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وسلمت قلوبهم من الزيغ الذي يحمل أهله على اتباع المتشابه فقد أصابوا الحق وسلكوا سبيل الرشاد الذي يؤدي بسالكه إلى جنات النعيم ومرضاة رب العالمين، وقوله عز وجل: ﴿وإن تولَّوْا فإنما عليك البلاغ﴾ أي وإن أعرضوا عن دعوتك ولم يستجيبوا لأمرك لهم بالدخول في الإسلام واستمروا على كفرهم وضلالهم وعنادهم فإنهم هم الذين يتحملون وحدهم وزر كفرهم وعنادهم، أما أنت فقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، على أبلغ وجه وأكمل بلاغ، وهذه هي وظيفتك ووظيفة إخوانك النبيين والمرسلين من قبلك، فما عليك إلا البلاغ وعلينا حسابهم، كما قال عز وجل: ﴿فذكِّرْ إنما أنت مُذَكِّر* لستَ عليهم بمصيطر* إلا من تولى وكفر* فيعذبه الله العذاب الأكبر* إن إلينا إيابَهُم* ثم إن علينا حسابَهُم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم أو نتوفّينّك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فإن

أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إنْ عليك إلا البلاغ﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿فإن توليتم فاعلموا أنّما على رسولنا البلاغ المبين﴾ وقد بلّغ رسول الله ﷺ البلاغ المبين. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تُسْأَلُون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم النحر: «ألا هل بلّغتُ؟» قالوا: نعم قال: «اللهم اشهد، فلْيُبلّغ الشاهدُ الغائبَ فرُبّ مبلَّغٍ أوعى من سامع». وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿والله بصير بالعباد﴾ ترغيب وترهيب ووعدٌ ووعيد، فإنه عز وجل مطلع على ضمائر عباده وخلجات صدورهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

قال تعالى: ﴿إنّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيين بغير حقّ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من النّاس فبشّرهم بعذاب أليم* أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين* ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولّى فريق منهم وهم معرضون* ذلك بأنهم قالوا لن تمسّنا النار إلا أيّاما معدودات وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون* فكيف إذا جمعناهم ليومٍ لا ريب فيه ووفّيت كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن رسوله محمدًا ﷺ ليس عليه إلا أن يبلّغ دعوة الله عز وجل، وأن من تولّى وأعرض عن الاستجابة لدين الإسلام فحسابه على الله عز وجل البصير بجميع أعمال عباده، ذكر هنا بعض قبائح المعْرِضين للدلالة على أنه لن يعرض عن دين الإسلام إلا من كان معوجّ السلوك، معاديا لله ورسله من اليهود والنصارى والأميين، وقد ذكر عز وجل هنا ثلاثة أوصاف هي من أخص صفات اليهود قبحهم الله، وإن كان يشاركهم في الاتصاف بها أو ببعضها النصارى والوثنيون فقال عز وجل: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم﴾ والصفة الأولى من هذه الصفات الثلاث يشترك فيها اليهود والنصارى والوثنيون الأميون، وهي تشعر بأن من كفر بدين الإسلام فقد كفر بجميع الأديان السماوية، ولا عبرة بادعائه أنه على ملة إبراهيم عليه السلام، لأن الله تبارك وتعالى لا يقبل من أحد دينا بعد بعثة محمد ﷺ إلا الدين المرضيّ عنده وهو دين الإسلام الذي وصفه بقوله عز وجل: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ أما الصفة الثانية من هذه الصفات القبيحة فهي قتلهم الأنبياء بغير حق، وهي جريمة بشعة

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تتقاصر عنها كبائر الجرائم؛ لأن أنبياء الله أنفع الناس للناس، وهم معصومون من الخطايا والمعاصي والسيئات، فمن قتل نبيًّا من الأنبياء كان أبشع القتلة وأعظمهم جُرْمًا، وقد ندّد الله تبارك وتعالى بهذه الجريمة البشعة التي كان يقترفها اليهود مع أنبيائهم ورسلهم في مواضع من الذكر الحكيم، وذكر أنه سلط الذلة والمسكنة عليهم بسبب هذه الجريمة النكراء وأنهم باءوا بغضب من الله، حيث قال في سورة البقرة: ﴿وضُرِبَتْ عليهم الذِّلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ وقال عز وجل في الآية الثانية عشرة بعد المائة من سورة آل عمران: ﴿ضُرِبَتْ عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضُرِبَتْ عليهم المسكنة، ذٰلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أن قوله عز وجل: ﴿بغير الحق﴾ للتشنيع على اليهود لعنهم الله إذ أنّ من سلمت فطرته لا يخطر على باله أن نبيًّا من أنبياء الله يستحق أن يقتل، قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا عبد الصمد حدثنا أبان حدثنا عاصم عن أبي وائل عن عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبيّ أو قتل نبيًّا، وإمام ضلالة وممثّل من الممثلين». أما الصفة الثالثة من صفات هؤلاء الزائغين عن الحق المنحرفين عن الهدى فهي ما ذكره الله عز وجل عنهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ أي ويقتلون من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وفيه لفت انتباه الناس إلى منزلة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عند الله عز وجل وأن وظيفتهم هي المحافظة على شريعة الله تبارك وتعالى وتذكير الناس بلزوم القسط والعدل وترك الانحراف والجور، وهذا من أعظم مصالح العباد في

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

جميع الأعصار والأمصار، ومن أعظم أسباب دفع البلاء والشر عن الناس، وقد رتب الله تبارك وتعالى لهؤلاء الذين وصفهم بهذه الصفات الثلاث ثلاثة أنواع من الوعيد وهي قوله عز وجل: ﴿فبشرهم بعذاب أليم* أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وماهم من ناصرين﴾ فالعقوبة الأولى لهؤلاء هي إخبارهم بما أعد الله لهم في نار الجحيم من عذاب لا يخطر على البال ولا يدور في الخيال، والعقوبة الثانية أن جميع ما يعملونه من محاسن الأعمال يبطلها الله عز وجل كما قال: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ مع ما يصيبهم من خزي الدنيا والآخرة، والوعيد الثالث هو ما أفاده قوله تبارك وتعالى: ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي وأنهم لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ولن يشفع فيهم أحد، فما لهم من شافعين ولا صديق حميم، ثم ذكر الله تبارك وتعالى صورة من صور انحراف اليهود تبيّن قبيح سلوكهم، وتقصم ظهورهم في دعواهم أنهم على الحق حيث أشار تبارك وتعالى إلى أن أحبار السوء من اليهود يهجرون العمل بالأحكام المشروعة في التوراة كرجم الزاني الذي استبدلوه بالتحميم وإركاب الزانيين على حمار مقلوبين للتشنيع عليهما إن كان مرتكب الجريمة من الأغنياء، أما إن كان من الفقراء فإنهم يقيمون عليه الحد، وعندما دُعُوا إلى الدخول في الإسلام والاحتكام إلى شرع الله المنزل على محمد ﷺ لم يستجيبوا لدعوة الحق، وبهذا يتضح سوء سلوكهم، ويظهر قبح انحرافهم عن أحكام الله عز وجل في الوقت الذي يتباهون فيه بأنهم من علماء أهل الكتاب وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولّى فريق منهم وهم معرضون﴾ وكما قال عز وجل في نظرائهم من المنافقين: ﴿وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾ وقوله عز وجل: ﴿ذٰلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما

معدودات وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ بيان للسبب الذي من أجله يفعلون القبائح ويرتكبون الجرائم وهو ما افتراه لهم أحبار السوء بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يعذبهم على خطاياهم، وقد ذكرت في تفسير الآية الثمانين من سورة البقرة وهي قوله عز وجل فيها: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ فقلت: وقد افترى لهم أحبار السوء منهم مبادئ التمييز العنصري فكتبوا لهم التلمود زعما منهم أنه شرح للتوراة واستنباط من أصولها مع أن بعض نصوص التلمود قد يخالف بعض نصوص التوراة، فزعموا لهم في التلمود أنّ اليهود أحب إلى الله من الملائكة، وأنهم من عنصر الله فهم أبناء الله وأحباؤه، وأطلقوا اسم «الأُمَمِيّ» على كل من ليس بيهودي، وقرروا لهم أن الموت جزاء الأممي إذا ضرب اليهوديّ، وأنه لولا اليهود لارتفعت البركة من العالم واحتجبت الشمس، وانقطع المطر، وأن اليهود يَفْضُلُون الأمميين كما يَفْضُل الإنسانُ البهيمةَ، إلى آخر هذه المبادئ التلمودية التي كونت نفسية اليهود الممتلئة بالغرور والافتراء، والتي جرفت الكثير من النصارى في تيارهم، وقد سقت هناك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لما فتحت خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سمّ، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي مَن كان هنا من اليهود» فجُمِعُوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقتَ وبَرِرْتَ، فقال: «هل أنتم صادِقِيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذَبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدا» ثم قال لهم:

«فهل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم، فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟» فقالوا: نعم، فقال: «ما حملكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كذّابا أن نستريح منك، وإن كنت نبيّا لم يضرّك اهـ

وقد طالبهم الله تبارك وتعالى في آية سورة البقرة بدليل على دعواهم هذه الكاذبة الخاطئة حيث قال عز وجل: ﴿قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ وهنا يُعَجِّب الله عز وجل من سوء مصيرهم، إذا جمع الخلق وحشرهم من قبورهم ليوم الفصل والجزاء وجُوزِيَتْ كلّ نفس بما اقترفت واجترحت وعملت ولا يظلم ربك أحدا، وهناك يعرف هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم من المغرورين المفترين على الله الكذب كيف يضمحلّ باطلهم وتذهب زخارفهم التي زخرفها لهم شياطينهم، وجُوزوا بما اكتسبوه واقترفوه من كفرهم وافترائهم وغرورهم وقتلهم أنبياء الله ورسله والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، وكما قال عز وجل: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾

قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاءُ وتنزع الملك ممّن تشاءُ وتعزُّ من تشاءُ وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير* تولج اللّيل في النّهار وتولج النّهار في الليل وتخرج الحي من الميّت وتخرج الميّت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب.﴾

قال الفخر الرازي في تفسيره: اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام، ثم قال لرسوله: ﴿فإن حاجُّوك فقل أسلمتُ وجهيَ لله ومن اتَّبعَنِ﴾ ثم ذكر من صفات المخالفين كفرهم بالله، وقتلهم الأنبياء والصالحين بغير حق، وذكر شدّة عنادهم وتمرّدهم، في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ ثم ذكر شدّة غرورهم بقوله: ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ ثم ذكر وعيدهم بقوله: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أمر رسول الله ﷺ بدعاء وتمجيد يدل على مباينة طريقه وطريق أتباعه لطريقة هؤلاء الكافرين المعاندين المعرضين، فقال معلّما نبيّه كيف يمجّد ويعظّم ويدعو ويطلب: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ اهـ والظاهر من السياق يشعر أن هذا المقام الكريم قد سيق لقطع أطماع اليهود في النبوة، حيث أشار الله عز وجل في الآيات السابقة إلى أن الحامل لليهود ومن على شاكلتهم على عداوة رسول الله ﷺ والكفر بدين الإسلام هو البغي والحسد والغرور وما افتراه لهم أحبار السوء منهم أنهم أحق الناس بالنبوة والملك وهم لا يَرْضَوْن أن تخرج النبوة من بني إسرائيل، فردعهم الله عز وجل ببيان أن النبوة والملك وجميع ما ينزل على الناس من الخير هو بيد الله وحده لا يتحكّم فيه أحدٌ سواه عز وجل، وكما قال عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا* أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن اللهُ فلن تجد له نصيرا*

أم لهم نصيب من الملك فإذًا لا يؤتون الناس نَقِيرا* أم يحسُدون الناس على ما آتـاهم الله من فضله فقـد آتينا آل إبـراهيم الكتاب والحكمـة وآتيناهم ملكًـا عظيما* فمنهم من آمن بـه ومنهم من صدّ عنه، وكفـى بجهنم سعيرا﴾ وقد شابه اليهودُ الوثنيين من أهل مكة الـذين يريدون أن تكون النبوة في رجل ذي مال كثير وهـم لا يؤمنون بمحمـد ﷺ لأنه ليـس ذا مال حيث ذكـر الله عز وجل قـولهم: ﴿وقالوا لـولا نُزِّل هـٰذا القرآن على رجل من القـريتين عظيم* أَهُمْ يَقْسِمون رحمة ربّك نحن قسمنـا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيـا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهـم بعضا سُخْريا، ورحمة ربّك خير مما يجمعـون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَأُنـزِلَ عليه الذكـر من بيننا، بل هُمْ في شَكّ من ذكري بل لـمّا يذوقوا عـذابِ* أم عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الـوهاب* أم لهم ملك السمٰوات والأرض ومـا بينهما فليرتقوا في الأسبـاب* جُنْدٌ ما هنـالك مهزوم من الأحزاب﴾ كما أن في قولـه عز وجل: ﴿قل اللهم مالك الملك تـؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعـز من تشاء وتذل من تشـاء﴾ إشارة إلى تحقيق انتقـال الملك والعـزّ إلى أمة النبي الأمي العـربي الهاشمي القرشي محمـد بن عبد الله ﷺ وقد كـانوا قبل مجيئـه أقلّ الأمم شأنا وأبعدهم عن الملك، بل كانـوا كما وصفهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه ابن إسحـاق، مُصَرِّحا فيه بالتحديث، من طريق محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبدالرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمـة رضي الله عنها أن جعفر بن أبي طالب قـال للنجاشي: أيها الملك، كنـا قوما أهل جـاهلية، نعبـد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار ويأكل القويُّ منّا الضعيف، فكنـا على ذلك حتى بعـث الله إلينـا رسـولا مِنّـا، نعـرف نَسَبَه وصدقه وأمـانته وعفافه. الحديث. وعندمـا كان المسلمون في أضيق العيش

وشدة الخوف كان رسول الله ﷺ يبشّر المسلمين بأن رايتهم سترتفع على الكثير من أنحاء الدنيا وستكون العزة للمسلمين في الأرض، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عديّ بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: «يا عديّ هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أُنْبِئْتُ عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لَتَرَيَنّ الظّعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله» قلت فيما بيني وبيني نفسي: فأين دُعّار طَيِّئ الذين قد سَعَّرُوا البلاد. «ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنّ كنوز كسرى» قلت: كسرى بن هُرْمُز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياةٌ لَتَرَيَنّ الرجل يخرج ملء كفّه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه». الحديث، والمراد بالظعينة: المرأة في الهودج، والمراد بدُعّار طَيِّئ: قُطّاع الطريق من طَيِّئ، لأن بلادهم بين العراق والحجاز فلا يمرّ عليهم أحد إلا سرقوه وأخافوه. وقوله: سعّروا البلاد، أي أوقدوا فيها نار الفتنة وملئوا الأرض شرا وفسادا. وقد أنجز الله عز وجل لرسوله ﷺ ما وعد، فلم يطل الزمان حتى وصل مُلْكُ المسلمين إلى الصين شرقا وإلى المحيط الأطلسي غربا وإلى أصقاع أوروبا شمالا وإلى المحيط الهندي جنوبا، وحتى وقف هارون الرشيد أمام بيته فرأى سحابة فقال: سيري أينما شئت وامطري أينما شئت فسيأتي خراجك.

ومعنى قوله عز وجل: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير﴾ أي أيها النبي الكريم ادع ربك وقل: يا الله يا مالك الملك، أي ياذا السلطان على جميع الكائنات، يا مَلِكَ الملوك وما ملكوا، يا من له ملك السموات والأرض، وله الملك كلّه، يا من يتصرف في خلقه كيف يشاء ويفعل ما يريد، لا رادّ لقضائك ولا معقب لحكمك، فجميع نواصي عبادك بيدك، أنت المعطي

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

وأنت المانع، لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، لا يذل من واليت ولا يعـزّ من عـاديت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ، تهب من تشـاء مـا تشـاء من الملك أو النبوة أو الغنى أو الجاه أو العافية أو البنين أو ما شئت أن تمنحه من حظوظ الدنيا ولذاتها ومتـاعها من فضلك وتمنع من تشاء من الملك أو النبوة أو الغنى أو الجاه أو العافيـة أو البنين أو ما شئت أن تمنعه بعدلك، والعـزيز من أردت عزته، والذليل من أردت ذلّته، تعطي وتمنع بحكمتك ومشيئتك، وجميع مَن عُبِدَ سـواك لا يملكون من قِطْمِير، والخير كلّـه في يديك، تتفضل بخيرك على من تشـاء، وتَقْسِم رحمتك وحـدك على مـن تـريـد، وأنت أعلم حيث تجعل رسـالتك، فـلا يعترض على حكمك إلا شقي محروم مطـرود من رحمتك . وقوله عز وجل: ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ تأكيد لما تقدم في الآية الكريمة من أنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشـاء ويذل من يشـاء، وأنـه لا يصل إلى أحـد خير إلا منه جلّ وعـلا، وقـوله تبـارك وتعـالى: ﴿تـولج الليل في النهار وتـولج النهـار في الليل﴾ أي تصرّف الليل والنهـار بحكمتك في نظـام دقيـق محكم متقن عجيب لا يختل طرفة عين، حيث يستويان في وقت معين من السنـة ثم يبدأ النهار يأخذ من الليل قدرا محدودا معينا كل يوم فيزيـد النهار وينقص الليل، وهكذا إلى أمد معين محدود في نظام دقيـق ثم يبدأ الليل يأخـذ من النهار قـدرا محدودا معينا محسوبا (بالثواني) كل يـوم فيزيد الليل وينقص النهار، وهكذا دواليك حتى يستويـا مرة أخرى، وفي هـذا الاختلاف بين طول الليل وقصره وطـول النهار وقصره من الحكم البالغة والمنـافع العظيمة لشئون العباد والبـلاد ومتاع الحياة الدنيا ما لا يحيط به إلا الله عـز وجل، وقد اتعظ بذلك أصحاب العقول كما قـال عـز وجل: ﴿إن في خلق السمـوات والأرض واختـلاف الليل والنهـار لآيـات لأولي الألبـاب﴾ وقد لفت الله انتبـاه النـاس إلى هـذه الآية الكـونيـة

العظيمة في مقامات كثيرة من الذكر الحكيم حيث قال في سورة لقمان: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾ وقال في سورة فاطر: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطْمِير﴾ وقد تقدم القول في ذلك عند تفسير قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ الآية الرابعة والستين بعد المائة.

وقوله عز وجل: ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والطير من البيضة والبيضة من الطير، والحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان، ولا شك أن المادة (الخام) أي مادة الحياة الموجودة في النواة والحبة والبيضة والنطفة لا تخرجها عن كونها مواتا، ولذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾ وكما قال عز وجل: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾، وقوله عز وجل: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي وتهب لمن تشاء من الرزق ما تشاء لا ينقص ذلك مما عندك شيئا لأن خزائنك لا تنفد ولا يغيض عطاؤك شيئا من خزائنك، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين: اللهم يا مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، دون من ادّعى الملحدون أنه لهم إله وربّ وعبدوه دونك، أو اتخذوه شريكا معك أو أنه لك ولدٌ، وبيدك القدرة التي تفعل هذه الأشياء وتقدر بها على كل شيء، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل فتنقص من هذا وتزيد في

هذا، وتخرج من ميت حيا، ومن حي ميتا، وترزق من تشاء بغير حساب من خلقك، لا يقدر على ذلك أحد سواك ولا يستطيعه غيرك. اهـ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال تعالى: ﴿ لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتّقوا منهم تقاة، ويحذّركم الله نفسه، وإلى الله المصير* قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله، ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض، والله على كلّ شيء قدير* يوم تجدُ كلّ نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملتْ من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذّركم الله نفسه، والله رءوفٌ بالعباد* قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيمٌ* قل أطيعوا الله والرسول فإن تولّوا فإنّ الله لا يحب الكافرين﴾

بعد أن أوضح الله تبارك وتعالى للمؤمنين صورا من قبائح سلوك اليهود والنصارى والوثنيين، وفضح نواياهم الخبيثة، ومقاصدهم الشريرة وحقدهم على دين الإسلام وعلى سيد الأنام محمد ﷺ حذّر المسلمين من موالاتهم ومحبتهم، لأن محبة عدوّ الله وعدوّ المؤمنين لا تصدُرُ إلا من قلب غير مطمئنّ بالإيمان، ولذلك كان أوثق عرى الإيمان هو الحبّ في الله والبغض في الله، ولا شك أنّ من أحمق الحُمْق أن يدّعي أحد محبة الله ومحبّة الشيطان كما قال الشاعر:

تودّ عدُوّي ثم تزعم أنني ... صديقُك ليس النَّوْكُ عنك بعازب

أي أتحبّ عدوي وتواليه ثم تدّعي أنني صديقك وأنك تحبّني، فأنت إذًا أحمق، إذ النّوك بضم النون وفتحها هو الحُمْق والسَّفَه، ومعنى: ليس النوك عنك بعازب، أي ليس الحمق عنك ببعيد. والمعروف من التجارب الإنسانية أن من أحبك أحبّ أحبابك وعادى أعداءك، وقد أراد الإسلام أن يكون المسلمون يدا واحدة على أعدائهم، لا يتمكن أعداؤهم من الوصول إلى أسرار المسلمين أو خططهم العسكرية أو غيرها من طريق من يواليهم من

معسكر المسلمين، لذلك حذّر الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم من موالاة أعـداء الله ومحبتهم حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الـذين آمنوا لا تتخذوا عـدوي وعدوكم أولياء تلقـون إليهم بالمودة وقد كفـروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تـؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعلـه منكـم فقد ضـل سواء السبيل* إن يثقفـوكم يكـونوا لكم أعـداءً ويبسطـوا إليكم أيـديهم وألسنتهم بـالسّـوء وودوا لـو تكفـرون* لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم، يوم القيامة يفصل بينكم، والله بما تعملون بصير* قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معـه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفـرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العـداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من الله من شيء ربنـا عليك تـوكلنـا وإليك أنبنـا وإليك المصير﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿يـا أيها الذين آمنوا لا تتخـذوا بطانـة من دونكم لا يألونكـم خَبَالا ودُّوا ما عَنِتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلـون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الـذين آمنوا لا تتخـذوا الكـافريـن أولياء من دون المؤمنين، أتـريـدون أن تجعلـوا لله عليكم سلطانـا مبينا﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿يا أيها الـذين آمنوا لا تتخـذوا اليهود والنصارى أوليـاء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتـولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القـوم الظـالمين﴾ وأشـار الله تبـارك وتعـالى إلى أن مـوالاة المؤمن للكافر فيها فتنة في الأرض وفساد كبير حيث قال عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهـدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولَئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنـوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجـروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قـوم بينكم

وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير* والـذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبير﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾. وقوله عز وجل: ﴿لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي لا يجوز لمؤمن أن يوالي كافرا مهما كانت صلته به، ولا شك أن المؤمن لن يرضى بكفر الكافر ولن يحب دينه، فإنه لو أحب دين الكافر أو رضي به كان كافرا خارجا من ملة الإسلام، كما أن حسن معاملة المؤمن للكافر الذي لا يحارب المسلمين غير منهي عنها لقوله تبارك وتعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أنّ تبرّوهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين﴾ وأثنى الله عز وجل على من يطعم الأسير حيث جعل من أفضل أعمال البررة إطعام الأسير حيث يقول: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالإحسان إلى الأُسَارَى. إنما المنهيّ عنه هو محبة الكافرين ومصادقتهم واتخاذ بطانة منهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ هذا وعيد شديد لمن يوالي أحد الكافرين، وظاهره يفيد أن من فعل ذلك برئ الله منه، ومن برئ الله منه صار إلى الهلاك، وهذا النص من نصوص الوعيد التي يرى بعض أهل السنة عدم تأويلها لما تضمنته من شدة التحذير حتى يجتنب المسلم موالاة الكفار في سائر الأحوال، خوفا من سوء المآل، وقوله عز وجل: ﴿إلا أن تتقوا منهم تُقَاةً﴾ أي إلا أن يكون المسلم في قبضتهم ويجبروه على التلفظ بكلمة الكفر أو نحوها من الأقوال، فإنه إن خاف على نفسه جاز له أن يعطيهم بلسانه ويكون قلبه مطمئنا بالإيمان كما قال عز وجل: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْرِهَ وقلبه مطمئن بالإيمان ولَكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم﴾ والتُّقَاة والتَّقِيَّة بمعنى واحد، أمّا ما

اشتهر عند بعض أهل الأهواء من مذهبهم الخبيث الذي يسمونه « التُّقْيَة» فهو ليس من هذا الباب بل هي تُكَأَة يتوكّأون عليها ليست من الإسلام في شيء، فإنهم إذا تكلموا بباطل فقيل لهم: هذا باطل، قالوا: قلناه تقية. وقوله عز وجل ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ تأكيد للوعيد السابق وتهديد لمن تسوّل له نفسه موالاة الكفار، أي ويحذركم الله نقمته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه، وقوله عز وجل: ﴿وإلى الله المصير﴾ أي ومرجع جميع الخلائق إلى الله وحده لا إلى غيره وسيجزي كل عامل بما عمل، وقوله عز وجل: ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾ أي أخبرهم يا محمد أن جميع ما توسوس به صدور الناس وما يعلنونه عند الله عز وجل علمه، فهو يعلم السرائر والضمائر والظواهر ولا تخفى عليه خافية، ولو قال قائل: ذِكْرُ العلم بخفيات السرائر والضمائر ظاهر، فما وجه ذكر العلم بالظواهر وهي ظاهرة للخلق؟ فالجواب: أن الغرض من ذِكْره هو تقرير أن علمه عز وجل بما خفي وبما ظهر في رتبة واحدة ليس بينهما تفاوت فكلاهما ظاهر عنده عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ويعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ هو مستأنف ليس معطوفا على جواب الشرط لأن علمه عز وجل بما في السماوات وما في الأرض لا يتوقف على شرط، فلذلك جيء به مستأنفا وهو من ذكر العام بعد الخاص لتأكيد الخاص وتقريره، وقوله عز وجل: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي كما أن علمه عز وجل محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان ما ظهر منهم وما بطن، ومحيط بجميع ما في السموات وما في الأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والسموات، فإنّ قدرته نافذة في جميع ذلك، قال ابن كثير رحمه الله: وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يُبْغِضُه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم وهو قادر على معاجلته بالعقوبة وإن أنظر من أنظر

منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر اهـ وقوله عز وجل: ﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير مُحْضَرًا وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمَدًا بعيدا﴾ أي يوم المصير والمرجع إلى الله عز وجل تجد كلّ نفس ما عملته من الخير أمامها مشاهَدًا لم يَغِبْ منه شيء فتفرح الفرح الذي لا يعقبه حزن أبدا، وتجد كلّ نفس ما عملته من السوء أمامها مشاهدا لم يغب منه شيء فتنزعج وتتمنى من بغضها لهذا العمل القبيح يوم الحسرة والندامة أنها لم ترتكبه ولم تعص الله ورسوله وتقول: ياليت بيني وبين هذا العمل بُعْدَ المشرقين، وكما تقول كل نفس لشيطانها: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. فخذوا حذركم أيها العقلاء قبل فوات الأوان. وقوله عز وجل: ﴿ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد﴾ أي ويكرر الله عز وجل لكم هذا التحذير وأنتم في دار العمل لرأفته بعباده حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وأقام الحجة ونصب الآيات فله الحمد وله الشكر وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن الجميل، وقوله عز وجل: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم﴾ بيان وميزان لكل من ادّعى حبّ الله ليعرف بواسطة هذا الميزان هل حبّه صحيح أو دعوى كاذبة، فإن كان متّبعا لمحمد ﷺ ومقتديا به، ومصدّقا لخبره، ومقتفيا لأثره ظاهرًا وباطنا فحبّه صحيح ودعواه صادقة، ولْيُبْشِرْ بحب الله له ومغفرة ذنوبه، أما إذا كان غير متّبع لرسول الله ﷺ وغير مصدّق لما جاء به عن الله عز وجل وغير ملتزم لشريعته ﷺ فإن دعواه حُبَّ الله دعوى كاذبة، وفي هذه الآية ردع عظيم لأولئكَ المبتدعة الذين يدَّعون حُبَّ النبي ﷺ بإحداث بدع في دين الله لم يشرعها رسول الله ﷺ ولم يعملها أحد من أصحابه رضي الله عنهم، كإقامتهم موالد ومواسم كعاشوراء والإسراء والمعراج وغيرها، وقد روى

البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ». وفي رواية لمسلم عنها رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ». كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه مُنْذِرُ جيش يقول: صَبّحكم ومَسّاكم، ويقول: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين» ويَقْرِنُ بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول: «أما بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشرّ الأمور محدثاتها وكلّ بدعة ضلالة». الحديث. وقوله عز وجل ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تَوَلَّوْا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ أي قل للناس كافة: انقادوا لأمر الله وأمر رسوله محمد ﷺ فإن تعرضوا وتخالفوا عن أمره فالله يعاديكم ولا يحبكم؛ لأنكم تكونون كافرين والله لا يحب الكافرين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال تعالى : ﴿إنّ الله اصطفى آدمَ ونوحًا وآل إبراهيمَ وآل عمرانَ على العالمين* ذرّيةً بعضها من بعضٍ ، والله سميعٌ عليمٌ* إذ قالت امرأتُ عمرانَ ربّ إني نذرتُ لك ما في بطني مُحَرّرًا فتقبّل منّي إنك أنت السميعُ العليمُ* فلما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعتْ وليس الذّكر كالأنثى وإني سمّيتها مريم وإنّي أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم﴾ .

بعد أن قرّر الله على أبلغ وجهٍ وأكمله أن الدين عند الله الإسلام وأوضح سبب تأخّر اليهود والنصارى عن الدخول في دين الإسلام وأنّ الحامل لهم على ذلك هو حقدهم وحسدهم وبغيُهم تحكّما في رحمة الله واستكبارا أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل ، لفت الله عز وجل انتباه اليهود والنصارى وغيرهم إلى أن محمدا ﷺ من ذرية إبراهيم المصطفَيْنَ الأخيار، فليس لبني إسرائيل مزيد اختصاص بإبراهيم خليل الرحمن فإن إبراهيم عليه السلام قد ولد له لصلبه ولدان عظيمان أحدهما بِكْره إسماعيل الذبيح عليه السلام، والثاني إسحاق أبو يعقوب ويعقوب هو إسرائيل ، عليهما السلام، الذي تنتمي إليه جميع أسباط بني إسرائيل ، أما إسماعيل عليه السلام فلم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخرهم بل فخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي المكي ﷺ، قال ابن كثير في قصص الأنبياء من تاريخه : فلم يوجد من هذا الفرع الشريف، والغصن المنيف، سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدّرّة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة، وقد ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال : «سأقوم مقاما يرغب إليَّ الخلق كلّهم حتى إبراهيم» اهـ ومهما

كابر اليهود والنصارى فلن يتمكنوا من نفي نسب إسماعيل من إبراهيم عليهما السلام لأنه لا يزال منصوصا في التوراة التي بأيدي اليهود والنصارى وأن إسماعيل قد ولد لإبراهيم ، ولإبراهيم من العمر ستٌّ وثمانون سنة ، ولذلك جاء التنصيص في هذا المقام على اصطفاء آل إبراهيم والمراد إبراهيم وذريته من الأنبياء والمرسلين لا عموم ذريته فإن فيهم المحسن والظالم لنفسه كما قال عز وجل : ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأَتَمَّهُنَّ قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذرّيتي قال : لا ينال عهدي الظالمين﴾ ولمّا كانت اليهود والنصارى قد ضلوا في المسيح عليه السلام ضلالا كبيرا ، فادعت اليهود أنه ولد زنا وأنّ أمه زانية ، وقالوا على مريم بهتانا عظيما ، ففرّط اليهود لعنهم الله أشنع التفريط في عيسى وأمه ، كما أن النصارى قد أفرطوا وغلَوْا في المسيح فجعلوه ابنا لله سبحانه ، واتخذوه وأمّه إلٰهين من دون الله ، وجاءوا بقول تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا ، أن دعَوْا للرحمن ولدا ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ، لذلك نصّ الله عز وجل هنا على اصطفاء آل عمران لبيان درجتهم الشريفة الرفيعة من غير تفريط ولا إفراط ، وبسط الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم من كتابه العظيم قصة ولادة مريم أم المسيح عليه السلام ، العذراء البتول الطيبة الطاهرة سيدة نساء العالمين ، كما بسط قصة ولادتها للمسيح عليه السلام ليدرأ بذلك في نحور اليهود والنصارى ، وفي ذلك من تقرير توحيد الله عز وجل وأنه لا إلٰه إلا هو وأن محمدا عبده ورسوله الذي أنزل الله عليه هذا الذكر الحكيم الذي يفضح مواقف اليهود والنصارى من المسيح ابن مريم ، وفي ذلك إعجاز حيث تفضل على نبيّ الأميين ببيان الحقيقة التي ضيعها الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من أحبار السوء ورهبانهم ومعنى : ﴿اصطفى﴾ أي اختار

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واجتبى، وأصل الاصطفاء هو أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء، والله تبارك وتعالى يخلق ما يشاء ويختار، ويصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، فمن اختاره الله عز وجل واصطفاه عصمه من المعاصي والسيئات وربَّاه على عينه واصطنعه لنفسه، وآدم هو أبو البشر عليه السلام وقد خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته واجتباه وهداه، وعلمه الأسماء كلها، ونوح عليه السلام هو آدم الثاني فهو أبو جميع البشر الموجودين على الأرض بعد الطوفان، لأن الله تبارك وتعالى جعل ذريته هم الباقين وهو أول رسول يحذّر قومه من الشرك بالله، إذ لم يكن قبل قومه شرك في الأرض، وإنما حدث الشرك في قومه الذين بعثه الله عز وجل إليهم، وإبراهيم هو خليل الرحمن. وقوله عز وجل: ﴿وآل إبراهيم﴾ أي وإبراهيم وآله يعني من المرسلين والأنبياء، والمراد بعمران في قوله عز وجل: ﴿وآل عمران﴾ هو عمران والد مريم، وبينه وبين عمران والد موسى قريب من أَلْفَيْ سنة، وقد نصّ الله تبارك وتعالى على اسم والد مريم في قوله عز وجل: ﴿ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها﴾ ولا شك أن آل عمران والد موسى وهارون قد دخلوا في قوله عز وجل: ﴿وآل إبراهيم﴾ وإنما خصّ بالذكر هنا عمران والد مريم وجد عيسى عليه السلام لأمّه لأن المقام لتحقيق البيان عن عيسى وأمه وإبطال دَعَاوَى اليهود والنصارى فيه عليه السلام. ومعنى اصطفائهم على العالمين أي تفضيل هؤلاء المصطَفَيْن الأخيار على جميع البشر، وليس لعمران والد مريم مِن آلٍ سوى مريم وابنها المسيح عليه السلام، وقد كان عمران هذا موصوفا بالتقوى في بني اسرائيل، ومحبوبا لدى كبرائهم كما كانت زوجته أم مريم كذلك، وقوله عز وجل: ﴿ذريّة بعضها من بعض﴾ أي إن هؤلاء المصطفين من آل إبراهيم وآل عمران جعلهم الله عز وجل على منهج واحد في توحيد الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر فكلّهم كانوا على دين الإسلام، وهم جميعا

على كلمة سواءٍ، يَحُسُّ من يعرف طريقتهم أنهم أبناءٌ صالحون لآباء صالحين، وقوله: ﴿ذرية﴾ نصب على الحال من الآلَيْن، وقوله: ﴿بعضها من بعض﴾ جملة في موضع نصب صفة لقوله: ﴿ذرية﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿ذريّة﴾ لفت انتباه الناس إلى أن عيسى عليه السلام من ذرية عمران والدِ مريم من جهة أمه ففيه تنديدٌ باليهود الذين فرّطوا فيه وبالنصارى الذين أفرطوا فيه، وثناءٌ على عيسى عليه السلام وعلى أمه، وقد صار من المعروف في الأساليب البلاغية أنك إذا رأيت شخصا يسلك منهج آبائه قلت: ذريةً بعضها من بعض. وقوله عز وجل: ﴿والله سميع عليم﴾ تقرير لاصطفائه من يشاء، وقوله عز وجل: ﴿إذ قالت امرأة عمران ربّ إني نذرت لك ما في بطني محرَّرًا فتقبّل مني إنك أنت السميع العليم﴾ استئناف لبسط الثناء على آل عمران مع الثناء على زوجته وتقرير إخلاصها لله عز وجل، وإشعار أن عمران والد مريم قد مات وهي في بطن أمها إذ لو كان حيّا ما قررت زوجة عمران نذر ما في بطنها وتحريره لخدمة بيت الله. والنذر هو إيجاب شيء على النفس قربانا، ومعنى: ﴿محرّرا﴾ أي مفرّغا لعبادتك وخدمة بيتك المقدّس خالصا من شواغل الدنيا التي تشغل عن التفرغ والانقطاع عن المسجد، وكأنها تلزم نفسها بأن تتولى بنفسها أو وكيلها جميع ما يحتاجه هذا المحرّر من نفقات الحياة الدنيا وضرورياتها، وقد كان التحرير لخدمة بيت الله قاصرا على الذكور دون الإناث، وقوله عز وجل: ﴿فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي اقبل مني هذا النذر على رضًا منك لأنك لا يخفى عليك سرّي وعلانيتي، وتعلم أني لا أريد بذلك إلا وجهك الكريم، وقوله عز وجل: ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى﴾ أي فلما ولدتها قالت معتذرة متحزنة متوجعة على فوات مقصودها: رب إني ولدت النّسمة التي كانت في بطني أنثى، لعلمها أن الأنثى لا تصلح أن تحرّر لخدمة بيت المقدس، وقوله

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عز وجل: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ قرأ عبد الله بن عامر وأبو بكر عن عاصم: ﴿وضعتُ﴾ بضم التاء وقرأ الباقون بسكون التاء، فعلى القراءة الأولى يكون المقصود أنها دفعت التوهم أن يخطر على بال أحد أنها تخبر الله عز وجل بذلك مع تأكيد القصد من الإخبار وأنه للتفجع على فوات مقصودها. وعلى القراءة الثانية يكون المقصود الإشعار بعظمة ما ولدت، أي وإن كانت أنثى فإنها تفضل نساء العالمين كما أنها تفضل الكثير من الذكور المؤمنين. وقوله عز وجل: ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ أي والأنثى لا تصلح لخدمة بيت المقدس بخلاف الذكر، فإنه لا يضره الاختلاط بالرجال ولا ينتابه حيض يمنعه من قربان المسجد حينا من الدهر كما يضرها الاختلاط بالرجال. وقوله تعالى: ﴿وإني سميتها مريم﴾ أي وإني أطلقت على مولودتي اسم مريم، و قد استدل به كثير من العلماء على جواز التسمية في نفس يوم الولادة، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قَبْلَنا، وقد حُكِيَ مقرّرًا وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال: «وُلِدَ لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم». أخرجاه، وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمّه إلى رسول الله ﷺ فحنّكه وسماه عبد الله، وفي صحيح البخاري أن رجلا قال: يا رسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسمّيه؟ قال: «سمّ ابنك عبد الرحمن» وثبت في الصحيح أيضا أنه لما جاءه أبو أُسَيْد بابنه ليحنكه فذُهِلَ عنه فأمر به أبوه فرُدّ إلى منزلهم، فلما ذَكَرَ رسول الله ﷺ في المجلس سماه المنذر. فأما حديث قتادة عن الحسن البصري عن سَمُرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «كل غلام مرتهن بعقيقته يذبح عنه يوم السابع ويسَمَّى ويحلق رأسه». فقد رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي، وروي «ويُدْمَى» وهو أثبت وأحفظ والله أعلم اهـ وقوله «ويُدْمَى»

أي بدل ويسمّى. وقوله عز وجلّ: ﴿وإنّي أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ أي وإني أحصّنها بك وأحصّن ذريتها بك من عدوّنا الشيطان المطرود من رحمة الله، ولم يكن لمريم ذرية قط إلا عيسى عليه السلام، وقد استجاب الله تبارك وتعالى لأم مريم فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فَيَسْتَهِلّ صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل بني آدم يمسّه الشيطان يوم ولدته أمّه إلا مريم وابنها». هذا، ولا شك أن عمران والد مريم غيرُ عمران والد موسى وهارون وقد حاول بعض أعداء الإسلام في عصرنا أن يلبّسوا على بعض الأغرار بأن القرآن ذكر أن مريم هي بنت عمران والد موسى وهارون ولذلك قال: ﴿يا أخت هارون﴾ مع أن بين مريم وموسى قرونا متطاولة، وجهل هؤلاء أو تجاهلوا أن هارون المذكور مع مريم غيرُ هارون أخي موسى، وأنّ عمران والد مريم غير عمران والد موسى وهارون، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرءون: ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فَرُحْتُ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يُسَمُّون بالأنبياء والصالحين قبلهم» اهـ وقد نسب إلى محمد بن كعب القرظي الإسرائيلي أنه زعم أن مريم أمّ المسيح هي أخت

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

موسى وهارون، وهذا من أفحش الخطأ الذي نسب إلى محمد بن كعب القرظي، والمعصوم من عصمه الله.

قال تعالى: ﴿فتقبّلها ربُّها بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتًا حسنًا وكفّلها زكريّا كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنّى لكِ هٰذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب* هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لي من لدنك ذرّية طيّبة إنّك سميع الدّعاء* فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى مصدّقا بكلمة من الله وسيّدًا وحصورًا ونبيّا من الصّالحين* قال ربّ أنّى يكون لي غلامٌ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقرٌ قال كذٰلك الله يفعل ما يشاء* قال ربّ اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاثة أيّام إلا رمزًا، واذكر ربّك كثيرًا وسبّح بالعشيّ والإبكار﴾

يبيّن الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم أنه استجاب دعوة امرأة عمران فرضي عن مريم وأحبّها وجعلها سيّدة نساء العالمين، ونشّأها تنشئة حسنة وعصمها من الشيطان وربّاها على عينه تربية كريمة حيث يقول عز وجل: ﴿فتقبّلها ربّها بقَبُول حسن وأنبتها نباتا حسنا﴾ ولا يلزم من تقبّل الله عز وجل مريم بقبول حسن أن تخدم في بيت المقدس لأن الله عز وجل قد يقبل من الإنسان صدق نيته ويكافئه مكافأة عليها كما وقع في قصة إبراهيم لما أمره الله عز وجل في منامه أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام فلما أسلما وتلّه للجبين ناداه الله عز وجل: يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين، وصار يطلق على إسماعيل اسم الذبيح وإن لم يُذبح لاستسلامه للذبح وانقياده لأمر الله عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكفّلها زكريا﴾ بتشديد الفاء أي جعل الله عز وجل زكريا كافلاً لها ليُتْمِها، وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون بتخفيف الفاء، أي وضمّها زكريا وتولّى الإنفاق عليها واهتم بتربيتها والقيام بمصالحها، وقد أشار الله عز

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وجل إلى أن كفالة زكريا لها تمت بالاقتراع بين شيوخ بني إسرائيل أيّهم يكفل مريم لتخاصمهم في ذلك لشدة حرصهم عليها بسبب ما ألقاه الله عز وجل في قلوبهم من حبها وتكريمها حيث يقول عز وجل: ﴿وما كنتَ لَدَيْهِم إذ يُلْقُون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ وقد يسّر الله تبارك وتعالى لزكريا أن تقع القرعة له في كفالة مريم، لتكون في كفالة نبي كريم ورسول عظيم تقتبس منه العلم النافع والعمل الصالح والسلوك السَّوِيَّ، ولأن زكريا عليه السلام كان زوج أختها أو خالتها، وقد وصف رسول الله ﷺ يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم بأنهما ابنا خالة فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «ثم صَعِد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد: قيل أَوَ قَدْ أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلَصْتُ، فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلّم عليهما». الحديث وقد قضى رسول الله ﷺ للخالة بالحضانة في قصة بنت حمزة بن عبد المطلب لما اختصم فيها علي وزيد وجعفر عندما تَبِعَتْ رسولَ الله ﷺ بعد توقيعه صلح الحديبية وهي تنادي: يا عمّ ياعمّ، فقد روى البخاري من حديث البراء رضي الله عنه في باب عمرة القضاء في سياق كتابة صلح الحديبية قال: فخرج النبيّ ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عَمّ يا عَمّ، فتناولها عليّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونَكِ ابنة عمك، حملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر فقال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفر: هي ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: بنت أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». الحديث. وقوله عز وجل: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب

وجد عندها رزقا قال يا مريم أنّى لك هٰذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي وقد أنزلها زكريا عليه السلام في أكرم غرفة من قصره وقد لاحظ زكريا أنه كلما دخل عليها القصر وجد عندها ألوانا من الرزق لم يجلبها لها، ولا علم له بمصدرها، فاستغرب ذلك وخاطبها قائلا: يا مريم أنّى لك هذا؟ من أين جاءك هذا الرزق؟ قالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. والمحراب في اللغة القصر. ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من مَحَاريب وتَمَاثيل وجِفَانٍ كالجَوَابِ وقُدُورٍ رَاسِيات﴾ وقوله عز وجل: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب﴾ وقد قال أبو عبيدة: المحراب أشرف بيوت الدار، ومنه قول وَضّاح اليمن ونسبه الفخر الرازي إلى عمر بن أبي ربيعة:

ربّة محراب إذا جئتها لم أدنُ حتى أرتقي سُلّما

واحتج الأصمعي على أن المحراب هو الغرفة بقوله تعالى: ﴿إذ تسوّروا المحراب﴾ على أنّ التّسوّر لا يكون إلا من علو. أمّا ما يعرفه الناس في عصرنا والعصور السابقة من التجاويف في جدران المساجد على سمت القبلة ليتبين الناس منها جهة القبلة فإنه غير مراد في الآية بلا شك وإن أطلق الناس عليها اسم المحراب، وقد يكتبون فوقها هذه الآية الكريمة ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا﴾ وهذه التجاويف المذكورة محدثة بعد الصدر الأول في مساجد المسلمين للدلالة على القبلة، وتسميتها بالمحاريب ليست بالوضع اللغوي الحقيقي، ولم يَرِدْ عن رسول الله ﷺ خبر ثابت يحدّد نوع الرزق الذي كان زكريا يجده عند مريم في المحراب، والمهمّ هو أنه كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا جديدا لا علم له بمصدره وليس له من سبب ظاهر، وقد كان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عِتِيًّا وقطع من الشيخوخة شوطا كبيرا، قد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيبًا، وهو

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مظهر من مظاهر تحوّل الإنسان من القوة إلى الضعف كما قال عز وجل: ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشَيْبَة﴾ وعلى حد قول ابن دُرَيْد في مقصورته:

أما تَرىْ رأسيَ حاكَى لونُه طُرَّة صُبْح تحت أذيال الدُّجا
واشتعل المبْيَضّ في مُسْوِدّه مثل اشتعال النار في جمر الغَضَا

ومع أن زكريا عليه السلام قد صار إلى هذا الحال من الكِبَر فإن زوجته كانت عاقرا في شبابها، فلم تحمل أيام شبابها، وقد صارت عجوزا تجمع بين السّببين المنافيين للحمل عادةً، والظاهر من سياق القرآن العظيم يشعر أن زكريا عليه السلام كان مشتغل القلب بذكر صلاح بني إسرائيل، وأنه كان يرى تعنّتهم كشأنهم مع الأنبياء والمرسلين، وأنه كان يخشى أن يشتد انحرافهم عن الصراط المستقيم بعد موته، وقد وهن عظمه، ولم ير في قومه من هو أهل لحمل الرسالة بعده، وكانت بنو إسرائيل تَسُوسُهم الأنبياء كلما هلك نبيّ بعث الله نبيا آخر، ونظرا إلى أن زوجته كانت عاقرا، فمِن غير المعتاد أن تلد امرأة مثلها فاهتم بذلك اهتماما شديدا، فلما دخل المحراب على مريم ووجد عندها هذا الرزق الذي لا يعلم له مصدرا، ولا سببا ظاهرا وسألها: أنّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، سُرْعَان ما تداعت معاني هذه الحقيقة في نفسه مع ما يتمناه من أن يمنّ الله عليه بولد صالح يَسُوس بني إسرائيل، وإن كانت أسباب ولادة ولد له من زوجته الصالحة هذه مفقودة لأنها كانت عاقرا من أيام شبابها فكيف وقد صارت عجوزا تجاوزت سنّ اليأس؟ غير أن الرزق الذي منحه الله لمريم حرّك في نفسه الأمل أن يرزقه الله ولدا مع انقطاع الأسباب، فدعا ربه بصوت خافت، وقام يصلي في قصره وقال في دعائه: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ وقال: رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا، وقد عوّدتني أن تجيب دعائي ولم أكن بدعائك رب شقيا، وإني خفت وأشفقت على بني إسرائيل

أن يفسدهم من يتولى أمرهم من بعدي، وكانت امرأتي في شبابها عاقرًا، وأنت على كل شيء قدير فهب لي من عندك وامنحني ولدا يرث النبوة والحكم من بعدي كما يرث ذلك من آل يعقوب واجعله ربِّ رَضِيًّا، إنك سميع الدعاء، فاستجاب الله دعاءه وخاطبته الملائكة قائلين له: يا زكريا إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى لم يجعل الله له من قبل سَمِيًّا يكون مُصَدِّقا بكلمة من الله وسيدا وحَصُورا ونبيا من الصالحين، فقال زكريا: كيف يجيئني الولد وأنا وزوجتي بهذا الحال من الكِبَر؟ فنُودِيَ: كذلك الله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، وقد خلقك الله من قبل ولم تك شيئا، قد جئتَ إلى بطن أمك نطفة لا أثر لصورة الإنسان فيها، فسأل الله عز وجل أن يجعل له علامة يعرف بها أن الولد قريب الحصول، قال: آيتك أن تَعْجَزَ عن النطق لمدة ثلاثة أيام وأنت صحيح سَوِيّ، فخرج في الحال على قومه من القصر ليبشرهم بما تفضل الله به عليه ويأمرهم بتسبيح الله وتمجيده والإكثار من ذكره صباحا ومساء، فعجز عن النطق وصار يرمز إليهم ويشير بما يريده من أمرهم بالتسبيح والتحميد والتمجيد لله عز وجل. وإلى ذلك كله يشير الله عز وجل هنا في هذا المقام بقوله: ﴿هُنَالِكَ دعا زكريا ربّه قال ربِّ هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء* فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مُصَدِّقا بكلمة من الله وسيدا وحَصُورًا ونبيا من الصالحين* قال ربِّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكِبَرُ وامرأتي عاقر قال كذلِكَ الله يفعل ما يشاء* قال ربِّ اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيّام إلا رَمْزًا واذكر ربك كثيرا وسبّح بالعشي والإبكار﴾ وقوله: ﴿هنالك﴾ أي عندما أخبرته مريم أن الرزق الذي عندها لم تجلبه يد البشر، وقوله: ﴿من لدنك﴾ أي من عندك، وقوله: ﴿ذرّية طيبة﴾ أي ولدا صالحا، وقوله: ﴿يبشّرك بيحيى﴾ أي يخبرك خبرا يسرّك بأنك ستنجب ولدا

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

اسمه يحيى. وقوله: ﴿مصدقا بكلمة من الله﴾ أي مُقِرًّا برسول يُبْعَثُ يكون إيجاده بكلمة من الله، وهو في باب المعجزة أشدّ من يحيى لأن يحيى جاء من أبوين وإن كانا طاعنين في السن بخلاف الرسول الكلمة فإنه بلا أب أصلا وإنما كان بكلمة الله الذي قال له: كن، فكان، وكانت هذه البشارة بعيسى كذلك في هذا الوقت المبكر من حياة مريم، وقوله تعالى: ﴿وسيدًا﴾ أي شريفا كريما عالما فقيها متبوعا حليما، وقوله تعالى: ﴿وحَصُورا﴾ الحَصُور يطلق على معان كثيرة منها أنه الذي يصون نفسه عن الخطايا والدنس، ومنها أنه الذي لا يقدر على قربان النساء، ومنها أنه الضيّق الصدر، والذي يليق بيحيى عليه السلام هو المعنى الأول أي أنه الذي يصون نفسه عن الخطايا والدنس، أما ما ذكر عن يحيى عليه السلام بأنه كان لا قدرة له على قربان النساء أخذًا من قوله تعالى: ﴿وحصورا﴾ فهو قول لا دليل عليه ولم يثبت عن رسول الله ﷺ من طريق صحيح، وهو نقص في الرجولة ينزه الله عز وجل أنبياءه عنه، مع أن الحصور يطلق على معان كما مرّ، وقد ذكر القاضي عياض في (الشفاء) يرد مقالة من ادعى على يحيى عليه السلام أنه كان لا قدرة له على المباشرة فقال: بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقّاد العلماء وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام اهـ وقوله تعالى: ﴿ونبيا من الصالحين﴾ بشارة أخرى عظمى لزكريا عليه السلام، وليس قول زكريا عليه السلام: ﴿ربِّ أنى يكون لي غلام﴾ الآيتين، شكًّا في قدرة الله، وإنما هو استفهام عن الطريق الذي سيجيء بواسطته الولد، هل هو من طريق زوجته العاقر أو من غيرها؟ والرمز: الإشارة، وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة زكريا ويحيى بزيادة تفصيل في سورة مريم حيث يقول: ﴿كهيعَصَ * ذِكْرُ رحمت ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خَفِيًّا * قال رب إني وهَن العَظْم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا *

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

وإني خِفْتُ الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا فهب لي من لدنك وَليًّا* يرثني ويَرِثُ مِن آل يعقوب واجعله ربّ رَضِيًّا* يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له مِن قبلُ سَمِيّا* قال رب أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا* قال كذٰلِكَ قال ربكَ هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا* قال ربي اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سَوِيّا* فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أنْ سَبّحُوا بُكْرة وعَشِيّا﴾ وقال عز وجل في سورة الأنبياء: ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين* فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رَغَبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشعين﴾

شبكة الألوكة
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريمُ إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساءِ العالمين* يا مريمُ اقنتى لربّك واسجدى واركعى مع الرّاكعين* ذٰلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض مناقب آل عمران وأثنى على زوجته أم مريم بالثناء الحسن الجميل في صدق إيمانها بالله، وشدة حرصها على مرضاته عز وجل، وإخلاصها العبادة لله وحده، كما أثنى على ابنتها مريم التي عرفت فضل الله عليها وهي صغيرة السنّ، وذكر فضله عز وجل عليها بتيسير كفالة عبده الصالح النبي الكريم والرسول العظيم زكريا عليه السلام لها وتنشئتها في هذا البيت النبوي، وما تفضل الله عز وجل عليها به من الرزق الذي جعله الله عز وجل مع قول مريم: هذا من عند الله حيث كان سببا لدعوة زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، وأن الله عز وجل استجاب له ووهب له يحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورًا ونبيا من الصالحين، جرّد الكلام في هذا المقام لبيان اصطفاء مريم وطهارتها وتفضيلها على نساء العالمين حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ وقوله عز وجل: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم﴾ إلى آخر الآيتين هو من باب عطف قصة على قصة، حيث عطف قصة البنت الصالحة على قصة أمها الصالحة، وجرى ذكر زكريا وزوجته وولده يحيى للإشعار بعمق أهل هذا البيت في الطهارة وصدق العبادة لله عز وجل وإخلاص التوحيد له، للتنديد باليهود الذين قالوا على مريم بهتانا عظيمًا، وبالنصارى الذين جعلوها وابنها إلٰهين من دون الله، وجعلوها والدة لإلٰهٍ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وقوله عز وجل:

الجديد و طهرك
NEW & EXCLUSIVE

﴿قالت الملائكة يا مريم﴾ صريح في أنّ الملائكة خاطبوا مريم عليها السلام، ولا يلزم من مخاطبة الملائكة لمريم أن تكون نبية، لأن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا من الرجال كما قال عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر﴾ الآية وكما قال عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى﴾ وقد يبعث الله عز وجل الملَك لمخاطبة غير نبي، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم مَلَكًا، فأتى الأبرصَ فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: لونٌ حسَن وجِلْد حسَنٌ، ويذهب عني الذي قد قَذِرَني الناس، فمسحه فذهب عنه قَذَرُه، وأُعْطِيَ لونا حسنًا. قال: فأيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الإبل، أو قال: البقر ـ شكّ الراوي ـ فأُعْطِيَ ناقةً عُشَرَاء، فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأقرعَ، فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قال: شعرٌ حسن، ويذهب عنّي الذي قَذِرَني الناس، فمسحه، فذهب عنه وأُعْطِيَ شعرا حسنًا، قال: فأي المال أحبّ إليك قال البقر، فأُعْطِيَ بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قال: أن يردُّ الله إليّ بصري فأُبْصِرَ الناس، فمسحه فردّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحبّ إليك؟ قال: الغنم، فأُعْطِيَ شاةً والدا، فأنتج هذان، وولّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، ثم إنّه أتى الأبرصَ في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بَعِيرًا أتبلّغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرةٌ، فقال: كأنّي أعرفك، ألم تكن أبرص يَقْذَرُك الناس، فقيرا فأعطاك الله؟ فقال: إنما وَرِثْتُ هذا المال كابرًا عن

كابرٍ، فقال: إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنتَ، وأتى الأقرعَ في صورته وهيئته فقال لـه مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما ردّ هذا، فقال: إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنتَ، وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك، شاةً أتبلّغ بها في سفري، فقال: قد كنتُ أعمى فردَّ الله إليّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أَجْهَدُكَ اليوم بشيء أخذتَه لله عز وجل، فقال: أَمْسِكْ مالَك، فإنّما ابْتُلِيتُم، فقد رضي الله عنك وسَخِط على صاحبيك» فهذا الحديث الصحيح المتفق عليه يثبت أن الله عز وجل قد يبعث ملكًا لأحد من عباده ليس بنبيّ ولا رسولٍ، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلا زار أخًا له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مَدْرَجَته ملَكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببتَه فيه. فهذا الحديث الصحيح أيضا يثبت أن الله تعالى قد يرسل ملَكًا إلى بعض الناس ويخاطبهم وليسوا بأنبياء. وقد بشرت الملائكةُ مريمَ هنا بثلاث بِشارات، البِشارة الأولى: أن الله اصطفاها، أي اجتباها واختارها حيث جعلها ذريةً طيبة لأبوين طيّبين وتقبّلها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا، وخصّها بكرامات عظيمة وإخلاص التوحيد لله وشكر نعم الله عز وجل في صغر سنها، والبِشارة الثانية: أن الله عز وجل طهّرها ونقاها من أدناس اليهود وأرجاسهم وطيّبها وعصمها من كل سوء، وحيث جعلها الصديقة الطيبة الطاهرة العذراء البتول المنقطعة إلى الله عز وجل وحده لا شريك له، أما البِشارة الثالثة: فهي أن الله عز وجل اصطفاها وفضلها على نساء العالمين،

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثَّرِيد على سائر الطعام، كَمَلَ من الرجال كثير، ولم يَكْمُلْ من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسِيَة امرأة فرعون» . كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على طفل، وأرعاه على زوج في ذات يده» يقول أبو هريرة على إثر ذلك: ولم تركب مريم بنت عمران بعيرا قط . وهذا يشعر أنه لا معارضة بين هذه الأحاديث الصحيحة الثابتة وبين ما يقتضي تفضيل مريم على عموم نساء العالمين، فحديث أبي هريرة يفيد تفضيل نساء قريش على من ركب الإبل من النساء ومريم لم تركب الإبل قط فلا تكون نساء قريش أفضل منها، وحديث عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه يشعر بتفضيل مريم على خديجة رضي الله عنها بقرينة تقديم مريم عليها في الذكر، وإن كانت الواو العاطفة لا تقتضي ترتيبا ولا تعقيبا كما هو مقرر في علم أصول الفقه، وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يَحْصُر كاملات النساء في مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، ويشعر بتقديم مريم على آسية رضي الله عنهما. وقوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي وبعد أن بشّرت الملائكة مريم بالبِشارات الثلاث السابقة قالت الملائكة لمريم: اثْبُتِي على ما أنت عليه من طاعة الله وإخلاص العبادة له وأديمي ذلك واسكني لله عز وجل واخشعي واخضعي له وكوني من القانتين الركّع السّجود، لتستمري على أعلى درجات السلوك الإنساني في الطهارة والعفاف

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ودوام الحب لله عز وجل، وقوله عز وجل: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ أي ما قصصته عليك من الأخبار العظيمة عن قصة هذا البيت السعيد بيت عمران والد مريم وما كان من زوجته عندما حملت بمريم وما كان من نذرها، وماذا قالت عند ولادتها، وماذا كافأها الله عز وجل به، وماكان من تنشئة مريم في كفالة زكريا، وقصة الرزق الذي ساقه الله عز وجل لمريم في قصر زكريا، وما ترتب على هذا الرزق؟ ودعاء زكريا ربّه أن يهب له ذرية طيبة، واستجابة الله تعالى له وتفضله عليه بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين، وآية زكريا، وأصل النبأ في اللغة هو الخبر العظيم، وهذه الأخبار التي قصها الله عز وجل وألقاها إلى رسوله وأنزلها إليه في القرآن العظيم من خفيّ أخبار بني إسرائيل التي لم يكن رسول الله ﷺ ولا قومه يعلمونها، فهي برهان ساطع على أن محمدًا هو رسول الله ﷺ حقا وصدقا. وقوله عز وجل: ﴿وما كنتَ لديهم إذ يُلْقُون أقلامهم أيُّهم يَكْفُل مريمَ وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾ تقرير وتأكيد على أن هذه الأخبار مما أوحاه الله وألقاه وأنزله على نبيه محمد ﷺ على أبلغ وجه حيث يقص هذا القصص على نبيه الأمي كأنه كان مشاهدًا لكل هذه التفصيلات الدقيقة حيث يقول: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ أي وما كنت ثاويا مقيما مشاهدا لرؤساء بني إسرائيل وهم يقترعون على من يكون الكفيل لمريم بسبب موت أبيها وحبّهم له ولها، ويلقون سِهَامهم وقِدَاحَهم للاقتراع على ذلك بسبب حرص كل واحد منهم على أن يكون هو الكفيل لها، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وذلك من الله عز وجل وإن كان خطابا لنبيه ﷺ فتوبيخ منه عز وجل للمكذبين به من أهل الكتابين، يقول: كيف يشكّ أهل الكفر بك منهم وأنت تُنْبِئُهم هذه الأنباء ولم تشهدها، ولم تكن معهم يوم فعلوا هذه الأمور،

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

ولستَ ممن قرأ الكتب فعَلِم نبأهم، ولا جالَسَ أهلها فسمع خبرهم؟ اهـ

وكما قال عز وجل: ﴿وما كنتَ تتلواْ من قبله من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذًا لارتاب المبطِلُون ❁ بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقرّبين* ويكلّم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين﴾.

بعد أن بسط الله تبارك وتعالى قصة ولادة مريم وتنشئتها ومخاطبة الملائكة لها بالبشارات الثلاث المتقدمة، وأمرها بإدامة الاستقامة والطاعة والخشوع لله عز وجل، وما لفت به انتباه الناس عامة وأهل الكتابين خاصة إلى ما في هذه الأنباء من الآيات الشاهدات على أن محمدا هو رسول الله ﷺ حقّا وصدقا، شرع في بسط قصة ولادة المسيح عليه السلام، حيث قال: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّركِ بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين* ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾ وهذه هي طلائع البشائر للصديقة البتول مريم بولدها المسيح عليه السلام، وظاهر السّياق الكريم يشعر أن جمعا من الملائكة حضروا هذه البشائر وإن كان الذي تولى مخاطبة مريم وتمثّل لها بشرًا سويا هو جبريل عليه السلام حيث وصف الله عز وجل المكان الذي جاءتها البشارة بعيسى فيه وما تمّ في ذلك حيث يقول في سورة مريم: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذِ انتبَذَتْ من أهلها مكانا شرقيا* فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها رُوحنا فتَمَثَّلَ لها بشرا سويّا* قالت إني أعوذ بالرحمن منكَ إن كنتَ تقيا* قال إنما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاما زكيّا* قالت أنّى يكون لي غلام ولم يَمْسَسْني بشرٌ ولم أكُ بغيّا* قال كذٰلِكِ قال ربكِ هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيّا﴾ ولا مانع من نسبة الكلام إلى هذا الوفد الكريم من الملائكة وإن كان المتحدث هو رئيس هذا الوفد المبارك روح القُدُس جبريل

الجديد والطريف NEW & EXCLUSIVE

عليه السلام، ولـه نظائر كثيرة في كتاب الله وفي الأساليب العـربية الفصيحة البليغة، وأعـراف الناس وعـاداتهم في مختلف أعصارهم وأمصـارهم، والمراد بالكلمة في قـوله تعالى: ﴿إنَّ الله يبشّرِكِ بكلمة منه﴾ أي بـولد عظيم له شأن كبير وسُمِّيَ الولد كلمة لأنه وجد بكلمة من الله حيث قال له: كن، فكان، وصـار يطلق على عيسى عليه السـلام كلمـة الله على سبيل التغليب، أعني صار علما بـالغَلَبة، وإن كـان لا يتم شيء إلا إذا قال الله لـه: كن، فيكون. وقـوله عـز وجل: ﴿ اسمـه المسيح عيسى ابن مـريم﴾ تعريف لمريم عليهـا السلام باسم ولدها الذي بُشِّرَتْ به، وفي نسبتـه إليها للتنبيه على أنه يولد من غير أب، إذ المعروف أن الإنسان ينسـب إلى أبيه، وفي هذا تنديـد بالنصارى الـذين اتخذوا المسيح ولـدا لله، تعـالى الله عما يقولـون علـوا كبيرا، كما أن في نسبته إلى مريم تمييزاً لمسيح الهدى عن مسيح الضلالة الدجال، ولفظ المسيح قيل هو عبرانيٌّ ومعناه: المبارك، وقيل إنما سمي مسيحا لأنه يمسح ذا العاهة فيبرأ بإذن الله، وقيل: لأنـه كـان مسيح القـدمين أي لا أَخْمَصَ لهما، وقيل: لأن الله مسحه بـالبركة أي خلقه خلقا مباركا حسنًا، وقيل: هـو مأخوذ من السياحة وهي الذهاب في الأرض والتنقل فيهـا للدعوة، قال الفيروزآبادي في القامـوس المحيط في مادة (سـاح): والسّياحـة بالكسر والسُّيـوح والسَّيَحَان والسَّيْح: الـذّهاب في الأرض للعبـادة ومنه المسيح ابن مـريم وقد ذكـرت في اشتقـاقه خمسين قـولا في شرحي لصحيح البخـاري وغيره اهـ وقال في مـادة (مسح): والمسيح عيسى ﷺ لبركتـه، وذكـرت في اشتقـاقـه خمسين قـولا في شرحي لمشارق الأنـوار وغيره اهـ وقال ابن منظور في لسان العـرب: قال ابن سِيـدَه: والمسيح عيسى ابن مـريم صلى الله على نبينـا وعليهما، قيل: سُمّي بذلك لصـدقه، وقيل: سُمّي بـه لأنه كان سـائحًا في الأرض لا يستقـر اهـ وقيل: سُمّي المسيح مسيحا لأنـه خرج من بطن أمـه ممسوحا بـالدهن، كما

شبكة الألوكة www.alukah.net
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سُمّي الدجال مسيحا لأنـه كان ممسوح العين، وسيقتل مسيحُ الهُدَى عيسى ابن مريم مسيحَ الضلالة الدجـالَ كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ عندما ينزل في آخر الـزمان. أمـا عيسى عليه السـلام فقيل: هو مشتق من العيس وهو بياض تعلـوه حمرة، وتُسمّى الإبل البيض التي يخالطُ بيـاضَها شُقْـرةٌ عيسًا، وقيل: هو اسم غير مشتق وهو اسم عبرانيّ أو سريانيٌّ، وقـد حرّفة المحرفون وقلبوه وقالوا: يسوع. وقد اشتملت طلائع البشائر على سبع بشارات في قوله عـز وجل: ﴿يبشّرك بكلمـة منه اسمـه المسيح عيسى ابن مـريم وجيهـا في الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلّـم الناس في المهد وكهلا ومن الصـالحين﴾ فالبشـارة الأولى بالـولد والثـانية بتسميتـه، والثالثـة بكونـه وجيها في الـدنيا والآخرة، والرابعة بكونه من المقربين، والخامسة بكونه يكلّم الناس في المهد، والسادسة بكـونه يعيش إلى سن الكهولة وفيـه إشارة إلى أنه لا يعيش إلى سنّ الشيخوخة، وقد كان كما ذكر الله عـز وجل، والسابعة بكونه من الصـالحين.

ومعنى كونه: ﴿وجيها في الدنيا والآخـرة﴾ أي ذا شرف ووجاهة ومنزلة عالية في الدنيا بما يُنزله الله عليه من الوحي والشريعة وما يؤتيه من المعجزات، وفي الآخرة حيث يشفع عند الله فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه فيقبل الله منه أسوة بإخـوانه من أولي العـزم من المرسلين عليهم الصلاة والسـلام، يقال للـرجل الذي يعظّمه الملوك والناس: وجيـه، وَوَجُهَ فلان إذا عُظِّم، ومنه قول بعض الصحابة رضي الله عنهم: كان الرجل من أصحاب محمد ﷺ إذا حفظ البقرة وآل عمران وَجُهَ في أصحاب رسول الله ﷺ. و﴿وجيهًا﴾ منصوب على الحال والتقديـر: إن الله يبشرك بهذا الولـد وجيها في الدنيـا والآخرة، والمقصـود أنه حال من «كلمة» فإنها وإن كانت نكرة لكنها صالحة لأن ينتصب بها الحال، وتذكير الحال باعتبار معنى «كلمـة» إذ المراد بها الولد كما أشرتُ، وقد وصف الله تبارك وتعالى في كتابـه الكريم رسوله موسى ﷺ كذلك بـأنه كان عند الله

الجديد و طهري NEW & EXCLUSIVE

وجيها، حيث يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذَوْا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾ ومعنى كونه من المقربين أي من أهل المنزلة العالية في الفردوس الأعلى مع إخوانه أولي العزم من المرسلين، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويكلّم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي ويخاطب بني إسرائيل لتعريفهم بنفسه، وللبرهان على طهارة أمه وهو حديث عهد بالولادة، والمهد: مَضْجَعُ الصبيّ في رضاعه وما يُمْهَد للرضيع ويوطّأ له لينام فيه من الفراش، وجملة: ﴿ويكلم الناس﴾ في موضع نصب على الحال المعطوفة على قوله عز وجل: ﴿وجيها﴾ كأنه قيل: وجيها ومكلّما الناس في المهد، وقد ساق الله تبارك وتعالى كلامه الذي تكلم به في المهد في سورة مريم حيث يقول: ﴿فأتت به قومها تحمله قالوا: يا مريم لقد جئت شيئا فريًّا* يا أخت هارون ما كان أبوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وما كانت أمّك بغيّا* فأشارت إليه قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبيّا* قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا* وجعلني مباركًا أين ما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا* وبرّا بوالدتي ولم يجعلني جبّارًا شقيًّا* والسلام عليّ يوم وُلِدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حيّا﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جُرَيْج، وكان جريج رجلا عابدا، فاتخذ صَوْمَعةً، فكان فيها، فأتته أمّه وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا ربّ، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفَتْ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يارَبّ، أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفَتْ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: أي ربّ، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ حتى ينظر إلى وجوه المومِسَات، فتذاكر بنو إسرائيل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جُرَيْجًا وعبادتهُ، وكانت امرأة بَغيٌّ يُتَمَثّل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننّه لكم، قال: فتعرّضَتْ له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعِيًا كان يأوي إلى صومعته، فأمْكَنَتْه من نفسها، فوقع عليها، فحَمَلَتْ، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زَنَيْتَ بهذه البَغِيّ، فولدت منك، فقال: أين الصّبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتّى أصلّي، فصلّى، فلما انصرف أتى الصبيَّ فطعن في بطنه وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلانٌ الرّاعي، قال: فأقبلوا على جريج يقبّلونه ويتمسّحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا. وبينا صبيٌّ يرضع من أمه فمرّ رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمّه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثّدي وأقبل إليه، فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثَدْيِه فجعل يرتضع» قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يَمُصُّها، قال: «ومرّوا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرّضاع ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث، فقالت: حَلْقَى، مرّ رجلٌ حسن الهيئة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأَمة وهم يضربونها ويقولون: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جبّارا، فقلتُ: اللهم لا تجعلني مثله، وإنّ هذه يقولون لها: زَنَيْتِ، ولم تزْنِ، وسرقْتِ، ولم تسرقْ، فقلت: اللهم اجعلني مثلها». وقوله: ﴿وكهلا﴾ هو منصوب على الحال من فاعل يكلم كأنه قيل: يكلم الناس حالة كونه في المهد وحالة كونه كهلا. والكهل هو ما كَمُل

شبابه واجتمعت قوته قبل سنّ الشيخوخة ، مأخوذ من قول العرب : اكتهل النبات ، إذا قوي وانتهى منتهاه ، ومنه قول الأعشى :

يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بعميم النبت مُكْتَهِل

والغالب أن يصير الرجل كهلا فيما بين الثلاثين والأربعين ، وقد تمتد قوته إلى الخمسين . وفي قوله عز وجل : ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلا﴾ تنديد بالنصارى الذين جعلوا عيسى إلّها ، لأن الإلّه منزه عن هذه الأحوال التي تدل على الفناء والزوال ، وقوله عز وجل : ﴿ومن الصالحين﴾ إشعار ببلوغه أكمل الدرجات العالية ، قال الفخر الرازي : فإن قيل : كون عيسى كلمة من الله تعالى ، وكونه وجيها في الدنيا والآخرة ، وكونه من المقربين عند الله تعالى ، وكونه مكلما للناس في المهد وفي الكهولة ، كلّ واحد من هذه الصفات أعظم من كونه صالحا ، فلم ختم الله أوصاف عيسى بقوله : ﴿ومن الصالحين﴾؟ قلنا : إنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحا ، لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظبا على النهج الأصلح والطريق الأكمل ، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين ، في أفعال القلوب وأفعال الجوارح ، فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذي يدل على أرفع الدرجات اهـ .

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال تعالى : ﴿قالت ربّ أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذٰلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون۞ ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل۞ ورسولا إلى بنى إسرائيل أنّى قد جئتكم بآية من ربّكم أنّى أخلق لكم من الطّين كهيئة الطّير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون فى بيوتكم ، إنّ فى ذٰلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾

لما سمعتْ مريم عليها السلام من روح القدس جبريل ﷺ البشارة بكلمة الله المسيح العظيم الشأن قالت متعجّبة غير منكرة ولا شاكّةٍ في قدرة الله عز وجل الذي عرفت نعمته عليها حيث كان يسوق لها ألوان الرزق العجيب : أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر وليس في تاريخ الإنسانية كلها أن جاء ولدٌ من امرأة بلا زوج وهي نقيةٌ طاهرةٌ في الذروة من العفاف؟ مع علمها أن الله عز وجل خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من غير أمّ ، وقد سارعت بالضراعة إلى الله قائلة : ربّ كيف يوجد هذا الولد مِنّي؟ فأجابها جبريل عن أمر الله عز وجل قائلا لها : ﴿كذٰلِكِ الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي هكذا يخلق الله منكِ ولدًا لك من غير أن يمسّك بشرٌ فيجعله آية للناس على كمال قدرته وأنه لا يعجزه شيء من الخلق ، فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ويبتدع ما يريد ، لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه ، فمهما أراد إيجاد شيء من الخلق أوجده على الوجه الذي يريد ، لا يحتاج إلى سبب لأنه الربّ المهيمن على كل شيء فإذا قال للشيء كن فيكون .
ومما يلفت الانتباه أن زكريا عليه السلام لما قال : ﴿ربّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾ أجيب بقوله : ﴿كذٰلِكَ الله يفعل ما يشاء﴾ وأنّ

مريم عليها السلام لما قالت: ﴿رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ أجيبت بقوله: ﴿كذٰلِكِ الله يخلق ما يشاء﴾ ولا شك أن ولادة العذراء من غير أن يمسّها بشرٌ أبدع وأغرب وأظهر وأدلّ على القدرة من ولادة عجوز عاقر من زوج بلغ من الكبر عتيًّا، لذلك جاء البيان البليغ في جانب إيجاد عيسى بقوله: ﴿يخلق﴾ وفي جانب إيجاد يحيى بقوله: ﴿يفعل﴾ لأن الخلق ينبئ عن الاختراع والإيجاد وهو أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل الذي وقع في جواب تعجّب زكريا عليه السلام، كما أن في ذلك تنديدا بمن جعل عيسى إلٰها أو ابن إلٰه لأنه مخلوق خلقه ربّ السموات والأرض فهل يليق بإنسان عنده ذرة من عقل أن يعبد مخلوقًا مثله؟ وقوله تعالى: ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة التوراة والإنجيل * ورسولا إلى بني إسرائيل﴾ هذه هي بقية البشائر التي بشرت الملائكة بها مريم عليها السلام بولادة المسيح وصفاته قبل أن تحمل به، وبها تبلغ هذه البشائر اثنتي عشرة بشارة، وقوله عز وجل: ﴿ويعلّمه الكتاب﴾ أي ويعرّفه الكتابة والخط الذي يخطّه بيده، وفيه لفت انتباه إلى نعمة معرفة الخط والكتابة، أمّا عدم تعليم النبي ﷺ الخطّ والكتابة فلتمام المعجزة الكبرى حيث يبعثه الله عز وجل معلما للأمم وهو أمّي مبعوث بالكتاب المهيمن على سائر كتب النبيين، وقوله: ﴿والحكمة﴾ هي الفهم والعقل عن الله عز وجل، وإدراك العلوم النافعة، وسلوك الطريق المستقيم، ومعرفة السنة التي يوحيها الله عز وجل إليه في غير كتاب. وقوله: ﴿والتوراة﴾ أي ويعلّمه نصوص التوراة المنزلة على كبير أنبياء بني إسرائيل موسى عليه السلام ويعرّفه مقاصدها، وقوله: ﴿والإنجيل﴾ أي ويعلمه الإنجيل الذي ينزله عليه، وقوله: ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل﴾ أي ويبعثه الله عز وجل رسولا إلى بني إسرائيل، وهذه هي أكبر البشائر الاثنتي عشرة، وأخّرها في الذكر لاتصالها بما يقوله عيسى عليه السلام لبني إسرائيل عندما

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يبعثه الله عز وجل إليهم بعد أن يبلغ أشدّه، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في سورة مريم ما يفيد أنه بعد تمام بشارتها واطمئنانها، نَفَخ فيها جبريل عليه السلام فحملت بعيسى عليه السلام وأنه لما ألجأها المخاض ووجع الولادة إلى جذع النخلة أدركها خوف ما ستلقاه من اليهود وهم قوم بُهْتٌ فطمأنها جبريل عليه السلام وعلّمها ما تحتاجه لنفسها وما تفعله وتقوله لقومها حيث يقول الله عز جل في ذلك: ﴿فحَمَلَتْه فانتبذت به مكانا قصيّا* فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مِتُّ قبل هٰذا وكنت نسيا منسيا* فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربّك تحتك سريا* وهُزّي إليك بجذع النّخلة تُسَاقِطْ عليك رُطَبًا جَنِيّا* فكلي واشربي وقَرّي عَيْنًا فإمّا تَرَيِنَّ من البشر أحدًا فقولي إني نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيا* فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريّا* يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أمّك بغيّا* فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيا* قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا* وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا* وبرّا بوالدتي ولم يجعلني جبّارا شقيّا* والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا.﴾ وقوله عز وجل: ﴿أنّي قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله﴾ هذا شروع في بيان قصة ما وقع لعيسى عليه السلام بعد أن بلغ أَشُدّه حيث أرسله الله عز وجل إلى بني إسرائيل فلما جاءهم أخبرهم بأنه قد جاءهم مُرْسَلا إليهم من الله عز وجل بمعجزات مؤيّدة له بأنه رسول من رب العالمين، والمراد بالآية في قوله: ﴿قد جئتكم بآية من ربكم﴾ جنس الآية فهي تشمل أكثر من آية، ولذلك فسّرها بأنواع من الآيات وهي أنه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ويبرئ الأَكْمَهَ والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وينبّئهم بما يأكلون وما

يدخـرون في بيوتهم، ثم قـال عن هذه الأنـواع من المعجزات: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ ومعنى قـوله عز وجـل: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي أصـوّر أمامكم من الطين شكل طير ثم أنفخ فيه فيطير بإذن الله، وأنتم تنظـرون إليه وتشاهدونـه بأعينكم، وقد أَذِن الله عز وجـل لعيسى عليه السلام في تصـوير صـورة الطير من الطين والنَّفخ فيه ليطير بإذن الله لتكـون هذه المعجزة الحسيّة آيـة ظاهرة على أنـه رسول من رب العالمين، وهذه هي الآيـة الأولى، أما الآية الثانية والآية الثـالثة فقد أخبر الله عز وجل عنهما بقولـه: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ والأَكْمَـهُ هو من وُلِدَ ممسوح العينين لا حَدَقـة لعينه، وشفاء الأكمه وإبراؤه ليبصر لا طـاقة لأحد من الأطباء قديما وحـديثا عليه، فهو من أظهر المعجـزات الحسية، والأبرص هو المصاب بـالبَرَص وهو داء معروف يظهر في بيـاضٍ يصيب ويعتري جلد الإنسان يعجز نُطُسُ الأطباء عن علاجه قديما وحـديثا، أما الآية الرابعة فقد أخبر الله عز وجل عنها بقوله: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وأنادي بعض الموتى فيقـومون وأنتم تنظـرون وتعـود لهم الحياة بعـد الموت، وقولـه: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هو قيد في إبـراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وقيّد بـه هذه الأفعال الخارقة لنفي توهّم الألوهية فيه، فهـو ردّ على النصارى الذين زعموا أنه فعل هذه الأفعـال بوصفه إلها، تعـالى الله عما يقولـون علوّا كبيرا، وقد قيـد الله عز وجل بهذا القيد هذه المعجـزات في سورة المائدة حيث يقول: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ وقـد ذكرت في تفسير قـوله عز وجـل في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أن معجزات كل نبي كانت تنـاسب أعلى ما وصل إليه قومـه في العلم ليعرفوا أن هذه المعجـزة تفوق كل ما وصلوا إليـه، وأنها ليست من قدرة البشر وإنما هي

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من مالك القُوَى والقُدَر، وأشرت إلى أن من بُعِثَ إليهم عيسى عليه السلام كانوا أبصر الناس في عصرهم بالطب فجعل الله عز وجل معجزة عيسى عليه السلام من جنس ما برعوا فيه فكانت معجزته أنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله . أما الآية الخامسة من الآيات الحسية التي أيّد الله تعالى بها عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فهي أنه يخبرهم بما يأكلون وبما يدّخرون في بيوتهم، أي يقول لأحدهم: أنت أكلت اليوم كذا وتدّخر في بيتك لغدك كذا، مما يقطعون بأنه لا علم لغيرهم به، وقد أخبرهم عيسى عليه السلام بأن هذه آية ينتفع بها من يشرح الله صدره للإيمان، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وأُنَبِّئُكُم بما تأكلون وما تَدَّخِرُون في بيوتكم، إن في ذٰلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين﴾، وقوله عز وجل: ﴿إن في ذٰلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ قال ابن جرير رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه: إن في خلقي من الطين الطيرَ بإذن الله، وفي إبرائي الأكمه والأبرص، وإحيائي الموتى، وإنبائي إياكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم، ابتداءً من غير حساب وتنجيم ولا كهانة وعرافة، لعبرةً لكم ومُتَفكَّرًا تتفكرون في ذلك فتعتبرون به أني محقّ في قولي لكم: إني رسول من ربكم إليكم، وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني إن كنتم مصدّقين حجج الله وآياته، مقرين بتوحيده، وبنبيّه موسى، والتوراة التي جاءكم بها اهـ.

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

قال تعالى: ﴿ومصدّقا لما بين يديّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذى حُرّم عليكم، وجئتكم بآية من ربّكم فاتّقوا الله وأطيعون ﴿ إنّ الله ربّى وربّكم فاعبدوه، هٰذا صراط مستقيم ﴿ فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر قال منْ أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون ﴿ ربّنا آمنا بما أنزلت واتّبعنا الرّسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾

بعد أن بيّن عيسى عليه السلام لبني إسرائيل المعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة المصدّقة له بأنه رسول من رب العالمين بيّن هنا مضمون الرسالة التي جاء بها من عند الله، فقال: ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعونِ ﴿ إن الله ربِّي وربّكم فاعبدوه هٰذا صراط مستقيم﴾ وقوله: ﴿ومصدّقا﴾ منصوبٌ على الحال من ﴿جئتكم﴾ أي جئتكم بهذه المعجزات وجئتكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومحلاّ لكم بعض الذي حرّمَ عليكم. ومعنى: ﴿ومصدّقا لما بين يديّ من التوراة﴾ أي ومؤمنا بكتاب الله الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو التوراة ومقرّا بها وأنها من عند الله، وهذا الذي قاله عيسى عليه السلام مُشْعِر بأن رسل الله يصدق بعضهم بعضًا، ويؤمنون بجميع كتب الله، وفيه تنديد باليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام وكذبوه، مع أن التوراة فيها إشارة إلى أن الله عز وجل سيرسل لهم مسيحا، لكنهم أَبَوْا أن يكونوا أتباع المسيح الحق، ليكونوا أتباع المسيح الدجال لعنه الله ولعنهم، وقوله عز وجل: ﴿ولأُحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم﴾ أي ولأرفع عنكم بعض الإصر ولأخفف عليكم فأبيح لكم بأمر من الله عز وجل بعض ما كان محرّما عليكم في التوراة، حيث جعل الله عز وجل لكل نبي شرعة ومنهاجا يلائم أمته ويقوم بصلاح معاشها ومعادها، وكذلك يشرح لهم عيسى عليه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السلام الوجه الصحيح فيما يختلفون فيه من المسائل ويبين لهم الحق والصواب فيما اختلفوا فيه، كما قال عز وجل في سورة الزخرف: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعونِ * إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هٰذا صراط مستقيم﴾ ولا يقول قائل: كيف يكون مصدقا لما بين يديه من التوراة ثم يعلن أنه يُحِل بعض ما حُرّم فيها؟ إذ لا معارضة ألبتة في ذلك ولا تناقض لأننا معشر المسلمين نؤمن بالتوراة والإنجيل وسائر كتب الله مع جزمنا بأن شريعتنا قد نسخت سائر أحكام الكتب السماوية السابقة سوى أصول الدين التي تطابقت عليها جميع النبوّات كما أشار إلى ذلك قوله عز وجل: ﴿شرع لكم من الدين ما وَصَّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجا﴾، وقوله عز وجل: ﴿وجئتكم بآية من ربّكم﴾ يمكن أن تكون هذه الجملة تأكيدا لقوله تعالى في مطلع المقام السابق: ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾ لتحريك قلوبهم بسبب بلادة نفوسهم، ويمكن أن تكون هذه الجملة مؤسِّسة لتعريفهم بأن درب عيسى عليه السلام في رسالته درب مسلوك وهو منهج النبيين والمرسلين حيث يؤيدهم الله عز وجل بآياته، وهم يقرءون ذلك في كتبهم، ثم جرَّد عيسى عليه السلام لهم ما يدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله وحده وتقواه عز وجل في السّر والعلن، بطاعة أوامره والانتهاء عن زواجره، وطاعة عبده ورسوله عيسى ابن مريم الذي جاءهم بسعادة الدنيا والآخرة لمن أطاعه، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿فاتقوا الله وأطيعونِ * إن الله ربي وربكم فاعبدوه هٰذا صراط مستقيم﴾ وهذه هي خلاصة دعوة الأنبياء والمرسلين، فإنهم جميعا جاءوا لتحقيق تقوى الله عز وجل وطاعة المرسلين والإقرار بأن الله عز وجل هو وحده ربّ كلّ شيء

الجديد و طهرة NEW & EXCLUSIVE

وسيده ومليكه ومصلحـه، والمهيمن عليه والقائم على كل نفس بما كسبت، فعلى كلّ عاقل أن يخلـص العبادة لله وحده ويـوقن بأنه لا إلـه إلا الله وأنه لا شريك له ولا نِدّ ولا نظير ولا والد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحد. ولا شك أن من التزم بهذا المنهج النبـوي سار على صراط مستقيم، وطريق قويم. وقـوله عـز وجل: ﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفـرَ قال مَن أنصـاري إلى الله﴾ أي فلما أظهـر اليهـود الكفـر بعيسـى عليـه السـلام، وأصرّوا على عـدم الإيمان والانقيـاد له، وفعلـوا معه أفعـالا من كفـرهم به أصبح يحسّ معهـا أنهم لن يؤمنـوا به وأنهم مصمّمون على قتله، وتمالأوا مـع الرومان الوثنيين عليـه قال عيسى عليه السـلام موجّها كلامه للحـواريين: من أنصاري إلى الله؟ أي مَن أنصاري في الـدعوة إلى إخلاص العبـادة لله وحده وتأييـد دين الله، وإعلاء كلمة الله، ومما يدلّ على أنّ كلامه كان موجّها إلى الحواريين قوله تبارك وتعالى في سورة الصـف: ﴿يا أيها الذيـن آمنوا كونـوا أنصار الله كما قـال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾. وقوله عز وجل: ﴿قال الحواريون نحن أنصـار الله﴾ أي قال السابقون الأولون من أتباعه عليه السلام: نحن أنصار الله بتـأييدك في الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحـده لا شريك لـه، وإعـلاء كلمـة الله، والتمسك بـدينـه، والالتـزام بشرعه، والـوقوف عنـد حدوده، والسّير على الصراط المستقيـم. والحواريون جمع حـواريّ، والحواريّ في الأصل هـو الـوزيـر أو من يصلح للخـلافـة أو الناصر، أو الخالص، أو هو ناصر الأنبيـاء، أو القَصّار لأنه يُحَوِّر الثياب أي يُبَيِّضها، وذكـر البخاري في صحيحـه عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: وسُمّي الحواريون لبياض ثيـابهم. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «إنّ لكل نبي حـواريًّ، وإن حواريّ الـزبيرُ بن العـوام». والمتبادر من القـرآن العظيم

يشعر أن الحواريين هم السابقون الأولون من أمة عيسى عليه السلام وكبار أصحابه وخواصّهم رضي الله عنهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الحواريين في كتابه الكريم في مواضع، فذكر ما ألقى الله عز وجل في نفوسهم من المسارعة إلى الإيمان بعيسى عليه السلام وتأييده ونصرته وتصديقه فيما جاء به عن ربه عز وجل حيث يقول: ﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أنْ آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ أي ألهمت الحواريين وقذفت في قلوبهم تصديق عيسى ابن مريم، ولا شك أنهم ليسوا بأنبياء ولا معصومين من الخطأ، ولذلك ذكر الله عز وجل عنهم أنهم قالوا لعيسى ابن مريم: هل يستطيع ربّك أن ينزّل علينا مائدة من السماء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون* ربّنا آمنّا بما أنزلتَ واتّبَعْنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي صدّقنا بالله واشهد أنت يا عيسى علينا بأننا مسلمون حنفاء لله غير مشركين به، فنحن على ملتك وملة أبيك إبراهيم خليل الرحمن، وفيه لفت انتباه نصارى نجران وغيرهم إلى بطلان مذهب من أشرك بالله أو قال: اتخذ الله ولدا، وتصديقٌ لرسوله محمد ﷺ الذي جاء بدين الإسلام، الذي هو دين جميع النبيين والمرسلين عليهم السلام، وقوله تعالى: ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وهذا خبرٌ من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا: ﴿ربنا آمنّا﴾ أي صدّقنا ﴿بما أنزلت﴾ يعني بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك، ﴿واتّبعنا الرسول﴾ يعني بذلك صِرْنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به، وأعوانه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك، وقوله: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ يقول: فأَثْبِتْ أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقروا لك بالتوحيد، وصدّقوا رسلك، واتّبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأَحِلّنا محلّهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصدّ عن سبيلك،

وخـالف أمـرك ونهيك، يُعـرّف خلقه جل ثناؤه بـذلك سبيل الـذين رضي أقـوالهم وأفعالهم ليحتـذوا طـريقهم، ويتّبعوا منهـاجهم، فيصلـوا إلى مثل الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذّب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة، في دعواهم على أنبياء الله أنهم كانوا على غيرها، ويحتجّ به على الـوفد الذين حـاجّوا رسول الله ﷺ مـن أهل نجران بأنّ قِيلَ مَن رضي الله عنه من أتبـاع عيسى كان خلاف قِيلِهم، ومنهاجهم غير منهـاجهم اهـ وقال ابن كثير رحمه الله: قال ابن أبي حـاتم: حدثنا أبو سعيـد الأَشَجّ حدثنا وكيع حدثنـا إسرائيل عن سِمَـاك عن عكرمـة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قولـه: ﴿فاكتبنا مع الشـاهدين﴾ قـال: مع أمة محمد ﷺ، وهـذا إسناد جيد اهــ، ولا شك أن أمة محمـد ﷺ سيشهدون للأنبيـاء يوم القيـامة بأنهم بلّغوا أممهم، بعد أن يشهد كلّ نبي على أمتـه أنه بلّغهم رسالة الله التي أرسله بها، ويكون رسـول الله ﷺ شاهـدا على أمته كما قـال عز وجل: ﴿وكـذٰلك جعلنـاكم أمة وسطـا لتكـونوا شهـداء على النـاس ويكـون الرسـول عليكـم شهيدا﴾ وقد ذكرت في تفسيرها ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُدعَى نوحٌ عليه السلام يوم القيـامة فيقـول: لبيك وسَعْدَيْك يـا رب، فيقول: هل بلّغـت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمتـه: هل بلّغكم؟ فيقولون: مـا أتانا من نذيـر، فيقول: من يشهد لـك؟ فيقول: محمـد وأمّته، فيشهدون أنـه قد بلّـغ، ويكون الـرسول عليكم شهيدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وكذٰلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى : ﴿ومَكروا ومكَـرَ الله والله خيرُ الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفـروا وجاعلُ الذين اتّبعوك فوق الـذين كفـروا إلى يوم القيـامـة ثم إليّ مـرجعكم فأحكُم بينكم فيما كنتم فيـه تختلفون* فأما الذين كفـروا فأعذّبهم عذابا شديدا في الـدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين* وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ، والله لا يحبّ الظالمين﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل أن عيسى عليه السـلام قد أحسّ من قومه الكفر وأنهم قد أصرّوا على ضلالهم ، وأنـه عليه السلام دعا أتبـاعه إلى تأييد دين الله والاستمساك به وأن الحواريين قد استجابوا له ، أشار هنا إلى أن اليهود لعنهم الله لم يقفـوا عند كفـرهم وعنادهم بل تَعَـدَّوْا ذلك إلى الكيد لـه والعمل على التخلص منه بقتلـه ، وتعاونـوا في هذا الإثم الـذي عزمـوا عليه مع الـرومان الوثنيين الـذين كـانوا يحكمون فلسطين وقتئـذ ، وتمالأوا عليه ، واتفـق اليهود والرومان على أخذه والفتك به ، فلما أحاطوا بمنزله ، وظنّوا أنهم قد ظفروا به ، نجاه الله تبارك وتعالى من مكرهـم وشرهم وكيدهـم ، فألقى شبهه على شخص من مبغضيـه فحسبوه عيسى عليـه السلام فأخـذوه ، وقتلوه ، وصلبـوه ، أما عيسى عليـه السلام فقـد رفعه الله إليـه ، وخيّب مكر الكـافرين ، وردّ كيـد الكائدين ، وفي ذلك يقـول الله عز وجل هنـا في هذا المقام : ﴿ومكـروا ومكر الله والله خير الماكرين* إذ قال الله يا عيسى إني متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكُمُ بينكـم فيما كنتم فيه تختلفون* فأمـا الذين كفـروا فأعذّبهم عذابًا شديدًا في الـدنيا والآخرة وما لهم نـاصرين* وأمّا الذين آمنـوا وعملوا الصّالحات فيـوفّيهم أجورهم ، والله لا يحبّ الظالمين﴾ وهكـذا قضى الله عز

وجل أن ينصر رسُله والمؤمنين، وأن يخزي أعداءه الكافرين، وقد نصّ الله عز وجل على أن عيسى عليه السلام لم يُقْتَل ولم يُصْلَب، وإنما شُبِّه لليهود الذين كانوا يعرفونه أما الرومان الوثنيون الذين جاءوا لأخذ عيسى عليه السلام فما كانوا يعرفونه، وفي بيان مكر الله بهم وتخييب سعيهم، وما ألقى الله عز وجل من شَبَهِ المسيح على الشخص الذي كان يتقرب منه وهو يُبْغضه ويتمالأ مع اليهود والرومان عليه يقول تبارك وتعالى في اليهود: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما* وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم، وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه، ما لهم به من علم إلا اتّباع الظنّ، وما قتلوه يقيناً* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيماً﴾. وإن تعجب فعجبٌ أن يصدّق النّصارى اليهودَ في أنّهم قتلوا المسيح وصلبوه وبخاصة من انحرف عن الحق وزعم أنّ عيسى إلّه أو ابن إلّه، كيف يخطر على بال من به أدنى مُسْكَة من عقل أن يعتقد أنّ الإلّه يصلب أو يقتل؟ مع أن إنجيل متى وإنجيل مرقُص يقرّران أنّ الذين أرادوا قتل المسيح وصلبه لم يكونوا يعرفونه، ففي الإصحاح (الفصل) السادس والعشرين من إنجيل متى في الفقرة السابعة والأربعين من هذا الإصحاح يقول: وفيما هو يتكلم إذا يهوذا واحدٌ من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعِصِيّ من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشّعب. وفي الفقرة الثامنة والأربعين: والذي أَسْلَمَه أعطاهم علامةً قائلا: الذي أقبّله هو هو. وفي إنجيل مرقص في الإصحاح الرابع عشر في الفقرة الثالثة والأربعين منه: وللوقت فيما يتكلم أقبل يهوذا واحدٌ من الاثني عشر ومعه جمع كثير بسيوف وعِصِيّ من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ. وفي الفقرة الرابعة والأربعين: وكان مُسَلِّمُه قد أعطاهم علامةً قائلاً: الذي أقبّله هو هو أمسكوه وامضُوا به بحرص. وقد جاء في أناجيل النصارى المعتمدة عندهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن الله أوقع الشك حتى في قلوب الحواريين فصاروا يتردّدون هل هذا هو يسوع الذي أُخذ ليُقْتَل ويُصْلَب أو غيره؟ وقد كان بين المسيح عليه السلام وبين يهوذا الإسخريوطي الذي دخل على المسيح ليُسَلِّمه لليهود والرومان شبه كبير فصاروا لا يدرون عن الذي أُخِذ أهو المسيح أم يهوذا الإسخريوطي؟ وقد نقلت الأناجيل الأربعة التي بيد النصارى الآن، وهي مَتَّى ومرقص ولوقا ويوحنا، قولَ المسيح عليه السلام لأصحابه ليلة عَزْمِ أعدائه على تبييته: كلّكم تَشُكُّون فيّ هذه الليلة. كما جاء في الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل مَتَّى في الفقرة الواحدة والثلاثين، وكما جاء في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقص في الفقرة السابعة والعشرين، وقد جاء في إنجيل برنابا التصريح بأن الجنود أخذوا يهوذا الإسخريوطي نفسه ظنا أنه المسيح لأنه أُلْقِيَ عليه شَبَهُه، وقد ذكر (جورج سايل) الإنجليزي في ترجمته للقرآن في سورة آل عمران في الصفحة الثامنة والثلاثين أن يهوذا الإسخريوطي كان يشبه المسيح في خَلْقه، وذكر عن فرقة من أقدم فرق النصارى وهم «السّيرنثيّون والكوبوكراتيّون» أنهم أنكروا صلب المسيح، وصرّحوا بأن الذي صُلِب هو يهوذا الإسخريوطي الذي كان يشبهه شبها تامّا اهـ والنصارى مطبقون على أن يهوذا الإسخريوطي فُقِدَ بعد حادثة الصلب ولم يظهر في الوجود، وقوله عز وجل: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ أي ودبّر اليهود تدبيرا سيئا لقتل عيسى عليه السلام ودبّر الله عز وجل لحفظ عيسى عليه السلام وصيانته من شر اليهود والرومان، والله تعالى خير المدبّرين، وقد سقت في تفسير قوله عز وجل: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما الاستهزاء والمكر بأن يُظْهِر الإنسان الخير والمراد شرّ فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرّم وأما إذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلا حسنًا، قال

الله تعالى : ﴿ وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمَنَّا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ۞ الله يستهزئ بهم﴾ فإنّ الجزاء من جنس العمل اهـ وقوله عز وجل: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا﴾ أي وعندما مكر اليهود وجاءوا مع جنود من الرومان لأخذ المسيح عليه السلام لقتله قال الله عز وجل لعيسى عليه السلام: إني سألقي عليك النوم وأرفعك إلى السماء وأخلّصك من اليهود الكافرين الحاقدين الحاسدين، وجمهور أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى رفع المسيح إلى السماء بجسده وروحه، ويفسرون التوفي في قوله تعالى: ﴿إني متوفيك ورافعك إليّ﴾ بأنه إلقاء النوم عليه إلى أن رفعه الله إلى السماء على حدّ قوله تعالى: ﴿الله يتوفّى الأنفسَ حين موتها والتي لم تَمُتْ في منامها﴾ وقوله عز وجل: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي يُنيمُكم بالليل، ويعلم ما اكتسبتم بالنهار، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجلين تنازعا في أمر نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام فقال أحدهما: إن عيسى ابن مريم توفاه الله ثم رفعه إليه، وقال الآخر: بل رفعه الله إليه حيًا، فما الصواب في ذلك؟ وهل رفعه بجسده أو روحه أم لا؟ وما الدليل على هذا وهذا؟ وما تفسير قوله تعالى: ﴿إني متوفّيك ورافعك إليّ﴾؟ فأجاب: الحمد لله، عيسى عليه السلام حيّ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً وإماما مُقسِطًا، فيَكْسِرُ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية» وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدجال، ومن فارقت روحُه جسدَه لم ينزل جسده من السماء، وإذا أُحْيِيَ فإنه يقوم من قبره، وأما قوله تعالى: ﴿إني متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا﴾ فهذا دليل على أنه لم يَعْنِ بذلك الموتَ، إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المؤمنين فإنّ الله يقبض أرواحهم ويُعْرَج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصيةٌ، وكذلك قوله: ﴿ومطهّرك من الذين كفروا﴾، ولو كان قد فارقت روحُه جسدَه لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء، وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شَكّ منه ما لهم به من علم إلا اتّباع الظن وما قتلوه يقينا* بل رفعه الله إليه﴾ فقوله هنا: ﴿بل رفعه الله إليه﴾ يبيّن أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه. إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات اهـ وقوله تعالى: ﴿وجاعِلُ الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ يفيد أن الله تبارك وتعالى قضى أنّ من آمن بعيسى عليه السلام وصدّقه وأقر أنه عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه يعزّه الله ويؤيّده ويرفع منزلته فوق كل كافر في الحياة الدنيا فما بالك بما أعدّه الله للمؤمنين في دار كرامته، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ وكقوله تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ وكقوله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وكقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيّدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ ولا شك أنه بعد إرسال محمد ﷺ الذي نسخ الله بشريعته الشرائع السابقة لا يكون الإنسان مُتَّبِعًا لعيسى عليه السلام إلا إذا اتّبع محمدا ﷺ، وقد حكم الله وقضى أن من ادّعى أن عيسى إلّه أو ابن إلّه أو أنّ الله ثالث ثلاثة فهو كافر مشرك يحرّم الله عليه الجنة، وقد خطب بذلك عيسى عليه السلام في بني اسرائيل حيث قال الله فيه: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل

اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يُشرِكْ بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إلّه إلا إلّه واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون لَيَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ولا يتنافى قوله تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ مع ما قد يحدث للمؤمنين من أن يُهْزَمُوا في حرب أو أن يمسّهم قرح فإن الله تبارك وتعالى قد يبتلي المؤمنين ليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، والمؤمن عزيز بالله في حالة نصره، وفي حال هزيمته، كما قال كعب بن زهير في أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم:

ليسوا مَفَاريح إن نالت رماحُهُمُو ... قوما وليسوا مجَازيعًا إذا نِيلوا

وكما قال حسان رضي الله عنه:

نَسْمُو إذا الحرب نالتنا مخالِبُها ... إذا الزّعانِف من أظفارها خشَعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوّهمو ... وإن أُصِيبوا فلا خُورٌ ولا هُلُعُ
كأنهم في الوَغَى والموتُ مُكْتَنِع ... أُسْدٌ بحَلْية في أرْساغِها فَدَعُ

وقوله عز وجل: ﴿ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ فأمّا الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين﴾ أي ثم مردّكم إلى الله وحده فيقضي بينكم فيما تنازعتم فيه، حيث آمن المؤمنون وكفر الكافرون، فأما الكافرون فلهم خزي الدنيا والآخرة وما لهم من شافعين، وأما المؤمنون فلهم عزّ الدنيا والآخرة، والله عدو للكافرين.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى: ﴿ذٰلك نتلوه عليك من الآيات والذّكر الحكيم* إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون* الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين* فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين* إنّ هٰذا لهو القصص الحقّ، وما من إلٰه إلا الله، وإنّ الله لهو العزيز الحكيم* فإن تولّوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل ألوانا من صور اصطفاء آل عمران وبسط قصة ولادة مريم العذراء البتول، وكفالة زكريا لها وما كان من شأنه، وما دعا به ربّه، وما تفضل الله عز وجل به عليه حيث وهب له يحيى مصدقا بكلمة من الله، ثم بشارة الملائكة لمريم بمنزلتها عند الله ثم بشارتها بأن تلد المسيح بكلمة من الله ثم ذكر صفات المسيح عليه السلام وخلاصة دعوته إلى الله عز وجل وكفر اليهود به، وإيمان الحواريين به وتأييدهم له، ومكر اليهود لقتل عيسى عليه السلام وتنجية الله له منهم ورفعه إلى السماء وما قضى الله عز وجل به من نصرة أوليائه وإذلال أعدائه، لفت انتباه الناس هنا إلى أنه يقص على رسوله ﷺ القصص الحقّ فيما ذكره من هذه الأخبار المتقدمة فقال: ﴿ذٰلك نتلوه عليك من الآيات والذّكر الحكيم﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد عن آل عمران وكيفية ميلاد عيسى عليه السلام ودعوته نقرؤه ونقصه عليك بما أوحينا إليك من الآيات المتلوة والقرآن العظيم المحكم المتقن الذي لا يتطرق إليه الشك ولا يناله الارتياب، ثم ضرب مثلا لتقرير حقيقة إيجاد عيسى عليه السلام من غير أب فقال تبارك وتعالى: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ أي إنّ إيجاد الله عز وجل عيسى من غير أب سَهْلٌ على الله تبارك وتعالى الذي أوجد آدم من غير

أب ولا أم، فآدم قد خلقه الله تعالى من تراب وقال له: كن، فكان بَشَرا سَوِيّا وإنسانا كريما، فمن أوجد إنسانا من غير أبوين لا يُعْجِزُه إيجاد إنسان من غير أب، فمن كان له عقْل فليعقل هذا المثل الحقّ، لأن الأمثال التي يضربها الله عز وجل لا يعقلها إلا العالمون، ولا يستفيد منها إلا المستبصرون، فلو كان عند نصارى نجران أو غيرهم مُسْكةٌ من عقل لأذعنوا للحق، وقوله عز وجل: ﴿كن فيكون﴾ هو شبيه قوله تبارك وتعالى في بشائر مريم بالمسيح: ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إن إيجاده عز وجل للأشياء لا يتوقف على مادة، بل شأنه عز وجل أنه يقول للشيء الذي يريد إيجاده: ﴿كن فيكون﴾ أي فيوجد في الحال بأمر الله عز وجل، وقوله عز وجل: ﴿الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين﴾ هو تهجين لليهود والنصارى لموقفهم من عيسى عليه السلام حيث فرّط اليهود وأفرط النصارى حيث قامت مذاهبهم فيه على الامتراء والشك والارتياب، وكما قال عز وجل: ﴿ذلك عيسى ابن مريم، قول الحق الذي فيه يمترون* ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ وقوله عز وجل: ﴿فلا تكن من الممترين﴾ لا يدل على أن رسولَ الله المعصومَ من الخطايا يقع فيما وقع فيه هؤلاء الممترون، إذ أن من المقرر في علم الأصول أنّ النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، بل المقصود من هذا النهي هنا هو توبيخ الممترين في عيسى عليه السلام على حد قول القائل: إياكِ أعني واسمعي يا جارة. وقوله عز وجل: ﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالَوْا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾ هذه هي آية المباهلة، وهي تشعر بأن البيان عن الحق قد بلغ الغاية القصوى، فمن لم يؤمن بعد هذه الدلائل الواضحة والحُجَج اللائحة كان معاندًا فادْعُهُ إلى المباهلة، وقوله عز وجل:

الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿فمن حآجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي فمن جادلك في عيسى عليه السلام من بعد هذه الدلائل الواضحات والحجج الظاهرات والبراهين الساطعات، وقوله عز وجل: ﴿فقل تعالوا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾ أي فقل يا محمد لمن حاجّك في عيسى بعد هذه البينات: أقبلوا وتعالَوْا وهَلُمُّوا نجمع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل أي نتضرّع إلى الله في الدعاء فنجعل لعنة الله على الكاذبين أي نَقُل في دعائنا وضراعتنا وابتهالنا إلى الله: اللهم اجعل لعنتك على الكاذب من الفريقين.

وإنما طُلِبَ ضمُّ الأبناء والنساء في المباهلة لأنه أتمّ في الدلالة على ثقة المباهِل بحاله ويقينه من صدق نفسه حيث يُعَرِّض أعزّته ومن يُقَدّمهم على نفسه للخطر لو لم يكن واثقا من كذب خصمه ولأجل أن يهلك خصمه مع أعزته جميعا لو تمت المباهلة، وهذا من أبرز الأدلة على صدق رسول الله ﷺ وكذب النصارى وغيرهم ممن يفتري على الله الكذب، ولذلك امتنع نصارى نجران عن المباهلة ولم يَرْوِ أحدٌ قط لا من المسلمين ولا من النصارى أنهم أجابوا إلى المباهلة، بل أسلم بعضهم لله رب العالمين ودخلوا في دين الإسلام، فعندما طلب الله تبارك وتعالى من حبيبه ورسوله وسيد خلقه وإمام أنبيائه ورسله محمد ﷺ أن يباهل نصارى نجران بادر رسول الله ﷺ إليهم، وقرأ عليهم آية المباهلة، فخافوا أن يباهلوا رسول الله ﷺ وأيقنوا أنّ ما جاء به هو الحقّ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسّيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يُلاعِناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فَلاَعَنَنَا لا نفلحُ نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا، فقال: «لأبعثنّ معكم رجلا أمينا حقّ أمين»

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجرّاح» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة» وفي لفظ للبخاريّ من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث لنا رجلا أمينا، فقال: «لأبعثنّ إليكم رجلا أمينا حقّ أمين» فاستشرف له الناس، فبعث أبا عبيدة بن الجرّاح. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ابعث إلينا رجلا أمينا، فقال: «لأبعثنّ إليكم رجلا أمينا حقّ أمين حَقَّ أمين» قال فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجرّاح. وفي رواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنّ أهل اليمن قَدِموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلا يعلّمنا السنّة والإسلام، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة». هذا وقد قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا إسماعيل بن يزيد الرّقّي أبو يزيد حدثنا فرات عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينّه حتى أطَأَ على عنقه، قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عِيَانا، ولو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا، ورأَوْا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية المباهلة هذه بعد سياق حديث أحمد هذا: وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم به، وقال الترمذي: حسنٌ صحيح اهـ وقوله في الحديث: لئن رأيت رسول الله ﷺ، الظاهر أن أبا جهل لعنه الله قال: لئن رأيت محمدا، فعبّر ابن عباس عنه بقوله: رسول الله ﷺ، وهذا من الأساليب العربية الفصيحة ومنه قول الله عز وجل عن اليهود لعنهم الله: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾. وقوله عز وجل: ﴿إنّ هذا لهو القصص الحقّ

وما من إلـه إلاّ الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ هـذه جملٌ ثلاثٌ اشتملت كل واحـدة منها على ضروب من البـلاغة والفصاحـة في تأكيد الحقيقـة التي تدلّ عليها ، وتثبت أنّ من انحرف عنهـا فقد انحرف عن الصراط المستقيم ، وتبيّن أن هـذه الأنباء التي يقصهـا رسـول الله ﷺ بما أوحى الله إليه من هـذا القرآن العظيم عن عيسى عليه السلام وعن أمه الصديقة العذراء البتول هي القصص الحقّ الـذي لا يتجاوز الحقيقـة بحـال ، فمن يسمعـه يكن كمن شاهد هـذه الأحداث عنـد وقوعهـا ، وأن ما يـدعيه اليهـود لعنهم الله على عيسى وأمـه وما يـدّعيه النصـارى لعنهم الله في عيسى وأمه هـو محض افتراء وقصصٌ مختلق ، ودعـاوى كاذبـة ، وقد أكـد الله تبارك وتعالى هـذا المعنى في قوله عز وجل : ﴿إن هٰذا لهو القصص الحق﴾ بألوان التأكيد حيث أكّده بإنّ واللام واسميـة الجملة ووصف القصص بأنـه الحق . كما أنّ قولـه عز وجل : ﴿وما من إلّه إلا الله﴾ المسوق لتأكيد الـرّد على النصارى الذين جعلوا المسيح وأمـه إلّهين من دون الله ، قد حصر الألـوهيّة الحقّـة في الله وحده على طـريق النفي والإثبات ، فلا إلّه إلا الله ، وقد زاد في تـأكيد ذلك بـ(من) الاستغراقية للتنصيص على العموم إذ من المقرر في علم أصـول الفقه أن النكرة إذا وقعت في سيـاق النفي وجُرّتْ بــ(من) كـانـت نصـا في العمـوم واستغـرقت جميع الأفراد ، فقوله عز وجل : ﴿وما من إلّه إلا الله﴾ نصّ في نفي الألوهية عن أي فرد وُصِفَ بها وحصرها في الـواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلـد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، كما أنّ قوله عز وجل : ﴿وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ قد سيقت فيـه أدوات التأكيد التي سيقت في قـوله عـز وجل : ﴿إن هٰذا لهو القصص الحقّ﴾ وقد ذيّلت بقـوله : ﴿العزيـز الحكيم﴾ لتأكيد كمال قـدرته وعزتـه وحكمته ، وفيه تنديـد بالنصارى أيضـا الذين اتخذوا المسيح إلّها وهم يصدّقون اليهود لعنهم الله في دعواهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه . فالإلّه الحق

هو العـزيز الحكيم القاهر فـوق عباده لا يغلبه غالبٌ ولا يهرب منـه هارب ، ولذلك قال في مطلع هذه السورة لإبطال شبـه النصارى وتقرير أنه لا إلّه إلا الله : ﴿هـو الذي يصـوركم في الأرحـام كيف يشاء ، لا إلّـه إلا هـو العزيـز الحكيم﴾ وقولـه عز وجل : ﴿فإن تولّـوا فإنّ الله عليم بالمفسدين﴾ هـو وعيد وتهديد لمن أدبر عن سماع هذه القوارع والحجج والبراهين بأن الله لهم بالمرصاد ولن يفلتوا من عـذابه . وكان مقتضى السيـاق أن يقال : فإن الله عليم بهم ، لكن مقتضى الحال يقتضي وضع الظاهر موضع الضمير لبيان أنه لا يُعْرِض عن دين محمد ﷺ إلا من يـريد الفساد في الأرض كما قـال عز وجل : ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدُوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم﴾

شبكة الألوكة
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

قال تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون* يا أهل الكتاب لم تُحَاجُّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، أفلا تعقلون* ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علمٌ فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علمٌ ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يباهل مَن عانَدَ الحقّ وأصرّ على أن عيسى إله أو ابن إله ، أمره أن يدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى كلمة الحق التي يعرف كلّ منصف من أهل الكتاب أنّها دعوة جميع المرسلين ، وهي إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة وتحريم الشرك بجميع صوره وأن لا يتّخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، ولن يستطيع أهل الكتاب من اليهود أو النصارى أن يكابروا وينكروا أن توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة هو وصية جميع الأنبياء والمرسلين لأقوامهم وأنها دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من الأنبياء والمرسلين ، فقد تكرر في التوراة التي بيد اليهود والنصارى أنّ الله إله واحد ، ومن ذلك ما جاء في الفقرة التاسعة والثلاثين من الإصحاح الرابع من سفر التثنية : فاعلم اليوم وردّد في قلبك أنّ الربّ هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ليس سواه . وفي الإصحاح الخامس من سفر التثنية في الفقرات السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة : أنا هو الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورةً مّا مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ لأني أنا الرّب إلهك إله غيور . وفي

الجديد و طهري NEW & EXCLUSIVE

إنجيل متّى في الإصحاح الثاني والعشرين في الفقرة الواحدة والثلاثين والثانية والثلاثين: أفما قرأتم ما قيل لكم من قِبَل الله القائل: أنا إلّه إبراهيم وإلّه إسحاق وإلّه يعقوب. وفي الإصحاح الثاني عشر من إنجيل مرقس في الفقرة السادسة والعشرين: أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العُلَّيْقة كيف كلمه الله قائلا: أنا إلّه إبراهيم وإلّه إسحاق وإلّه يعقوب. وفي الفقرة الثامنة والعشرين إلى الثانية والثلاثين منه: فجاء واحدٌ من الكتبة وسمعهم يتحاورون. فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله: أيّة وصيّة هي أوّل الكلّ؟ فأجابه يسوع: إنّ أوّل كلّ الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الرّبّ إلّهنا ربّ واحد وتحبّ الرّبّ إلّهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كلّ قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها هي تحبّ قريبك كنفسك، ليس وصيّة أخرى أعظم من هاتين، فقال له الكاتب: جيّدا يا مُعَلِّم، بالحق قلتَ، لأنه الله واحدٌ وليس آخر سواه. وفي يوحنا في الإصحاح السابع عشر في الفقرة الثانية منه: وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإلّه الحقيقي وحدك. فهذه شواهد حقّ في كتب أهل الكتاب تقرر أنّ الله هو وحده لا شريك له المستحقّ لأن يُفْرَدَ بالعبادة والتوحيد، وأنه لا يحل لأحد أن يعبد إلّها سواه، ولما وجه رسول الله ﷺ الدعوة إلى ملوك العالم بعد صلح الحديبية ضمّن كتبه إلى ملوك أهل الكتاب هذه الآية الكريمة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس أن نبيّ الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبّار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دِحْيَة الكلبيّ وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بُصْرَى ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما

شبكة الألوكة
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كشف الله عنه جنود فارس مشى من حِمْصَ إلى إيلياء شكرًا لما أبلاه الله، فلما جاء قيصرَ كتابُ رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي هاهنا أحدا من قومه، لأسألهم عن رسول الله ﷺ، قال ابن عباس: فأخبرني أبو سفيان أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تِجَارًا في المدّة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، قال أبو سفيان: فوجَدَنَا رسولُ قيصر ببعض الشام، فانْطُلِقَ بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء فأُدْخِلْنا عليه، فإذا هو جالس في مجلس مُلكه، وعليه التّاج، وإذا حوله عظماء الرّوم، فقال لِتُرْجُمانه: سلهم أيهم أقرب نسبًا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم إليه نسبًا، قال: ما قَرَابَةُ ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عمي، وليس في الرَّكْب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري، فقال قيصر: أدْنُوه، وأمر بأصحابي فجُعِلُوا خلف ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبيّ فإن كذب فكَذِّبوه، قال أبو سفيان: والله لولا الحياء يومئذ من أن يَأْثُرَ أصحابي عني الكذب لكَذَبْتُه حين سألني عنه، ولكني استحييت أن يَأْثُرُوا الكذب عنّي فصَدَقْتُه، ثم قال لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قلت: لا، فقال: كنتم تتّهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من مَلِك، قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: فيزيدون أو يَنْقُصُون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتدّ أحدٌ سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل يَغْدِر؟ قلت: لا، ونحن الآن منه في مُدّة نحن نخاف أن يغدر. قال أبو سفيان: ولم يُمْكِنّي كلمة أدْخِل فيها شيئا أنتقصه به لا أخاف أن تُؤْثَرَ عني غيرها، قال: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم، قال: فكيف

الجديد و حصري NEW & EXCLUSIVE

كانت حربه وحربكم؟ قلت: كانت دُولاً وسِجالاً، يُدَال علينا المرة ونُدَال عليه الأخرى، قال: فماذا يأمركم؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، فقال لترجمانه حين قلت ذلك له: قل له: إني سألتك: عن نسبه فيكم فزعمت أنه ذو نسب، وكذلك الرسل تُبْعَث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا، فقلتُ: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله، قلت: رجل يَأتَمُّ بقولٍ قد قِيلَ قبله، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن لِيَدَعَ الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: هل كان من آبائه من مَلِك؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت يطلب ملك آبائه، وسألتك: أشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟ فزعمت أنّ ضعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتمّ، وسألتك: هل يرتد أحد سَخْطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب لا يَسْخَطه أحد، وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون، وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل وأنّ حربكم وحربه تكون دُولاً ويدال عليكم المرة وتُدَالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة، وسألتك: بماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة النبي، قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظنّ أنه منكم، وإن يَكُ ما قلتَ حَقّا فيوشك أن يَمْلِك موضع قدميّ هاتين، ولو أرجو أن أَخْلُص إليه لتجشّمت لُقِيَّه ولو كنت عنده

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لغسلت قدميه. قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرئ، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هِرَقْل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدِعَاية الإسلام، أسْلِمْ تَسْلَمْ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإذا تَوَلَّيْتَ فعليك إثم الأَرِيسِيّين، و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته عَلَتْ أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لَغَطُهم فلا أدري ماذا قالوا، وأُمِر بنا فأُخْرِجْنا، فلما أن خرجت مع أصحابي وخلوت بهم قلت لهم: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، هذا مَلِكُ بني الأصفر يخافه. وفي لفظ قال أبو سفيان: فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام، وقد عُثِرَ في القرن الماضي على كتاب بأحد أديرة سيناء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى أما بعد: أَسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين فإن تَوَلَّيْت فإن عليك إثم أهل القبط، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابا من دون الله فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. وقد ذيل بختم: محمد رسول الله. وكان الختم ثلاثة أسطر، في سطر كلمة «محمد» وفوقها كلمة «رسول» وفوقها كلمة «الله». وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد وابن كثير في السيرة النبوية وغيرهما هذا الكتاب. وقوله عز وجل: ﴿إلى كلمة﴾ المقصود من هذه الكلمة هي الجمل الثلاث التي فَسَّرَتْها: وهي: أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله. ومن شأن العرب أنهم قد يطلقون على القصيدة أو الخطبة أو النصيحة كلمةً، كما قال ابن مالك في أَلْفِيَّتِه: وكِلْمَةٌ

بها كلام قد يُؤَمّ. أي قد تطلق الكلمة ويراد ويقصد بها الكلام، وقوله عز وجل: ﴿فإن تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾ أي فإن أعرضوا عن دين الإسلام فقولوا لهم: اعترفوا واشهدوا علينا بأننا مستمسكون بالإسلام وأنكم كافرون مكذّبون بالمرسلين. وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية في الركعة الثانية من سنة الفجر كثيرا، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر: قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، والتي في آل عمران: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم. ولما ادّعَت اليهود أن إبراهيم عليه السلام منهم، وادّعَت النصارى أن إبراهيم عليه السلام منهم وتخاصموا في ذلك فوبخهم الله تعالى وفضحهم بما يدلّ على جهلهم واستغراقهم جميعا في الضلال حيث قال: ﴿يا أهل الكتاب لم تُحَاجُّون في إبراهيم وما أُنْزِلَت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾ وقوله عز وجل: ﴿ها أنتم هؤلاء حاجَجْتُم فيما لكم به علم فلم تُحَاجُّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ قال الفخر الرازي: يحتمل في قوله: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم﴾ أنه لم يصفهم في العلم حقيقة وإنما أراد أنكم تستجيزون محَاجَّتَه فيما تَدَّعون علمه فكيف تحاجونه فيما لا علم لكم به ألبتة، ثم حقق ذلك بقوله: ﴿والله يعلم﴾ كيف كانت حال هذه الشرائع في المخالفة والموافقة ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ كيفية تلك الأحوال اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: هذا إنكار على من يُحَاجّ فيما لا علم له به فإن اليهود والنصارى تحاجّوا في إبراهيم بلا علم ولو تحاجّوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم وإنما تكلموا فيما لا يعلمون فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم بردّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجليتها ولهذا قال تعالى: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اهـ ولا مانع أن يشمل قوله عز وجل: ﴿حاججتم فيما لكم به علم﴾ ما قالت اليهود في النصارى: إنهم ليسوا على شيء. وماقالت النصارى في اليهود: إنهم ليسوا على شيء، فقد صدقوا في ذلك وكان جدالهم على علم فيه.

قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين* إنَّ أولَى النّاس بإبراهيم لَلّذين اتّبعوه وهٰذا النبيّ والذين آمنوا، والله وليّ المؤمنين* ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضِلّونكم وما يضلّون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾

بعد أن قرّر عز وجل بالبرهان جهل أهل الكتاب الذين يحاجّون في إبراهيم وهم يكفّر بعضهم بعضًا وتدّعي كلّ طائفة منهم أنّ إبراهيم كان على ملّتهم، وهذا يدلّ على غباوتهم وبلادتهم، وكونهم عن العقل والعلم بمَعْزِل، صرّح هنا بما نطق به البرهان المتقدم فقال عز وجل: ﴿ما كان إبراهيم يهوديّا ولا نصرانيا﴾ إذ جميع العقلاء وأهل العلم يعلمون أن إبراهيم عليه السلام متقدم في التاريخ قبل اليهودية وقبل النصرانية فكيف يكون يهوديّا على ملّة اليهود المحدثة بعد موته بأكثر من ألف سنة؟ أو كيف يكون على ملة النصارى، والنصرانية إنما أحْدِثَتْ بعده بحوالى ثلاثة آلاف سنة؟ ومما تجدر الإشارة إليه هنا كذلك هو أن موسى عليه السلام لم يأت باليهودية، فهذا الاسم مُخْتَرَع بعد موته بزمن طويل، وكذلك جميع أنبياء بني إسرائيل لم يكونوا يهودًا، وكذلك عيسى ابن مريم عليه السلام لم يأت بالنصرانية بل جميع رسل الله من أولهم إلى خاتمهم محمد ﷺ إنما جاءوا بالحنيفية المسلمة المبرّأة من الشرك المنزِّهة لله عن النّدّ والنظير والشبيه والسّميّ والولد، وقد بينت في تفسير قوله عز وجل: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هُودًا أو نَصَارَى﴾ أننا لم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ إطلاق كلمة اليهود على سبيل المدح، ولم تُستعمل في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ إلا على سبيل الذم، كما بينت هناك أن كلمة النصرانية محدثة، وأنه لا يعرف على التحديد متى أطلقت هذه الكلمة على أهل الإنجيل. ولم توجد هذه الكلمة

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

في كتب النصارى إلا في أوائل القرن الثاني بعد ميلاد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور «تراجان» الموجود في العام السادس بعد المائة من ميلاد المسيح عليه السلام، وأنه قد يفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ مع أنها نسبة إلى نصرانة قرية المسيح عليه السلام من أرض الجليل بفلسطين وتسمى هذه القرية أيضا الناصرة ونصورية. وقوله عز وجل: ﴿ولَكن كان حنيفا مسلما﴾ تحقيقٌ لملّة إبراهيم عليه السلام التي بعث الله بها جميع النبيين والمرسلين، وقد كرّر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم هذه الحقيقة ليبين للناس كَذِبَ اليهود المدّعين أن إبراهيم كان على ملتهم أو أنهم على ملة إبراهيم، وكَذِبَ النصارى المدَّعين أن إبراهيم كان على ملتهم أو أنهم على ملة إبراهيم حيث يقول عز وجل في سورة البقرة: ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، قل بل مِلَّةَ إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنّ إبراهيم كان أمّة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ۞ شاكرًا لأنْعُمِه، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ۞ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ۞ ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿قل صدق الله فاتبعوا مِلّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿قل بل مِلّة إبراهيم حنيفا﴾ أن أصل الحنيف في الشرع هو المستقيم على الحق، المائل عن الباطل، ومعنى قوله: ﴿مسلمًا﴾ أي منقادًا لأمر الله ملتزما بشرعه، ولا يراد بالإسلام في هذا المقام الشرعة والمنهاج الذي بعث الله به محمدا ﷺ، لأنها خاصة بأمة محمد ﷺ كما قال عز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا﴾ فإن لفظ الإسلام يطلق على هذا الدين الذي بعث الله به خاتم المرسلين محمدا ﷺ، ويطلق على الحنيفية مِلّة إبراهيم وجميع الأنبياء والمرسلين، من إخلاص التوحيد لله

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله عز وجل واتّباع الوصايا العشر التي تضمنها قوله تعالى: ﴿قل تعالَوْا أتْلُ ما حَرَّم رَبُّكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ذُلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون* ولا تَقْرَبُوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلّف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُرْبَى وبعهد الله أوفوا، ذٰلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون* وأنّ هٰذا صراطي مستقيما فاتَّبِعُوه ولا تَتَّبِعُوا السُّبُل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله، ذٰلك وصّاكم به لعلكم تَتَّقُون﴾. فهذه الوصايا العشر اتفقت عليها جميع شرائع النبيين والمرسلين، وتُسَمَّى الإسلامُ بالمعنى العامّ، أما الإسلام بالمعنى الخاص بأمة محمد ﷺ فهو الذي جاء به القرآن العظيم والسنة النبوية وهو أكمل الشرائع وأتمها وأوفاها وأبقاها فلن ينسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر، وفي قوله عز وجل في وصف خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾ تنديد باليهود الذين قالوا: عُزَيرٌ ابن الله، واتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله، وشبّهوا الله بخلقه، وتنديد بالنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، وجعلوه وأمّه إلَهين من دون الله وقالوا: الله ثالث ثلاثة، واتخذوا رهبانهم أربابا من دون الله، إذ كلّ من أشرك بالله لم يكن على مِلّة إبراهيم لأن إبراهيم عليه السلام لم يك من المشركين، وقد سقت قريبا في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشركَ به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾ كثيرا من نصوص التوراة التي بِيَدِ اليهود والنصارى والأناجيل التي بِيَدِ النصارى المقررة بأن الله إلّه واحد لا شريك له، فهذه النصوص تكذب

اليهود والنصارى الذين أشركوا بالله فيما يزعمونه أنهم على ملّة إبراهيم أو أن إبراهيم على ملّتهم، لأنه لا يكون على ملّة إبراهيم إلا من أخلص التوحيد لله عز وجل فهم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿إنّ أَوْلَى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهٰذا النبيّ والذين آمنوا﴾ أي إنّ أحقّ الناس بإبراهيم عليه السلام ثلاثة أصنافٍ من الناس، الصّنف الأول هم الذين آمنوا بإبراهيم عليه السلام عندما بعثه الله عز وجل واتبعوا شريعته حتى بعث الله عز وجل بعده رسولا بشريعة جديدة خاصة به وبقومه، والصنف الثاني شخص واحد هو محمد ﷺ الذي جعله الله عز وجل أشبه الناس بإبراهيم عليه السلام خَلْقًا وخُلُقًا وهو دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلواْ عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أما الصنف الثالث فهم عامّة المؤمنين الصادقين من أتباع الأنبياء والمرسلين لأنهم جميعا على نَهْج ملّة إبراهيم عليه السلام، حيث يؤمنون بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره وهم منقادون لأمر الله عز وجل وقّافون عند شرعه، مؤتمرون بأوامره منزجرون عن زواجره. وقوله عز وجل: ﴿والله وليّ المؤمنين﴾ أي والله عز وجل ناصر المؤمنين ومعينهم على عدوهم، وموفّقهم للخير ومكرمهم ومعاملهم بجوده وإحسانه، وقوله عز وجل: ﴿ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلّونكم وما يضلّون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ هو تنبيه للمؤمنين إلى حرص طائفة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى على الصّدّ عن سبيل الله وأنهم لم يكتفوا بما هم عليه من العدول عن الحق والإعراض عن قبول الحجج والبراهين بل يجتهدون في إضلال المؤمنين المستجيبين لمحمد رسول الله ﷺ بإلقاء بعض الشبهات، كقولهم: ما فائدة إرسال محمد ما دامت التوراة موجودة ومحمد مُقِرٌّ بها؟ وقد تجاهلوا أن محمدا ﷺ قد بعثه الله

عز وجل بالشريعة الكاملة الصالحة لجميع الأمم والشعوب، الناسخة لما سواها من الشرائع السابقة، وقد بشّر به النبيون والمرسلون حتى وقف آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل يبشر به ويقول: ﴿إنّي رسول الله إليكم مُصَدِّقا لما بين يديّ من التوراة ومُبَشِّرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وقد أكد الله تبارك وتعالى حرص كثير من أهل الكتاب على إضلال المؤمنين وصدّهم عن سبيل الله حيث يقول عز وجل: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يَرُدُّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ وقوله عز وجل: ﴿وما يُضِلّون إلا أنفسهم﴾ أي وما يعود تمنّيهم إضلال المسلمين إلا على أنفسهم بالوبال والهلاك؛ لأن الله وليّ المؤمنين يثبّتهم على الهدى ويمكّن الحقّ من قلوبهم فلا يضرهم كيد اليهود وغيرهم من أهل الكتاب ولا يحيق المكر السَّيِّئ إلا بأهله، والإضلال يرد في اللغة بمعنى الإلقاء في الحيرة والشك والريبة، كما يرد بمعنى الإهلاك والتضييع، ومنه قول النابغة الذبياني في رثاء النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني:

فآب مضلّوهُ بعينٍ جليّةٍ وغُودر بالجولان حَزمٌ ونائل

أي فرجع مهلكوه وقاتلوه أو فرجع دافنوه الذين أضلوه في الأرض حيث يصير ترابًا منثورًا وأجزاء متفرقة مبعثرة، ومنه قوله عز وجل: ﴿وقالوا أإذا ضَلَلْنا في الأرض أإنّا لفي خَلْق جديد﴾، فاليهود ومَن على شاكلتهم يحرصون على إيقاع المسلمين في الحيرة والشك والارتياب ويودّون إهلاكهم وتضييعهم، والله يحفظ المؤمنين من شرورهم، ويرُدّ كيد اليهود إلى نحورهم، وقوله عز وجل: ﴿وما يشعرون﴾ أي إنهم لا يدرون ولا يعلمون أن هذا يضرهم وحدهم ولا يضر المؤمنين، وفي هذه الآية الكريمة بشارةٌ من الله عز وجل لأصحاب حبيبه ورسوله محمد ﷺ برسوخهم في الإيمان وثباتهم على

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دين الإسلام بعون من وليهم فاطر السموات والأرض، وأنهم لن يصيبهم من مكر اليهود سوءٌ، وأن اليهود لعنهم الله مخذُولون مدحورون، وما أحسن قول الشاعر:

إذا كان عون الله للعبد مُسْعِفًا ... تَأَتَّى له من كل شيء مرادُه

وإن لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأولُ ما يقْضِي عليه اجتهادُه

قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون* يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحقّ بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون* وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجهَ النّهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون* ولا تُؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم قل إنّ الهدى هدى الله أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم أو يحاجّوكم عند ربّكم، قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم* يختصّ برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل حرص طائفة من أهل الكتاب على إضلال المؤمنين، وبشّر المؤمنين بأنه وليّهم وناصرهم ومحبط كيد أعدائهم، وبّخ هنا أهل الكتاب من اليهود والنصارى على استمرارهم على الكفر، وعدم إيمانهم بما يشاهدونه من المعجزات التي أيّد الله تبارك وتعالى بها رسوله ﷺ، القاطعة بأنه رسول ربّ العالمين، وقوله عز وجل في مخاطبتهم: ﴿يا أهل الكتاب﴾ ليس مدحًا لهم بل هو غايةٌ قصوى في الذم والتوبيخ، إذ المفروض فيمن كان من أهل الكتاب أن يكون أسرع الناس إلى تصديق رسل الله المؤيّدين بالمعجزات، فإذا لم يذعنوا للآيات التي يؤيد الله بها المرسلين كان وصفهم بأنهم أهل الكتاب للتوبيخ والتنديد والذم، كما تقول لمن ينحرف في سلوكه وكان أبوه صالحا: يا ابن الرجل الصالح، وأنت لا تريد الثناء على هذا المنحرف وإنما تريد توبيخه على عدم سلوكه منهج أبيه في الصلاح والاستقامة، ولذلك كرر الله تعالى في هذا المقام نداء اليهود والنصارى بأهل الكتاب توبيخا لهم وتقريعا لأنهم صاروا كمثل الحمار يحمل أسفارا، كما قال عز وجل: ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثمّ لم يَحْمِلُوها كمَثَلِ الحمار يحمل أسفارًا، بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة
شبكة الألوكة www.alukah.net

الظّالمين﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحقّ بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون﴾ شروع في بيان ألوان من قبائح محاولاتهم إضلال المسلمين والصدّ عن سبيل الله، وقد رسم إخوان القردة والخنازير مخطّطاتٍ للكيد للإسلام يخلطون فيها الحق بالباطل، ويكتمون ما يعلمونه من صدق رسول الله ﷺ، واللّبس: الخلط، كما تقدم في تفسير قوله عز وجل: ﴿ولا تلبسوا الحقّ بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ وقد كان من مخطّطاتهم عندما يُجَابَهون بالآيات والبراهين وبما يُذَكَّرون به من الأوس والخزرج أنصار رسول الله ﷺ حينما يقول الأنصار لليهود: ألستم أنتم الذين كنتم تذكرون لنا قرب ظهور النبي وأنكم ستؤيدونه وتقاتلوننا معه؟ فخطّط لهم شياطينهم أن يقولوا: نحن نقرّ أنه رسول الله ولكنه مبعوث إلى العرب وحدهم. ولا شك أن هذا من خلط الحق بالباطل، فإقرارهم بأنه رسول الله هو حق، وقولهم بعدم عموم رسالته هو باطل، وهم يعلمون بطلانه لكنهم رأوا أن هذا اللّون من التّلبيس والتخليط أخطر أثرًا في الصد عن دين الإسلام من إنكاره جملة وتفصيلاً، لأن الغِرَّ وبخاصة مِن رِعَاعِهِم يظنون فيهم الإنصاف إذا قالوا ذلك فلا يدخلون في دين الإسلام اعتقادا منهم أن محمدا رسول الله إلى العرب خاصّة، وقوله عز وجل: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمِنُوا بالذي أُنْزِلَ على الذين آمنوا وَجْهَ النّهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ هذه مكيدة خبيثة، ودسيسة خطيرة، ومكر كُبّارٌ رسموهُ وقرّروه ليلبّسوا على ضعفاء العقول من رعاعهم وغيرهم أمر دينهم حيث اشْتَوَرُوا بينهم أن يظهروا الإيمان بالنبي محمد ﷺ أوّل النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح ليشيع بين المسلمين أن هؤلاء اليهود آمنوا ودخلوا في دين الإسلام فتتوجه الأنظار إليهم فإذا جاء آخر النهار أظهروا الكفر بمحمد ﷺ ورجعوا إلى اليهودية ليقول الرّعاع الجهلة من الناس: إنما رجع هؤلاء إلى

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

اليهـودية بسبب اطـلاعهم على عيب في الإسلام ونقيصـة في دين المسلمين، فيقع في قلوبهم الشك في الدين الحق وينصرفـون عن دين الإسلام، وفي قوله تعالى: ﴿طـائفة من أهل الكتاب﴾ ولم يقل: طـائفة منهم، مع أن مقتضى السيـاق أن يأتي بضميرهم لسبق ذكـرهم حيث قـال: ﴿يـا أهل الكتـاب لم تلبسون الحقّ بالباطـل وتكتمـون الحـقّ، وأنتم تعلمـون﴾ لكـن مقتضى الحـال يقتضـي التنصيص على أنّ هـذه الطـائفة الماكـرة الخبيثـة من أهل الكتاب المنحرفين عن الحق وفي قـوله تعالى: ﴿آمِنُوا بالـذي أُنْزِلَ على الذين آمنوا﴾ تنصيصٌ على أن هؤلاء اليهود الماكرين يوافقون على أن أتباع محمد ﷺ هم المؤمنون وهـذا من فضل الله على المسلمين حيث أطبقت الأمم والشعوب من سائر أنحـاء الأرض مع اختلاف أديانهم على أن يطلقوا على أتبـاع رسول الله ﷺ اسم المسلمين وأن دينهم هو دين الإسلام، وهذه آية من آيات الله عز وجل لإظهار دينه على الدين كله ولو كره المشركون. والمراد بوجه النهار أوّله، قال ابن جـرير رحمه الله: وسُمِّي أوّله «وجهًا» لـه لأنه أحسنه وأوّل ما يـواجه النّاظر فيراه منه، كما يقال لأول الثوب «وَجْهُه» وكما قال ربيع بن زياد:

من كـان مسـرورا بمـقتل مالك ... فليأت نسـوتَنَا بوجـه نهـار اهـ

وهـذا البيت من قصيدتـه في رثـاء مالـك بن زهير حينما قُتِلَ، وبعد هـذا البيت يقول ربيع بن زياد:

يجد النســاء حواسِـرًا يَنْدُبْـنَه ... يبكين قبل تَبَلُّج الأسـحار
قد كُنّ يَخْبَأْن الوجـوه تسـتّرا ... فاليــوم حين بَرَزْن للنُّظّار

وكما قال لبيد:

وتضيء في وجه النهـار منيـرةٌ ... كجُمانةِ البحـريّ سُلّ نظامها

وقد روي: وتـضيء في وجه الظـلام الخ، وقوله عز وجـل: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ هـذه صورةٌ أخرى من صـور صـدّ اليهود رعـاعهم عن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الدخول في دين الإسلام حيث قالوا لهم: لا تصدقوا نبيّا من غير بني إسرائيل المقرين بكتب العهد القديم وحده، فلا تصدقوا القرآن ومن أنزل عليه ولا تصدقوا أهل الإنجيل لأنه زيادة على الكتب التي يقرّ بها اليهود، وفي ذلك زيادة تضليل لأتباعهم ورعاعهم حيث أظهروا أنه ليس التمييز العنصري وحده هو المانع لهم عن الدخول في الإسلام بل المانع هو أنهم لن يقروا إلا لمن اقتصر إقراره على التوراة وملحقاتها من الكتب المنسوبة للأنبياء قبل عيسى، وقوله عز وجل: ﴿قل إنّ الهدَى هُدَى الله﴾ أي أخبر يا محمد اليهود والنصارى وغيرهم بأنّ دين الله الذي بعث به محمدا ﷺ هو الدين الحق، وهو سبيل الرشاد، ومن وفّق إليه وسار على منهجه فقد هُدي إلى الصراط المستقيم، لأنه دين الله الذي رضيه لخلقه، وحتّمه على عبيده وصانه من التحريف والتبديل، بخلاف اليهودية والنصرانية والوثنية فإنها هوى وليست هُدًى، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ فمن يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليّا مرشدا، ولذلك أمر الله عز وجل المؤمنين بأن يسألوه كل يوم مرات متعددة يقولون في كل ركعة من ركعات صلواتهم: ﴿اهْدِنَا الصراط المستقيم* صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وقوله عز وجل: ﴿أن يُؤْتَى أحَدٌ مثلَ ما أوتِيتُم أو يُحاجُّوكم عند ربكم﴾ تنديدٌ باليهود الذين يحسدون المسلمين على نعمة الله عليهم بما آتاهم من القرآن العظيم المنزّل على النبي الكريم محمد ﷺ وبما ألهمهم من الحجة البالغة على اليهود الذين يكرهون أنْ يتفضّل الله على أحد سواهم، أو يُنَزِّل على أحد من غير بني إسرائيل كتابٌ يفضحُ سلوكهم، ويقيم الحجة على انحرافهم وتبديلهم وتغييرهم وحقدهم وحسدهم، وقوله عز وجل: ﴿قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس إنزال رحمة الله على خلقه بأيديكم، تَحْجُرُونها على من تشتهون، إنما الأمور كلّها بيد الله

وحده، تحت تصرفه ومشيئته، وعلمه وحكمته ورحمته، يهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عدلا، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وكما قال عز وجل: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله واسع عليم﴾ أي والله عز وجل ذو سعةٍ بفضله على من يشاء أن يتفضل عليه من عباده وهو عز وجل ذو علم بمن هو أهلٌ منهم للفضل وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وقوله عز وجل: ﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ أي والله عز وجل يجعل رحمته مقصورة على من يشاء ويختار من عباده، فيستعمل من يرضى عنه في طاعته، ويخصه بهدايته، وييسّر له أسباب مرضاته ويجعله أهلا لتنزّل رحمته، بخلاف المنحرفين عن دينه الصادّين عن سبيله، فإنه يخذلهم ولا يؤيدهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله عز وجل: ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾: ولذلك حكمةٌ ورحمةٌ هو أعلم بها، كما خصّ بعض الأبدان بقُوى لا توجد في غيرها وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراضٌ وجوديّة، وغير ذلك من حكمته اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحَدّ ولا يُوصَف بما شرّف به نبيكم محمدا ﷺ على سائر الأنبياء، وهداكم به إلى أكمل الشرائع اهـ ولا شك أن توفيق الله عز وجل لبعض عباده لأن يعملوا بعمل أهل الجنة حتى يموتوا على الإسلام، ويمنّ عليهم بجنات النعيم هو أبرز مثال لرحمة الله وفضله، ولذلك سمّى الله عز وجل الجنة رحمة، حيث يقول: ﴿ يُدْخِلُ من يشاء في رحمته، والظالمين أعدّ لهم عذابا أليما﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «احتجّت الجنة والنار فقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنّة:

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما: أنّك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وأنك النار عذابي أعذّب بك من أشاء، ولِكِلَيْكُمَا عليّ مِلْؤُها».

نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى أن يدخلنا في رحمته وهو أرحم الراحمين.

قال تعالى : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائما، ذلك بأنّهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون* بلى من أوفى بعهده واتّقى فإنّ الله يحبّ المتّقين* إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى بعض قبائح أعمال اليهود وأقوالهم ذكر عز وجل هنا أن أهل الكتاب ليسوا سواءً، فإن بعضهم شرح الله صدره للحق وهداه إلى الصراط المستقيم كعبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه، وهؤلاء المهتدون من أهل الكتاب صاروا مثلا أعلى في الأمانة، أما من استمر على عناده وضلاله واغتراره بما سطّره أحبار السوء لهم في التلمود من أن جميع ما تحت يد الأميين من المال هو ملك لليهود وعليهم أن يستردّوه بكل حيلة، وأن يستخلصوه من الأميين بكل طريق، من سلب ونهب وربا وسرقة ودعارة وخيانة، مهما قلّ هذا المال أو كثر، وقد سقت بعض النصوص التلمودية التي ملأت قلوب اليهود شرّا وبغيا وافتراءً واغترارا عند تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا لن تَمَسَّنا النار إلا أياما معدودة﴾، وأن هذا التلمود قد اشتمل على أسوأ مبادئ التمييز العنصري ومن نصوصه أن سرقة اليهودي أخاه اليهوديّ حرام ولكنها جائزة بل واجبة مع الأممى؛ لأن كل خيرات العالم خلقت لليهود فهي حق لهم، وعليهم تملّكها بأي طريق، وفي التفريق بين من هداهم الله عز وجل من أهل الكتاب فتخلّصوا من المبادئ التلمودية واستجابوا لدين الإسلام، وصاروا قدوة في حفظ الأمانة وصيانتها وبين من خذلهم الله عز وجل فاستمروا على ضلالهم وانغماسهم في المبادئ التلمودية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التي تحضهم على الخيانة، يقول الله عز وجل هنا: ﴿ومن أهل الكتاب مَن إنْ تَـأْمَنْه بقنطار يُؤَدِّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ليسوا سواءً، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ أي إن تأتمنه على المال الكثير بإيداعه عنده يحافظ لك عليه ولا يخنك فيه ويسلّمه لك متى طلبته منه، ومعنى: ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما﴾ أي ومنهم الذي إن تأتمنه على المال مهما قلّ حتى ولو كان دينارًا واحدا يخنك فيه ولا يحافظ لك عليه، ولا يسلّمه لك متى طلبته إلا أن تلحّ عليه بالتقاضي والمطالبة والتمكن من استرداده بقهر وغلبة بواسطة الحاكم أو نحوه مما لا حيلة لليهوديّ في مقاومته، وهذه خصال شرّ الناس، وقد ذكر رسول الله ﷺ في صفات أهل النار الخائنَ الذي لا يخفى له طمع وإن دقّ إلا خانه، كما جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، وفيه: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسِطٌ متصدّق موفّقٌ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قُربى ومُسلم، وعفيفٌ متعفّفٌ ذو عيال» قال: «وأهل النار خمسةٌ: الضّعيف الذي لا زَبْرَ له الذين هم فيكم تبعًا لا يبتغون أهلا ولا مالا، والخائن الذي لا يَخْفَى له طمعٌ وإن دق إلا خانه، ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك» وذكر البخل أو الكذب، والشّنظير الفحّاش. وقوله في الحديث: «الذي لا زَبْرَ له» أي لا عقل له يحفظه من الشر وقوله: «لا يبتغون أهلا ولا مالا»، أي لا يسعون في تحصيل منفعة دينية ولا دنيوية ولا نفسية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميّين سبيل﴾ أي إنّ تأصّل الخيانة في نفوسهم إنما هو بسبب

اعتقادهم أنه لا إثم عليهم ولا حرج فيما يظلمون به مَن سِوَى اليهود ممن يطلقون عليهم اسم الأمميين سواء كانوا من الأميين العرب أو كانوا من العجم من غير أهل الكتاب، وتخصيص ما ذكروه من رفع الحرج عنهم في أذى الأميين لا يمنع من اعتقادهم رفع الحرج عنهم في أذى غير العرب الأميين؛ لأن القاعدة الأصولية أن تخصيص الشيء بالذكر لا ينفي الحكم عما عداه إذا كان القيد قد خرج للغالب أو لبيان الواقع. ونصوص التلمود وهو كتاب فقههم الذي وضعه لهم أحبار السوء منهم لا يفرّق في وجوب إلحاق الأذى بين العرب والعجم، فالجميع عند اليهود أمميون ويطلقون عليهم أنهم كلاب وخنازير، مع أن اليهود هم إخوان القردة والخنازير لعنهم الله وقبحهم في الدنيا والآخرة وأهلك أعوانهم وأنصارهم، وإخبار الله تبارك وتعالى عن مقالة اليهود هذه في هذه الآية الكريمة من المعجزات لأنها من خواص أسرارهم لعنهم الله ولا تزال إلى اليوم مجهولة عند الكثير من علماء العرب والعجم الذين لا يكادون يعرفون عن التلمود شيئا، بسبب حرص اليهود على كتمان أسرارهم كما هو شأنهم في أسرار الماسونية وما يعرف في عصرنا باسم (بروتوكولات حكماء صهيون). والعجيب أن ما يدبرونه من مخططات إجرامية شريرة ضدّ الإنسانية ينسبونه إلى الله عز وجل افتراءً عليه جل وعلا ولذلك ذيّل الآية الكريمة هنا بقوله عز وجل: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ وقوله: ﴿وهم يعلمون﴾ أي وهم مستيقنون أن هذا الذي يزعمونه من رفع الحرج عنهم في أذى الأميين ليس موجودا في التوراة التي بأيديهم، ولا في كتب الأنبياء الملحقة بالتوراة، وإنما هو من وضع أحبار السوء وكَهَنَةِ الأذى من شيوخهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإنّ الله يحب المتقين﴾ أي ليس الأمر كما يدعي هؤلاء اليهود من أنه ليس عليهم في أموال الأميين حرج ولا إثم ولكن من أوفى بعهده وأدّى

الأمانة لمن ائتمنه، وخاف الله في سره وعلانيته، ووقف عند حدوده، وصدّق رسله وآمن بما جاء به جميع الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم خاتمهم وإمامهم وسيدهم محمد رسول الله صلى الله عليهم جميعا وسلم فإنه يكون أهلا لمحبة الله عز وجل لأنه يكون في زمرة المتقين والله يحب المتقين، أما دعوى اليهود بأنهم أبناء الله وأحباؤه وهم ينقضون العهد والميثاق ويخونون الأمانة فهي دعوى كاذبة وهم بها يفترون على الله الكذب، ويستحقّون بها غضب الله وسخطه ومقته ولعنته. وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خَلاَقَ لهم في الآخرة ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم﴾ أي إنّ الذين يستبدلون ويعتاضون ويأخذون ثمنا قليلا في نظير نقضهم لعهد الله الذي أخذه على الأنبياء والمرسلين وألزمت به الرسل أممهم، بأن يصدّقوا كل نبي يرسله الله إليهم، ويقفوا عند حدود الله، ويؤدّوا الآمانات إلى أهلها، ولا يفتروا على الله الكذب ولا يحلفوا بالله إلا وهم صادقون، أولئك الذين يستبدلون ويعتاضون ويأخذون ثمنا قليلا من حطام الدنيا الفاني وعرضها الزائل، عوضًا عن تركهم عهد الله الذي عهد إليهم ووصيته التي أوصاهم بها في الكتب التي أنزلها الله إلى أنبيائه، هؤلاء الذين يفعلون ذلك لاحظ لهم في جنات النعيم التي يزعمون أنها لهم خاصة، ولا يكلمهم الله يوم القيامة بما يُدْخِل عليهم الأملَ في النجاة من النار، ولا بما يشعرهم في تخفيف العذاب عنهم، ولا ينظر إليهم بعين رحمته وجوده وإحسانه، ولا يزكيهم أي ولا يطهّرهم من دنس ذنوبهم ورجس كفرهم، ولهم عذاب أليم أي عقاب موجع في نار جهنم، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿إنّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ أنّ أهل السنة

والجماعة يثبتون صفة الكلام لله عز وجل على الوجه الذي يليق برب العزة ذي الجلال، ومن كلامه تبارك وتعالى القرآن الذي سمعه جبريل من الله عز وجل وألقاه على رسول الله محمد ﷺ، وسقت أدلة كثيرة صريحة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على صحة مذهب أهل السنة والجماعة وبطلان مذهب أهل الأهواء المنكرين إثبات صفة الكلام لله عز وجل، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين صَبْرٍ يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان» فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ إلى آخر الآية، فدخل الأشعث بن قيس فقال: ما يحدّثكم أبو عبد الرحمن؟ فقالوا: كذا وكذا، قال: فيَّ أُنْزِلَتْ، كانت لي بئر في أرض ابن عمّ لي، فأتيت رسول الله ﷺ فقال: «بَيِّنَتُك أو يمينه» قلت: إذًا يحلف عليها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين صبْرٍ وهو فيها فاجرٌ يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان». وقد أورده البخاري في تفسير هذه الآية من سورة آل عمران، وفي كتاب الأيمان والنذور في باب قول الله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولَئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ وقوله جل ذكره: ﴿ولا تجعلوا الله عُرْضَةً لأيمانكم أن تَبَرُّوا وتَتَّقُوا وتُصْلِحوا بين الناس والله سميع عليم﴾ وقوله جل ذكره: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنّ ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ وفي لفظ لمسلم من طريق جامع بن أبي راشد وعبد الملك بن أَعْيَنَ سمعا شقيق ابن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

«من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» قال عبد الله : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله : ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ إلى آخر الآية ، وفي رواية للبخاري من حديث عبد الله بن أبي أوفى أنّ رجلا أقام سلعة له في السوق فحلف بالله : لقد أعْطِيَ بها ما لم يُعْطَهُ ليوقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت هذه الآية : ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ الآية . والظاهر من سياق القرآن الكريم وهذه الأحاديث الصحيحة أن الآية تحمل على اليهود وعلى من حلف على يمين غموس يقتطع بها حق مسلم ، نظرا لموقعها من السياق ولعموم لفظها .

قال تعالى: ﴿وإنّ منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون* ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنّبوة ثمّ يقول للنّاس كونوا عبادًا لي من دون الله ولكن كونوا ربّانيّين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون* ولا يأمركم أن تتّخذوا الملائكة والنبيّين أربابا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى صورًا من ضلالات اليهود والنصارى وافتراءاتهم، وما تحاوله طوائف من أهل الكتاب من وضع مخطّطات إجرامية لصدّ الرّعاع عن الدخول في دين الإسلام، وما طمأن به المسلمين من أنّ هذه المحاولات اليهودية لن تزعزع من عقائد أصحاب رسول الله ﷺ ولن تُزلزل أقدامهم الراسخة في الحق الثابتة على الهدى، وذكر ما توعّد به الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا، ذكر هنا قاصمة من قواصم ظهور اليهود وعملا بشعا من أعمالهم الملتوية لبيان شناعتهم وتقبيح أمرهم وفظاعة جرأتهم في الافتراء على الله، والاستهتار بعقول النّاس حيث يقول عز وجل: ﴿وإنّ منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ أي وإن من أهل الكتاب لفريقا أي طائفة وجماعة وهم اليهود وبخاصة من كان منهم حول مدينة رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يحاولون الاستدلال على ما يفترونه من الكذب وعلى أن الحق معهم بجمل يكتبونها بأيديهم، ويدخلونها بين صفحات كتبهم الدّينية التي ينسبونها إلى أنبياء بني إسرائيل ثم يأخذون في قراءة ما كتبوه بأيديهم على الطريقة التي يقرؤون بها كتبهم الدينية بليّ ألسنتهم بالتطريب والإتيان بنغمات صوتية خاصة مع غنّة شديدة ومدّ بالخياشيم ليظنّ من يسمع قراءتهم هذه أن هذا الذي يقرءونه هو

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من الكتب التي ينسبونها إلى الأنبياء، ومع أن هذا اللون من الكذب هو أقبح الكذب وأفحشه وأبشعه فإنهم لم يكتفوا بهذا التضليل والتدجيل بل كانوا إذا انتهوا من قراءتهم لما افتروه قالوا لمن يسمعهم من المسلمين أو رعاعهم: هذا كلام الله المنزّل على أنبيائه. والواقع أنه ليس بكلام الله، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي ويدّعون لمن يسمع قراءتهم لما افتروه أنَّ هذا هو كلام الله المنزل على الأنبياء والمرسلين. وما هو بكلام الله، وهم يفترون على الله الكذب وهم مستيقنون أنهم كاذبون على الله، مجترئون في الافتراء، ولذلك كانوا أقبح الناس جرما وأفحشهم ظلما كما قال عز وجل: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته، إنه لا يفلح الظالمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحِيَ إليّ ولم يُوحَ إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته، أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته، إنه لا يُفلح المجرمون﴾. وكما قال عز وجل: ﴿ومَنْ أظلم ممن افترى على الله كذبا، أولئك يُعرَضون على ربهم ويقول الأشهادُ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين* الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا وهم بالآخرة هم كافرون﴾ والمراد بالكتاب في قوله عز وجل: ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ هو ما يكتبونه بأيديهم من عند أنفسهم، والمراد بالكتاب في قوله عز وجل: ﴿لتحسبوه من الكتاب﴾ أي من كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله، وكما قال عز وجل: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هـٰذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون﴾ وأصل اللّيِّ هو عطف الشيء وتحريفه وإمالته عن

استقامته إلى الاعوجاج، يقال: لويتُ يده إذا فتلْتها، ومنه قول فرعان بن أصْبَح بن الأعرف في ولده مُنازِل:

تحوّل مالي ظالما ولَوى يدي   لوَى يَدَهُ الله الذي هو غالبه

ومن ليِّ ألسنة اليهود قولهم لعنهم الله في خطابهم لرسول الله ﷺ: راعنا، وقولهم له ﷺ: السام عليكم، بدل: السلام عليكم، وقد بين الله تبارك وتعالى في جملة انحرافاتهم وسوء أفعالهم وأقوالهم اللّيّ بألسنتهم حيث يقول عز وجل: ﴿من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَع وراعِنا ليًّا بألسنتهم وطعنًا في الدين﴾. وقوله عز وجل: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله﴾ كان الكلام من أول السورة إلى هذا المقام الكريم لتحقيق التوحيد وتقرير الرسالة وتقريع أهل الكتاب على شركهم بالله ومخالفة ملة إبراهيم إمام الحنفاء وفضح مخططات اليهود الإجرامية ضد دين الإسلام، الذي هو دين الله الذي ارتضاه لخلقه وبعث به سيد رسله محمدا ﷺ، ولما كان سبب نزول صدر هذه السورة إلى هذا المقام هو ما أثاره نصارى نجران من الشّبه على أن عيسى هو ابن الله وما يزعمه النصارى عامةً من أن عيسى وأمّه إلَهان من دون الله بسَطَ الله عز وجل قصة اصطفاء الله لآل عمران وميلاد مريم وعيسى عليهما السلام وأقام الأدلة القاطعة والحجج الثابتة على أن عيسى عبد من عبيد الله وأن الذي أوجده من غير أب هو الذي أوجد آدم من غير أب ولا أم، ذكر هنا ما يؤكّد بطلان ادعاء النصارى أن عيسى إِلَهٌ، وأن هذا القول العاطل الباطل من مفتريات النصارى على المسيح ابن مريم عليه السلام حيث يندّد عز وجل بعقولهم مشيرا إلى أن من له أدنى مُسْكة من عقل لا يصدّق أن رجلا من بني آدم يتفضل الله عز وجل عليه بإيتائه الإنجيل، ويرزقه العلم والنبوة ثم يدعو الناس إلى عبادته من دون الله مع أن

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أوّل دعوة يوجهها الرسول إلى قومه أن يقول لهم: اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره واجتنبوا الطاغوت، ولذلك يقول عز وجل: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنتُ قلتُه فقد علمتَهُ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علاّم الغُيوب* ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربّكم﴾ والبشر هو الإنسان. وقوله عز وجل: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله﴾ أي ما يتأتّى في العقل أن يصطفي الله إنسانا ينزل عليه الكتاب ويرزقه العلم والنبوة ويرسله إلى قومه لتخليصهم من الشرك بالله فيقول لهم: اعبدوني وأشركوا بالله. ويعبّرُ عن هذا النوع من النفي بالنّفي التام، لأن نحو قولك: ما كان لزيد أن يفعل هذا، يجيء على قسمين: قسم يكون النّفي فيه من جهة العقل ويعبّر عنه بالنفي التام أي ما يتأتى ولا يتصوّر حدوثه وحصوله، كهذه الآية، لأن الله تعالى لا يعطي الكتاب والحكم والنبوة لمن تتأتى منه هذه المقالة الشنيعة البشعة، ونحوه قوله عز وجل: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ ونحو قوله عز وجل: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ والقسم الثاني يكون النفي فيه بمعنى ما ينبغي، كقول أبي بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم فيصلّي بين يدي رسول الله ﷺ. وقوله عز وجل: ﴿ولٰكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي ولكن من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوّة فإن الذي يتطابق فيه العقل والشرع والطبع أن يقول لهم: ﴿كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون* ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ وإن الذي يخطر بباله أن الرسول المبعوث من الله عز وجل لدعوة عباد الله إلى

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE

توحيد الله يخون الرسالة ويدعو إلى عبادة نفسه أو عبادة الملائكة والنبيين من دون الله ، الذي يخطر بباله ذلك جاهل بالله عز وجل جهلا مُطْبقا وجاهلٌ برسل الله جهلا مطبقًا ، وهو في نفس الحال ينسب إلى الله عز وجل عدم العلم بما يصطفي ويختار، ولا يتأتّى ذلك إلا من كافر فاجر جاهل ، فكيف يخطر ذلك ببال من يدّعي أنه من أهل الكتاب؟ ومعنى : ﴿كونوا ربّانيين﴾ أي كونوا حكماء حلماء علماء بإخلاص العبادة لله وحده ومعرفة حقوق ربكم عليكم ووضع الأمور في مواضعها وأدّوا لكل ذي حق حقّه ، والربانيون جمع ربّاني ، وهو منسوب إلى رَبّان ، والرَّبّان هو المعلم للخير ومن يسوس الناس ويعرّفهم أمور دينهم وأسباب سعادتهم ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وقال علي رضي الله عنه : الربانيون هم الذين يغذّون الناس بالحكمة ويربونهم عليها اهـ وقوله عز وجل : ﴿بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي بسبب كونكم صرتم علماء معلمين غيركم الذي أنزله الله على رسولكم من الكتاب ، وبسبب كونكم صرتم دارسين لهذا الدين الذي تفضل الله عليكم به لتخرجوا من الظلمات إلى النور ومن الشرك إلى التوحيد ، وفيه حضّ على وجوب نشر العلم ودراسته وتدريسه فإنّ من سلك طريقا يلتمس فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وقوله عز وجل : ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمين﴾ قوله : ﴿ولا يأمركم﴾ بالنصب معطوف على قوله : ﴿ثم يقول للناس كونوا عبادا لي﴾ وتوسيط الاستدراك بين المعطوف والمعطوف عليه للمسارعة إلى تحقيق الحق في بيان ما يليق بشأن الرسول ويحقّ صدوره عنه ، وتخصيص التنديد بمن اتخذ الملائكة والنبيين آلهة لأن أهل الكتاب هم أكثر من عبد الملائكة والنبيين من دون الله مع اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . وقوله عز وجل : ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ صريح في كفر من يتخذ

الملائكة والنبيين أربابا، والاستفهام فيه للتقريع والتوبيخ لهؤلاء الذين انتكست فطرتهم وانقلبت موازينهم، وانطمست بصائرهم فصاروا يظنون أن أنبياء الله المبعوثين بالتوحيد يدعون إلى عبادة أنفسهم أو عبادة الملائكة والنبيين، ولا يُسْتَكْثر على هؤلاء المجرمين أن يظنوا أن رسل الله يأمرون من أسلم أن يعود إلى الكفر وعبادة الطاغوت. وهذا لا يخطر ببال أحد من العقلاء، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنُنّ به ولتنصرنّه، قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين* فمن تولّى بعد ذٰلك فأولٓئك هم الفاسقون* أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرْهًا وإليه يُرجعون* قُل آمنّا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنّبيون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون* ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين.﴾

بعد أن بيّن الله بالدليل القطعي أن رسل الله عز وجل إنما جاءوا بتوحيد الله تبارك وتعالى وأنه المعبود بحق لا شريك له ونزّه رسله أن يناقضوا التوحيد، وأنه يستحيل أن يقع من الرسل أن يدعوا أحدًا لعبادتهم أو عبادة الملائكة، أو يأمروا من أسلم بالكفر، وفي هذا تقرير لتوحيد الله عز وجل وتنزيهه عن الشريك بأبلغ برهان وأقوى دليل، ذكر هنا أن جميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام يصدّق بعضهم بعضا لأن الله عز وجل قد أخذ عليهم العهد والميثاق بذلك، وأن رسل الله عليهم الصلاة والسلام قد أعلنوا لأممهم هذه الحقيقة، والمقصود من ذلك تقرير الرسالة على أكمل وجه، وأنه لا عذر لمن يدّعي أنه من أتباع النبيين ثم يكذّب سيد المرسلين وخاتم النبيين محمدًا ﷺ فمن أعرض عن الحق الذي جاء به محمد ﷺ فأولٓئك هم الفاسقون، لأن الله لا يقبل من أحد دينا سوى دين الإسلام. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا﴾: يخبر تعالى أنه أخذ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ميثاق كلّ نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام: لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أيّ مَبْلَغ ثم جاء رسولٌ من بعده ليؤمننّ به ولينصرنّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتّباع من بعث بعده ونصرته، ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنّه قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري﴾ اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: معنى ذلك: الخبر عن أخذ الله الميثاق من أنبيائه بتصديق بعضهم بعضا، وأخذ الأنبياء على أممها وتُبّاعها الميثاق بنحو الذي أخذ عليها ربّها من تصديق أنبياء الله ورسله بما جاءتها به؛ لأن الأنبياء عليهم السلام بذلك أرْسِلَت إلى أممها، ولم يدّع أحدٌ ممن صدّق المرسلين أن نبيا أُرسل إلى أمة بتكذيب أحد من أنبياء الله عز وجل وحججه في عباده، بل كلّها ـ وإن كذّب بعض الأمم بعض أنبياء الله بجحودها نُبُوّته ـ مقرّةٌ بأنّ من ثبتت صحةُ نبوّته فعليها الدّينونة بتصديقه، فذلك ميثاق مقرٌّ به جميعهم اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته المسماة بالتدمرية: والله تعالى جعل من دين الرسل أنّ أولهم يبشّر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدّق بأولهم ويؤمن به. قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ قال ابن عباس: لم يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنه. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أيضا في جواب من سأله عن من عزم على فعل محرم عزما جازما فعجز عن فعله هل يأثم بمجرد العزم أم لا؟ وبعد

تمهيد في أحوال القلوب والأدلة، ووقوع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى، وعظيم الذم واللعنة لأئمة الضلال، وأشار إلى أن إبليس هو رأس أئمة الضلال وأن محمدا رسول الله ﷺ هو رأس أئمة الهدى قال رحمه الله: فإنه هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم، كما قال: أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر، وهو شفيع الأولين والآخرين في الحساب بينهم، وهو أول من يستفتح باب الجنة، وذلك أن جميع الخلائق أخذ الله عليهم ميثاق الإيمان به، كما أخذ على كل نبيّ أن يؤمن بمن قبله من الأنبياء، ويصدّق بمن بعده، قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه﴾ الآية، فافتتح الكلام باللام الموطّئة للقسم التي يؤتى بها إذا اشتمل الكلام على قَسَم وشرط، وأدخل اللام على (ما) الشرطية ليبيّن العموم، ويكون المعنى: مهما آتيتكم من كتاب وحكمة فعليكم إذا جاءكم ذلك النبيّ المصدِّق الإيمانُ به ونصرُهُ، كما قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه اهـ والتعبير بقوله: لئن بعث محمد وهو حيّ، مع علم الله عز وجل أن محمدا ﷺ لن يبعث وأحدٌ من الأنبياء حيٌّ على الأرض، فالمقصود به تأكيد بعثته ﷺ لكل نبي من الأنبياء ليؤكّدوا على أممهم وجوب المبادرة والمسارعة إلى تصديقه والاستجابة له ﷺ وذلك لعموم دينه وشموله وكماله وبقائه إلى يوم القيامة وحيث خصه الله عز وجل بإرساله للعالمين ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري﴾ أي أأذعنتم لما أخذته عليكم من الميثاق وقبلتموه والتزمتم به، والإصر هو العهد والميثاق الشديد المؤكد. وقوله عز وجل: ﴿قالوا أقررنا﴾ أي قالوا: أذعنّا لأمرك والتزمنا بعهدك وقبلنا هذا الميثاق، وقوله عز وجل: ﴿قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ أي فكونوا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شهداء على أممكم بأنكم بلغتموهم الميثاق الذي أخذه الله عليكم بالإيمان برسولي ونصرته وأنا شاهد معكم عليهم وكفى بالله شهيدا . وفي هذا الإخبار من التحذير والتأكيد ما يحمل ذوي العقول على المسارعة والمبادرة إلى الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، وقوله عز وجل : ﴿فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ أي فمن أعرض عن الإيمان بمحمد ﷺ وعن نصرته بعد هذا البيان الشافي الكافي فهؤلاء المعرضون المكذبون هم الفاسقون الخاسرون المنحرفون عن وصايا أنبياء الله ورسله، وقوله عز وجل : ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرهًا وإليه يُرجعون﴾ هذه الآية هي ختام المسك للآيات التي أنزلها الله عز وجل للرد على ما أثاره نصارى نجران وغيرهم من اليهود والوثنيين من الشّبه، وهي ثلاث وثمانون آية، أكّد الله عز وجل فيها أن الدين عند الله الإسلام وأن الله لن يقبل من أحد مهما كان دينا سواه، وأنه لن يدخل أحد الجنة بعد بعثة رسول الله ﷺ بهذا الدين إلا من طريقه، وأن عيسى عبد الله ورسوله ليس إلها ولا ابن إله، وأنه يجب على جميع الأمم أن تسارع إلى كلمة الحق فلا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله . قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية الكريمة : يقول تعالى منكرًا على من أراد دينًا سوى دين الله الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي له أسلم من في السموات والأرض، أي استسلم له من فيهما، طوعًا وكرها، كما قال تعالى : ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا﴾ الآية، وقال تعالى : ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجّدا لله وهم داخرونَ * ولله يسجُدُ ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون . ﴾ فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم

لله كرهًا، فإنه تحت التّسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالفُ ولا يمانع اهـ وقوله عز وجل: ﴿قل آمنا بالله وما أُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنّبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية في تفسير شبيهتها وهي قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ وقد ذكرت في تفسيرها أنّ هاتين الآيتين الكريمتين آية البقرة وآية آل عمران هذه من المتشابه المثاني الذي ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني﴾، على أن لكل واحدة من هاتين الآيتين الكريمتين المتشابهتين من الخواص والسّمات ما يناسب المقام الذي وردت فيه، وقوله عز وجل: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي ومن يرغب في دين غير دين الإسلام فقد ضيّع نفسه في الدنيا ولن يستجيب الله له إذا دعاه، ولن ينتفع بعمل يعمله كصلة الأرحام وإطعام الطعام والإحسان إلى الأيتام كما قال عز وجل: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا﴾ وكما قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ». وفي رواية لمسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ».

وقد حكم الله عز وجل بخسران أعداء الإسلام في الآخرة، وقضى بشقاء كلّ من أعرض عن هذا الدين الحنيف. وإذا كان مجرّد طلب وابتغاء غير دين

الإسلام يوجب الردّ والخسران فلا شكّ أن تكون حالُ من تديّن بغير دين الإسلام أفظع وأبشع وأقبح . نسأل الله بأسمائه الحسنى أن يثبّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

قال تعالى: ﴿كيف يهدى الله قومًا كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنّ الرّسول حقٌّ وجاءهُم البيّناتُ، والله لا يهدِى القومَ الظالمين* أولَئك جزاؤُهم أنَّ عليهمْ لَعْنةَ الله والملائِكةِ والنَّاسِ أجمعِينَ* خالِدينَ فيها لا يُخَفَّفُ عنهم العَذابُ ولاَ هُمْ ينظرونَ* إلاَّ الّذين تابوا مِنْ بعدِ ذْلك وأصلحُوا فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ* إنَّ الّذينَ كفروا بعد إيمانِهم ثمّ ازدادُوا كفرًا لن تُقبل توبتهم وأولَئكَ هم الضّالون* إنّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّارٌ فلن يُقبل من أحدهمْ ملْءُ الأرض ذهبًا ولو افتدى به أولَئكَ لهم عذابٌ أليمٌ وما لهم من ناصرينَ* لَنْ تنالُوا البرّ حتّى تُنفِقوا ممّا تُحبّون، وما تُنفقوا من شيءٍ فإنّ الله به عليمٌ﴾.

بعد أن قرر الحقّ جلّ وعلا أن الدين عند الله الإسلام وندّد أشدّ التنديد بأهل الكتاب الذين يَصُدُّون عن هذا الدين الحق، دين الله الذي أسلم له من في السموات والأرض طوعا وكرها بلسان الحال أو بلسان المقال، وأن الإسلام هو دين جميع النبيين والمرسلين، وأن من ابتغى غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، بيّن هنا الوعيد الشديد لأئمة الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم ممن عرف الحقّ وشهد الحجج والبراهين والمعجزات التي أيّد الله بها رسوله محمدا ﷺ ثم استمر على ضلاله وكفره أو أسلم ثم ارتد عن الإسلام، وأن هؤلاء يستحقون لعنة الله ولعنة كلّ لاعن في السموات أو في الأرض، وأن بصائرهم قد انطمست فصارت غير متأهّلة لهدى الله عز وجل، وأن من هؤلاء من علم الله عز وجل أنهم يموتون على الكفر، وأن منهم من يتوب، وأن من تاب منهم قبل الله توبته. وفي تصدير الكلام بقوله عز وجل: ﴿كيف يهدي الله قوما كفروا﴾ لإراحة بال رسول الله ﷺ من شدة حرصه على هداية هؤلاء وإسلامهم، كما قال عز وجل: ﴿فلعلّك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وكما قال عز وجل: ﴿لعلّك باخعٌ نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾. وقد مرّ مثلُ الوعيد الذي جاء في هذا المقام حيث قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولَئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون* إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولَئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولَئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾. وهي توضّح أن الذين لا يهديهم الله أبدًا هم من عَلِم جل وعلا أنهم يموتون على الكفر، وأن قلوبهم لن تقبل الهدى، أما من علم الله أن قلوبهم تقبل الهدى فهم الذين أشار إليهم في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولَئك أتوب عليهم وأنا التوّاب الرحيم﴾ وذكرهم هنا بقوله عز وجل: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذٰلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم* وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ قال رحمه الله: فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا لن تُقْبَلَ توبتهم وأولَئك هم الضالّون﴾ وقال تعالى: ﴿إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ قيل: إنّ القرآن قد بيّن توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقّ وجاءهم البينات، والله لا يهدي القوم الظالمين* أولَئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون* إلا الذين تابوا من بعد ذٰلك وأصلحوا فإنّ الله غفور رحيم﴾ وقوله: ﴿كيف

يهدي الله﴾ أي إنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين، ولهذا قال: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً، لا يحصل له الهدى إلى أيّ دين ارتدّ، والمقصود أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا. وكذلك قال في قوله: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْرِهَ﴾ ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتدّ، قال: ﴿ثم إنّ ربّك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا إنّ ربّك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ﴾ وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم ثم ذكر من لا تُقبل توبته ومن مات كافرا، فقال: ﴿إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تُقبل توبتهم وأولَئك هم الضالون* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقْبَل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به، أولَئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ وهؤلاء الذين لا تُقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا، قيل: لنفاقهم، وقيل: لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل: لن تُقبل توبتهم بعد الموت، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي: لن تُقبل توبتهم حين يحضرهم الموتُ، فيكون هذا كقوله: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّارٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين: ﴿ازدادوا كفرا﴾ ثبتوا عليه حتى ماتوا. قلت: وذلك لأن التائب راجعٌ عن الكفر، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر فقوله: ﴿ثم ازدادوا﴾ بمنزلة قول القائل: ثم أصرّوا على الكفر، واستمرّوا على الكفر، وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم زاد كفرهم، ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب

شبكة الألوكة www.alukah.net
www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ورجع عن كفره فلم يزدَدْ، بل نقص، بخلاف المُصِرِّ إلى حين المعاينة فما بقي له زمانٌ يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه. وفي الآية الأخرى قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ وذكر أنّهم ﴿آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا﴾ قيل: لأن المرتد إذا تاب غُفر له كفره فإذا كفر بعد ذلك ومات كافرا حبط إيمانه فعوقب بالكفر الأول والثاني، كما جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قيل: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». فلو قال: إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم، كان هؤلاء الذين ذكرهم في آل عمران فقال: ﴿إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم﴾ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك وهو المرتدّ التائب، فهذا إذا كفر وازداد كفرا لم يغفر له كفره السابق أيضا، فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفرًا فلا يدخلون في الآية اهـ وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كفّار فلن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به﴾ أي من مات على الكفر فلن يُقْبَل منه خير أبدا ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربةً، وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضا ذهبا ما قُبِلَ منه كما قال تعالى: ﴿ولا يُقْبَلُ منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلال﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عذاب أليم﴾ فمن مات كافرا لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبا، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ووزنها من جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها ذهبا ما تُقبّل منه، وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيتَ إلا أن تشرك». وقوله عز وجل: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ بعد أن بيّن الله عز وجل أن الإنفاق في وجوه الخير لن ينفع الكافر لأن الكفر قد أحبط عمله، أشار تبارك وتعالى هنا إلى أن الذين ينتفعون بما يبذلون لله هم المؤمنون الباحثون عن البر الراغبون فيه الطالبون للجنة، وعرّفهم أفضل الطرق إلى ذلك وهو الإنفاق من المال على حبه، وقد أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحَاء، وكانت مستقبلة المسجد وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإنّ أحبّ أموالي إليّ بَيْرُحَاء، وإنها صدقةٌ لله أرجو برّها وذُخْرها عند الله تعالى فضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «بخٍ بخٍ، ذاك مالٌ رابح، ذاك مالٌ رابحٌ، وقد سمعتُ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. اهـ والحمد لله رب العالمين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفهرس

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالى: «وأتموا الحج والعمرة لله» الآية ٣
وجوب إتمام الحج أو العمرة لمن شرع فيهما متطوعا ٤
تعريف التمتع والقران والإفراد ٨
تفسير قوله تعالى: «الحج أشهر معلومات» الآية ١٠
تفسير قوله تبارك وتعالى: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» الآيتين . ١٦
المشعر الحرام ولماذا سمي المشعر الحرام؟ ٢١
تفسير قوله تعالى: «فإذا قضيتم مناسككم» الآيات الأربع ٢٢
تفسير قوله تعالى: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا» الآيات الأربع ٢٨
تفسير قوله: «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة» الآيات الخمس ٣٤
تفسير قوله تعالى: «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» الآيتين ٤٠
تفسير قوله تعالى: «يسألونك ماذا ينفقون قبل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين» الآيتين ٤٥
تفسير قوله تعالى: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه» الآيتين ٥٠
تفسير قوله تعالى: «يسألونك عن الخمر والميسر» الآيتين ٥٥
تفسير قوله تعالى: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ» الآية ٦١
تفسير قوله تعالى: «ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً» الآية ٦٧
تفسير قوله تعالى: «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم» الآيتين ٦٣
تفسير قوله تعالى: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم» الآية ٧٨
تفسير قوله تعالى: «للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر» الآيتين ٨٤

تفسير قوله تعالى: «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» الآية ٩٠
تفسير قوله تعالى: «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» الآية ... ٩٦
قوله تعالى: «فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره» الآيتين ١٠٧
قوله تعالى: «وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن» الآية ١١٣
قوله تعالى: «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» الآية ١١٨
قوله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا» الآية ١٢٤
قوله تعالى: «ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء» الآيتين ١٢٩
قوله تعالى: «وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة» الآيات الثلاث ١٣٥
قوله تعالى: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج» الآيات الثلاث ١٤١
تفسير قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت» الآيات الثلاث ١٤٦
معنى قوله تعالى: «ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا» الآيات الثلاث ١٥٢
قوله تعالى: «فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر» الآيات الأربع ١٥٨
قوله تعالى: «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض» الآية ١٦٤
قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة» الآية ١٧٠
قوله تعالى: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» الآية ١٧٦
قوله تعالى: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» الآية ١٨٢
قوله تعالى: «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور» الآيتين ١٨٧
قوله تعالى: «أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها» الآية ١٩٣
قوله تعالى: «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى» الآية ١٩٨
قوله تبارك تعالى: «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل» الآيتين ٢٠٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قوله تعالى: «قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى» الآيتين ٢٠٨

قوله تعالى: «ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاتِ الله وتثبيتا من أنفسهم» الآيتين ٢١٣

قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض» الآية ٢١٨

قوله تعالى: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء» الآيات الثلاث ٢٢٣

قوله تعالى: «إن تبدوا الصدقات فنعما هي» الآيتين ٢٢٨

قوله تعالى: «للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله» الآية ٢٣٣

قوله تعالى: «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية» الآيتين ٢٣٨

قوله تعالى: «يمحق الله الربا ويربي الصدقات» الآيات الخمس ٢٤٤

قوله تعالى: «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» الآية ٢٥٠

قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه» الآية . ٢٥٥

قوله تعالى: «وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبًا فرهان مقبوضة» الآية ٢٦٩

قوله تعالى: «لله ما في السمٰوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» إلخ السورة ٢٧٤

تفسير سورة آل عمران ٢٨٣

قوله تعالى: «الٓمٓ * الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم*» إلى قوله تعالى: «والله عزيز ذو انتقام» ٢٨٥

قوله تعالى: «إن الله لا يخفى عليه شيء» الآيتين ٢٩٠

قوله تعالى: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات» الآيات الثلاث . ٢٩٦

قوله تعالى: «إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً» الآيات الأربع ٣٠١

قوله تعالى: «زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة» الآية ٣٠٦

قوله تعالى: «قل أؤنبئكم بخير من ذٰلكم» الآيات الثلاث ٣١٢

قوله تعالى: «شهد الله أن لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط» الآية ٣١٨

قوله تعالى : «إن الدين عند الله الإسلام» الآيتين ٣٢٣
قوله تعالى : «إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق» الآيات الخمس ٣٢٨
قوله تعالى : «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء» الآيتين ٣٣٣
قوله تعالى : «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين» الآيات الخمس ٣٣٩
قوله تعالى : «إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم» الآيات الأربع ٣٤٥
قوله تعالى : «فتقبلها ربها بقبول حسن» الآيات الخمس ٣٥٢
قوله تعالى : «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك» الآيات الثلاث ٣٥٩
قوله تعالى : «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه» الآيتين. ٣٦٥
قوله تعالى : «قالت رب أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر» الآيات الثلاث ... ٣٧١
قوله تعالى : «ومصدقا لما بين يديَّ من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم» الآيات الأربع ٣٧٦
قوله تعالى : «ومكروا ومكر الله» الآيات الأربع ٣٨١
قوله تعالى : «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم» إلى قوله : «فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين» ٣٨٧
قوله تعالى : «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلّا الله» الآيات الثلاث ٣٩٣
قوله تعالى : «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا» الآيات الثلاث ٤٠٠
قوله تعالى : «يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله» الآيات الخمس ٤٠٦
قوله تعالى : «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك» الآيات الثلاث .. ٤١٢
قوله تعالى : «وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب» الآيات الثلاث ٤١٨
قوله تعالى : «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة» الآيات الخمس ٤٢٤
قوله تعالى : «كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم» الآيات السبع ٤٣٠

هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

www.alukah.net